

مواقف عربية خالدة

(4)
مواقف أدبية

إعداد

دكتور . رجب محمود إبراهيم بخيت

المقدمة :

الحمد لله القديم بلا غاية والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق بل أنشأه ابتداءً وعدله اصطناعاً فأحسن كل شيء خلقه وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لسلطانه ووسع كل شيء فضله لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهاً تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وعلا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبيه كل مصنوع فلا تبلغه الأوهام ولا تحيط به العقول ولا الأفهام يعصى فيحلم ويدعى فيسمع ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون وأشهد شهادة حق وقول صدق بإخلاص نية وصحة طويلة أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه وخالسته وصفيه ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدى ودين الحق فبلغ مآلكته ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يصدده عنه زعم زاعم ماضياً على سنته موفياً على قصده حتى أتاه اليقين صلى الله على محمد وعلى آل محمد .

أما بعد

فللخير في الأمة الإسلامية باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فمهما ضعفت الأمة، ومهما تأخرت عن مكانها اللائق بها باعتبارها خير أمة أخرجت للناس، ومهما عظمت المؤامرة عليها وتنوعت أدواتها، إلا أنها تبقى أمة خصبة، تنبت الأعلام العظماء، يكونون فيها كالمصابيح في الدجى، وتظل مواقفهم مواقف عزة وفخر لهم وللأمة الإسلامية كلها.

ونحن المسلمون إذا تصفحنا مواقف تاريخنا المديد نجد أعلاماً للأمة في كل العلوم والآداب في الذود عن الحق والوقوف في وجه الباطل وفي اللغة والفقه والحديث و..... وكلها آيات رائعة يفوح منها الشذى العاطر، وتؤكد بقاء هؤلاء الأعلام بيننا بعلمهم وعملهم وذكراهم العطرة ، فقد وعت ذاكرة التاريخ أمثلة رائعة من مواقف مشوقة لأعلام الأمة.

إن هذه الأمة أمة عظيمة، أمة كريمة مجيدة، ما شهد التاريخ مثلها، وما عرف المخاض مولوداً أكرم على الله منها، أمة تغفو ولكنها لا تنام، قد

تمرض ولكنها لا تموت، أمة أنجبت للعالم أعلام في كل فن من الفنون وكل نواع من أنواع المعارف الإنسانية وأخرجت للكون أبطالاً شرفاء، ولنا اليوم وقفة مع أشهر المواقف في حياة الأمة لنقلب الصفحات ونلتمس العبر والعظات.

اقرأوا التاريخ إذ فيه العبر... ظل قوم ليس يدرون الخبر

و هؤلاء الأعلام بعلمهم وعملهم أحياء وإن وسدوا في قبورهم، وإن وارا هم التراب، وإن فقدت شخوصهم، إلا أنهم أحياء بعلمهم وبتراثهم، ومواقفهم، بجهودهم، وبآرائهم، وباجتهاداتهم، وبأعمالهم التي كلما ذكرت ذكروا، فأثنى الناس عليهم خيراً، وترحموا عليهم، بل وكرهوا البقاء بعدهم.
عفاءً على أرض تقيم بغيرها فليس بها للصالحين معرج
لمن تستجد الأرض بعدك زينة فتصبح في أثوابها تتبهرج
وليس البكا أن تسفح العين إنما أحر البكاين البكاء المولج

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: القلوب أوعية فخيرها أوعاها للعلم، احفظ ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال.... مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة... أولئك هم الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، بهم يحفظ الله الحجة حتى يؤديونها إلى نظرائهم، ويزرعونها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فاستلنوا ما استوعر المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة في المحل الأعلى، آه.. آه.. شوقاً إلى رؤيتهم، وأستغفر الله لي ولك).

وهذه صفحات من حياة الأمة أودعتها مواقفاً من حياة الأعلام في مختلف المجالات، ونتفأ مواقف أعلام الفقه والحديث والقضاء والأدب واللغة، ونادراً من ثبات أكثر أهل الملة، ونبدأ من نصح الأمة لدينها، وشذراً من زهد العلية الأجلة، وطيفاً من قوة البرهان والحجة مع السير على المحجة.

وهي باقة من مكارم الآباء تهدي إلى الأبناء، وطاقات علمية نادرة،
وعبقریات فذة مدهشة، هي لأهل العلم تذكرة، وللعامّة والخاصة تبصرة،
نرجو أن ينعش بها العليل، ويشحذ بها الكلّيل، ويُبعث الوسنان، ويُوَقَّظ
الهاجع، ويُنشر المطوي، ويُفتح المغلق، وينهض المقعد، ويمشي الكسيح.

أضعها بين أيديكم كالمائدة تختلف عليها أصناف الأطعمة لاختلاف شهوات
الآكلين، وأنا لا أدعي -معاذ الله- أني أتيت فيها بجديد، ولكني -بفضل الله
وحده - جمعتها من بطون الكتب لتكون بين أيديكم لعل الله عز وجل أن ينفع
بها .
وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه .

رب تقبل عملي ولا تخيب أمني
أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل
سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.
وصلّى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه
رجب محمود إبراهيم بخيت

لماذا أكلت الفأر أذن الإسرائيلي

حدث بشر بن عبد الله بن سيار أن رجلاً من بني إسرائيل حضره الموت، فرأى جزع امرأته عليه فقال: أتحيين أن لا أفارقك؟ قالت: نعم، قال: فاصنعي لي تابوتاً ثم اجعليني في بيتك هذا فإنه لا يتغير جسدي، ففعلت، فاطلعت بعد زمان فإذا هي بإحدى أذنيه قد أكلت، فقالت: فلان ما كذبتني قبلها، قال: فاستأذن ربه عز وجل فردّ الله عز وجلّ عليه روحه، فقال لها: إن الذي رأيت من أذني أني سمعت ملهوفاً يوماً من الأيام يستغيث فلم أغثه فأكلت أذني التي كانت تليه. (1)

ابن سيرين : لا تصلح هذه الرؤيا في زماننا هذا إلا للحسن البصري

أتى رجل محمد بن سيرين فقال له: رأيت رجلاً عرياناً واقفاً على مزبلة وبيده طنبور يضرب به؟ فقال له ابن سيرين: لا تصلح هذه الرؤيا في زماننا هذا إلا للحسن البصري؛ فقال: الحسن؟! هو والله الذي رأيت! فقال: نعم لأن المزبلة الدنيا، وقد جعلها تحت رجله؛ وعريه تجرده عنها؛ والطنبور يضرب به هي المواعظ التي يقرع بها آذان الناس. (2)

خير الناس وشر الناس!

التقى الحسن والفرزدق في جنازة، فقال الفرزدق للحسن: أتدري ما يقول الناس يا أبا سعيد؟ قال: وما يقولون؟ قال: يقولون؟: اجتمع في هذه الجنازة خير الناس وشر الناس! فقال الحسن: كلا، لست بخيرهم، ولست بشرهم، ولكن ما أعددت لهذا اليوم؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستون سنة، وخمس نجائب لا يدركن- يعني الصلوات الخمس- فيزعم بعض التميمية أن الفرزدق رئي في النوم، فقيل له: ما صنع بك ربك؟ فقال: غفر لي. فقيل له: بأي شيء فقال: بالكلمة التي نازعني فيها الحسن. (3)

هذا منا أو منكم؟! :

قدم الشعبي أيام عبد الله بن الزبير البصرة، فجلس إلى أناس في مسجدها فيهم الأحنف بن قيس، فتذكروا أهل الكوفة وأهل البصرة، ولم يزل بهم

¹ (الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص 439

² (ابن كثير ، البداية والنهاية ، ط دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الاولى 1408 هـ . ،

304/9

(3) محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى : 285هـ) ، الكامل في اللغة والأدب ، المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر : دار الفكر العربي - القاهرة ، الطبعة الثالثة 1417 هـ - 1997 م

الحديث حتى قال قائلٌ من أهل البصرة :وما أهل الكوفة، هل هم إلا خولنا؟
استنقذناهم من عبيدهم !قال الشعبيّ :فعرض في قلبي قولُ أعشى همدان
فقلتُ " من الرمل : "

أفخرتم أن قتلتم أعبدًا ...وهزمتم مرّةً آلَ عَزَلٍ
نحن سُقناهم إليكم عنوةً ...وجمعنا أمركم بعد الفشلِ
فإذا فاخرتمونا فاذكروا ...ما فعلنا بكم يومَ الجملِ
بين شيخٍ خاضبٍ عثونه ...وفتًى أبيضَ وضّاحِ رفلٍ
جاءنا يهدرُ في سابغةٍ ...فذبحناهُ ضحًى ذبحَ الحَملِ
وعفونا فنسيتم عفونا ...وكفرتم نعمةَ اللهِ الأجلِ

فضحك الأحنف ثمّ قال :ياأهل البصرة، فخر عليكم الشعبيّ، فأحسنوا
مجالسته !ثمّ قال :ياجارية، هاتي الصحيفة الصفراء !فرمى بها إلى الشعبيّ،
فإذا فيها من المختار " :من أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس مورد قومه سقر،
حيثُ لايسطيع لهم الصدر، وإني لأملك لهم ما خُطّ في القدر، وقد بلغني أنكم
تكذبونني وتكذبون رُسلي، ولعمري لقد كذبت الأنبياء قبلي وأوذوا، وإن كنتُ
لستُ بخيرٍ من نبي منهم، والسلامُ على من اتبع الهدى " .ثمّ أقبل عليّ فقال :
هذا منا أو منكم؟ !فغلبنى وهو ساكت(4).

الخلفاء لاتسأل عن جلسائها وهم يسألون !

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج :إنه ليس شيءٌ من لذة الدنيا إلا وقد
أصبتُ به ولم يبق لي من لذة الدنيا إلا مناقلة الإخوان للحديث، وقبلك عامرُ
الشعبيّ، فابعث به إليّ ليحدثني !فجهزه الحجاج وبعث به إليه .قال :فدخلتُ
فإذا عبدُ الملك جالسٌ على كرسي وبيّن يديه رجلٌ أبيضُ الرأس واللحية على
كرسيّ، فسلمتُ فردّ السلام، ثمّ أومى إليّ بقضيبه فقعدت على يساره، ثمّ أقبل
على الذي بيد يديه فقال :من أشعر الناس؟ قال :أنا !قال الشعبيّ :فأظلم عليّ
مابيني وبين عبد الملك، ولم أصبر أن قلتُ :ومن هذا، ياأمير المؤمنين، الذي
يزعم أنه أشعر الناس؟ قال :فعجب عبد الملك من عجلتي، ثمّ قال :هذا
الأخطل !قلتُ :ياأخطل، أشعر منك الذي يقول:

هذا غلامٌ حسنٌ وجهه ...مُقتبلُ الخيرِ سريعُ التمامِ
للحارثِ الأكبر والحارثِ ال ...أصغر والحارثِ خير الأنامِ
ثمّ لهندٍ ولهندٍ وقد ...أسرعَ في الخيراتِ منه إمامُ
ستّةِ أملاكٍ همّ ما همّ ...همّ خيرٌ من يشربُ صوب الغمامِ

(4) أبي الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، تحقيق سمير جابر ، الناشر : دار الفكر - بيروت ، 64/6

فقال عبد الملك: رُدَّهَا عَلَيَّ! فرددتها عليه حتى حفظها، فقال الأخطل: من هذا، يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا الشعبي! قال: والجَلُوز، ما أَسْتَعِذْتُ بالله من شر هذا! صدق والله، النابغة أشعر مني! قال الشعبي: ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ عبد الملك فقال: كيف أنت؟ قلتُ: بخير، يا أمير المؤمنين! فلا زِلْتُ به! ثُمَّ ذَهَبْتُ لِأَضْعَ معاذير لي لما من خلافي على الحجاج مع عبد الرحمان ابن محمد بن الأشعث، فقال: مه، فإننا لَنَحْتَاجُ إِلَى هذا المنطق، ولا تراه منا في قول ولا فعل حتى تفارقنا. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فقال: ماتقول في النابغة؟ قلتُ: يا أمير المؤمنين، قد فضَّلَهُ عمرُ بن الخطاب في غير موطن على جميع الشعراء! خرج عمرُ وبيباه وفد غطفان، فقال: يامعشر غطفان، أي شعرائكم الذي يقول: حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً... وليس وراء الله للمرء مذهبٌ لئن كُنْتُ قد بُلِغْتُ عني رسالةٌ... لمبلغك الواشي أغش وأكذب ولستُ بمستبقي أخا لاتلمه... على شعبي أي الرجال المُهذَّبُ قالوا: النابغة، يا أمير المؤمنين! قال: فأيكم الذي يقول: لي ابن مُحْرَقٍ أَعْمَلْتُ نَفْسِي... وراحلتي وقد هدت العيون أتيك عارياً خَلَقاً ثيابي... على خوفٍ تُظَنُّ بي الظنونُ وأُفِيْتُ الأمانة لم تخنها... كذلك كان نُوحٌ لا يخونُ قالوا: النابغة، يا أمير المؤمنين! قال: فأيكم الذي يقول: فإنك كالليل الذي هو مدركي... وإن خَلْتُ أن المنتأى عنك واسعُ خطاطيفُ حُجْنٍ في حبالٍ متينةٍ... تَمُدُّ بها أيدٍ إليك نوازعُ قالوا: النابغة، يا أمير المؤمنين! قال: هذا أشعرُ شعرائكم. فأقبل على الأخطل فقال: أتحبُّ أنك قلته؟ قال: لا، والله إلا أنني وددتُ أني كنت قلتُ أبياتا قالها رجلٌ منا، كان والله - ما علمتُ - مغدِفَ القناع قليل السماع قصير الذراع. قال: وما قال؟ فأنشده قصيدته "من البسيط":

إِنَّا مُحْيِيوك فاسلم أيها الطللُ... وإن بليت وإن طالن بك الطيلُ
ليس الجديدُ به تبقى بشاشته... إلا قليلاً ولا ذو خلة يصلُ
والعيشُ لا عيشٌ إلا ماتقرُّ به... عينٌ ولا حالٌ إلا سوف تنتقلُ
إن ترجعي من أبي عثمان منجحةً... فقد يهون على المستجح العملُ
والناسُ من تلقَ خيراً قائلون له... ما يشتهي ولأم المخطئ الهبلُ
قد يُدرك المُتأني بعض حاجته... وقد يكون مع المستعجل الزللُ
قال الشعبي: قلتُ: والقُطامي قال أفضل من هذا! قال: وما قال؟ قلتُ: طرقتُ جنوب رحالنا من مطرقٍ... ما كنتُ أحسبها قريبَ المعنقِ

حتى أتيت على آخرها، فقال عبد الملك: ثكلت القطامي أمه! هذا والله الشعر .
قال: فالتفت إليّ الأخطل فقال: يا شعبي، إن لك فنوناً في الأحاديث، وإن لنا فناً
واحداً، لأعرض لك في شيء من الشعر أبداً، فأقلني هذه المرة! قال: من يكفل
بك؟ قلت: أمير المؤمنين! فقال عبد الملك: هو عليّ أن لا يعرض لك أبداً! ثم
قال: يا شعبي، أي شعراء نساء الجاهلية كانت أشعر؟ قلت: خنساء! قال: ولم
فضلتها؟ قلت: لقولها:

وقائلة والنعش قد فات خطوها لتدركه: يالهف نفسي على صخر
ألا ثكلت أم الذين غدوا به ... إلى القبر ماذا يحملون إلى القبر
فقال عبد الملك: أشعر منها والله ليلي الأخيلية حيث تقول:
مهفهف الكشح والسربال منخرق ... عنه القميص لسير الليل محتقر
لأيا من الناس ممساه ومصبحه ... في كل فجٍ وإن لم يغزٍ ينتظر

ثم قال: يا شعبي، لعله شقّ عليك ما سمعت؟! قلت: إي والله، يا أمير المؤمنين،
أشدّ المشقة! إني إنما أعلمتك هذا لأنه بلغني أن أهل العراق يتناولون على
أهل الشام، يقولون: إن كانوا غلبونا على الدولة فلم يغلبونا على العلم
والرواية، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق من أهل العراق - ومكنت عنده
سنتين، بعثني إلى أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر وكتب إليه: يا أخي، إني
قد بعثت إليك بالشعبي، فانظر هل رأيت مثله؟! وقيل: لما دخل الشعبي على
عبد الملك خطأه في مجلس ثلاث مرات، سمع الشعبي منه حديثاً، فقال:
اكتبنيه! فقال: نحن معاشر الخلفاء، ما نكتب أحداً! وذكر رجلاً فكنّاه، فقال:
من هذا، يا أمير المؤمنين؟ فقال: الخلفاء لا تسأل عن جلسائها وهم يسألون!
(⁵)

أفتدري لم أدخلناك؟!:

قال الشعبي دخلت المسجد فإذا أنا بمصعب ابن الزبير على سرير جالس
والناس عنده فسلمت ثم ذهبت لأنصرف فقال لي ادن فدنوت حتى وضعت
يدي على مرافقه ثم قال إذا قمت فاتبعني فجلس قليلاً ثم نهض فتوجه نحو
دار موسى بن طلحة فتبعته فلما طعن في الدار التفت إلي فقال ادخل فدخلت
معه ومضى نحو حجرته وتبعته فالتفت لي فقال ادخل فدخلت معه فإذا حجلة
وإنها لأول حجلة رأيته لأمرير فقامت ودخل الحجلة فسمعت حركة فكرهت
الجلوس ولم يأمرني بالانصراف فإذا جارية قد خرجت فقالت يا شعبي إن

الأمير يأمر أن تجلس فجلست على وسادة ورفع سجف الحجلة فإذا أنا بمصعب بن الزبير ورفع السجف الآخر فإذا أنا بعائشة بنت طلحة قال فلم أر زوجا قط كان أجمل منهما مصعب وعائشة فقال مصعب يا شعبي هل تعرف هذه فقلت نعم أصلح الله الأمير قال ومن هي قلت سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة قال لا ولكن هذه ليلي التي يقول فيها الشاعر

ومازلت من ليلي لذن طرّ شاربني ...

وذكر البيتين ثم قال إذا شئت فقم فقامت

فلما كان العشي رحت وإذا هو جالس على سريره في المسجد فسلمت فلما رأي قال لي ادن فدنوت حتى وضعت يدي على مرافقه فأصغى إلي فقال هل رأيت مثل ذلك لإنسان قط قلت لا والله قال أفتدري لم أدخلناك قلت لا قال لتحدث بما رأيت ثم التفت إلي عبد الله بن أبي فروة فقال أعطه عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوبا فما انصرف يومئذ أحد بمثل ما انصرفت به بعشرة آلاف درهم وبمثل كارة القصار ثيابا وبنظرة من عائشة بنت طلحة (6).

ويحك أويدعك الشيطان تأكل لحمه ؟

سأل رجل الشعبي عن أكل الذباب فقال :إن اشتهيت فكله .وسأل آخر الشعبي عن أكل لحم الشيطان فقال :ويحك ويدعك الشيطان تأكل لحمه ؟ ارض منه بالكفاف (7) .

ولو كانوا من البهائم لكانوا حمرا

قال الشعبي في الشيعة :أخذوا بصدور لا أعجاز لها ، وأعجاز لا صدور لها ، لو كانوا من الطير لكانوا رخما ، ولو كانوا من البهائم لكانوا حمرا (8).

أنت أنت ذاك الرجل ؟

قال الشعبي :حضرت مجلس زياد وحضره رجل فقال :أصلح الله الأمير ، إن لي حرمة أفأذكرها ؟ قال :هاتها ، قال :رأيتك بالطائف وأنت غليم ذو نؤابة وقد أحاط بك جماعة من الغلمان وأنت تركض هذا مرة برجلك وتنطح هذا مرة برأسك وتكدم هذا مرة بأسنانك ، وكانوا مرة ينثالو عليك وهذه حالتك وحالهم ، ومرة يندون عنك وأنت تتبعهم حتى كاثروك واستقوا عليك ، فجئت حتى أخرجتك من بينهم وأنت سليم وكلهم جريح ، قال :صدقت أنت أنت ذاك الرجل ؟ قال :أنا ذاك ، قال :حاجتك ؟ قال :حاجة مثلي الغنى عن

⁶ (أبي الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، 374/2

⁷ (أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 108/7

⁸ (أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 168/1

الطلب ، قال :يا غلام أعطه كل سفراء وبيضاء عندك ، ونظر فإذا قيمه ما يملك في ذلك اليوم أربعة وخمسون ألف درهم ، فأخذها وانصرف ، فقيل له بعد ذلك : أنت رأيت زياداً وهو غلام بهذه الحال ؟ قال :إي والله لقد رأيته وقد اكتنفه صبيان صغيران كأنهما من سخال المعز ، فلو لا أدركته لظننت أنهما يأتیان على نفسه .

قال الشعبي :أخطأت عند عبد الملك بن مروان في أربع :حدثني بحديث يوماً فقلت :أعده عليّ فقال :أما علمت أن أمير المؤمنين لا يستعاد وقلت له حين أذن لي عليه :أن الشعبي فقال :ما أدخلناك حتى عرفناك .وكنيت عنده رجلاً ، فقال أما علمت أنه لا يكنى أحد عند أمير المؤمنين .وحدثني بحديث فسألته أن يكتبه .فقال :إنا نكتب ولا نكتب⁽⁹⁾.

فأنقعه من أول الليل !

سأل رجل الشعبي عن المسح على اللحية، قال :خللها، قال :أتخوف أن لا نبليها، قال :أن تخوفت فأنقعه من أول الليل⁽¹⁰⁾.

أي الأصابع؟

روى الشعبي حديث رسول الله ﷺ :تسحروا ولو أن يضع أحدكم أصبعه على التراب ثم يضعها في فمه .فقال رجل في المجلس :أي الأصابع؟ فتناول الشعبي إبهام رجله وقال هذه⁽¹¹⁾.
وسئل الشعبي :أكان الحجاج مؤمناً؟ قال :نعم، بالطاغوت⁽¹²⁾.

إن لم يكن هذا متناً من الغم !:

- ومزح الشعبي يوماً ، فقيل له :يا أبا عمرو أفتمزح ؟ قال :إن لم يكن هذا متناً من الغم ، هواء داخل ، وهواء خارج. ⁽¹³⁾

⁹ (ابن عبد البر ، بهجة المجالس وأنس المجالس ، 73/1
¹⁰ (ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، أخبار الظراف والمتماجنين، تحقيق بسام عبد الوهاب الجاني ، دار ابن حزم - بيروت - 1997م ، 62/1
¹¹ (ابو الفرج بن الجوزي ، أخبار الظراف والمتماجنين ، 62/1
¹² (أبو حيان التوحيد ، البصائر والذخائر ، 66/5
¹³ (ابن عبد البر ، بهجة المجالس وأنس المجالس ، 125/1

فانتظر ماذا يخرج من رأسك!

وقال الشعبي: مرض الأسد فعاده السباع ما خلا الثعلب، فقال الذئب: أيها الملك مرضت فعادك السباع إلا الثعلب! قال: فإذا حضر فاعلمني، قال: فبلغ ذلك الثعلب فجاء فقال له الأسد: يا أبا الحصين عاذني السباع كلهم فلم تعدني!! قال: بلغني مرض الملك فكنْتُ في طلب الدواء! قال: فأَيُّ شيء أصبت؟ قال: قالوا: خرزة في ساق الذئب ينبغي أن تُخرج! قال: فضرب الأسد بمخالبه إلى ساق الذئب! فانسلَّ الثعلب وقعد على الطريق، فمرَّ به الذئب والدماء تسيلُ عليه! قال: فناداه الثعلب: يا صاحب الخفِّ الأحمر إذا قعدت بعد هذا عند السلطان فانتظر ماذا يخرج من رأسك! وأما هذه فقد خرجت من رجلك⁽¹⁴⁾.

فقال الخصب: وأنا لاحق بمصر

قال المسعودي: وذكر جماعة من أهل العلم بالسير والأخبار أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أراد الشخوص إلى العراق - حين بلغه ما عليه الأعاجم من الجمع ببلادهم - سأل كعب الأحبار عن العراق، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله لما خلق الأشياء ألحق كل شيء بشيء، فقال العقل: أنا لا حق بالعراق، فقال العلم: وأنا معك، فقال المال: وأنا لاحق بالشام، فقالت الفتن: وأنا معك، فقال الخصب: وأنا لاحق بمصر، فقال الذل: وأنا معك، فقال الفقر: وأنا لاحق بالحجاز فقالت القناعة: وأنا معك فقال الشقاء: وأنا لاحق بالبوادي، فقالت الصحة: وأنا معك⁽¹⁵⁾.

أخبرني عن البيت الحرام؟

قال: وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كعب الأحبار فقال: أخبرني عن البيت الحرام؟ فقال كعب: أنزله الله من السماء ياقوتة مجوفة مع آدم، فقال له: يا آدم إن هذا بيتي أنزلته معك، يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلى حوله كما يصلى حول عرشي. ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة ثم وضعوا البيت عليه. فكان آدم يطوف حوله كما يطاف حول العرش، ويصلي عنده كما يصلي عند العرش. فلما أغرق الله تعالى قوم نوح، رفعه إلى السماء وبقيت قواعده. وقال وهب بن منبه: كان البيت الذي بوأه الله تعالى لآدم عليه السلام يومئذ من ياقوت الجنة. وكان من ياقوتة حمراء تلتهب، لها بابان: أحدهما شرقي والآخر غربي. وكان فيه قتاديل

¹⁴ (أبو نعيم ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، 317/4

¹⁵ (المسعودي ، مروج الذهب ، 195/1

من نور أنيتها ذهب من تبر الجنة . وهو منظوم بنجوم من ياقوت أبيض .
والركن يومئذ نجم من نجومه وهو يومئذ ياقوته بيضاء . والله أعلم⁽¹⁶⁾

ما هكذا تقول التوراة يا أبا مسلم

وعن أبي مسلم الخولاني أن كعب الأحبار قال له : كيف تجد لك قومك يا أبا مسلم ؟ قال : أجدهم يا أبا إسحاق يجلونني ويكرموني ، فقال له كعب : ما هكذا تقول التوراة يا أبا مسلم ، فقال أبو مسلم : وكيف تقول التوراة يا أبا إسحاق ؟ فقال كعب : يا أبا مسلم إن التوراة تقول إن أعدى الناس بالرجل الصالح قومه ، يخاصمه الأقرب فالأقرب لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، قال أبو مسلم : وصدقت التوراة⁽¹⁷⁾ .

نزعة من نزغات الشيطان

قال علي بن محمد : كان سبب حبس إبراهيم التيمي أن الحجاج طلب إبراهيم النخعي فجاء الذي طلبه فقال : أريد إبراهيم ، فقال إبراهيم التيمي : أنا إبراهيم ، فأخذه وهو يعلم⁽¹⁸⁾ أنه إبراهيم النخعي فلم يستحل أن يدلّه عليه فجاء به الحجاج فأمر بحبسه في الديماس ولم يكن لهم ظل من الشمس ولا كن من البرد وكان كل اثنين في سلسلة فتغير إبراهيم فجاءته أمه في الحبس فلم تعرفه حتى كلمها فمات في السجن فرأى الحجاج في منامه قائلاً يقول مات في هذه الليلة رجل من أهل الجنة فلما أصبح قال هل مات الليلة أحد بواسط؟ قالوا : نعم ، إبراهيم التيمي مات في السجن؛ فقال : حلم ، نزعة من نزغات الشيطان ، فأمر به فألقي على الكناسة⁽¹⁹⁾ .

كلام بالقرآن !

- قال عبد الله بن المبارك خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام فبينما أنا في بعض الطريق إذ أنا بسواد فتميزت ذاك فإذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف فقلت السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقالت : (سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ) [يس: 58] قال فقلت لها يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان قالت : (وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) [الأعراف: 186] فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها أين تريدان قالت : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

¹⁶ (أبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى ، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، دراسة

وتحقيق : علي عمر ، مكتبة الثقافة الدينية ، 17/1

¹⁷ (أبو نعيم ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، 128/2

¹⁸ (أي يحسب .

¹⁹ (ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، 92/3

الأَفْصَى) [الإسراء: 1] فعلت أنها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس
فقلت لها أنت منذ كم في هذا الموضع قالت: (ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) [مريم: 10]
فقلت ما أرى معك طعاماً تأكلين قال: (هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ) [الشعراء: 79]
فقلت فبأي شيء تتوضئين قالت: (فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً)
[النساء: 43] فقلت لها أن معي طعاماً فهل لك في الأكل قال: (ثُمَّ أَتَمُوا
الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ) [البقرة: 187] فقلت ليس هذا شهر رمضان قالت: (وَمَنْ
تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) [البقرة: 158] فقلت قد أبيح لنا الإفطار في
السفر قالت: (وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة: 184] فقلت لم
لا تكلميني كما أكلتك قالت: (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) [ق: 18]
فقلت فمن أي الناس أنت قالت: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ
وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً) [الإسراء: 36] فقلت قد أخطأت
فاجعليني في حل قالت: (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ) [يوسف: 92]
فقلت فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة قالت: (وَمَا
تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ) [البقرة: 197] قال فأنخت ناقتي قالت: (قُلْ
لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) [النور: 30] فغضضت بصري عنها وقلت
لها اركبي فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: (وَمَا
أَصَابَكُمْ مِنْ مَّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) [الشورى: 30] فقلت لها أبصري حتى
أعلقها قالت: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) [الأنبياء: 79] فعلقت الناقة وقلت لها
اركبي فلما ركبت قالت: (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ
{13} وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ) [الزخرف: 13، 14] قال فأخذت بزمام الناقة
وجعلت أسرع وأصيح فقالت: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ)
[القمان: 19] فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنم بالشعر فقالت: (فَاقْرَءُوا مَا
تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) [المزمل: 20] فقلت لها لقد أوتيت خيراً كثيراً قالت: (وَمَا
يَذْكُرُ إِلَّا أَولُوا الْأَبَابِ) [البقرة: 269] فلما مشيت بها قليلاً قلت ألك زوج
قالت: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ) [المائدة: 101]
فسكت ولم أكملها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها هذه القافلة فمن لك
فيها فقالت: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [الكهف: 46] فعلت أن لها
أولاداً فقلت وما شأنهم في الحج قالت: (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)
[النحل: 16] فعلت أنهم أدلاء الراكب فقصدت بها القباب والعمارات فقلت
هذه القباب فمن لك فيها قالت: (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) [النساء: 125]
(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) [النساء: 164] (يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ) [مريم: 164]

[12] فناديت يا ابراهيم يبا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا فلما استقر بهم الجلوس قالت: (فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذَا إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيَّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ) [الكهف: 19] فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدي وقالت: (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) [الحاقة: 24] فقلت الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها فقالوا هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم نتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن فسبحان القادر على ما يشاء فقلت: (ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) [الحديد: 21] (20).

فلم أدر من أيهم أعجب

- قال عبد الله بن المبارك: لما أفضت الخلافة إلى هارون، وقعت في نفسه جارية من جواري المهدي، فأرادها على نفسها، فقالت: لا أصلح لك؛ إن أباك قد أطاف بي، فأغري بها. قال: فبعث إلى أبي يوسف فقال: جارية من جواري المهدي أردتها فتحصنت مني وذكرت أن أبي قد وقع بها، فعندك في هذا شيء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، لا تصدقها، ليست بمأمونة على نفسها. قال عبد الله بن المبارك: فلم أدر من أيهم أعجب، من هذا الذي قد وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتخرج من وطء جارية لأبيه رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين، أم من هذا فقيه الأرض وقاضيه، قال: تهتك حرمة أبيك واقض شهوتك وصيره في رقبتك (21).

ألست صاحبي بالأمس؟

- وعن عبد الله بن المبارك المجمع على دينه وعلمه وورعه، أنه قال: خرجت إلى الجهاد ومعى فرس فبينما أنا في بعض الطريق إذ صرع الفرس، فمر بي رجل حسن الوجه طيب الرائحة، فقال: أتحب أن تترك فرسك. قلت: نعم. فوضع يده على جبهة الفرس حتى انتهى إلى مؤخره، وقال: أقسمت عليك أيتها العلة بعزة عزة الله وبعظمة عظمة الله وبجلال جلال الله وبقدرة قدرة الله وبسلطان سلطان الله وبلا إله إلا الله وبما جرى به القلم من عند الله وبلا حول ولا قوة إلا بالله إلا انصرفت. قال: فانتفض الفرس وقام، فأخذ الرجل بركابي وقال: اركب فركبت ولحقت بأصحابي، فلما كان من غداة غد وظهرنا على العدو فإذا هو بين أيدينا، فقلت: ألست صاحبي بالأمس؟ قال: بلى. فقلت: سألتك بالله من أنت؟ فوثب قائماً فاهتزت الأرض تحته خضراء

(20) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، 171/1

(21) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 129/3

، فإذا هو الخضر عليه السلام . قال ابن المبارك رضي الله تعالى عنه : فما قلت هذه الكلمات على عليل إلا شفي بإذن الله تعالى (22) .

العلماء ثلاثة

وقال إسحاق بن الطباع: قال لي سفيان بن عيينة: العلماء ثلاثة: عالم بالله وبالعلم، وعالم بالله ليس بعالم بالعلم، وعالم بالعلم ليس بعالم بالله. قال ابن الطباع: الأول كحماد بن سلمة، والثاني مثل أبي الحجاج والثالث كأبي يوسف (23).

كم كان يصلي بهم لو أكلوا اللوزينج

حدثنا محمد بن يزيد البوشنجي، قال: سمعت سفيان بن وكيع بن الجراح، يقول: سمعت سفيان بن عيينة، يقول: دعانا سفيان الثوري يوماً فقدم إلينا تمرّاً ولبناً خائراً فلما توسطنا الأكل قال: قوموا بنا نصلي ركعتين شكراً لله تعالى قال سفيان بن وكيع: لو كان قدم إليهم شيئاً من هذا اللوزينج المحدث لقال لهم: قوموا بنا نصلي التراوح.

المعرفة تنفع عند الكلب العقور

قال سفيان بن عيينة: عرض المغيرة بن شعبه بالكوفة فوجدهم أربعة آلاف، فمر به شاب من الجند فقال: يا غلام زد هذا في عطائه كذا وكذا، قال: فقام شاب كان إلى جانبه فقال: أصلحك الله هذا ابن عمي لحا ليس له علي فضيلة في نسب ولا نجدة فألحقني به، قال: لا، قال فمر من يحط من عطائي ليظن من حضر أن بك علي مودة، قال: لا، إن أبا هذا كانت بيني وبينه مودة وكان صديقاً لي وإن المعرفة تنفع عند الجمل الصؤول والكلب العقور فكيف بالرجل ذي المروءة والحسب؟ (24)

إدخال اللحم على اللحم يقتل السباع في البر

قال سفيان بن عيينة: اجتمع أطباء فارس وابن كلداء على أن الداء إدخال الطعام على الطعام. وقالوا: إدخال اللحم على اللحم يقتل السباع في البر. والشرب في آنية الرصاص أمان من القولنج. (25)

22 (كمال الدين الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، 298/2

23 (ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، 444/1

24 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأئيس الناصح ، 339/1

25 (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 413/4

يا أعرابي، ما أعجبك من حديثنا؟

لزم أعرابي سفيان بن عيينة حتى سمع منه ثلاثة آلاف حديث، ثم جاءه يودعه، فقال له سفيان: يا أعرابي، ما أعجبك من حديثنا؟ قال: ثلاثة أحاديث: حديث عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه أنه كان يحب الحلواء ويحب العسل، وحديثه عليه الصلاة والسلام: إذا حضر العشاء وحضرة الصلاة، فابدأوا بالعشاء، وحديث عائشة عنه صلى الله عليه وسلم: ليس من البر الصيام في السفر. (26)

فكتبته عنك

قال أحمد بن سليمان بن أبي شيخ حدثني شيخ من أهل الكوفة يقال له عوام قال سمعت سفيان بن عيينة وقد تكلم بكلام استحسنت فسأله محمد بن منذر أن يمليه عليه فتبسم سفيان وقال له هذا كلام سمعتك تتكلم به فاستحسنته فكتبته عنك قال وعلى ذلك أحب أن تمليه علي فإني إذا رويته عنك كان أنفق له من أن نسبه إلى نفسي (27).

سفيان بن عيينة وجاره السهمي

وحدثت من غير وجه أن سفيان بن عيينة قال لجلسائه يوماً: إني أرى جارنا هذا السهمي قد أثرى وانفسحت له نعمة، وصار ذا جاه عند الأمراء، ووافداً إلى الخلفاء، فمم ذاك؟ يعني يحيى بن جامع، فقال له جلساؤه: إنه يصير إلى الخليفة فيتغنى له، فقال سفيان: فيقول ماذا؟ فقال أحد جلسائه: يقول: أطوف نهاري مع الطائيفن ... وأرفع من منزري المسبل فقال سفيان: ما أحسن ما قال! فقال الرجل:

واسهر ليلي مع العاكفين ... وأتلوا من المحكم المنزل قال: حسن والله جميل، قال: إن بعد هذا شيئاً، قال سفيان: وما هو؟ قال: عسى فارح الكرب عن يوسف ... يسخر لي ربة المحمل فزوى سفيان وجهه، وأوماً بيده أن كفّ، وقال: حلالاً حلالاً! (28)

قاتله الله فلقد أجاد

وقال يزيد بن هارون: قدم عكرمة مولى ابن عباس البصرة فأتاه أيوب السخيتاني وسليمان التميمي ويونس ابن عبيد فبينما هو يحدثهم إذ سمع غناء فقال عكرمة: اسكتوا فنسمع ثم قال: قاتله الله فلقد أجاد، أو قال: ما أجود ما

²⁶ (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 106/3

²⁷ (أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، 198/18

28 (الكامل في اللغة و الأدب ، 2 / 192

قال: فأما سليمان ويونس فلم يعودا إليه وعاد إليه أيوب، فقال يزيد بن هارون: لقد أحسن أيوب.⁽²⁹⁾

لعلي أتعلق منه بسقطة

وذكر أبو حنيفة أيوب السخثياني فقال: رحمه الله تعالى ثلاثا لقد قدم المدينة مرة وأنا بها فقلت: لأقعدن إليه لعلي أتعلق منه بسقطة فقام بين يدي القبر مقاما ما ذكرته إلا اقشعر له جلدي⁽³⁰⁾.

هكذا يفعل العاقل

جلس أعرابي إلى مجلس أيوب السخثياني فقليل له: يا أعرابي لعلك قدري قال: وما القدري فذكر له محاسن قولهم قال: أنا ذاك ثم ذكر له ما يعيب الناس من قولهم فقال: لست بذاك قال: فلعلك مثبت قال: وما المثبت فذكر محاسنهم فقال: أنا ذاك ثم ذكر له ما يعيب الناس منهم فقال: لست بذاك! قال أيوب: هكذا يفعل العاقل يأخذ من كل شيء أحسنه.⁽³¹⁾

لست أفتي في هذا بشيء

حلف رجل بالطلاق أن الحجاج في النار. فقليل له: سل عن يمينك. فأتى أيوب السخثياني فأخبره، فقال: لست أفتي في هذا بشيء، يغفر الله لمن يشاء. فأتى عمرو بن عبيد فأخبره، فقال: تمسك بأهلك، فإن الحجاج إن لم يكن من أهل النار فليس يضرك أن تزني.⁽³²⁾

أما ترى أما ترى

عن حسن بن واقد القصاب، أن أبا جعفر البصري، وكان من أهل الخير والصلاح، قال: اضجعت شاة لأذبحها فمر أيوب السخثياني فألقيت الشفرة، وقمت معه أتحدث، فوثبت الشاة فحفرت في أصل الحائط، ودحرجت الشفرة فألقيتها في الحفرة، وألقت عليها التراب. فقال لي أيوب: أما ترى أما ترى. فجعلت على نفسي أن لا أذبح شيئا بعد ذلك اليوم.⁽³³⁾

²⁹ (ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، 19 / 2)

³⁰ (ابن عبدربه ، العقد الفريد ، 259/2)

³¹ (ابن عبدربه ، العقد الفريد ، 131/ 3)

³² (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نثر الدر ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان -

1424 هـ - 2004 م الطبعة : الأولى ، 2 / 128

³³ (الدميري ، حياة الحيوان الكبرى ، 2 / 61)

يا أضغات يا أضغات!

عن الزهري، قال: أتيت عبد الملك بن مروان فاستأذنت عليه فلم يؤذن لي، فدخل الحاجب، فقال: يا أمير المؤمنين إن بالباب رجلاً شاباً أحمر، زعم أنه من قريش، قال: صفه فوصفه له، قال: لا أعرفه إلا أن يكون من ولد مسلم بن شهاب، فدخل عليه، فقال: هو من بني مسلم فدخلت، قال: من أنت؟ فانتسبت له وقلت: إن أبي هلك وترك عيلاً صبية، وكان رجلاً متلاًفاً لم يترك مالاً، فقال: لي عبد الملك: أقرأت القرآن؟ قلت: نعم بإعرابه، قال: وما ينبغي منه من وجوهه وعلله؟ قال: قلت: نعم، قال: إنما فوق ذلك فضل إنما يراد أن يعاى ويلغز به، قلت: نعم، قال: تعلمت الفرائض؟ قلت: نعم، قال: الصلب والجد واختلافهما؟ قلت: أرجو أن أكون قد فعلت، قال: وكم دين أبيك؟ قلت له: كذا وكذا، قال: قد قضى الله دين أبيك، وأمر لي: بجائزة ورزق يجري، وشراء دار قطيعة بالمدينة، وقال: اذهب فاطلب العلم ولا تشاغل عنه بشيء فإني أرى لك عيناً حافظة وقلباً زاكياً، وأنت الأنصار في منازلهم، قال الزهري وكنت أخذت العلم عنهم بالمدينة، فلما خرجت إليهم إذا علم جم فأتبعهم حتى ذكرت لي امرأة نحو قباء تروي رؤيا فأتيتها، فقلت: أخبريني برؤياك، قال: فقالت: كان لي ولدان واحد حين حبا، والآخر يتبعه، وهلك أبوهما وترك واهناً وداجناً ونخلات، فكان الداجن نشرب لبنها ونأكل تمر النخلات، فإني لبين النائمة واليقظانة - قال: القاضي: هكذا في الخبر والمشهور في العربية اليقظى - ولنا جدِّي فرأيت كأن ابني الأكبر قد جاء إلى شفرة لنا فأخذها، وقال يا أمه! قد أضرت بنا وحبست اللبن عنا، فأخذ الشفرة وقام إلى ولد الداجن فذبحه بتلك الشفرة، ثم نصب قدراً لنا ثم قطعه ووضعها فيها، ثم قام إلى أخيه فذبحه بتلك الشفرة، واستنبت مذعورة وإذا ابني الأكبر قد جاء، فقال: يا أمه! أين اللبن، فقلت: يشربه ولد هذه الداجن، فقال: ما لنا في هذا من شيء، وقام إلى الشفرة فأخذها ثم أمرها على حلق الداجن ثم نصب القدر، قالت: فلم أكلمه حتى قمت إلى ابني الصغير فاحتضنته فأتيت به بعض بيوت الجيران فخبأته عندهم، ثم أقبلت مغتمة لما رأيت، ثم صعد على بعض تلك النخلات فأنزل رطباً ثم قال: يا أمه! أدني فكلي، قلت: لا أريد، ثم مضى في بعض حوائجه وترك القدر فإني لمنكبة على بليس عندي إذ ذهب بي النوم فإذا أنا بات قد أتاني، فقال: مالك مغتمة؟ فقلت: لكذا وكذا، ولأن ابني صنع كذا وكذا، فنادى يا رؤياه يا رؤياه! فجاءت امرأة شاباً حسنة الوجه طيبة الريح، فقال: ما أردت من هذه المرأة الصالحة، قالت: ما أردت

منها شيئاً، فنادى: يا أضغات يا أضغات! فأقبلت امرأة سوداء الخلقة وسخة الثياب دونها، فقال: ما أردت من هذه المرأة؟ قالت: رأيته صالحة فأردت أن أغمها، قالت: ثم انتبهت فإذا ابني أقبل، فقال: يا أمه! أين أخي؟ قلت: لا أدري حبا إلى بعض الجيران، قالت: فذهب يمشي لهو أهدى إلى موضعه حتى أخذه وجاء به فقبله، ثم قعد فأكل وأكلت معه.⁽³⁴⁾

هذا فراق بيني وبينك

كان عبد الملك بن مروان يسمي حمامة المسجد للزومه المسجد الحرام، فلما أتاه الخبر بخلافته كان المصحف في حجره، فوضعه وقال: هذا فراق بيني وبينك. وقال: إني كنت أخرج أن أطأ غلة، وأن الحجاج يكتب إلي في قتل فئام من الناس فما أحفل بذلك! وقال له الزهري يوماً: بلغني أنك شربت الطلاء! فقال: أي والله والدماء! وقال: عجباً للسلطان كيف يحسن، وإذا أساء وجد من يزكيه ويمدحه!⁽³⁵⁾

زين العابدين

قال ابن شهاب الزهري شهدت علي بن الحسين يوم حمله إلى عبد الملك بن مروان من المدينة إلى الشام، فأثقله حديداً، ووكل به حفاظاً في عدة وجمع، فاستأذنتهم في التسليم عليه والتوديع له فأذنوا لي، فدخلت عليه وهو في قبة والقيود في رجليه والغل في يديه، فبكيت وقلت: وددت أني مكانك وأنت سالم، فقال: يا زهري أوتظن هذا مما ترى علي وفي عنقي يكرمني؟ أما لو شئت ما كان، فإنه إن بلغ منك ومن أمثالك ليذكرني عذاب الله، ثم أخرج يديه

³⁴ (قال القاضي: قوله: في الخبر وترك لي ماهناً وداجناً، الماهن: الخادم، ويقال: مهن الرجل مهنةً ومهنةً، وفلان في مهنة أهله ومهنة أهله، والفتح عند كثير من أهل اللغة أعلى، ويقال: مهن مهانةً من الهوان، ومن المهان بمعنى الخادم، قول الشاعر:
وهزن مني أن رأين مويهنأ ... تبدو عليه شتامة المملوك

وأما الداجن فهي الشاة من شياه البيوت التي تلغ، وجمهور الفقهاء لا ترى في دواجن الشاء زكاة، وهو مذهب عامة أهل العراق وبه نقول، وقد أوجب عددٌ من فقهاء الحجاز الزكاة في دواجن الغنم، كما أوجبها الجميع في سوائها، واختلافهم في عوامل الإبل والبقر كاختلافهم في دواجن الغنم، وكلامنا في هذا على استقصاء الحجج مرسوم فيما ألفناه من كتبنا في الفقه. وقول المرأة: وإني لمتمكنة على بلس لي، البلس: بعض ما يكون في رحل القوم من المتاع الذي يتكأ عليه، وهو اسم أعجمي لا أعرفه في العربية وأراه بالرومية وقد استعمل على تولده قديماً وحديثاً فروي في خبرٍ ذكر أن أبا جعفر الجمحي نظر بين الحسن بن زيد ومحمد بن عبد العزيز، فقال: إنه أقامني على البلس يعني الحسن، فكأنه اسم لما يعلى عليه من كراسي أو ما أشبهه ن.

المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح، 1 / 175

³⁵ (الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 77/1

من الغل ورجليه من القيد، ثم قال: يا زهري لا جزت معهم على ذا ميلين من المدينة³⁶ قال: فما لبثت إلا أربع ليال حتى قدم الموكلون به يطلبونه بالمدينة، قال: فلما وجدوه، فكنت فيمن سألهم عنه، فقال لي بعضهم: إنا نراه متبوعاً، إنه لنازل ونحن حوله لا ننام لنرصده، إذ أصبحنا نفتقده فما وجدنا بين محمليه إلا حديده. قال الزهري: وقدمت بعد ذلك على عبد الملك، فسألني عن علي بن الحسين فأخبرته، فقال إنه قد جاء في يوم فقده الأعوان فدخل علي فقال ما أنا فقلت: أقم عندي، قال: لا أحب، ثم خرج فو الله لقد امتلأ ثوبي منه خيفة، قال الزهري فقلت: يا أمير المؤمنين ليس علي بن الحسين حيث يظن، إنه مشغول بنفسه، قال: حبذا شغل مثله³⁷ قال: وكان الزهري إذا ذكر علي بن الحسين يبكي ويقول: زين العابدين.⁽³⁶⁾

فتمرط والله دين ذلك القاريء

جعفر قال سمعت مالك بن دينار يقول ينطلق أحدكم فيتزوج ديباجة الخرم يعني أجمل الناس أو ينطلق إلى جارية قد سمها أبوها كأنها زبدة فيتزوجها فتأخذ بقلبه فيقول لها أي شيء تريدين فتقول خمار خز وأي شيء تريدين فتقول كذا وكذا قال مالك فتمرط والله دين ذلك القاريء ويدع أن يتزوجها يتيمة ضعيفة فيكسوها فيؤجر ويدهنها فيؤجر .

أني لا أخرج من صلبك صديقاً أبداً ما كان غضبك لي

قال وسمعت مالكا يقول كان حبر من أحبار بني إسرائيل قال فرأى بعض بنيه يوماً غمز النساء فقال مهلاً يا بني قال فسقط من سريره فانقطع نخاعه فأسقطت امرأته وقتل بنوه في الجيش وأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن أخبر فلانا الحبر أني لا أخرج من صلبك صديقاً أبداً ما كان غضبك لي إلا أن قلت مهلاً يا بني مهلاً . (37)

يا فاسق! إنما كان تضرعك لغير الله

مر مالك بن دينار بدار ليلاً، وإذا قائل يقول:
يا سيدي قد جاءك المذنب ... يرجو الذي يرجوه من يعتب
فاصفح له عن ذنبه منعماً ... وهب له منك الذي يطلب
فوقف مالك يتسمع ويبكي، والقائل يردد البيتين بصوت حزين. فلما قارب السحر قال:
يا ناصباً معانه فننسه ... إليك من مقلتك المهرب

³⁶ (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 1 / 23)

³⁷ (ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، 3 / 275)

فقال مالك: يا فاسق! إنما كان تضرعك لغير الله، ومضى (38).

ثم رفعناها بعد، فما لقينا منها؟

قال مالك بن دينار: لما بعث الله عيسى بن مريم كب الدنيا على وجهها، ثم رفعها الناس حتى بعث الله تعالى محمداً فكب الدنيا على وجهها، ثم رفعناها بعد، فما لقينا منها؟ (39)

أخشى إن أكلت من طعامك هذا أن يطرح في رجلي مثل كبولك هذه

دخل مالك بن دينار على رجل في السجن يزوره فنظر إلى رجل جندي قد اتكأ في رجله كبول قد قرنت بين ساقيه وقد أتى بسفرة كثيرة الألوان فدعا مالك بن دينار إلى طعامه فقال له: أخشى إن أكلت من طعامك هذا أن يطرح في رجلي مثل كبولك هذه (40).

كلكم يبكي فمن أخذ هذا المصحف؟!

وتكلم مالك بن دينار فأبكى أصحابه ثم افتقد مصحفه فنظر إلى أصحابه وكلهم يبكي فقال: ويحكم! كلكم يبكي فمن أخذ هذا المصحف (41).

من ها هنا جاء الاتفاق

رأى مالك بن دينار غراباً يطير مع حمامة فعجب وقال: اتفقا وليس من شكل واحد، ثم وقعا على الأرض فإذا هما أعرجان، فقال: من ها هنا جاء الاتفاق، من العصمة تعذر المعاصي.

إنه كبيرهم ومنه يتعلمون

عن فضيل بن عياض قال: رأى مالك بن دينار رجلاً يسيء صلاته، فقال: ما أرحمني بعياله، فقليل له: يا أبا يحيى يسيء هذا صلاته وترحم عياله؟ قال: إنه كبيرهم ومنه يتعلمون (42).

ومن يطيق ما تطيق

قال جعفر قال مالك بن دينار لما وقعت الفتنة أتيت الحسن ثلاثة أيام أسأله يا أبا سعيد ما تأمرني فلا يجيبني قال فقلت يا أبا سعيد أتيتك ثلاثة أيام أسألك وأنت معلمي فلا تجيبني فوالله لقد هممت أن آخذ الأرض بقدمي وأشرب من أفواه الأنهار وأكل من بقل البرية حتى يحكم الله عز وجل بين عباده قال

³⁸ (الزمخشري، ربيع الأبرار، 1/ 299)

³⁹ (الزمخشري، ربيع الأبرار، 1/ 88)

⁴⁰ (ابن عبد ربه، العقد الفريد، 2/ 288)

⁴¹ (الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، 2/ 4)

⁴² (صفة الصفوة 287/3)

فأرسل الحسن عينية باكيا ثم قال يا مالك ومن يطيق ما تطيق ولكننا والله مانطيق هذا (43) .

فرجعت إلى بلدي فجعلت أسير سير الضعفاء

قال إبراهيم بن زياد المقرئ قال إبراهيم بن أدهم بابتدائه كيف كان قال كنت يوما في مجلس لي له منظره إلى الطريق فإذا أنا بشيخ عليه أظمار وكان يوما حارا فجلس في فيء القصر ليستريح فقلت للخادم اخرج إلى هذا الشيخ فأقرئه مني السلام وسله أن يدخل إلينا فقد أخذ بمجامع قلبي فخرج إليه فقام معه فدخل إلي فسلم فرددت عليه السلام واستبشرت بدخوله وأجلسته إلى جنبي وعرضت عليه الطعام فأبى أن يأكل فقلت له من أين أقبلت فقال من وراء النهر فقلت أين تريد قال الحج إن شاء الله تعالى قال وكان ذلك في أول يوم من العشر أو الثاني فقلت في هذا الوقت فقال بل يفعل الله ما يشاء فقلت الصحبة فقال إن أحببت ذلك حتى إذا كان الليل قال لي قم فلبست ما يصلح للسفر وأخذ بيدي وخرجنا من بلخ فمررنا بقرية لنا فلقيني رجل من الفلاحين فأوصيته ببعض ما أحتاج إليه فقدم إلينا خبزا وبيضًا وسألنا أن نأكل فأكلنا وجاء بماء فشربنا وقال لي بسم الله قم فأخذ بيدي فجعلنا نسير وأنا أنظر إلى الأرض تجذب من تحتنا كأنها الموج فمررنا بمدينة بعد مدينة فجعل يقول هذه مدينة كذا هذه مدينة كذا هذه الكوفة ثم قال الموعد هاهنا في مكانك هذا في الوقت من الليل حتى إذا كان الوقت إذا به قد أقبل فأخذ بيدي وقال بسم الله قال فجعل يقول هذا منزل كذا هذا منزل كذا وهذه فيد وهذه المدينة وأنا أنظر إلى الأرض تجذب من تحتنا كأنها الموج فصرنا إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزرناه ثم فارقتني وقال الموعد في الوقت من الليل في المصلى حتى إذا كان الوقت خرجت فإذا به في المصلى فأخذ بيدي ففعل كفعله في الأولى والثانية حتى أتينا مكة في الليل ففارقتني فقبضت عليه وقلت الصحبة فقال إني أريد الشام فقلت أنا معك فقال لي إذا انقضى الحج فالموعد هاهنا عند زمزم حتى إذا انقضى الحج إذا به عند زمزم فأخذ بيدي فطفنا بالبيت ثم خرجنا من مكة ففعل كفعله الأول والثاني والثالث فإذا نحن ببيت المقدس فلما دخل المسجد قال لي عليك السلام أنا على المقام إن شاء الله هاهنا ثم فارقتني فما رأيته بعد ذلك ولا عرفني

اسمه قال إبراهيم فرجعت إلى بلدي فجعلت أسير سير الضعفاء منزلا بعد منزل حتى رجعت إلى بلخ فكان ذلك أول أمري (44) .

تخافون وفيكم إبراهيم بن أدهم

قال إبراهيم بن بشار ركبنا البحر مع إبراهيم بن أدهم فبينما نحن نسير بريح طيبة وكانت مراكب كثيرة فعصفت ريح شديدة على المراكب فتقطعت وإبراهيم ملثف في عباءة مستلق فجاء أهل المركب إليه فقالوا يا هذا ما ترى ما نحن فيه وأنت مستلق غير مكترث فجلس وهو يقول لا أفلح من لم يكن استعداد لمثل هذا اليوم ثم حرك شفتيه وإذا هاتف ينادي من اللجة تخافون وفيكم إبراهيم بن أدهم أيها الريح والبحر الهائج اسكنا بإذن الله فسكن البحر وذهبت الريح حتى صار البحر كأنه دف يعني لوح خشب . (45)

كن ذنباً ولا تكن رأساً

حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ قَالَ : قُلْتُ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدَهْمَ : أَكُنِيكَ أَمْ أَدْعُوكَ بِاسْمِكَ ؟ قَالَ : إِنْ كُنَيْتَنِي قَبْلْتَ مِنْكَ ، وَإِنْ دَعَوْتَنِي بِاسْمِي فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ . قَالَ : فَمَدَحْتَهُ - أَوْ قَالَ : أَتْنَيْتَ عَلَيْهِ ، قَالَ : فَفُطِنَ ، فَقَالَ : لِرُوعَةٍ يَرُوعُ صَاحِبُ عِيَالٍ ، أَفْضَلُ مِمَّا أَنَا فِيهِ . قَالَ : قُلْتَ لَهُ : أَوْصِنِي . قَالَ : كُنْ ذَنْبًا وَلَا تَكُنْ رَأْسًا ، فَإِنَّ الرَّأْسَ يَهْلِكُ ، وَيَسْلُمُ الذَّنْبُ . (46)

أنا ظننت فيكم خيراً

عن إبراهيم بن أدهم إنه كان في بعض السواحل ومعه رفقاء له ومعهم حميرٌ لهم فجاء إليهم رجلٌ فقال أريد أصحابكم وأكون معكم فكأنهم كرهوا ذلك فلما خرجوا إلى ساحل البحر والرجل معهم قال إبراهيم بن أدهم للحمار زر فصاح الحمارٌ فأنصرف الرجل عنهم وقال أنا ظننت فيكم خيراً فصرفوه بهذا . (47)

فمن رأيي يقول: موسوس، ومن رأيي يقول: حمال

سمعت شقيق البلخي يقول: لقيت إبراهيم بن أدهم في الشام، فقلت: تركت خراسان قال: ما تهنيت بالعيش إلا هنا، أفر بديني من شاهق، فمن رأيي يقول: موسوس، ومن رأيي يقول: حمال: يا شقيق: لم ينبل عندنا من نبل بالجهاد ولا بالحج بل من كان يعقل ما يدخل بطنه، يا شقيق: ماذا أنعم الله على الفقراء لا

44 (عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي أبو محمد ، التوابين ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ،

دار الكتب العلمية - بيروت ، 1403 - 1983 ، 1/160

45 (عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي أبو محمد ، التوابين ، تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط ، دار الكتب العلمية - بيروت ، 1403 - 1983 ، 1/160

46 (المزي ، تهذيب الكمال مع حواشيه ، 2/35

47 (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، أخبار الظراف والمتماجنين ، تحقيق : بسام عبد الوهاب الجاني ، دار ابن حزم - بيروت - 1997م ، 74/1

يسألهم عن زكاة، ولا عن جهاد، ولا صلة، إنما يسأل عن هذا هؤلاء
المساكين. قلت: هذا القول من إبراهيم رحمه الله ليس على إطلاقه، بل قد نبيل
بالجهاد والقرب عدد من الصفوة (48).

دع لأهل البصرة خصلتين

قال الأوزاعي: دع لأهل البصرة خصلتين وهما: القول بالقدر، والرخصة
بالخضضة، واللذان لأهل الكوفة: تأخير السحور، وشرب النبيذ، ولأهل
مكة خصلتين وهما: الظرف والمتعة، لأهل المدينة: السماع وإتيان النساء
في أدبارهن، واللذان لأهل الشام: إثارة السلطان وبغض بني هاشم. (49)

كسالى ينامون تحت شجرة كمثرى

عن الأوزاعي أنه قال: كان قوم كسالى ينامون تحت شجرة كمثرى يقولون:
إن سقط في أفواهنا شيء أكلنا وإلا فلا، فسقطت كمثرية إلى جانب أحدهم،
فقال له الذي يليه: ضعها في فمي. قال: لو استطعت أن أضعها في فمك
وضعتها في فمي. (50)

اللعوق بمن يرجى خيره خير من البقاء مع من لا يؤمن شره

الأوزاعي: عدنا مكحولاً فقال: اللعوق بمن يرجى خيره خير من البقاء مع
من لا يؤمن شره.

الأوزاعي: ما يسرني أن هذه الألوان تجري علي وعليكم غدوة وعشياً من
حلال ولا نسأل عنها يوم القيامة. قالوا: ولم يا أبا عمرو؟ قال: لأنها تقسي
القلب.

فقطعه ومات

قال: حدثنا الأوزاعي قال: كنا بالساحل فجاء بفحل لينزى على أمه، فأبى.
فأدخلوها بيتاً، وألقوا على الباب سترأ، وجللوا بكساء. قال: فلما نزا عليها
وفرغ شم ريح أمه. قال: فوضع أسنانه في أصل ذكره فقطعه ومات. (51)

اسم امرأة إبليس

وسأل الرشيد الأوزاعي عن اسم امرأة إبليس فقال: تلك وليمة لم
أحضرها. (52)

48 (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ،
تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، لبنان/ بيروت ، الطبعة الأولى :

1407 هـ - 1987 م ، 47/10

49 (أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 2 / 126

⁵⁰ (الحموي ، معجم الأدباء ، 1 / 422

⁵¹ (ابن الكلبي ، أنساب الخيل ، 1 / 1

وبمثلته يعاقب المجرم

كان الأوزاعي يكره لبس السواد ويقول: يلبس في المأتم، وبمثلته يعاقب المجرم، ولم أره على محرم، ولا جلّيت به عروس، ولا كفن فيه ميت. (53)

واحدة بأخرى والبادي أظلم

الأوزاعي قال: دخل خريم الناعم على معاوية فنظر إلى ساقيه فقال: أي ساقين لو إنهما على جارية! قال: في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين: قال معاوية: واحدة بأخرى والبادي أظلم. (54)

مثل الشياطين في كثرتهم

قال الأوزاعي حدثني حسان قال: "إنما مثل الشياطين في كثرتهم كمثل رجل دخل زرعاً فيه جراد كثير، فكلما وضع رجله تطاير الجراد يميناً وشمالاً ولولا أن الله عز وجل غض البصر عنهم، ما روي شيء إلا وعليه شيطان".

يؤكل الطعام لثلاث

وقال ابن مفلح في طبقات الحنابلة في ترجمة علي بن محمد المصري قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: يؤكل الطعام لثلاث: مع الإخوان بالصدر، ومع الفقراء بالإيثار، ومع أبناء الدنيا بالمروءة.

رأيت النبي (صلى الله عليه وسلم) في المنام

قال الشافعي رضي الله عنه رأيت النبي (صلى الله عليه وسلم) في المنام فقال اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل واقراءه مني السلام وقل له إنك ستمتحن وتدعى إلى خلق القرآن فلا تجبههم فيرفع الله لك علماً يوم القيامة. (55)

فأفاضه على سائر جسده

وحكي أن الشافعي رضي الله تعالى عنه، لما كان بمصر، رأى في المنام سيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم)، وهو يقول له: بشر أحمد بن حنبل بالجنة، على بلوى تصيبه فإنه يدعى إلى القول بخلق القرآن فلا يجب إلى ذلك، بل يقول هو منزل غير مخلوق. فلما أصبح الشافعي رضي الله تعالى عنه، كتب صورة ما رآه في منامه، وأرسله مع الربيع إلى بغداد إلى أحمد

52 (الثعالبي، اللطف واللطائف، 10 / 1)

53 (الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 478/ 1)

54 (ابن عبد ربه، العقد الفريد، 175 / 3)

55 (الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، 470/2)

فلما وصل بغداد ، قصد منزل أحمد واستأذن عليه فأذن له ، فلما دخل عليه قال له : هذا كتاب أخيك الشافعي ، فقال له : هل تعلم ما فيه ؟ قال : لا ففتحه وقرأه وبكى . وقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله . ثم أخبره بما فيه ، فقال : الجائزة ، وكان عليه قميصان أحدهما على جسده ، والآخر فوقه . فنزع الذي على جسده ودفعه إليه . فأخذه ورجع إلى الشافعي . فقال له الشافعي : ما أجازك ؟ قال : أعطاني القميص الذي على جسده . فقال : أما أنا فلا أفجعك فيه ، ولكن أغسله وأنتني بمائه ، فغسله وأتاه بالماء ، فأفاضه على سائر جسده .(56)

ورأيت الجسد الآخر بالسوق ذاهبا وراجعا

وروي عن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال دخلت بلدة اليمن فرأيت بها إنسانا من وسطه إلى أسفله بدن واحد ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان برأسين ووجهين وأربع أيد وهما يأكلان ويشربان ويتقاتلان ويتلاطمان ويصطلحان قال ثم غبت عنهما قليلا ورجعت فقبل لي أحسن الله عزاءك في أحد الشقين فقلت وكيف صنع به ؟ فقبل ربط في أسفله حبل وثيق وترك حتى ذبل ثم قطع ورأيت الجسد الآخر بالسوق ذاهبا وراجعا .

ثلاثة تضني

حكى عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه كان نازلا عند الزعفراني ببغداد فكان الزعفراني يكتب في كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية فأخذها الشافعي منها يوما وألحق فيها لونا آخر فعرف الزعفراني ذلك فأعتق الجارية سرورا بذلك وكانت سنة السلف رضي الله عنهم أن يقدموا جملة الألوان دفعة ليأكل كل شخص ما يشتهي ومن السنة أن يشيع المضيف الضيف إلى باب الدار وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لا ينتظر من يحضر من عشيرته فقد قيل ثلاثة تضني سراج لا يضيء ورسول بطيء ومائدة ينتظر لها من يجيء ونزل الإمام الشافعي رضي الله عنه بالإمام مالك رضي الله عنه فصب بنفسه الماء على يديه وقال له لا يرعك ما رأيت مني فخدماء الضيف على المضيف فرض (أعرض طعامك وابذله لمن أكل... واحلف على من أبى واشكر لمن فعلا)

(ولا تكن سابري العرض محتشما ... من القليل فلست الدهر محتفلا) (57)
رأيت بالمدينة أربع عجائب

وعن المزني سمعت الشافعي يقول: رأيت بالمدينة أربع عجائب. رأيت جدة لها إحدى وعشرين سنة، ورأيت رجلاً فلسة القاضي في مدين نوى، ورأيت شيخاً قد أتى عليه تسعون سنة يدور نهاره حافياً راجلاً على القيان يعلمهن الغناء فإذا جاءت الصلاة صلى قاعداً، وكان بالمدينة وال وكان رجلاً صالحاً فقال: مالي لا أرى الناس يجتمعون على بابي كما يجتمعون على أبواب الولاية؟ فقالوا: إنك لا تضرب أحداً ولا تؤذي ظناً. فقال أهكذا؟ علي بالإمام فنصب بين العقابين وجعل يضرب والإمام يقول: - أعز الله الأمير - إيش جرمي، وهو يقول: حملنا بنفسك، حتى اجتمع الناس على بابه.

يا أبا يوسف من كان صاحب راية طالوت؟

عن المزني، عن الشافعي، قال: مضى أبو يوسف القاضي ليسمع المغازي من أبي إسحاق أو من غيره فأخل مجلس أبي حنيفة أياماً فلما أتاه، قال له أبو حنيفة: يا أبا يوسف من كان صاحب راية طالوت؟ قال له أبو يوسف: إنك إمام وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملائكة كانت أولى بداراً أو أحداً، فإنك لا تدري أيهما كان قبل، فأمسك عنه. (58)

ما ينبغي لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا

قال أبو حنيفة رحمه الله: رأيت كائني نبشت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فضممت عظامه إلى صدري. فهللني، فسألت ابن سيرين، فقال: ما ينبغي لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا. قلت: أنا رأيته. قال: إن صدقت رؤياك لتحين سنة نبيك. (59)

قوموا فما لكم هنا من فرج

وحكى الهيثم بن عدي قال ماشيت الإمام أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه في نفر من أصحابه إلى عيادة مريض من أهل الكوفة وكان المريض بخيلاً وتواصينا على أن نعرض بالغداء فلما دخلنا وقضينا حق العيادة قال بعضنا آتينا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال فتمطى المريض وقال ليس على

57 (الأبيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، 399/1)

58 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، ص 253)

59 (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 1 / 477)

الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج فغمر أبو حنيفة أصحابه وقال قوموا فما لكم هنا من فرج. (60)

الآن يمد أبو حنيفة رجله!

وزعموا إنَّ الأمام أبا حنيفة، رحمه الله، كان به ذات مرة ألم في رجله، فكان يمدّها في المجلس بين يدي أصحابه. ثم إنّه يوماً حضر مجلسه رجل ذو هيئة كث اللحية لا يعرفه، فتوهمه فقيها وقبض رجله استحياء وصبر على ذلك مدة، والرجل لا يتكلم بشيء فبان له منه خلاف الظن، فمد رجله وقال ذلك. (61)

أهلكت نفسك وأهلكتني

عن الأعمش قال كان مجاهد لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب ينظر إليها قال وذهب الى حضر موت الى بئر برهوت قال وذهب الى بابل قال وعليها والصديق لمجاهد قال فقال مجاهد تعرض على هاروت وماروت قال فدعا رجلا من السحرة فقال اذهب بهذا واعرض عليه هاروت وماروت فقال اليهودي بشرط أن لا يدعو الله عندهما قال مجاهد فذهب بي الى قلعة فقلع منها حجرا قال ثم قال خذ برجلي فهو بي حتى انتهى إليهما فاذا هما متعلقين منكسين كالجبلين العظيمين فلما رأيتهما قلت سبحان الله خالقكما فاضطربا قال فكأن جبال الدنيا قد تدكدكت قال فغشي علي وعلى اليهودي قال ثم أفاق اليهودي قبلي فقال قم قد أهلكت نفسك وأهلكتني. (62)

يوثى بثلاثة نفر يوم القيامة

عن مجاهد قال يوثى بثلاثة نفر يوم القيامة بالغني وبالمريض والعبد فيقول للغني ما منعك عن عبادتي فيقول أكثرت لي من المال فطغيت فيوثرى بسليمان بن داود عليه السلام في ملكه فيقال له أنت كنت أشد شغلا أم هذا قال بل هذا قال فان هذا لم يمنعه شغله عن عبادتي قال فيوثرى بالمريض فيقول ما منعك عن عبادتي قال يا رب أشغلت على جسدي قال فيوثرى بآيوب عليه السلام في ضره فيقول له أنت كنت أشد ضرا أم هذا قال فيقول لا بل هذا قال فان هذا لم يمنعه ذلك أن عبدني قال ثم يوثرى بالمملوك فيقال له ما منعك عن عبادتي فيقول جعلت علي أربابا يملكونني قال فيوثرى بيوسف الصديق عليه السلام

60 (ابن حجة الحموي ،ثمرات الأوراق ، ص 14

61 (اليوسي ، زهر الأكم في الأمثال و الحكم ، ص 59

62 (حلية الأولياء ، 3 / 288

في عبوديته فيقال أنت أشد عبودية أم هذا قال لا بل هذا قال فان هذا لم يشغله شيء عن عبادتي .

المرأة بين معاوية وصعصعة

قال معاوية لصعصعة: أي النساء أحب إليك؟ قال: المواتية لك فيما تهوى.
قال: فأيهن أبغض إليك؟ قال: أبعدهن لما ترضى. قال معاوية: هذا النقد العاجل. فقال صعصعة: بالميزان العادل.

وقال معاوية: ما رأيت نهماً في النساء إلا عرف ذلك في وجهها.

أعوذ بعدلك يا أمير المؤمنين من جور مروان

ذكر أن معاوية بن أبي سفيان جلس ذات يوم بمجلس كان له بدمشق على قارعة الطريق، وكان المجلس مفتوح الجوانب لدخول النسيم، فبينما هو على فراشه وأهل مملكته بين يديه، إذ نظر إلى رجل يمشي نحوه وهو يسرع في مشيته راجلاً حافياً، وكان ذلك اليوم شديد الحر، فتأمل معاوية ثم قال لجلسائه: لم يخلق الله ممن أحتاج إلى نفسه في مثل هذا اليوم. ثم قال: يا غلام سر إليه واكشف عن حاله وقصته فوالله لئن كان فقيراً لأغنيته، ولئن كان شاكياً لأنصفته، ولئن كان مظلوماً لأنصرته، ولئن كان غنياً لأفقرته.

فخرج إليه الرسول متلقياً فسلم عليه فردّ عليه السلام. ثم قال له: ممن الرجل؟ قال: سيدي أنا رجل أعرابي من بني عذرة، أقبلت إلى أمير المؤمنين مشتكياً إليه بظلمة نزلت بي من بعض عماله. فقال له الرسول: أصبحت يا أعرابي؟ ثم سار به حتى وقف بين يديه فسلم عليه بالخلافة ثم أنشأ يقول:
معاوي يا ذا العلم والحلم والفضل ... ويا ذا الندى والجود والنابل الجزل
أتيتك لما ضاق في الأرض مذهبي ... فيا غيث لا تقطع رجائي من العدل
وجد لي بإنصاف من الجائر الذي ... شواني شيئاً كان أيسره قتلي

سباني سعدى وانبرى لخصومتي ... وجار ولم يعدل، وأغصني أهلي
قصدت لأرجو نفعه فأثابني ... بسجن وأنواع العذاب مع الكبل
وهم بقتلي غير أن منيتي ... تأبّت، ولم أستكمل الرزق من أجلي
أغثني جزاك الله عني جنة ... فقد طار من وجد بسعدى لها عقلي
فلما فرغ من شعره قال له معاوية: يا أعرابي إنني أراك تشتكي عاملاً من عمالنا ولم تسمه لنا! قال: أصلح الله أمير المؤمنين، وهو والله ابن عمك مروان بن الحكم عامل المدينة. قال معاوية: وما قصتك معه يا أعرابي. قال: أصلح الله الأمير، كانت لي بنت عم خطبتها إلى أبيها فزوجني منها. وكنت كلفاً بها لما كانت فيه من كمال جمالها وعقلها والقراية. فبقيت معها يا أمير

المؤمنين، في أصلح حال وأنعم بال، مسروراً زماناً، قرير العين. وكانت لي صرمة من إبل وشويهات، فكنت أعولها ونفسي بها. فدارت عليها أقضية الله وحوادث الدهر، فوقع فيها داءً فذهبت بقدرة الله. فبقيت لا أملك شيئاً، وصرت مهيناً مفكراً، قد ذهب عقلي، وساءت حالي، وصرت ثقلاً على وجه الأرض. فلما بلغ ذلك أباهما حال بيني وبينها، وأنكرني، وجحدني، وطرمني، ودفعها عني. فلم أدر لنفسي بحيلة ولا نصرة. فأتيت إلى عاملك مروان بن الحكم مشتكياً بعمي، فبعث إليه، فلما وقف بين يديه، قال له مروان: يا أيها الرجل لم حلت بين ابن أخيك وزوجته؟ قال: أصلح الله الأمير، ليس له عندي زوجة ولا زوجته من ابنتي قط. قلت أنا: أصلح الله الأمير، أنا راضٍ بالجارية، فإن رأى الأمير أن يبعث إليها ويسمع منها ما تقول؟ فبعث إليها فأنت الجارية مسرعة، فلما وقفت بين يديه ونظر إليها وإلى حسنهما وقعت منه موقع الإعجاب والاستحسان، فصار لي، يا أمير المؤمنين خصماً وانتهرني، وأمر بي إلى السّجن. فبقيت كأني خررت من السماء في مكانٍ سحيق، ثم قال لأبي بعدي: هل لك أن تزوجه مني، وأنقذك ألف دينار، وأزيدك أنت عشرة آلاف درهمٍ تنتفع بها، وأنا أضمن طلاقها؟ قال له أبوها: إن أنت فعلت ذلك زوجتها منك.

فلما كان من الغد بعث إليّ، فلما أدخلت عليه نظر إليّ كالأسد الغضبان، فقال لي: يا أعرابي طلق سعدى. قلت: لا أفعل. فأمر بضربي ثم ردني إلى السّجن، فلما كان في اليوم الثاني قال: عليّ بالأعرابي. فلما وقفت بين يديه، قال: طلق سعدى. فقلت: لا أفعل. فسلب عليّ يا أمير المؤمنين خدامه فضربوني ضرباً لا يقدر أحدٌ عليّ وصفه، ثم أمر بي إلى السّجن؛ فلما كان في اليوم الثالث قال: عليّ بالأعرابي، فلما وقفت بين يديه قال: عليّ بالسيف والنّطع وأحضر السيف، ثم قال: يا أعرابي، وجلالة ربّي، وكرامة والدي، لئن لم تطلق سعدى لأفرّق بين جسدك وموضع لسانك.

فخشيت على نفسي القتل فطلقتها طلبةً واحدةً على طلاق السنّة، ثم أمر بي إلى السّجن فحبسني فيه حتّى تمت عدّتها ثم تزوّجها، فبنى بها، ثم أطلقني. فأتيتك مستغيثاً قد رجوت عدلك وإنصافك، فارحمني يا أمير المؤمنين. فوالله يا أمير المؤمنين لقد أجهدني الأرق، وأذابني القلق، وبقيت في حبّها بلا عقل، ثم انتحب حتّى كادت نفسه تفيض. ثم أنشأ يقول:

في القلب منّي نارٌ ... والنّار فيه الدّمار
والجسم منّي سقيمٌ ... فيه الطّبيب يحار

والعين تهطل دمعاً ... فدمعها مدرار
حملت منه عظيماً ... فما عليه اصطبار
فليس ليلى ليلٌ ... ولا نهاري نهار
فارحم كئيباً حزيناً ... فواده مستطار
اردد عليّ سعادي ... يثيبك الجبار

ثم خرّ مغشياً عليه بين يدي أمير المؤمنين كأنه قد صعق به قال: وكان في ذلك الوقت معاوية متكئاً، فلما نظر إليه قد خرّ بين يديه قام ثم جلس، وقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. اعتدى والله مروان بن الحكم ضراراً في حدود الدين، وإحساراً في حرم المسلمين: ثم قال: والله يا أعرابي لقد أتيتني بحديث ما سمعت بمثله. ثم قال: يا غلام عليّ بداوةٍ وقرطاسٍ فكتب إلى مروان: أمّا بعد، فإنّه بلغني عنك أنّك اعتديت على رعيتك في بعض حدود الدين، وانتهكت حرمةً لرجلٍ من المسلمين. وإنّما ينبغي لمن كان والياً على كورةٍ أو إقليمٍ أن يغضّ بصره وشهواته، ويزجر نفسه عن لذّاته. وإنّما الوالي كالرّاعي لغنمةٍ، فإذا رفق به بقيت معه، وإذا كان لها ذنباً فمن يحوطها بعده. ثم كتب بهذه الأبيات:

وليت، ويحك أمراً لست تحكمه ... فاستغفر الله من فعل امرئ زاني
قد كنت عندي ذا عقلٍ وذا أدبٍ ... مع القراطيس تمثالاً وفرقان
حتّى أتانا الفتى العذريّ منتحباً ... يشكو إلينا ببثٍّ ثمّ أحزان
أعطي الإله يمينا لا أكفرها ... حقّاً وأبرأ من ديني ودياني
إن أنت خالفتني فيما كتبت به ... لأجعلنك لحماً بين عقباني
طلق سعاد وعجلها مجهزةً ... مع الكميت، ومع نصر بن ذبيان
فما سمعت كما بلغت في بشرٍ ... ولا كفعلك حقّاً فعل إنسان
فاختر لنفسك إمّا أن تجود بها ... أو أن تلاقي المنايا بين أكفان
ثمّ ختم الكتاب. وقال: عليّ بنصر بن ذبيان والكميت صاحبيّ البريد. فلما وقفا بين يده قال: اخرجوا بهذا الكتاب إلى مروان بن الحكم ولا تضعاه إلاّ بيده. قال فخرجوا بالكتاب حتّى وردا به عليه، فسلمّا ثمّ ناولاه الكتاب. فجعل مروان يقرأه ويردّده، ثمّ قام ودخل على سعدى وهو باكٍ، فلما نظرت إليه قالت له: سيدي ما الذي يبكيك؟ قال كتاب أمير المؤمنين، ورد عليّ في أمرك يأمرني فيه أن أطلقك وأجهّزك وأبعث بك إليه. وكنت أودّ أن يتركني معك حولين ثمّ يقتلني، فكان ذلك أحبّ إليّ. فطلقها وجهّزها ثمّ كتب إلى معاوية بهذه الأبيات: لا تعجلن أمير المؤمنين فقد ... أوفي بنذك في رفي وإحسان

وما ركبت حراماً حين أعجبني ... فكيف أدعى باسم الخائن الزاني
أعذر فإنك لو أبصرتها لجرت ... منك الأماقي على أمثال إنسان
فسوف يأتيك شمسٌ لا يعادلها ... عند الخليفة إنسٌ لا ولا جان
لولا الخليفة ما طَلَّقَها أبداً ... حتّى أضْمَنَ في لحدٍ وأكفان
على سعادٍ سلامٍ من فتى قلقٍ ... حتّى خلَّفَته بأوصابٍ وأحزان
ثمّ دفعه إليهما، ودفع الجارية على الصّفة التي حدّث له. فلمّا وردا على
معاوية فكّ كتابه وقرأ أبياته ثمّ قال: والله لقد أحسن في هذه الأبيات، ولقد
أساء إلى نفسه. ثمّ أمر بالجارية فأدخلت إليه، فإذا بجاريةٍ رعبوبةٍ لا تبقي
لناظرها عقلاً من حسنّها وكمالها. فعجب معاوية من حسنّها ثمّ تحوّل إلى
جلسائه وقال: والله إنّ هذه الجارية لكاملة الخلق فلئن كملت لها النّعمة مع
حسن الصّفة، لقد كملت النّعمة لمالكها. فاستنطقها، فإذا هي أفصح نساء
العرب. ثمّ قال: عليّ بالأعرابي.

فلمّا وقف بين يديه، قال له معاوية: هل لك عنها من سلو، وأعوّضك عنها
ثلاث جوارٍ أباكٍ مع كلّ جاريةٍ منهن ألف درهم، على كلّ واحدةٍ منهنّ عشر
خلع من الخزّ والدّيباج والحريّر والكتّان، وأجري عليك وعليهنّ ما يجري
على المسلمين، وأجعل لك ولهنّ حظاً من الصّلات والنّفقات؟ فلما أتمّ معاوية
كلامه غشي على الأعرابي وشهق شهقةً ظنّ معاوية أنّه قد مات منها. فلما
أفاق قال له معاوية: ما بالك يا أعرابي؟ قال: شرّ بال، وأسوأ حال، أعوذ بعد
لك يا أمير المؤمنين من جور مروان. ثمّ أنشأ يقول:

لا تجعلني هداك الله من ملكٍ ... كالمستجير من الرّمضاء بالنّار
أردد سعاد على حرّان مكتئبٍ ... يمسي ويصبح في همّ وتذكار
قد شفّته قلقٌ ما مثله قلقٌ ... وأسعر القلب منه أيّ إسعار
والله والله لا أنسى محبّتها ... حتّى أغيب في قبري وأحجاري
كيف السّلوّ وقد هام الفؤاد بها ... فإن فعلت فإني غير كفّار
فأجمل بفضلك وافعل فعل ذي كرمٍ ... لا فعل غيرك، فعل اللؤم والعار
ثمّ قال: والله يا أمير المؤمنين لو أعطيتني كلّ ما احتوته الخلافة ما رضيت به
دون سعدى. ولقد صدق مجنون بني عامر حيث يقول:
أبى القلب إلّا حبّ ليل وبغضت ... إليّ نساءً ما لهنّ ذنوب
وما هي إلّا أن أراها فجاءةً ... فأبْهت حتّى لا أكاد أجيب
فلما فرغ من شعره، قال له معاوية: يا أعرابي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين.
قال: إنك مقرّ عندنا أنّك قد طَلَّقَها، وقد بانّت منك ومن مروان، ولكن نخيرها

بيننا. قال: ذاك إليك، يا أمير المؤمنين. فتحول معاوية نحوها ثم قال لها: يا سعدى أينا أحب إليك: أمير المؤمنين في عزه وشرفه وقصوره، أو مروان في غصبه واعتدائه، أو هذا الأعرابي في جوعه وأطماره؟ فأشارت الجارية نحو ابن عمها الأعرابي، ثم أنشأت تقول:

هذا وإن كان في جوع وأطمار ... أعزّ عندي من أهلي ومن جاري
وصاحب التاج أو مروان عامله ... وكلّ ذي درهمٍ منهم ودينار
ثم قالت: لست، والله، يا أمير المؤمنين لحدثان الزمان بخاذلته، ولقد كانت لي معه صحبة جميلة، وأنا أحقّ من صبر معه على السراء والضراء، وعلى الشدة والرخاء، وعلى العافية والبلاء، وعلى القسم الذي كتب الله لي معه. فعجب معاوية ومن معه من جلسائه من عقلها وكمالها ومروعتها وأمر لها بعشرة آلاف درهم وألحقها في صدقات بيت المسلمين.⁽⁶³⁾

فرّقهما الفقر وجمعهما معاوية

قال الزبير حدثني أبي، قال: كان عندنا بالمدينة رجلٌ من قريش كانت له امرأة تعجبه ويعجبها، وكانت تحول بينه وبين طلب الرزق، وكلّ ذلك يحتمله لشدة محبته إياها فلمّا ساءت حاله وكثر دينه قال:
إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه ... شكى الفقر أو لام الصديق فأكثر
وصار على الأدنين كلاً وأوشكت ... قلوب ذوي القربى له أن تنكرا
فسر في بلاد الله والتمس الغنى ... تعش ذا يسارٍ أو تموت فتعذرا
ولا ترض من عيشٍ بدونٍ ولا تتم ... وكيف ينام الليل من كان معسرا
وما طالب الحاجات من حيث يبتغي ... من الناس إلّا من أجدّ وشمرا
فلما أصبح قال لامرأته: أنا، والله أحبّك، ولا صبر لي على ما نحن فيه من ضيق العيش، فجهّزيني. فجهّزته، فخرج حتّى قدم على معاوية بن أبي سفيان فقام بين الصّفين، فأخبره بحاله، وأنشده الشّعر. فرّق له، وأمر له بألف دينار وقال له: لقد دلّني حالك على محبّتك لأهلك وكراهيتك لفراقهم فخذ وانصرف إليهم فأخذها وانصرف راجعاً.⁽⁶⁴⁾

63 (ابن الجوزي ، أخبار النساء ، ص 1 - 4

64 (ابن الجوزي ، أخبار النساء ، ص 5

إني أحسب الاتفاق كان بعد حين

ويروى أن معاوية بن أبي سفيان، رحمه الله، رأى، كاتباً له يكلم جارية لامرأته فاختة بنت قريظة، في بعض طرق داره، فقال له: أتحبها؟ قال: أي والله، يا أمير المؤمنين. قال: أخطبها من فاختة. فخطبها. وكلم معاوية فاختة فأجابته، فزوجه منها، فدخل معاوية وبين يديه عتيدة من العطر لعرس جاريته، فقال: هوني عليك يا بنت قريظة، إني أحسب الاتفاق كان بعد حين. (65)

ثلاث خصال من السؤدد

قال معاوية، رضي الله عنه: ثلاث خصال من السؤدد، الصلح، واندماج البطن، وترك الإفراط في الغيرة. (66)

أذات عروس ترى؟!

ولما قتل عثمان، رضي الله عنه، وقفت يوماً على قبره نائلة بنت الفرافصة الكلبي، فترحمت عليه ثم انصرفت إلى منزلها، ثم قالت: إني رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب، وقد خفت أن يبلى حزن عثمان في قلبي. فدعت بفهر فهتفت فاهاً، وقالت: والله لا يقعد رجلٌ مني مقعد عثمان أبداً. وخطبها معاوية فبعثت إليه أسنانها، وقالت: أذات عروس ترى؟ وقالوا: لم يكن في النساء أحسن منها مضحكاً. (67)

حديث سمية الزانية

وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى: أن علياً عليه السلام ولّى زياداً فارس حين أخرج منها سهل بن حنيف فضرب بعضهم ببعض حتى غلب عليها، وما يزال يتنقل في كورها حتى أصلح أمر فارس. ثم ولّاه على اصطخر، وكان معاوية يتهدده، ثم أخذ بشر بن أرطاة ابنته وكتب إليه يقسم عليه ليقتلها إن لم يدخل في طاعة معاوية. وتوفي عليّ عليه السلام، فكتب معاوية يدعوهُ إلى طاعته وأن يقرّه على عمله ويستخلفه إذا كان أبو مريم السلولي شهد عنده أنه جمع بين أبي سفيان وسمية في الجاهلية على الزنا. وكانت سمية من الزانيات بالطائف تؤدّي الضريبة إلى الحارث بن كلفة. وكانت تنزل بموضع ينزل فيه البغايا بالطائف. فقال له: كره ترك المشورة من العي. فشاور زياد المغيرة بن

65 (ابن الجوزي ، أخبار النساء ، ص25

66 (ابن الجوزي ، أخبار النساء ، ص6

67 (ابن الجوزي ، أخبار النساء ، ص37

شعبة قال: إرم الغرض الأقصى ودع عنك الفضول، فإنّ هذا الأمر لا يمدّ أحدٌ إليه يداً إلّا الحسن بن علي. وقد بايع لمعاوية، فخذ لنفسك، وانقل أصلك إلى أصله، وصل حبلك بحبله، وأعر الناس منك أذنًا صمًا، وعينًا عمياء. فقال له زياد: يا ابن شعبة، لقد قلت قولاً لا يكون غرسه في غير منبته، لا أصل يغذيه ولا ماءً يسقيه. وعزم على ذلك، وقبل رأي المغيرة، وقدم على معاوية. فأرسلت إليه جويرة، عن أمر معاوية، فأتاها ودنت له وكشفت شعرها بين يديه وقالت: أنت أخي، أخبرني بذلك أبي.

ثمّ أخرجه معاوية إلى المسجد وجمع الناس، فقام أبو مريم السلولي فقال: أشهد أنّ أبا سفيان قدم علينا بالطائف، وأنا خمارٌ بالجاهليّة، فقال: ابغني بغياً فقلت له: لم أجد إلّا سميّة جارية الحارث بن كلفة! فقال: إئتني بها على ذفرها وقذرها. فقال زياد مهلاً، إنّما بعثت شاهداً ولم تبعث شاتماً. فقال أبو مريم: لو كنتم أبغضتموني كان أحبّ إليّ، فما شهدت إلّا بما عاينت ورأيت، فوالله لقد أخذ بكمّ درعها وأغلق الباب عليها، وقعدت، فلم ألبث أن خرج عليّ يمسح جبينه، فقلت: مه يا أبا سفيان؟ فقال: ما أصبت مثلها يا أبا مريم، لولا استرخاء من ثديها وذفر مرفقيها. فقال زياد: أيّها الناس، هذا الشاهد قد ذكر ما سمعتم، ولست أدري حقّ ذلك من باطله، ومعاوية والشهود أعلم بما قالوا. فقام يونس بن التّقي فقال: يا معاوية، قضى رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، بالولد للفراش؛ وشهادة أبي مريم على زنا أبي سفيان. فقال معاوية: والله يا يونس لتنتهين أو لأطيرن بك طيرةً يطيب وقوعها، هل إلّا إلى الله أقع، قال: نعم، فاستغفر الله. فقال ابن مفرع، ويقال أنّها لعبد الرحمن بن أمّ الحكم ونحلها ابن مفرع:

ألا أبلغ معاوية بن صخر ... مغلّةً على الرّجل اليماني
أتغضب أن يقال: أبوك عفّ ... وترضى أن يقال: أبوك زان
فاشهد أن آلك من زياد ... كآل الغيل من ولد الأتان (68)

أهذا كنت دبّرته من زمن عثمان؟

قيل لمعاوية بن أبي سفيان ما بلغ من عقلك قال ما وثقت بأحد قط. وقال ثعلب نظر معاوية يوم صفين إلى إحدى جنبتي عسكره وقد مالت فلمها فاستوت ثمّ نظر إلى الجنبّة الأخرى وقد مالت فلمحها فاستوت فقال له رجل من أصحابه أهذا كنت دبّرته من زمن عثمان؟ فقال هذا والله كنت دبّرته منذ زمن عمر رضى الله عنهم .

أي الأخوة أنت ؟

قال ابن الجوزي : وبلغنا أن رجلاً جاء إلى حاجب معاوية فقال له قل له على الباب أخوك لأبيك وأمك ثم قال له ما أعرف هذا ثم قال أئذن له فدخل فقال له أي الأخوة أنت ؟ فقال ابن آدم وحواء فقال يا غلام أعطه درهماً فقال تعطي أخاك لأبيك وأمك درهماً فقال لو أعطيت كل أخ لي من آدم وحواء ما بلغ إليك هذا .⁽⁶⁹⁾

أما من قبلك فلا

لما أسن معاوية اعتراه أرق وكان إذا هو نام أيقظته النواقيس⁽⁷⁰⁾ فلما أصبح ذات يوم ودخل الناس عليه قال يا معشر العرب هل فيكم من يفعل ما أمره به وأعطيته ثلاث ديات أعجلها له وديتين إذا رجع فقام فتى من غسان فقال أنا يا أمير المؤمنين قال تذهب بكتابي إلى ملك الروم فإذا صرت على بساطه أذنت قال ثم ماذا قال فقط قال لقد كلفت صغيراً وأعطيته كثيراً فلما خرج وصار على بساط قيصر أذن فحارت البطارقة واخترطوا سيوفهم فسبق إليه ملك الروم فجثى عليه وجعل يسألهم بحق عيسى وبحقه عليهم حتى كفوا ثم ذهب به إلى سريره حتى صعد به ثم جعله بين رجله فقال يا معشر البطارقة إن معاوية قد أسن ومن أسن أرق وقد آذنته النواقيس فأراد أن يقتل هذا على الآذان فيقتل من ببلاده على ضرب النواقيس وبالله ليرجعن إليه على خلاف ما ظن فكساه وجمله فلما رجع إلى معاوية قال له أوقد جنتني سالماً قال أما من قبلك فلا.

قد فعلت

وروي أن معاوية قال لعبد الله ابن عامر أن لي عندك حاجة تقضيها؟ قال : نعم ولي إليك حاجة أتقضيها؟ قال: نعم قال: سل حاجتك قال: أريد أن تهب لي دورك وضياعك بالطائف قال : قد فعلت فسل حاجتك قال : أن تردّها علي قال قد فعلت.⁽⁷¹⁾

قد خرف الشيخ

حج معاوية حجتين في خلافته وكانت له ثلاثون بغلة يحج عليها نساؤه وجواريه قال فحج في إحداها فرأى شيخاً يصلي في المسجد الحرام عليه

69 (ابن الجوزي ، الأذكياء ، ص12

70 (المقصود هنا نواقيس الأديرة والكنائس النصرانية

71 (الأذكياء، ص 51، 60 ، 63

ثوبان أبيضان فقال من هذا قالوا سعية بن غريض وكان من اليهود فأرسل إليه يدعوهُ فأتاه رسوله فقال أجب أمير المؤمنين قال أو ليس قد مات أمير المؤمنين قيل فأجب معاوية فأتاه فلم يسلم عليه بالخلافة فقال له معاوية ما فعلت أرضك التي بتيماء قال يكسى منها العاري ويرد فضلها على الجار قال أفتبيعها قال نعم قال بكم قال بستين ألف دينار ولولا خلة أصابت الحي لم أبعها قال لقد أغليت قال أما لو كانت لبعض أصحابك لأخذتها بستمئة ألف دينار ثم لم تبل قال أجل وإذ بخلت بأرضك فأنشدني شعر أبيك يرثي به نفسه فقال قال أبي

يا ليت شعري حين أندب هالكاً ... ماذا تُؤبِنني به أنواحي
أيقن لا تبعد فرب كَريهة ... فرجتها بشجاعةٍ وسَماح
ولقد ضربتُ بفضل مالي حقّه ... عند الشّتاء وهبّة الأرواح
ولقد أخذتُ الحقَّ غير مخاصم ... ولقد رددتُ الحقَّ غير مُلاحٍ
وإذا دُعيتُ لصعبةٍ سهّلْتُها ... أدعى بأفلح مرّةً ونَجاح
فقال أنا كنت بهذا الشعر أولى من أبيك قال كذبت ولؤمت قال أما كذبت فنعم
وأما لؤمت فلم قال لأنك كنت ميت الحق في الجاهلية وميته في الإسلام أما
في الجاهلية فقاتلت النبي والوحي حتى جعل الله عز و جل كيدك المردود وأما
في الإسلام فمنعت ولد رسول الله الخلافة وما أنت وهي وأنت طليق ابن طليق
فقال معاوية قد خرف الشيخ فأقيموه فأخذ بيده فأقيم. (72)

لقد أوتيت تميم الحكمة مع رقة حواشي الكلام

ودخل الأحنف بن قيس على معاوية بن أبي سفيان فأشار له الى الوساد فقال له اجلس فجلس على الارض فقال معاوية ما منعك يا احنف من الجلوس على الوساد فقال يا أمير المؤمنين إن فيما أوصى به قيس بن عاصم المنقري ولده أن قال لا تغش السلطان حتى يملك ولا تقطعه حتى ينسأك ولا تجلس له على فراش ولا وساد واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين فانه عسى ان يأتي من هو أولى بذلك المجلس منك فتقام له فيكون قيامك زيادة له ونقصا عليك حسبي بهذا المجلس يا أمير المؤمنين لعله ان يأتي من هو أولى بذلك المجلس مني فقال معاوية لقد أوتيت تميم الحكمة مع رقة حواشي الكلام وأنشأ يقول

ياأيها السائل عما مضى ... وعلم هذا الزمن العائب
ان كنت تبغي العلم أو أهله ... أو شاهدا يخبر عن غائب
فاعتبر الارض بسكانها ... واعتبر الصاحب بالصاحب

لا تبطىء ولا تخطىء

قال ابن الاعرابي قال معاوية بن أبي سفيان لصحار بن عياش العبدى ما هذه
البلاغة التي فيكم قال شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا فقال له
رجل من عرض القوم يا أمير المؤمنين هم بالبسر (73) والرطب أبصر منهم
بالخطب فقال له صحار أجل والله انا لنعلم ان الريح لتنفخه وان البرد ليعقده
وان القمر ليصبغه وان الحر لينضجه فقال له معاوية ما تعدون البلاغة فيكم
قال الايجاز قال له معاوية وما الايجاز قال له صحار ان تجيب فلا تبطىء وأن
تقول فلا تخطىء فقال معاوية او كذلك تقول قال صحار أقلني يا أمير
المؤمنين لا تبطىء ولا تخطىء.

استريح منه اليك

- وقال معاوية بن ابي سفيان للنخار بن أوس العذري ابغني محدثا قال او
معي يا امير المؤمنين قال نعم استريح منه اليك ومنك اليه .

هل كان بينك وبين أمها قرابة؟

دعا معاوية بن أبي سفيان الحسن بن علي رضي الله عنه إلي طعام ، وحين
وضع بين يدي الحسن عليه السلام، دجاجة، ففكها، نظر إليه معاوية، فقال:
هل كان بينك وبينها عداوة؟ فقال له الحسن: هل كان بينك وبين أمها
قرابة؟ (74)

حتى نبهني أمير المؤمنين

عن أبي شجرة، يزيد بن شجرة الرهاوي، أنه بينما هو يساير معاوية بن أبي
سفيان، ومعاوية يحدثه عن يوم خزاعة وبني مخزوم وقريش، وكان هذا قبل
الهجرة، وكان يوماً أشرف فيه الفريقان على الهلكة حتى جاءهم أبو سفيان
فارتفع ببعيره على رابية، ثم أوماً بكفيه إلى الفريقين، فانصرفوا.
قال: فبينما معاوية يحدث يزيد بن شجرة بهذا الحديث، إذ صك وجه يزيد حجر
عائر فأدماه، وجعلت الدماء تسيل من وجهه على ثوبه، وهو ما يمسح
وجهه.

73 (البسر : ثمر النخل قبل أن يرطب والغض الطري من كل شيء .

74 (الجاحظ ، التاج في أخلاق الملوك ، ص2

فقال له معاوية: لله أنت! ما ترى ما نزل بك؟ قال: وما ذاك، يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا دم وجهك يسيل على ثوبك! قال: أعتق ما أملك، إن لم يكن حديث أمير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري، وغطى على قلبي، فما شعرت بشيء حتى نبهني أمير المؤمنين.

فقال له معاوية: لقد ظلمك من جعلك في ألف من العطاء، أخرجك من عطاء أبناء المهاجرين، وكماة أهل صفين، فأمر له بخمسمائة ألف درهم، وزاده في عطائه ألف درهم، وجعله بين جلده وثوبه.

كيف ذلك، والله أنت!

ويحكى عن معاوية بن أبي سفيان، بينا هو يسير وشرحبيل ابن السمط يسايره، إذ راثت دابة شرحبيل؛ فقال معاوية: يا أبا يزيد! إنه يقال إن الهامة إذا عظمت، دلت على وفور الدماغ، وصحة العقل. قال: نعم، يا أمير المؤمنين، إلا هامتي فإنها عظيمة، وعقلي ضعيف ناقص.

فتبسم معاوية، وقال: كيف ذلك، والله أنت! قال: لإطعامي هذا النائل أمه البارحة مكوكي شعير. فضحك معاوية، وقال: كيف ذلك، والله أنت! قال: لإطعامي هذا النائل أمه البارحة مكوكي شعير. فضحك معاوية، وقال: أفحشت، وما كنت فاحشاً! وحمله على دابة من مراكبه. (75)

أنا صاحبه

وهكذا فعل معاوية بن أبي سفيان في يوم عيد، وقد قعد للناس، ووضعت الموائد وبدر الدراهم والدنانير للجوائز والصلوات فجاء رجل من الجماعة، والناس يأكلون، فقعد على كيس فيه دنانير. فصاح به الخدم: تتح! فليس هذا بموضع لك.

فسمع معاوية، فقال: دعوا الرجل يقعد حيث انتهى به المجلس فأخذ كيساً، فوضعه بين بطنه وحجرة سراويله، وقام. فلم يجسر أحد أن يدنو منه. فقال الخادم: أصلح الله أمير المؤمنين! إنه قد نقص من المال كيس دنانير. فقال: أنا صاحبه، وهو محسوب لك. (76)

أمير المؤمنين السعيد، وأنا ابن مرة!

ومن حق الملك، إذا دخل عليه رجل، وكان اسم ذلك الرجل الداخل أحد صفات الملك، فسأله الملك عن اسمه، أن يكني عنه، ويجيب باسم أبيه؛ كما فعل

75 (الجاحظ ، التاج في أخلاق الملوك ، ص18

76 (الجاحظ ، التاج في أخلاق الملوك ، ص22

سعيد بن مرة الكندي، حين أتى معاوية، فقال له: أنت سعيد؟ فقال: أمير المؤمنين السعيد، وأنا ابن مرة! (77)

فهل ترى أحداً يدخل من الباب إلا بإذن؟

ويقال أن يزيد بن معاوية كان بينه وبين أبيه باب. فكان إذا أراد الدخول عليه قال: يا جارية! انظري هل تحرك أمير المؤمنين.

فجاءت الجارية مرة حتى فتحت الباب، فإذا معاوية قاعد، وفي حجره مصحف، وبين يديه جارية تصفح عليه. فأخبرت يزيد بذلك.

فجاء يزيد، فدخل على معاوية. فقال له: أي بني! إني إنما جعلت بيني وبينك باباً، كما بيني وبين العامة. فهل ترى أحداً يدخل من الباب إلا بإذن؟ قال: لا قال: فذلك فليكن بابك! فإذا قرع عليك فهو إذنك. (78)

رأي معاوية في ما يستحسن من الشعر

قال معاوية بن أبي سفيان لعبد الرحمن بن الحكم: أراك تعجب بالشعر، فإن فعلت فأياك والتشبيب بالنساء فإنك تعر به الشريفة وترمي به العفيفة وتقر على نفسك بالفضيحة، وإياك والهجاء فإنك تحنق به كريماً وتستثير به لئيماً، وإياك والمدح فإنه كسب الوقاح وطعمة السؤال، ولكن افخر بمفاخر قومك، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك وشعرك وتودد به إلى غيرك. (79)

هكذا قومي رهبان بالليل ملوك بالنهار

عن سعيد بن عمرو قال: وفد عبد الله جعفر على معاوية بن أبي سفيان فأنزله في داره فقالت له ابنة قرظة امرأته: إن جارك هذا يسمع الغناء، قال: فإذا كان ذلك فأعلميني فأعلمته فاطلع عليه فإذا جارية له تغنيه وهي تقول: إنك والله لذو ملة... يطرفك الأدنى عن الأبعد

وهو يقول: يا صدقكاه. قال: ثم قال اسقيني قالت: ما أسقيك؟ قال: ماء وعسلاً، قال: فانصرف معاوية وهو يقول: ما أرى بأساً. فلما كان بعد ذلك قالت له: إن جارك هذا لا يدعنا ننام الليل من قراءة القرآن، قال: هكذا قومي رهبان بالليل ملوك بالنهار. (80)

77 (الجاحظ ، التاج في أخلاق الملوك ، ص18

78 (الجاحظ ، التاج في أخلاق الملوك ، ص27

79 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 1 / 314

80 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 1 / 359

وأخبرتكم بما لا تعرف فاخترته

عن عبد الله بن الحسن، قال: قال معاوية لابن أبي أحمد: أصبت لنا مالاً أبتاعه؟ فأتاه فقال: قد أصبت لك مالا، قال: ما هو؟ قال: البلدة، قال: لا حاجة لي بها، قال: النخيل، قال: لا حاجة لي فيه، قال: ودعان، قال: لا حاجة لي فيه، قال: الغابة، قال: نعم، اشترها، قال له: يا أمير المؤمنين! سميت لك أموالاً تعرفها فكرهتها، وأخبرتكم بما لا تعرف فاخترته، قال: نعم، سميت لي البلدة فتبدلت علي، وسميت النخيل فكان مصغراً، وسميت لي ودعان فنهتني نفسي عنها، وسميت لي الغابة فعلمت أن بها كثرة الماء، وقد قال الأول: إن كنت تبغي العلم أو مثله ... أو شاهداً يخبر عن غائب فاعتبر الأرض بأسمائها ... واعتبر الصاحب بالصاحب⁽⁸¹⁾

يا بني! أنت حمار ونشتري لك حماراً

جلست ميسون بنت بحدل الكلبية ترجل ابنها يزيد بن معاوية، وميسون يومئذ مطلقة، ومعاوية وفاخته بنت قرظة ينظران إليهما، ويزيد وأمه لا يعلمان، فلما فرغت من ترجيله نظرت إليه فأعجبها وقبلت بين عينيه، فقال معاوية بيتاً من شعر:

إذا مات لم تغلح مزينة بعده ... فنوطي عليه يا مزين التمائما
قال: ومضى يزيد فأتبعه فاخته بصرها، وقالت: لعن الله سواد ساقي أمك، فقال معاوية: قد رأيتهما؟ أما والله على ذاك لما فرجت عنه وركاها خير مما تفرجت عنه وركاك.

وكان لمعاوية من بنت قرظة عبد الله، وكان أحقق الناس، قالت فاخته: لا والله ولكنك تؤثر هذا عليه، فقال: سوف أبين لك ذلك حتى تعرفيه قبل أن تقومي من مجلسك، يا غلام! ادع لي عبد الله، فدعاه فقال له معاوية: يا بني! إنني قد أردت أن أسعفك وأن أصنع بك ما أنت أهله، فسل أمير المؤمنين فلست تسله شيئاً إلا أعطاكه. فقال: حاجتي أن تشتري لي كلباً فارهاً وحماراً، فقال معاوية: يا بني! أنت حمار ونشتري لك حماراً، قم فاخرج، قال: كيف رأيت؟ يا غلام! ادع لي يزيداً، فدعاه.

فقال: يا بني! إن أمير المؤمنين قد أراد أن يسعفك ويوسع عليك ويصنع بك ما أنت أهله، فاسأله ما بدا لك، قال: فخر ساجداً ثم قال حين رفع رأسه: الحمد لله الذي بلغ أمير المؤمنين هذه المدة، وأراه في هذا الرأي، حاجتي أن

تعقد لي العهد من بعدك، وتولياني العام صائفة المسلمين، وتحسن جهازي وتقويني، فتكون الصائفة أول أسفاري، وتأذن لي في الحج إذا رجعت وتولياني الموسم، وتزيد أهل الشام عشرة دنائير لكل رجل، وتجعل ذلك بشفاعتي، وتفرض لأيتام بني جمح وأيتام بني سهم وأيتام بني عدي، قال: مالك ولبني عدي؟ قال: لأنهم جالفوني وانتقلوا إلى داري، قال معاوية: قد فعلت - إذا رجعت - ذلك بك، وقبل وجهه وقال لابنة قرظة: كيف رايت؟ قالت: يا أمير المؤمنين! أوصه بي، فأنت أعلم به، ففعل.

قال القاضي: قدر رويننا هذا الخبر من طريق آخر، وفيه: أن عبد الله سأل مالاً وأرضاً، وأن يزيد قال لمعاوية: اعتقتني من النار أعتق الله رقبتك من النار، فقال له: وكيف؟ قال: لأنني وجدت في الأثر أنه " من تقلد أمر الأمة ثلاثة أيام حرمه الله على النار " ، فاعهد إلي من بعدك. (82)

الرد الخالص

قال سعيد بن العاص لمعاوية وهو معه على سريرته: يا أمير المؤمنين! والله لكأن عمتك هذه خمرة هند عند بعض أزواجها فيما يوصف لي. قال: فلم يجبه معاوية بشيء.

ودخل سليمان بن صرد، فقال له معاوية: مرحباً، هاهنا فأجلسه بينه وبين سعيد على السرير، فسأله طويلاً، ثم قال له: كيف بر هذا بك؟ فقال سعيد: ما أردت بهذا يا أمير المؤمنين؟ قال: وما أردت بخمرة هند. (83)

بم سدت قومك؟

قال معاوية لعرابة الأوسي: بم سدت قومك؟ قال: كنت أعطي سائلهم، وأعفو عن جاهلهم، وأسعى في مصالحهم، فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي، ومن زاد عليه فهو خيرٌ مني ومن قصر عنه فأنا خير منه. (84)

سأكل منها ولو شققت بطنك

حج معاوية رحمه الله وكان عامله على المدينة مروان، فلما ورد المدينة هياً له مروان طعاماً فأكثر وجوده، فلما حضر الغداء جاء متطببٌ نصراني لمعاوية فوقف وجعل إذا أتى لونٌ قال: كل يا أمير المؤمنين من هذا، وإذا أتى لونٌ ظن أنه لا يوافقه، قال: لا تأكل من هذا.

82 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 164/1

83 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 166/1

84 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 198/1

فلما كان في بعض غدائهم، أقبل زنجيان مؤترزان بربطتين بيضاويين يدلحان بجفنة لها أربع حلقات مترعة حيساً⁽⁸⁵⁾، فلما رآها معاوية استشرف لها وحسر عن ذراعيه، فقال له الطبيب: أي شيء تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد - والله - أن أواقع ماتري، قال: أمزق ثيابي، قال: ولو مزقت بطنك، فجعل يدبل مثل دبل البعير ويقذف في جوفه حتى إذا نهل، قال: يا مروان! ما حيسكم هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين، عجوة ناعمة، وإقطة مزنية، وسمنة جهنمية، قال: هذه - والله - الأشقية جمعت لا كما يقول هذا النصراني⁽⁸⁶⁾.

بين معاوية وابن الزبير

لما حج معاوية مر بالمدينة فلقيه عبد الله بن الزبير فقال: آعدني على الوليد بن عتبة فقد تزايد خطله، وذهب به جهله إلى غاية تقصر عنها الأنوق⁽⁸⁷⁾، ودون قرارها العيوق⁽⁸⁸⁾، فقال معاوية: والله ما يزال أحدكم يأتيني يغلي جوفه غلي المرجل على ابن عمه، فقال ابن الزبير: أما والله ما ذاك عن فرار منه ولا جبن عنه، ولقد علمت قريش أنني لست بالفه⁽⁸⁹⁾ الكهام⁽⁹⁰⁾ ولا بالهلباجة⁽⁹¹⁾ النثر⁽⁹²⁾، فقال له معاوية: إنك لتهددني وقد عجزت عن غلام من قريش لم يبر في سباق⁽⁹³⁾ ولا ضرب في سياق⁽⁹⁴⁾، وإن شئت خلينا بينك وبينه، فقال ابن الزبير: ما مثلي يهارش به، ولكن عندك من

85 (الحَيْسُ : نوع من الحلوي عبارة عن تمر ينزع نواه ويدقّ مع أقطٍ ويعجنان بالسمن ثم يدلك باليد حتى يبقى كالثرید وربما جعل معه سويق وهو مصدر في الأصل يقال

86 (المعافى بن زكريا ، الجليس الصالح والأنيس الناصح ، 204/1

87 (وهو طائر يرتاد لبيضه شوامخ الجبال وحيث يبعد متناوله ويخفى مكانه، فلا يكاد إنسان يجده أو يصل إليه، والعرب تضرب المثل في من طلب ما يعز وجوده ويتعذر إدراكه ونيله فيقولون: إنه يطلب بيض الأنوق.

88 (العيوق : نجم عال معروف.

89 (الرَّجْلُ الْفَهُّ، وهو الْعَيْيُّ ، ومعنى الفهاهة في الكلام ما يأتي على غير استقامةٍ

90 (الْكَهَامُ : الْكَلِيلُ النَّوَامُ

91 (الهلباجة : الأحمق الذي لا أحمق منه .

92 (النثر : ذو الرأي السخيف واللب الضعيف.

93 (: لم يبر في سباق: أي لم يسبق مجارياً فيفضله ويظهر غلبته إياه، يقال: أبر فلان على فلان إذا غلبه وزاد في الفضل عليه، ببر إبراراً فهو مبر، كما قال ذو الرمة يمدح بلال بن أبي بردة:

أبر على الخصوم فليس خصم ... ولا خصمان يغلبه جدالا

ولبس بين أقوام فكل ... أعد له الشغارب والمحالا

94 (ولا ضرب في سياق معناه أنه لم يرض فيحتنك ولم يؤخذ بالثقيف ولذع التأديب فتستحكم عزيمته وتستحصد مرته.

قريش والأنصار ومن ساكني الحجون والآطام (95) من إن سألت حملك على محجة أبين من ظهر الجفير، قال: ومن ذلك؟ قال: هذا، يعني أبا الجهم بن حذيفة، فقال معاوية: تكلم يا أبا الجهم. فقال: أعفني، قال: عزمت عليك لتقولن، قال: نعم أمك هند، وأمه أسماء بنت أبي بكر، وأسماء خير من هند، وأبوك أبو سفيان وأبوه الزبير، ومعاذ الله أن يكون أبو سفيان مثل الزبير، وأما الدنيا فلك وأما الآخرة فله، إن شاء الله. (96)

إن العباءة لا تكلمك

دخل النخار العذري النسابة على معاوية وعليه عباءة فكلمه فأعرض عنه، فقال: يا معاوية إن العباءة لا تكلمك، إنما يكلمك من فيها، فأقبل عليه (97)

أشرف من حرب بن أمية من أكفأ عليه إناءه

عن الشعبي قال: دخل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على معاوية وعنده يزيد ابنه، فجعل يزيد يعرض بعبد الله في كلامه وينسبه إلى الإسراف في غير مرضاة الله، فقال عبد الله ليزيد: إني لأرفع نفسي عن جوابك، ولو صاحب السرير يكلمني لأجبتة؛ قال معاوية: كأنك تظن أنك أشرف منه قال: إي والله، ومنك ومن أبيك وجدك، فقال معاوية: ما كنت أحسب أن أحداً في عصر حرب بن أمية يزعم أنه أشرف من حرب بن أمية، قال عبد الله: بلى والله يا معاوية، إن أشرف من حرب بن أمية من أكفأ عليه إناءه وأجاره بردائه، قال: صدقت يا أبا جعفر، سل حاجتك فقتضى حوائجه وخرج. (98)

معاوية واللقمة التي لم تكتب له

عن عبد الملك بن مروان قال: جلست مع معاوية على غدائه فأخذ لقمةً فهيأها، وأخذ يتحدث فوضعها، فأخذتها، فعل ذلك مراراً يضعها وأخذها وألقمها، فسمعتة يقول وهو يخطب: إن الرجل ليرفع اللقمة إلى فيه يراها من رزق الله له قد كتبها لغيره فيأكلها الذي كتبت له.

95 (من ساكني الحجون والآطام " : فإن الحجون موضع بمكة معروف وإياه عنى الشاعر بقوله:

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
وقال آخر:

هيجتني إلى الحجون شجون ... ليته قد بدا لعيني الحجون

96 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 279/1

97 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 286/1

98 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 324/1

وأصبح الناس مسلمين وأنت أمير المؤمنين

لما مرض معاوية أرجف به مصقلة البكري ثم قدم عليه وقد تماثل، فأخذ معاوية بيديه فقال:

أبقى الحوادث من خليك مثل جندله المراجع

قد رامني الأقوام قبلك فامتنعت من المظالم

فقال مصقلة: قد أبقى الله منك يا أمير المؤمنين ما هو أعظم من ذلك: حلماً وكلاً ومرعى لوليك، وسمّاً ناقعاً لعدوك، كانت الجاهليّة وأبوك سيّد المشركين ، وأصبح الناس مسلمين وأنت أمير المؤمنين. (99)

بين ابن عباس ومعاوية

عن عكرمة قال: لما قدم معاوية الحجاز دخل عليه أبوك عبد الله بن عباس فسلم عليه، فقال له معاوية: الله أعلم حيث يجعل رسالته، فقال له أبوك: الحمد لله الذي أنطقك يا معاوية بالحقّ، وعرفك حقّاً وفضلنا، وأنا أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. فقال له معاوية: فكيف رأيت الله عز وجل حيث حرمكم هذا الأمر الذي عرّضتم له أكتافكم؟ فقال له أبوك: إنه كان من عزائم قدرة الله ما يذودنا عن الدنيا وموارد الهلكة أن قال: " قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلاً " النساء: 77 " ؛ فو الله يا معاوية لولا طاعة الله لما قدرت أن تغرف بدلوك في طويّ شدّ عليه هاشم رشاءً؛ فتضاحك معاوية وقال: أما زحك فلا تحلم يا ابن عباس؟ فقال له أبوك: عمن أحلم؟ عمن يرى أن له الفضل؟! ثم نفص ثوبه اخرج فجذبه معاوية وقال: يا ابن عباس عندي ثوب من عصب اليمن وثوبان من نسج العجم فأهديهما إليك. فلبسهما أبوك وغدا عليه فيهما فقال الشاعر: في ذلك

إن الثياب بآل هاشم زينة ... تزهو ويضعف حسنهما في المشهد
وبنو أمية في الثياب تراهم ... شبه القروذ أدلّة في المحتد (100)

أمنيات متفاوتة

قعد معاوية وعمرو ذات يوم فقال معاوية، ما شيء أصيبه أحبّ إليّ من عين فوّارة في أرض خوّارة، أصيبها من صاحبها بطيب نفسه؛ فقال له عمرو: لكنّي لست هكذا، ما شيء أصيبه أحبّ إليّ من أن أصبح عروساً بعقيلة من عقائل العرب؛ ورجلٌ جالسٌ فقال: ولكنّي لست هكذا، ما شيء أصيبه أحبّ

99 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 459/1

100 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 467/1

إليّ من الفضل على الأخوان. فقال معاوية: أنا أحقّ بها منك لا أمّ لك، قال: فقد قدرت يا أمير المؤمنين. (101)

معاوية يعيب أهل اليمن فيعيب اليمني قوم معاوية

عن أبي الزناد قال، قال معاوية لرجل من أهل اليمن: ما كان أجهل قومك حيث قالوا: " ربّنا باعد بين أسفارنا " سبأ:19 " وحيث ملكوا أمرهم امرأة. فقال: أجهل منهم قومك يا أمير المؤمنين قالوا حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء " الآية " الأنفال:32 " ألا قالوا: " اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له. (102)

اتفاقهما في المعنى واختلافهما في اللفظ

ولما قدم معاوية من الشام - وكان عمر قد استعمله عليها - دخل على أمه هند، فقالت له: يا بني، إنه قلما ولدت حرة مثلك، وقد استعملك هذا الرجل، فاعمل بما وافقه، أحببت ذلك أم كرهته. ثم دخل على أبيه أبي سفيان، فقال له: يا بني، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا. فصرنا أتباعاً وصاروا قادة. وقد قلدوك جسيماً من أمرهم، فلا تخالفن أمرهم، فإنك تجري إلى أمد لم تبلغه ولو قد بلغته لنوفست فيه.

قال معاوية: فعجبت من اتفاقهما في المعنى على اختلافهما في اللفظ. (103)

كف عنه يا بن عباس فإنك لا تشاء أن تغلب إلا غلبت

ومما يصحب به السلطان: أن لا يسلم على قادم بين يديه، وإنما استن ذلك زياد، وذلك أن عبد الله بن عباس قدم على معاوية وعنده زياد، فرحب به معاوية وأطفه وقرب مجلس، ولم يكلمه زياد شيئاً فابتدأه ابن عباس وقال: ما حالك أبا المغيرة؟ كأنك أردت أن تحدث بيننا وبينك هجراً! قال: لا، ولكنه لا يسلم على قادم بين يدي أمير المؤمنين؛ فقال له ابن عباس: ما ترك الناس التحية بينهم بين يدي أمرائهم. فقال له معاوية: كف عنه يا بن عباس فإنك لا تشاء أن تغلب إلا غلبت. (104)

101 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 470/1

102 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 481/1

103 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 2 / 1

104 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 3 / 1

لهذا بعثت إلي!

قدم معاوية من الشام، وعمرو بن العاص من مصر، على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأقعدهما بين يديه، وجعل يسألهما عن أعمالهما، إلى أن اعترض عمرو في حديث معاوية، فقال له معاوية: أعملي تعيب وإلي تقصد؟ هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملي وأخبره عن عملك. قال عمرو: فعلت أنه بعملي أبصر مني بعمله، وأن عمر لا يدع أول هذا الحديث حتى يصير إلى آخره، فأردت أن أفعل شيئاً أشغل به عمر عن ذلك، فرفعت يدي فلطمت معاوية. فقال عمر: تالله ما رأيت رجلاً أسفه منك، قم يا معاوية فاقتص منه. قال معاوية: إن أبي أمرني أن لا أقضي أمراً دونه. فأرسل عمر إلى أبي سفيان، فلما أتاه ألقى له وسادة، وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا أتاكم كريم قوم فأكرموا. ثم قص عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية. فقال: لهذا بعثت إلي! أخوه وابن عمه، وقد أتى غير كبير، وقد وهبت ذلك له: وقالوا: ينبغي لمن صحب السلطان أن لا يكتم عنه نصيحة وإن استثقلها وليكن كلامه له كلام رفق لا كلام خرق، حتى يخبره بعيبه من غير أن يواجهه بذلك، ولكن يضرب له الأمثال ويخبره بعيب غيره ليعرف عيب نفسه. (105)

اتقوا أكرم قريش وابن كريمها

كان عمرو بن العاص يقول في معاوية: اتقوا أكرم قريش وابن كريمها، من يضحك في الغضب، ولا ينام إلا على الرضا، ويتناول ما فوقه من تحته.

كيف ترى هؤلاء وما هم عليه؟

وقال عمرو بن العاص رأيت معاوية في بعض أيامنا بصفين خرج في عدة لم أراه خرج في مثلها، فوقف في قلب عسكره، فجعل يلحظ ميمنته فيرى فيها الخل، فيبدر إليه من يسده؛ ثم يفعل ذلك بميسرته، فتغنيه اللحظة على الإشارة. فدخله زهو مما رأى، فقال: يا ابن العاص، كيف ترى هؤلاء وما هم عليه؟ فقلت: والله يا أمير المؤمنين، لقد رأيت من يسوس الناس بالدين والدنيا، فما رأيت أحد تأتي له من طاعة رعيته ما تأتي لك من هؤلاء. فقال: أفندري متى يفسد هذا؟ وفي كم ينتقض جميعه؟ قلت: لا. قال: في يوم واحد. قال: فأكثر التّعجب. قال: إي والله، وفي بعض يوم، قلت: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كذبوا في الوعد والوعيد، وأعطوا على الهوى لا على الغناء، فسد جميع ما ترى. (106)

105 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 4

106 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 6

وأكون أنا للرافة والرحمة

عن الشعبي، قال: قال زياد: ما غلبني أمير المؤمنين معاوية في شيء من السياسة إلا مرة واحدة، استعملت رجلاً فكسر خراجه، فخشي أن أعاقبه ففر إليه واستجار به فأمنه. فكتبت إليه: إن هذا أدب أسوأ من قبلي. فكتب إلي: إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا نلين جميعاً فتمرح الناس في المعصية، ولا نشدد جميعاً فنحمل الناس على المهالك، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرافة والرحمة. (107)

أنا أكبر أم أنت؟

وقال معاوية لأبي الجهم العدوي: أنا أكبر أم أنت؟ فقال: لقد أكلت في عرس أمك يا أمير المؤمنين. قال: عند أي أزواجها؟ قال: عند حفص ابن المغيرة. قال: يا أبا الجهم، إياك والسلطان، فإنه يغضب غضب العصبي، ويأخذ أخذ الأسد.

وأبو الجهم هذا هو القائل في معاوية بن أبي سفيان:
ونغضبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرماً ولينا
نميل على جوانبه كأننا ... نميل إذا نميل على أبينا

ما أظنك إلا صادقاً

وقدم عقبة الأسدي على معاوية، ورفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات:
معاوي إننا بشر فأسجح ... فلسنا بالجمال ولا الحديد
أكلتم أرضنا فجردتمونا ... فهل من قائم أو من حصيد
أتطمع بالخلود إذا هلكننا ... وليس لنا ولا لك من خلود
فهبنا أمة هلكت ضياعاً ... يزيد أميرها وأبو يزيد
فدعا به معاوية، فقال: ما جرأك علي؟ قال: نصحتك إذ غشوك، وصدقتك إذ كذبوك. فقال: ما أظنك إلا صادقاً، وقضى حوائجه.

ولو أدبته على الأولى ما عاد إلى الثانية

عن الأصمعي قال: خاطر رجل رجلاً أن يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يده على كفله ويقول: سبحان الله يا أمير المؤمنين! ما أشبه عجيزتك (108) بعجيزة أمك هند! ففعل ذلك. فلما انفتل معاوية عن صلاته قال: لا يا بن أخي، إن أبا سفيان كان إلى ذلك منها أميل، فخذ ما جعلوا لك، فأخذه.

ثم خاطر أيضاً أن يقوم إلى زياد وهو في الخطبة فيقول له: أيها أمير، من أبوك؟ ففعل. فقال له زياد: هذا يخبرك، وأشار إلى صاحب الشرطة، فقدمه فضرب عنقه.

فلما بلغ معاوية، قال: ما قتله غيري، ولو أدبته على الأولى ما عاد إلى الثانية. (109)

واحدة بأخرى والبادئ أظلم

دخل خريم الناعم على معاوية بن أبي سفيان، فنظر معاوية إلى ساقيه، فقال: أي ساقين، لو أنهما على جارية! فقال له خريم: في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين. قال: واحدة بأخرى والبادئ أظلم (110).

هذا رجل فاستوص به خيراً

قعد معاوية بالكوفة يبايع الناس على البراءة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، نطيع أحياءكم ولا نتبرأ من موتاكم فالتفت إلى المغيرة فقال له: هذا رجل فاستوص به خيراً (111).

كما نلي أموركم كذلك نلي آدابكم

وقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية، فأذن للأحنف ثم أذن لابن الأشعث، فأسرع في مشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله. فلما رآه معاوية غمه ذلك وأحنقه، فالتفت إليه، فقال: والله إني ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله. وأنا كما نلي أموركم كذلك نلي آدابكم، ولا يزيد متزید في خطوه إلا لنقص يجده من نفسه. (112)

إن دعا أجيب وإن سأل أعطي

استأذن أبو الدرداء على معاوية فحجبه، فقال: من يغش أبواب الملوك يقم ويقعد، ومن يجد باباً مغلقاً يجد إلى جانبه باباً مفتوحاً، إن دعا أجيب وإن سأل أعطي. (113)

109 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 15)

110 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 16)

111 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 18)

112 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 20)

113 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 21)

والله لقد وضعت رجله في ركاب طويل

وكتب المغيرة بن شعبة إلى معاوية، حين كبر وخاف أن يستبدل به: أما بعد، فقد كبرت سني، ورق عظمي، واقترب أجلي، وسفهني سفهاء قريش، فرأى أمير المؤمنين في عمله موفق.

فكتب إليه معاوية: أما ما ذكرت من كبر سنك، فأنت أكلت شبابك؛ وأما ما ذكرت من اقتراب أجلك، فإني لو أستطيع دفع المنية لدفعتها عن آل أبي سفيان؛ وأما ما ذكرت من سفهاء قريش، فحلمأوها أحلوك ذاك المحل؛ وأما ما ذكرت من أمر العمل، فضح رويداً يدرك الهيجا حمل.

فلما انتهى الكتاب إلى المغيرة، كتب إليه يستأذنه في القدوم عليه، فأذن له، فخرج وخرجنا معه. فلما دخل عليه قال له: يا مغيرة، كبرت سنك، ورق عظمك، ولم يبق منك شيء، ولا أراني إلا مستبدلاً بك. قال المحدث عنه: فانصرف إلينا ونحن نرى الكآبة في وجهه، فأخبرنا بما كان من أمره قلنا له: فما تريد أن تصنع؟ قال: ستعلمون ذلك. فأتى معاوية فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الأنفس ليغدى عليها ويراح، ولست في زمن أبي بكر ولا عمر، فلو نصبت لنا علماً من بعدك نصير إليه، فإني قد كنت دعوت أهل العراق إلى بيعة يزيد. فقال: يا أبا محمد، انصرف إلى عملك ورم هذا الأمر لابن أخيك. فأقبلنا تركض على النجب، فالتفت فقال: والله لقد وضعت رجله في ركاب طويل، ألقى عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم. (114)

والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان؟

وقال عمرو بن العاص لمعاوية: والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان؟ فقال معاوية:

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة ... وإن لم تكن لي فرصة فجبان (115)

الآن يا عكرشة صرت عند أمير المؤمنين؟

دخلت عكرشة بنت الأطرش بن رواحة على معاوية متوكئة على عكاز لها، فسلمت عليه بالخلافة، ثم جلست؛ فقال لها معاوية: الآن يا عكرشة صرت عند أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إذ لا علي حي؛ قال: ألسنت المتقلدة حمائل السيف بصفين، وأنت واقفة بين الصفين تقولين: أيها الناس، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إن الجنة لا يرحل عنها من قطنها، ولا يره من سكنها، ولا يموت من دخلها، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم

114 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 24)

115 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 28)

همومها، وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم، مستظهرين بالصبر على طلب حقهم؛ إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب غلف القلوب، لا يفقهون الإيمان ولا يدرون ما الحكمة، دعاهم بالدنيا فأجابوه، واستدعاهم إلى الباطل فلبوه، فالله الله عباد الله في دين الله، وإياكم والتواكل، فإن ذلك ينقض عرى الإسلام، ويطفئ نور الحق، هذه بدر الصغرى، والعقبة الأخرى؛ يا معشر المهاجرين والأنصار، امضوا على بصيرتكم، واصبروا على عزيبتكم، فكأنى بكم غداً، ولقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة تصقع صقع البقر وتروث روث العتاق. فكأنى أراك على عصاك هذه وقد انكفأ عليك العسكران، يقولون: هذه عكرشة بنت الأطرش بن رواحة، فإن كدت لتقتلين أهل الشام لولا قدر الله، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى: " يا أيها الذي آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم " وإن اللبيب إذا كره أمراً لا يحب إعادته؛ قال: صدقت، فاذكري حاجتك؛ قالت: إنه كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فتزد على فقرائنا، وإننا قد فقدنا ذلك فما يجبر لنا كسير، ولا ينعش لنا فقير، فإن كان ذلك عن رأيك، فمثلك من انتبه عن الغفلة، وراجع التوبة، وإن كان عن غير رأيك، فما مثلك من استعان بالخونة، ولا استعمل الظلمة. قال معاوية: يا هذه، إنه ينوبنا من أمور رعتنا أمور تنبثق، وبحور تنفهم، قالت: يا سبحان الله، والله ما فرض الله لنا حقاً فجعل فيه ضرراً على غيرنا وهو علام الغيوب؛ قال معاوية: هيهات يا أهل العراق، نبهكم علي بن أبي طالب فلن تطاقوا. ثم أمر برد صدقاتهم فيهم وإنصافها.

(116)

علام أحببت علياً وأبغضتني، وواليتَه وعاديتني؟

عن سهل بن أبي سهل التميمي قال: حج معاوية، فسأل عن امرأة من بني كناية كانت تنزل بالحجون، يقال لها دارمية الحجونية، وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها، فبعث إليها فجاء بها، فقال: ما حالك يا بنة حام؟ فقالت: لست لحام إن عبتني، أنا امرأة من بني كناية؛ قال: صدقت، أتدريين لم بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله؛ قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت علياً وأبغضتني، وواليتَه وعاديتني؟ قالت: أوتعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أعفيك؛ قالت: أما إذ أبيت، فأني أحببت علياً على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية، وأبغضتك على قتالك من هو أولى منك بالأمر، وطلبتك ما ليس لك بحق؛ وواليت علياً على ما عقد له رسول الله ﷺ من الولاء، وحببه المساكين،

وإعظامه لأهل الدين؛ وعاديتك على سفكك الدماء، وجورك في القضاء،
وحكمك بالهوى؛ قال: فلذلك انتفخ بطنك، وعظم ثدياك، وربت عجيزتك؛
قالت: يا هذا، بهند والله كان يضرب المثل في ذلك لا بي، قال معاوية: يا هذه
أربعي، فإننا لم نقل إلا خيراً، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها، وإذا
عظم ثدياها تروى رضيعها، وإذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها؛ فرجعت
وسكنت. قال لها: يا هذه هل رأيت علياً؟ قالت: إي والله؛ قال: فكيف رأيته؟
قالت: رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شغلتك؛
قال: فهل سمعت كلامه؟ قالت: نعم والله، فكان يجلو القلب من العمى، كما
يجلو الزيت صداً الطست؛ قال: صدقت، فهل لك من حاجة؟ قالت: أو تفعل إذا
سألتك؟ قال: نعم، قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فحلها وراعيها؛ قال:
تصنعين بها ماذا؟ قالت: أغذوا بالبانها الصغر، وأستحيي بها الكبار، وأكتسب
بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر؛ قال: فإن أعطيتك ذلك، فهل أحل عندك
محل علي بن أبي طالب؟ قالت: ماء ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان، وفتى
ولا كمالك، يا: سبحان الله، أو دونه؟ فأنشأ معاوية يقول:
إذ لم أعد بالحلم مني عليكم ... فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم
خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد ... جزاك على حرب العداوة بالسلم
ثم قال: أما والله لو كان علي حياً ما أعطاك منها شيئاً؛ قالت: لا والله، ولا
وبرة واحدة من مال المسلمين. (117)

وفود أم الخير بنت الحريش على معاوية

عن الشعبي قال: كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت
الحريش بن سراقبة البارقي برحلتها، وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه بالخير
خيراً وبالشر شراً. فلما ورد عليه كتابه ركب إليها فأقرأها كتابه؛ فقالت: أما
أنا فغير زائغة عن طاعة، ولا معتلة بكذب، ولقد كنت أحب لقاء أمير
المؤمنين لأمر تخرج في صدري. فلما شيعها وأراد مفارقتها، قال لها: يا أم
الخير، إن أمير المؤمنين كتب إلي أنه مجازيني بالخير خيراً وبالشر شراً،
فمالي عندك؟ يا هذا لا يطمعك برك بي أن أسرك بباطل، ولا تؤيسك معرفتي
بك أن يقول فيك غير الحق. فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية،
فأنزلها مع الحرم، ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع، وعنده جلساؤه؛ فقالت:
السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته؛ فقال لها: وعليك السلام
يا أم الخير، بحق ما دعوتني بهذا الاسم؟ قالت: يا أمير المؤمنين، مه، فإن

بديهة السلطان مدحضة لما يحب علمه، و لكل أجل كتاب؛ قال: صدقت، فكيف حالك يا خالة؟ وكيف كنت في مسيرك؟ قالت: لم أزل يا أمير المؤمنين في خير وعافية حتى صرت إليك، فأنا في مجلس أنيق، عند ملك رفيق؛ قال معاوية: بحسن نيتي ظفرت بكم؛ قالت: يا أمير المؤمنين، يعيذك الله من دحض المقال وما تردي عاقبته؛ قال: ليس هذا أردنا، أخبرينا كيف كان كلامك إذ قتل عمار بن ياسر؟ قالت: لم أكن زورته قبل، ولا رويته بعد، وإنما كانت كلمات نفثها لساني عند الصدمة، فإن أحببت أن أحدث لك مقالاً عن ذلك فعلت؛ قال: لا أشاء ذلك. فالتفت معاوية إلى جلسائه، فقال: أيكم يحفظ كلامها؟ فقال رجل منهم: أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين؛ قال: هات؛ قال: كآني بها وعليها برد زبيدي كثيف النسيج، وهي على جمل أرمك، وقد أحيط حولها، وببدها سوط منتشر الضفيرة، وهي كالफल يهدر في شقشقته، تقول:

يا أيها الناس، اتقوا ربكم، إن زلزلة الساعة شيء عظيم، إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل، وبين السبيل، ورفع العلم، ولم يدعكم في عمياء مبهمة، ولا سوداء مدلهمة، فأين تريدون رحمكم الله، أفراراً عن أمير المؤمنين، أم فراراً من الزحف، أم رغبة عن الإسلام، أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول: " وليلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم " . ثم رفعت رأسها إلى السماء، وهي تقول: اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وببئك يا رب أزمة القلوب، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، واردد الحق إلى أهله، هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والرضي التقي؛ والصديق الأكبر، إنها إحن بدرية وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية، وثب بها واثب حين الغفلة، ليدرك ثارات بني عبد شمس. ثم قالت: قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون. صبراً يا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم، فكأني بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام، كحمر مستفزة، فرت من قسورة، لا تدري أين يسلك بها فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، وعما قليل ليصبحن نادمين، حين تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة ولات حين مناص، إنه من ضل والله عن الحق وقع في الباطل، ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها، واستطابوا الآخرة فسعوا لها؛ فالله الله أيها الناس، قبل أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون؛ وتقوى كلمة

الشيطان، فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ عن ابن عم رسول الله ﷺ وصهره وأبي سبطيه؟ خلق من طينته، وتفرع من نبعته، وخصه بسرّه، وجعله باب مدينته، وأبان ببغضه المنافقين، وها هو ذا مغلق الهام، ومكسر الأصنام، صلى والناس مشركون. وأطاع والناس كارهون، فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزي بدر، وأفنى أهل أحد، وهزم الأحزاب، وقتل الله به أهل خيبر، وفرق بن جمع هوازن. فيالها من وقائع زرعت في قلوب نفاقاً، وردة وشقاقاً، وزادت المؤمنين أيماناً، قد اجتهدت في القول، وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله.

فقال معاوية: يا أم الخير، ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي، ولو قتلتك ما حرجت في ذلك؛ قالت: والله ما يسوءني أن يجري قتلي على يدي من يسعدني الله بشقائقه؛ قال: هيهات يا كثيرة الفضول، ما تقولين في عثمان بن عفان رحمه الله؟ قالت: وما عسيت أن أقول في عثمان، استخلفه الناس وهم به راضون، وقتلوه وهم له كارهون، قال معاوية: يا أم الخير، هذا أصلك الذي تبينين عليه؟ قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيداً، ما أردت بعثمان نقصاً، ولكن كان سابقاً إلى الخير، وإنه لرفيع الدرجة غداً. قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة، اغتيل من مأمنه، وأتى من حيث لم يحذر، وقد وعده رسول الله ﷺ الجنة. قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: وما أقول في ابن عمّة رسول الله ﷺ وحواريه، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، ولقد كان سابقاً إلى كل مكرمة في الإسلام. وأنا أسألك بحق الله يا معاوية - فإن قریشاً تحدثت أنك أحلمها - أن تسعني بفضل حلمك، و أن تعفني من هذه المسائل وتساألني عما شئت من غيرها؛ قال: نعم ونعمة عين، قد أعفيتك منها، ثم أمر لها بجائزة رفيعة وردها مكرمة. (118)

وفود أروى بنت عبد المطلب على معاوية رحمه الله

قال عبد الله بن سليمان المدني وأبو بكر الهذلي: أن أروى بنت الحارث بن عبد المطلب دخلت على معاوية، وهي عجوز كبيرة، فلما رآها معاوية قال: مرحباً بك وأهلاً يا عمّة، فكيف كنت بعدنا؟ فقالت: يا بن أخي، لقد كفرت يد النعمة، وأسأت لابن عمك الصحبة، وتسميت بغير اسمك، وأخذت غير حقك، من غير بلاء كان منك، ولا من آبائك، ولا سابقة في الإسلام، بعد أن كفرتم برسول الله ﷺ، فأتعس الله منك الجدود، وأضرع منكم الخدود، ورد الحق إلى أهله، ولو كره المشركون، وكانت كلمتنا هي العليا، ونبينا صلى الله عليه

وسلم هو المنصور، فوليتم علينا من بعده، تحتجون بقرابتكم من رسول الله ﷺ، ونحن أقرب إليه منكم، وأولى بهذا الأمر، فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون، وكان علي بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا ﷺ بمنزلة هارون من موسى، فغايتنا الجنة وغايتكم النار. فقال لها عمرو بن العاص: كفى أيتها العجوز الضالة، وأقصري من قولك مع ذهاب عقلك، إذ لا تجوز شهادتك وحدك! فقالت له: وأنت يا بن النابغة، تتكلم وأمك كانت أشهر امرأة تغني بمكة وأخذهن لأجرة؛ ادعاك خمسة نفر من قريش، فسئلت أمك عنهم، فقالت: كلهم أتاني، فانظروا أشبههم به فألحقوه به، فغلب عليك شبه العاص بن وائل، فلحقت به. فقال مروان: كفى أيتها العجوز، واقصدي لما جئت له. فقالت: وأنت أيضاً يا بن الزرقاء تتكلم! ثم التفتت إلى معاوية، فقالت: والله ما جراً علي هؤلاء غيرك، فإن أمك القائلة في قتل حمزة: نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر ما كان لي عن عتبة من صبر ... وشكر وحشى علي دهري حتى ترم أعظمي في قبري فأجابتها بنت عمي، وهي تقول: خزيت في بدر وبعد بدر ... يا بنة جبار عظيم الكفر فقال معاوية: عفا الله عما سلف، يا عمة، هات حاجتك؛ قالت: مالي إليك حاجة؛ وخرجت عنه. (119)

إذا أراد الله أمراً يسره

وأمر معاوية بن أبي سفيان بعقوبة روح بن زنباع، فقال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تضع مني خسيصة أنت رفعتها، أو تنقض مني مريرة أنت أبرمتها، أو تشمت بي عدواً أنت وقمته إلا أتى حلمك وصفحك عن خطئي وجهلي؛ فقال معاوية: خليا عنه، إذا أراد الله أمراً يسره.

ويحك! لقد سببت فأبلغت، ودعوت فأحسن

أتي معاوية يوم صفين بأسير من أهل العراق، فقال: الحمد لله الذي أمكنني منك؛ قال: لا تقل يا معاوية، فإنها مصيبة؛ قال: وأي نعمة أعظم من أن أمكنني الله عز وجل من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة؟ اضرب عنقه يا غلام؛ فقال الأسير: اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك، وأنت لا ترضى بقتلي، وإنما يقتلني في الغلبة على حطام هذه الدنيا، فإن فعل

فافعل به ما هو أهله، وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله؛ قال له: ويحك! لقد سببت فأبلغت، ودعوت فأحسننت، خلياً عنه. (120)

ما خرج هذا إلا من أهل بيت النبوة

عن أبي الجويرية الجرمي قال: كتب قيصر إلى معاوية: أخبرني عما لا قبلة له، وعمن لا أب له، وعمن لا عشيرة له، وعمن سار به قبره، وعن ثلاثة أشياء لم تخلق في رحم، وعن شيء ونصف شيء ولا شيء، وابعث إلي في هذه القارورة ببزر كل شيء، فبعث معاوية بالكتاب والقارورة إلى ابن عباس. فقال ابن عباس: أما مالا قبلة قبله له فالكعبة؛ وأما من لا أب له فعيسى، وأما من لا عشيرة له فآدم، وأما من سار به قبره فيونس؛ وأما ثلاثة أشياء لم تخلق في رحم: فكبش إبراهيم، وناقّة ثمود، وحية موسى؛ وأما شيء، فالرجل له عقل يعمل بعقله؛ وأما نصف شيء، فالرجل ليس له عقل ويعمل برأي ذوي العقول؛ وأما لا شيء، فالذي ليس له عقل يعمل به ولا يستعين بعقل غيره؛ وملاً القارورة ماء، وقال: هذا بزر كل شيء: فبعث به إلى معاوية، فبعث به معاوية إلى قيصر. فلما وصل إليه الكتاب والقارورة، قال: ما خرج هذا إلا من أهل بيت النبوة. (121)

ما بلغ من عقلك؟

وقال معاوية لعمر بن العاص: ما بلغ من عقلك؟ قال: ما دخلت في شيء قط إلا خرجت منه؟ فقال معاوية: لكني ما دخلت في شيء قط أريد الخروج منه. (122)

اسمع يا يزيد

وقدم وفد على معاوية فقال لهم: ما تعدون المروءة؟ قالوا: العفاف وإصلاح المعيشة، قال: اسمع يا يزيد. وقال الشاعر:

كُلُّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا ... إِلَّا عَدَاوَةُ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ (123)

ما تقول في الولد؟

أرسل معاوية إلى الأحنف بن قيس، فقال: يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟ قال: " يا أمير المؤمنين " ، ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا؛ ونحن لهم أرض ذليلة،

120) ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 145

121) ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 154

122) ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 167

123) ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 193

وسماء ظليّلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم؛ يمنحوك ودهم
ويحبوك جهدهم؛ ولا تكن عليهم ثقيلاً فيملّوا حياتك، ويحبّوا وفاتك. فقال: لله
أنت يا أحنف، لقد دخلت عليّ وإني لمملوء غضباً على يزيد فسألته من قلبي.
فلما خرج الأحنف من عنده، بعث معاوية إلى يزيد بمائتي ألف درهم ومائتي
ثوب، فبعث يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب، شاطره إياها.
(124)

إذا شئتم

وقال أصحاب معاوية لمعاوية: إنّنا ربما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك،
فأنت تكره أن تستخفنا فتأمر بالقيام، ونحن نكره أن نُثقل عليك في الجلوس،
فلو جعلت لنا علامة نعرف بها ذلك؟ فقال: علامة ذلك أن أقول: إذا شئتم.
(125)

والناس يبّلون كما يبلى الشجر

ودخل المستوغر بن ربيعة على معاوية بن أبي سفيان وهو ابن ثلثمائة سنة،
فقال: كيف تجدك يا مستوغر؟ فقال: أجدي يا أمير المؤمنين، قد لان مني ما
كنت أحب أن يشتد، واشتد مني ما كنت أحب أن يلين، وابيض مني ما كنت
أحب أن يسود، واسود مني ما كنت أحب أن يبيض، ثم أنشأ يقول:
سَلْنِي أَنْبَتَكَ بآيَاتِ الْكِبَرِ ... نَوْمَ الْعِشَاءِ وَسُعَالَ السَّحَرِ
" وَقَلَّةَ النَّوْمِ إِذَا اللَّيْلُ آغْتَكِرَ " ... وَقَلَّةَ الطَّعْمِ إِذَا الزَّادُ حَضَرَ
" وَسُرْعَةَ الطَّرْفِ وَتَحْمِيحَ النَّظَرِ " ... وَتَرْكُكَ الْحَسَنَاءِ فِي قَبْلِ الطَّهْرِ
والناس يبّلون كما يبلى الشجر (126)

إن يطلب هذا الأمر فقد يطمع فيه من هو دونه

قال الشعبي: دخل الحسين بن عليّ يوماً على معاوية ومعه مولى له يقال له
ذكوان، وعند معاوية جماعة من قریش فيهم ابن الزبير، فرحب معاوية
بالحسين وأجلسه على سريرته، وقال: ترى هذا القاعد - يعني ابن الزبير -
فإنه ليدركه الحسد لبني عبد مناف. فقال ابن الزبير لمعاوية: قد عرفنا فضل
الحسين وقرباته من رسول الله ﷺ لكن إن شئت أن أعلمك فضل الزبير على
أبيك أبي سفيان فعلت. فتكلم ذكوان مولى الحسين ابن عليّ، فقال: يا بن
الزبير، إن مولاي ما يمنعه من الكلام أن لا يكون طلق اللسان، رابط الجنان،

124 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 234)

125 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 242)

126 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 271)

فَإِنْ نَطَقَ نَطَقَ بَعْلَمَ، وَإِنْ صَمَتَ صَمَتَ بِحِلْمٍ غَيْرَ أَنَّهُ كَفَّ الْكَلَامَ وَسَبَقَ إِلَى السِّنَانِ، فَأَقَرَّتْ بِفَضْلِهِ الْكَرَامَ، وَأَنَا الَّذِي أَقُولُ:

فِيمَ الْكَلَامِ لِسَابِقٍ فِي غَايَةِ ... وَالنَّاسُ بَيْنَ مُقَصِّرٍ وَمُبْلَدٍ
إِنَّ الَّذِي يَجْرِي لِإِيْدْرِكَ شَأْوُهُ ... يُنْمَى بِغَيْرِ مُسَوِّدٍ وَمُسَدَّدٍ
بَلْ كَيْفَ يُدْرِكُ نُورُ بَدْرِ سَاطِعٍ ... خَيْرَ الْأَنَامِ وَفَرْعِ آلِ مُحَمَّدٍ

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: صَدَقَ قَوْلُكَ يَا ذَكْوَانُ، أَكْثَرَ اللَّهِ فِي مَوَالِي الْكَرَامِ مِثْلَكَ. فَقَالَ
ابْنُ الزُّبَيْرِ: إِنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ سَكَتَ، وَتَكَلَّمَ مَوْلَاهُ، وَلَوْ تَكَلَّمَ لِأَجْبَنَاهُ، أَوْ لَكَفَفْنَا
عَنْ جَوَابِهِ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَا جَوَابَ لِهَذَا الْعَبْدِ. قَالَ ذَكْوَانُ: هَذَا الْعَبْدُ خَيْرٌ مِنْكَ،
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ " . فَأَنَا مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنْتَ ابْنُ
الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَامِ بْنِ خُوَيْلِدٍ، فَنَحْنُ أَكْرَمُ وَلَاءً وَأَحْسَنُ فِعْلًا. قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ:
إِنِّي لَسْتُ أَجِيبُ هَذَا، فَهَاتِ مَا عِنْدَكَ يَا مُعَاوِيَةَ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: قَاتَلَكِ اللَّهُ يَا بَنَ
الزُّبَيْرِ! مَا أَعْيَاكَ وَأَبْغَاكَ! أَتَفْخَرُ بَيْنَ يَدَيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ! إِنَّكَ
أَنْتَ الْمُتَعَدِّي لِطُورِكَ، الَّذِي لَا تَعْرِفُ قَدْرَكَ، فَقَسَّ شَبْرَكَ بِفِثْرِكَ، ثُمَّ تَعَرَّفَ
كَيْفَ تَقَعُ بَيْنَ عَرَانِينَ بَنِي عَبْدِ مَنَاةٍ. أَمَا وَاللَّهِ لَنَنْ دُفِعْتَ فِي بُحُورِ بَنِي هَاشِمٍ
وَبَنِي عَبْدِ شَمْسٍ لِقِطْعَتِكَ بَاعَ مُوَاكِفًا، ثُمَّ لَتَرْمِينَ بِكَ فِي لُجْجِهَا. فَمَا بِقَاوِكَ
فِي الْبُحُورِ إِذَا غَمَرْتِكَ، وَفِي الْأَمْوَاجِ إِذَا بَهَزَتْكَ هُنَاكَ تَعْرِفُ نَفْسَكَ، وَتَتَدَمَّ
عَلَى مَا كَانَ مِنْ جُرْأَتِكَ، وَتَتَمَنَّى مَا أَصْبَحَتْ فِيهِ مِنْ أَمَانٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْغَيْرِ
وَالنَّزْوَانِ. فَأَطْرَقَ ابْنُ الزُّبَيْرِ مَلِيًّا! ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَالْتَفَتَ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ، ثُمَّ
قَالَ: أَسْأَلُكُمْ بِاللَّهِ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ أَبِي حَوَارِيُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَّ أَبَاهُ أَبَا سُفْيَانَ
حَارَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَّ أُمِّي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَأُمُّهُ هِنْدُ الْأَكْبَادِ؛
وَجَدِّي الصِّدِّيقُ، وَجَدُّهُ الْمَشْدُوحُ بِبَدْرِ وَرَأْسِ الْكُفْرِ، وَعَمَّتِي خَدِيجَةُ ذَاتِ
الْخَطَرِ وَالْحَسَبِ، وَعَمَّتُهُ أُمُّ جَمِيلٍ حَمَالَةَ الْحَطْبِ، وَجَدَّتِي صَفِيَّةٌ، وَجَدَّتُهُ
حَمَامَةٌ، وَزَوْجَ عَمَّتِي خَيْرٌ وَلَدَ آدَمَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَزَوْجَ عَمَّتِهِ شَرٌّ وَلَدَ آدَمَ أَبُو لَهَبٍ
سَيِّصَلِي نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ، وَخَالَتِي عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ. وَخَالَتُهُ أَشَقَى الْأَشْقِينَ،
وَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَهُوَ مُعَاوِيَةُ. قَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: وَيْحَكَ يَا بَنَ الزُّبَيْرِ! كَيْفَ تَصِفُ
نَفْسَكَ بِمَا وَصَفْتَهَا؟ وَاللَّهِ مَا لَكَ فِي الْقَدِيمِ مِنْ رِيَاسَةٍ، وَلَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ
سِيَاسَةٍ، وَلَقَدْ قَدْ نَاكَ وَسُدْنَاكَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، لَا تَسْتَطِيعُ لَذَلِكَ إِنْكَارًا، وَلَا عَنْهُ
فِرَارًا، وَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْخُصُومَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ قَرِيشًا قَدْ اجْتَمَعَتْ يَوْمَ الْفَجَارِ عَلَى
رِيَاسَةِ حَرْبِ بْنِ أُمِيَّةٍ، وَأَنَّ أَبَاكَ وَأَسْرَتَكَ تَحْتَ رَايَتِهِ رَاضُونَ بِإِمَارَتِهِ، غَيْرَ
مُنْكَرِينَ لِفَضْلِهِ وَلَا طَامِعِينَ فِي عَزْلِهِ، إِنَّ أَمْرَ أَطَاعُوا، وَإِنْ قَالَ أَنْصَتُوا؛ فَلَمْ
تَزَلْ فِينَا الْقِيَادَةُ وَعِزُّ الْوِلَايَةِ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُحَمَّدًا ﷺ فَأَنْتَخَبَهُ مِنْ خَيْرِ

خلقه، من أسرتي لا من أسرتك، وبني أبي لابني أبيك، فجحدته قريش أشدَّ الجُحود، وأنكرته أشدَّ الإنكار، وجاهدته أشدَّ الجهاد، إلّا مَنْ عَصَمَ اللهَ من قُريش؛ فما ساد قريشاً وقادهم إلّا أبو سفيان ابن حرب، فكانت الفِئتان تلتقي، ورئيس الهدى منّا ورئيس الضلالة منّا، فمهديكم تحت راية مهدينا، وضالكم تحت راية ضالنا، فنحن الأربابُ وأنتم الأذئاب، حتى خلّص اللهَ أبا سفيان بن حرب بفضلَه من عَظيم شرِكه، وعَصَمه بالإسلام من عبادة الأصنام، فكان في الجاهليّة عَظيماً شأنه، وفي الإسلام معروفًا مكانه، ولقد أُعطي يومَ الفَتح ما لم يُعطَ أحدٌ من آبائك، وإنَّ مُناديَ رسول الله ﷺ نادى: مَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ فهو آمِنٌ، ومن دَخَلَ دارَ أبي سفيان فهو آمِنٌ؛ وكانت دارُه حرماً، لا دارُك ولا دارُ أبيك؛ وأما هُند، فكانت امرأة من قريش، في الجاهليّة عَظيمة الخطر، وفي الإسلام كريمة الخبر؛ وأما جدُّك الصديق، فبتصديق عبد مناف سُمي صديقاً لا بتصديق عبد العُزّي؛ وأما ما ذُكرت من جدي المَشْدوخ ببدر فَلعمري لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه، فلو برزت إليه أنت وأبوك ما بارزوكم ولا رأوكم لهم أكفاء، كما قد طُلب ذلك غيركم فلم يقبلوهم، حتى برز إليهم أكفأوهم من بني أبيهم، فَقَضَى الله مَنايَهم بأيديهم، فنحن قُتلنا ونحن قُتلنا، وما أنت وذاك؟ وأما عَمَّتُك أم المؤمنين، فبنا شُرُفت وسُميت أم المؤمنين، وخالتُك عائشة مثْلُ ذلك، وأما صَفِيّة، فهي أدنُك من الظلِّ ولولاها لَكُنْتَ ضاحياً؛ وأما ما ذُكرت من عمِّك وخال أبيك سيّد الشُّهداء، فكذلك كانوا رَحِمهم الله، وفخرُهم وإرثُهم لي دونك، ولا فخر لك فيهم، ولا إرث بينك وبينهم؛ وأما قولُك أنا عبدُ الله وهو مُعاوية، فقد علمتُ قريش أينما أجودُ في الإِزَم، وأمضى في القُدُم وأمنع للحُرَم، لا والله ما أراك مُنتهياً حتى تُروم من بني عبد مناف ما رام أبوك، فقد طالبهم بالدُّحول، وقَدِم إليهم الخيول، وخَدَعتم أم المؤمنين، ولم تراقبوا رسول الله ﷺ إذ مددتم على نساءكم السُّجوف، وأبرزتم زَوجته للحتوف، ومُقارعة السيوف، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هارباً، فلم يُنْجِه ذلك أن طَحَنه أبو الحُسين بكَكَلِه طَحْن الحَصيد بأيدي العبيد، وأما أنت، فأفلتَ بعد أن حَمَشَتُك بَرائِئُه ونالتك مخالِبُه. وإيم الله، ليقومنك بنو عبد مناف بثقافها أو لتصيحن منها صياح أبيك بوادي السَّبّاع، وما كان أبوك المرهوب جانبُه، ولكنه كما قال الشاعر: علمتُ قُريش أينما أجودُ في الإِزَم، وأمضى في القُدُم وأمنع للحُرَم، لا والله ما أراك مُنتهياً حتى تُروم من بني عبد مناف ما رام أبوك، فقد طالبهم بالدُّحول، وقَدِم إليهم الخيول، وخَدَعتم أم المؤمنين، ولم تراقبوا رسول الله ﷺ إذ مددتم على نساءكم السُّجوف، وأبرزتم زَوجته

لِلْحُتُوفِ، وَمُقَارَعَةِ السُّيُوفِ، فَلَمَّا التَقَى الْجَمْعَانِ نَكَصَ أَبُوكَ هَارِباً، فَلَمْ يُنْجِهْ ذَلِكَ أَنْ طَحَنَهُ أَبُو الْحُسَيْنِ بِكُلِّكَلِهِ طَحْنُ الْحَصِيدِ بِأَيْدِي الْعَبِيدِ، وَأَمَّا أَنْتَ، فَأَفْلَتَ بَعْدَ أَنْ حَمَشْتِكَ بَرَاثَتُهُ وَنَالَتِكَ مَخَالِبُهُ. وَابِمِ اللَّهِ، لِيَقُومَنَّكَ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ بِثِقَافِهَا أَوْ لَتَصِيحَنَّ مِنْهَا صِيَاحُ أَبِيكَ بِوَادِي السَّبَّاعِ، وَمَا كَانَ أَبُوكَ الْمَرْهُوبَ جَانِبُهُ، وَلَكِنَّهُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَكِيلَةَ سِرْحَانٍ فَرِيَسَةَ ضَيِّغٍ ... فَقَضَّضَهُ بِالْكَفِّ مِنْهُ وَحَطَّمَا
نَازِعَ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ يَوْمَاً ابْنُ الزُّبَيْرِ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ، فَكَانَ مُعَاوِيَةُ مَعَ مَرْوَانَ، فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: يَا مُعَاوِيَةَ: إِنَّ لَكَ حَقًّا وَطَاعَةً، وَإِنَّ لَكَ صِلَةً وَحُرْمَةً، فَأَطَعْ اللَّهَ نُطْعُكَ، فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لَكَ عَلَيْنَا إِنْ لَمْ تُطِيعِ اللَّهَ، وَلَا تُطْرِقَ إِطْرَاقَ الْأَفْعَوَانِ فِي أَصُولِ السَّخْبَرِ. وَقَالَ مُعَاوِيَةُ يَوْمَاً وَعِنْدَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ، وَذَكَرَ لَهُ مَرْوَانَ فَقَالَ: إِنْ يَطْلُبُ هَذَا الْأَمْرَ فَقَدْ يَطْمَعُ فِيهِ مَنْ هُوَ دُونُهُ، وَإِنْ يَتْرِكُهُ يَتْرِكُهُ لِمَنْ هُوَ فَوْقَهُ، وَمَا أَرَاكُمْ بِمُنْتَهَيْنَ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَنْ لَا تَعْطِفُهُ قَرَابَةٌ، وَلَا تَرُدُّهُ مَوَدَّةٌ، يَسُومُكُمْ خَسْفًا، وَيُورِدُكُمْ تَلْفًا. قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: إِذَا وَاللَّهِ نُطْلِقَ عِقَالِ الْحَرْبِ بِكُتَائِبِ تَمُورِ كَرِجْلِ الْجَرَادِ، حَافَاتِهَا الْأَسْلُ، لَهَا دَوِيٌّ كَدَوِيٍّ الرِّيحِ، تَتَّبِعُ طَرِيفًا مِنْ قُرَيْشٍ، لَمْ تَكُنْ أُمُّهُ بَرَاعِيَةً ثَلَاثَةَ أَهْلِ مُعَاوِيَةَ: أَنَا ابْنُ هِنْدٍ، أَطْلَقْتُ عِقَالِ الْحَرْبِ، وَأَكَلْتُ ذِرْوَةَ السَّنَامِ، وَشَرَبْتُ عُقْفَوَانَ الْمَكْرَعِ، وَلَيْسَ لِلْأَكْلِ بَعْدِي إِلَّا الْفِلْدَةُ، وَلَا لِلشَّارِبِ إِلَّا الرُّنْقُ. (127)

مُجَابَبَةُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ لِمُعَاوِيَةَ وَأَصْحَابِهِ

وَفَدَّ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ عَمْرُو لِمُعَاوِيَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّ الْحَسَنَ لَفَةٌ⁽¹²⁸⁾، فَلَوْ حَمَلْتَهُ عَلَى الْمَنْبَرِ فَتَكَلَّمْتَ وَسَمِعَ النَّاسُ كَلَامَهُ عَابُوهُ وَسَقَطَ مِنْ عُيُونِهِمْ، فَفَعَلَ. فَصَعِدَ الْمَنْبَرِ وَتَكَلَّمَ وَأَحْسَنَ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ طَلَبْتُمْ ابْنًا لِنَبِيِّكُمْ مَا بَيْنَ لَا بَتِّيَّهَا لَمْ تَجِدُوهُ غَيْرِي وَغَيْرِ أَخِي، وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. فَسَاءَ ذَلِكَ عَمْرًا وَأَرَادَ أَنْ يَقْطَعَ كَلَامَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَبَا مُحَمَّدٍ، أَتُصِفُ الرُّطْبَ؟ فَقَالَ: أَجَلْ، تُلْحَقُهُ الشَّمَالُ، وَتُخْرِجُهُ الْجَنُوبُ. وَتُنْضِجُهُ الشَّمْسُ، وَيَصْبِغُهُ الْقَمَرُ. قَالَ: أَبَا مُحَمَّدٍ، هَلْ تَنْتَعِ الْخِرَاءَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، تَبْعِدُ الْمَشْيَ فِي الْأَرْضِ الصَّحْصَحَ حَتَّى تَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ، وَلَا تَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ وَلَا تَسْتَدْبِرُهَا، وَلَا تَسْتَنْجُ بِالْقُمَامَةِ وَالرِّمَّةِ - يَرِيدُ الرُّوثَ وَالْعَظْمَ - وَلَا تَبْلُ فِي الْمَاءِ الرَّاكَدِ. (129)

(127) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 1 / 465

(128) من الفهاهة وهو عدم إستقامة الكلام

(129) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 1 / 467

قد كنتُ أخبرتكم فأبَيْتُم حتى سَمِعْتُم ما أَظلم عليكم بَيْتَكُم

بينما مُعاوية بن أبي سُفيان جالسٌ في أصحابه إذ قيل له: الحسنُ بالبَاب؟ فقال معاوية: إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه؛ فقال له مروان بن الحَكَم: ائذن لي، فإني أسأله ما ليس عنده فيه جواب؛ قال مُعاوية: لا تفعل، فإنهم قَوْم قد ألهموا الكلامَ، وأذن له. فلما دخل وجلس، قال له مَرْوان: أَسْرِع الشَّيْبُ إلى شاربك يا حسن، ويُقال إن ذلك من الخُرْق، فقال الحسن: ليس كما بلغك، ولكنَّا - معشر بني هاشمٍ - أفواهُنا عَذبةٌ شِفاهُها، فنساؤنا يُقْبَلن علينا بأنفاسهنَّ وقَبْلِهِنَّ، وأنتم معشر بني أمية فيكم بَخَرٌ شديد، فنساؤكم يَصرفن أفواهُهنَّ وأنفاسهن عنكم إلى أَصداغكم، فإنما يَشيب منكم موضعُ العِذار من أجل ذلك. قال مَرْوان: إن فيكم يا بني هاشم خَصْلَةٌ سَوَاء؟ قال: وما هي؟ قال: الغُلْمة؟ (130) قال: أجل، نَزعت الغُلْمة من نِساننا ووُضعت في رِجالنا، ونَزعت الغُلْمة من رِجالكم ووُضعت في نِسانكم، فما قام لأموية إلا هاشمي. فغَضِب مُعاوية، وقال: قد كنتُ أخبرتكم فأبَيْتُم حتى سَمِعْتُم ما أَظلم عليكم بَيْتَكُم، وأفسد عليكم مَجْلِسُكم. فَخَرَج الحسنُ وهو يقول:

ومارستُ هذا الدهرَ خمسين حِجَّةً ... وَحَمْساً أَرْجِي، قائلاً بعد قائل
فلا أنا في الدُّنيا بلغتُ جَسِيمها ... ولا في الذي أهْوَى كدحتُ بطائل
وقد شَرَعْتُ دوني المَنايا أَكْفها ... وأيقنْتُ أَنِّي رَهَنَ مَوْتٍ مُعاجِل(131)
ما أعجبُ الأشياء؟

قال مُعاوية يوماً وعنده الضَّحَّاك بن قيس وسعيد بن العاص وعمر بن العاص: ما أعجبُ الأشياء؟ قال الضَّحَّاك بن قيس: إكْداءُ العاقل وإجْداءُ الجاهل. وقالت سعيد بن العاص: أعجبُ الأشياء ما لم يُر مثله. وقالت عمرو بن العاص: أعجبُ الأشياء غلبةُ مَنْ لا حقَّ له ذا الحقِّ على حقِّه. فقال معاوية: أعجب من هذا أن تُعْطِيَ مَنْ لاحِقَّ له ما ليس له بحق من غير غلبة.

ما أحوجُ أهْلَكَ إليك، فلا تَفْجِعهم بنفسك

حضر قوم من قُرَيْشٍ مجلسَ مُعاوية، فيهم عمرو بن العاص وعبدُ الله بن صفوان ابن أمية وعبدُ الرحمن بن الحارث بن هشام. فقال عمرو: أحمد الله يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إذ جعل أَمْرَكم إلى من يُغْضِي على القَدَى، ويتصامُ عن العَوْرَاء، ويجرّ ذيلَه على الخَدائِع. قال عبدُ الله: لو لم يكن كذلك لَمَشِينا إليه الضَّرَاء، ودَبِينا إليه الخَمْر، وَرَجونا أن يقوم بأمرنا من لا يُطْعَمك مالَ مصر. قال

(130) الغُلْمة - شَهْوَةُ النِّكاح من الرجال والنِّساء

(131) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 1 / 469

معاوية: يا معشر قريش، حتى متى لا تُنصفون من أنفسكم؛ قال عبد الرحمن بن الحارث: إن عمراً أفسدك علينا وأفسدنا عليك، ولو أغضبتك هذه. قال: إن عمراً لي ناصح؛ قال عبد الرحمن: فأطعمنا مثل ما أطعمته، وخذنا بمثل نصيحته؛ إنا رأيناك يا معاوية تضرب عوام قريش بأياديك في خواصها، كأنك ترى أن بكرامها قوتك دون لئامها، وإنك والله لتفرغ في إناء فعم من إناء ضخم، وكأنك بالحرب قد حل عقالها عليك من لا ينظرك قال معاوية: يا بن أخي، ما أحوج أهلك إليك، فلا تفجعهم بنفسك، ثم أنشد:

أغرّ رجالاً من قريش تتابعوا ... على سفه مني الحيا والتكرم
تُنازعني هذا الأمر كأنك أحق به مني!

وقال معاوية لابن الزبير: تُنازعني هذا الأمر كأنك أحق به مني! قال: لم لا أكون أحق به منك يا معاوية، وقد اتبع أبي رسول الله ﷺ على الإيمان، واتبع الناس أباك على الكفر؛ قال له معاوية: غلّطت يا بن الزبير، بعث الله ابن عمي نبياً، فدعا أباك فأجابه، فما أنت إلا تابع لي، ضالاً كنت أو مهدياً.

يا أهل الشام، هؤلاء قومي وهذا كلامهم

قال العُتبي: دعا معاوية مروان بن الحكم، فقال له: أشر عليّ في الحسين؛ قال: تخرجه معك إلى الشام فتقطعه عن أهل العراق وتقطعهم عنه؛ قال: أردت والله أن تستريح منه وتبتليني به، فإن صبرت عليه صبرت على ما أكره، وإن أسأت إليه كنت قد قطعت رحمة فأقامه، وبعث إلى سعيد ابن العاص، فقال له: يا أبا عثمان، أشر عليّ في الحسين؟ قال: إنك والله ما تخاف الحسين إلا على من بعدك، وإنك لتخلف له قرناً إن صارعه ليصر عنه، هان سابقه ليسبقته، فذر الحسين منبت النخلة، يشرب من الماء، ويصعد في الهواء، ولا يبلغ إلى السماء؛ قال: فما غيبك عني يوم صفين؟ قال: تحملت الحرّم، وكفيت الحرّم، وكنت قريباً، لو دعوتنا لأجبناك، ولو أمرت لأطعنك؛ قال معاوية: يا أهل الشام، هؤلاء قومي وهذا كلامهم. (132)

وما جعل الله صالحاً مُصلحاً كفاً مفسد

لما أخرج أهل المدينة عمرو بن سعيد الأشدق، وكان واليهم بعد الوليد بن عتبة هو الذي، أمر أهل المدينة بإخراجي، فأرسل إليه وتوثقه. فأرسل إليه معاوية، فلما دخل عليه، قال له عمرو: أوليد، أنت أمرت بإخراجي؟ قال: لا، ورجمك أبا أمية، ولا أمرت أهل الكوفة بإخراج أبيك، بل كيف أطاعني أهل المدينة فيك إلا أن تكون عصيت الله فيهم، إنك لتحل عري ملك شديدة

عُقِدَتْهَا، وَتُمْرِي أَخْلَافَ فِيقَةٍ سَرِيعَةٍ دِرَّتْهَا، وَمَا جَعَلَ اللَّهُ صَالِحاً مُصْلِحاً
كَفَاسِدٍ مَّفْسِدٍ.

مَا كَانَ أَهْوَنُكَ عَلَى أَهْلِكَ إِذْ سَمَّوكَ مُعَاوِيَةَ!

قَالَ مُعَاوِيَةُ لَجَارِيَةٍ بِنِ قُدَّامَةٍ: مَا كَانَ أَهْوَنُكَ عَلَى أَهْلِكَ إِذْ سَمَّوكَ جَارِيَةَ!
قَالَ: مَا كَانَ أَهْوَنُكَ عَلَى أَهْلِكَ إِذْ سَمَّوكَ مُعَاوِيَةَ! وَهِيَ الْأُنْثَى مِنَ الْكِلَابِ، قَالَ:
لَا أُمَّ لَكَ! قَالَ: أُمِّي وَلَدَتْنِي لِلضُّيُوفِ الَّتِي لَقِينَاكَ بِهَا فِي أَيِّدِنَا؛ قَالَ: إِنَّكَ
لَتُهْدِدُنِي؛ قَالَ: إِنَّكَ لَمْ تَفْتَتِحْنَا قَسِراً، وَلَمْ تَمْلِكْنَا عَنُوءَةً، وَلَكِنَّكَ أَعْطَيْتَنَا عَهْداً
وَمِيثَاقاً، وَأَعْطَيْتَنَا سَمْعاً وَطَاعَةً، فَإِنْ وَفَّيْتَنَا لَنَا وَفَّيْنَا لَكَ، وَإِنْ فَرَعْتَ إِلَى
غَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّا تَرَكْنَا وَرَاءَنَا رِجَالاً شِدَاداً، وَالسِّينَةَ حَدَاداً قَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: لَا كَثُرَ
اللَّهُ فِي النَّاسِ أَمْثَالُكَ؛ قَالَ جَارِيَةٌ: قُلْ مَعْرُوفاً وَرَاعِنَا، فَإِنَّ شَرَّ الدَّعَاءِ
الْمُحْتَطَبِ.

فَاتَّي أَفْعَلُ

عَدَدُ مُعَاوِيَةَ بَنُ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى الْأَحْنَفِ ذُنُوباً، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَا
تَرُدَّ الْأُمُورَ عَلَى أَعْقَابِهَا، أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ الْقُلُوبَ الَّتِي أَبْغَضْنَاكَ بِهَا لَبِينَ جَوَانِحِنَا،
وَالسُّيُوفَ الَّتِي قَاتَلْنَاكَ بِهَا لَعَلَى عَوَاتِقِنَا، وَلَنْ مَدَدَتْ فِتْراً مِنْ غَدْرٍ لِنُمدَنَّ
بَاعاً مِنْ خُتْرٍ، وَلَنْ شَتَّ لَتَسْتَصْفِينَ كَدَرَ قُلُوبِنَا بِصَفْوِ حِلْمِكَ، قَالَ: فَاتَّي
أَفْعَلُ.

اجْعَلْهَا فِي كِتَابِكَ فَإِنَّهَا حِكْمَةٌ

قَالَ مُعَاوِيَةُ لَعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: مَا فَعَلْتَ الطَّرَفَاتِ يَا أَبَا طَرِيفٍ؟ - يَعْنِي أَوْلَادَهُ -
قَالَ: قَتَلْتُمَا؟ قَالَ: مَا أَنْصَفَكَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ إِذْ قَتَلَ بَنُوكَ مَعَهُ وَبَقِيَ لَهُ بَنُوهُ؛
قَالَ: لَنْ كَانَ ذَلِكَ لَقَدْ قُتِلَ هُوَ وَبَقِيَْتُ أَنَا بَعْدَهُ؛ قَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: أَلَمْ تَزْعَمْ أَنَّهُ لَا
يُخْنَقُ فِي قَتْلِ عِثْمَانَ عَنَزَ؛ قَدْ وَاللَّهِ خُنِقَ فِيهِ التَّيْسُ الْأَكْبَرُ. ثُمَّ قَالَ مُعَاوِيَةُ: أَمَّا
إِنَّهُ قَدْ بَقِيَْتُ مِنْ دَمِهِ قَطْرَةٌ وَلَا بَدَأَ أَنْ أَتَّبِعَهَا؛ قَالَ عَدِيٌّ: لَا أَبَا لَكَ! شِمِ السِّيفَ،
فَإِنَّ سَلَّ السِّيفِ يَسُلُّ السِّيفَ. فَالْتَفَتَ مُعَاوِيَةُ إِلَى حَبِيبِ بْنِ مَسْلَمَةَ، فَقَالَ:
اجْعَلْهَا فِي كِتَابِكَ فَإِنَّهَا حِكْمَةٌ.

إِذْنُ نَعْفِيكَ يَا أَبَا بَحْرٍ

عَنْ أَبِي الْحُبَابِ الْكِنْدِيِّ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ
وَعِنْدَهُ وَجُوهُ النَّاسِ إِذْ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَقَامَ خَطِيباً، فَكَانَ آخِرَ كَلَامِهِ
أَنْ لَعَنَ عَلِيّاً، فَأَطْرَقَ النَّاسُ وَتَكَلَّمَ الْأَحْنَفُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ هَذَا
الْقَائِلَ مَا قَالَ أَنِفَا لَوْ يَعْلَمُ أَنَّ رِضَاكَ فِي لَعْنِ الْمُرْسَلِينَ لِلْعَنِهِمُ، فَاتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ
عَنْكَ عَلِيّاً، فَقَدْ لَقِيَ رَبَّهُ، وَأَفْرَدَ فِي قَبْرِهِ، وَخَلَا بِعَمَلِهِ، وَكَانَ وَاللَّهِ - مَا عَلِمْنَا -

المُبَرِّزَ بِسَبْقِهِ، الطاهرَ خُلُقِهِ، المَيِّمُونَ نَقِيبَتَهُ، العظيمَ مُصِيبَتَهُ؛ فقال له معاوية: يا أحنف، لقد أَعْضَيْتَ العَيْنَ عَلَى القَدَى، وقلتَ بغير ما ترى، وإيم الله لَتَصْعَدَنَّ المِنْبِرَ فَتَلْعَنَهُ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين، إن تُعْفِنِي فهو خيرٌ لك، وإن تَجْبِرْنِي على ذلك فوالله لا تَجْرِي بِهِ شَفَتَايَ أَبَدًا؛ قال: قُمْ فَاصْعِدِ المِنْبِرَ؛ قال الأحنف: أَمَا والله مع ذلك لَأَنْصِفَنَّكَ فِي القَوْلِ والفِعْلِ، قال: وما أنت قائل يا أحنف إن أنصفتني؛ قال: أصعدُ المِنْبِرَ فاحمد الله بما هو أهله، وأصلي على نبيِّه ﷺ، ثم أقوله: أيها الناس، إنَّ أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليًّا، هانَّ عليًّا ومعاوية اختلفا فافْتَتَلَا، وأدَّى كُلُّ واحد منهما أنه بَغِي عليه وعلى فَنَتِه، فإذا دعوتُ فأَمِنُوا رَحِمَكُمُ اللهُ، ثم أقول: اللهم العن أنتَ وملائكتُكَ وأنبياءُكَ وجميعَ خلقِكَ الباغِيَ منهما على صاحبه، وألعنَ الفئَةَ الباغِيَةَ، اللهم العنهم لعنًا كثيرًا، آمَنُوا رَحِمَكُمُ اللهُ؛ يا معاوية، لا أزيد على هذا ولا أنقص منه حرفًا ولو كان فيه ذهابٌ نفسي. فقال معاوية: إذن نُعْفِيكَ يا أبا بَحر. (133)

والكلام إلى نية المُتَكَلِّم

وقال معاوية لِعَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: إن عليًّا قد قَطَعَكَ ووصلتُكَ، ولا يُرْضِينِي مِنْكَ إِلَّا أَنْ تَلْعَنَهُ عَلَى المِنْبِرِ؟ قال: أَفْعَل. فإصعد فصعد، ثم قال بعد أن حَمِدَ اللهُ وَأَثْنَى عليه: أيها الناس، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علي بن أبي طالب، فالعنوه، فعليه لعنةُ اللهِ والملائكة والناس أجمعين، ثم نزل. فقال له معاوية: إنك لم تُبَيِّنْ أبا يزيدَ مَنْ لَعَنْتَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ؟ قال: والله لا زدتُ حرفًا ولا نَقَصْتُ آخر، والكلام إلى نية المُتَكَلِّم.

وفي حَيَاتِي مَا زَوَّدْتَنِي زَادًا

قال معاوية لأبي الطفيل: كيف وَجَدْتُكَ على عليٍّ؟ قال: وَجَدْتُ ثَمَانِينَ مُثْكَلا؛ قال: فكيف حُبُّكَ له؟ قال: حَبٌّ أَمْ مُوسَى، وإلى الله أشكو التَّقْصِيرَ. وقال له مرة أخرى: أبا الطفيل؟ قال: نعم؟ قال: أنت من قَتَلْتَ عُثْمَانَ؟ قال: لا، ولكنِّي مِمَّنْ حَضَرَهُ وَلَمْ يَنْصُرْهُ؟ قال وما مَنَعَكَ مِنْ نَصْرِهِ؟ قال: لَمْ يَنْصُرْهُ المُهَاجِرُونَ والأَنْصَارُ فَلَمْ أَنْصُرْهُ؟ قال: لقد كان حَقُّهُ واجِبًا، وكان عليهم أن يَنْصُرُوهُ؟ قال: فما مَنَعَكَ مِنْ نَصْرَتِهِ يا أمير المؤمنين وأنتَ ابْنُ عَمِّهِ؟ قال: أَوْ مَا طَلَبِي بِدَمِهِ نَصْرَهُ لَهُ؟ فَضَحِكَ أَبُو الطُّفَيْلِ وَقَالَ: مَثْلُكَ وَمَثْلُ عُثْمَانَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: لَأَعْرِقَنَّكَ بَعْدَ المَوْتِ تَنْدُبُنِي ... وفي حَيَاتِي مَا زَوَّدْتَنِي زَادًا

أبعد الأرض لا إلى أقربها

صعد معاوية المنبر فوجد من نفسه رقة، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس: إن عمر ولأني أمراً من أمره، فوالله ما غششته ولا خنثته، ثم ولأني الأمر من بعده ولم يجعل بيني وبينه أحداً، فأحسن الله وأساءت، وأصبت وأخطأت، فمن كان يجهلني فإني أعرفه بنفسي. فقام إليه سلمة بن الخطل العرجي، فقال: أنصفت يا معاوية، وما كنت مُنصفاً. قال: فغضب معاوية، وقال: ما أنت وذاك يا أحمق! والله لكأني انظر إلى بيتك بمهيعة، وبطنب تيس، وبطنب بهمة. بفنائهم أعز عشرين، يحتلبن في مثل قوارة حافر العير، تهفو الرخ منه بجانب، كأنه جناح نسر. قال: رأيت والله ذاك، في شر زماننا إلينا، والله إن حشوه يومئذ لحسب غير ديس، فهل رأيتني يا معاوية أكلت ما لا حراماً أو قتلت أمراً مسلماً؟ قال: وأين كنت أراك وأنت لا تدب إلا في خمر، وأي مسلم يعجز عنك فتقته؛ أم في مال تقوى عليه فتأكله؟ اجلس لا جلست؟ قال: بل اذهب حتى لا تراني؛ قال: إلى أبعد الأرض لا إلى أقربها، فمضى. ثم قال معاوية: ردوه عليّ، فقال الناس: يعاقبه؛ فقال له أستغفر الله منك يا أحمق، والله لقد بررت في قرابتك، وأسلمت فحسن إسلامك، وإن أباك لسيد قومه، ولا أبرح أقول بما تحب، فاقعد. (134)

قالوا عن معاوية

ذكر عمرو بن العاص معاوية فقال: احذروا قرم قريش وابن كريمها، من يضحك عند الغضب، ولا ينام إلا على الرضا، ويتناول ما فوقه من تحته. سئل عبد الله بن عباس عن معاوية، فقال: سماً بشيء أسرة، واستظهر عليه بشيء أعلنه، فحاول ما أسر بما أعلن فناله. كان حلمه قاهراً لغضبه، وجوده غالباً على منعه، يصل ولا يقطع، ويجمع ولا يفرق، فاستقام له أمره، وجرى إلى مدته. قيل: فأخبرنا عن ابنه. قال: كان في خير سبيله، وكان أبوه قد أحكمه، وأمره ونهاه، فتعلق بذلك، وسلك طريقاً مذللاً له. وقال معاوية: لم يكن في الشباب شيء إلا كان مني فيه مُستمتع، غير أنني لم أكن صرعة ولا نكحة ولا سباً.

قال الأصمعي: الحب: كثير السباب: ميمون بن مهران قال: كان أول من جلس بين الخطبتين معاوية، وأول من وضع شرف العطاء ألفين معاوية وقال معاوية: لا زلت أطمع في الخلافة منذ قال لي رسول الله ﷺ: يا معاوية، إذا ملكت فأحسن.

العُتْبِي عن أبيه قال: قال معاوية لقريش: ألا أخبركم عني وعنكم؟ قالوا: بلى. قال: فأنا أطير إذا وقعتم، وأقع إذا طرتم، ولو وافق طيراني طيرانكم سَقَطْنَا جميعاً. (135)

خيرٌ من أن تكوني امرأة من عرض الناس

قدم معاوية المدينة بعد عام الجماعة، فدخل دارَ عثمان بن عفّان، فصاحت عائشة بنت عثمان وبكت ونادت أباهاً. فقال معاوية: يا ابنة أخي، إنّ الناس أعطونا طاعةً وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حِلماً تحتَه غَضَبٌ، وأظهروا لنا ذُلّاً تحتَه حَقْدٌ، ومع كل إنسان سيفُه، ويرى موضع أصحابه، فإن نكثناهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا. لأن تكوني ابنة عمّ أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكوني امرأة من عرض الناس. (136)

فإن لم تجدوني خيركم فأنا خيرٌ لكم

لما قدّم معاوية المدينة قال: أيها الناس، إنّ أبا بكر رضي الله عنه لم يُرد الدنيا ولم تُرده، وأما عمر فأرادته ولم يُردها، وأما عثمان فنال منها ونالت منه، وأما أنا فمالت بي وملت بها، وأنا ابنُها، فهي أُمي وأنا ابنُها، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خيرٌ لكم. ثم نزل.

أفكنت تراه يصبر على شتم عليّ!

قال جويرية بن أسماء. نال بُسرُ بن أرطاة من عليّ بن أبي طالب عند معاوية، وزيدُ بن عمر بن الخطاب جالس، فعلا بُسراً ضرباً حتى شجّه. فقال معاوية: يا زيد، عمدت إلى شيخ قريش وسيد أهل الشام فضربتَه! وأقبل على بُسر وقال: تشتم علياً وهو جدّه وأبوه الفاروق على رؤوس الناس! أفكنت تراه يصبر على شتم عليّ! وكانت أم زيد أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب.

ولا أمرك به ولا أنهاك عنه

عن العتبي: أن عمر بن الخطاب قدّم الشام على حمار ومعه عبدُ الرحمن بن عوف على حمار، فتلقاهما معاوية في موكب نبيل، فجاوز عمر حتى أخبر فرجع إليه، فلما قُرب منه نزل، فأعرض عنه عمر، فجعل يمشي إلى جنبه راجلاً. فقال له عبدُ الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل. فأقبل عليه عمر فقال: يا معاوية، أنت صاحبُ الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ولم ذلك؟ قال: لأننا في بلاد لا يُمتنع

فيها من جواسيس العدو، فلا بُدَّ لهم مما يُرهبهم من هيبة السلطان، فإن أمرتني بذلك أقمتُ عليه، وإن نهيتني عنه انتهيت. قال: لئن كان الذي قلتَ حقاً فإنه رأيُّ أريب، ولئن كان باطلاً فإنها خُدعة أحب، ولا أمرك به ولا أنهاك عنه. فقال عبدُ الرحمن بن عوف: لحسن ما صدر من هذا الفتى عما أوردته فيه. قال: لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه.

وانك لمارج من مارج من نار.

ودخل صعصعة بن صوحان على معاوية ومعه عمرو بن العاص جالس على سريره، فقال: وسَّعَ له على ثرابية فيه. فقال صعصعة: إني والله لثرابي، منه خلقت، وإليه أعود، ومنه أبعث، وإنك لمارج من مارج من نار.

فيالك من جامع إلي ومُفرق عنه!

العُتبي عن أبيه، قال قال معاوية لعمرو بن العاص: ما أعجبُ الأشياء؟ قال غلبة من لا حقَّ له ذا الحقَّ على حقه. قال معاوية: أعجبُ من ذلك أن يُعطى من لا حقَّ له ما ليس له بحق من غير غلبة. وقال معاوية: أعنت على علي بأربعة، كنت أكتُم سري وكان رجلاً يُظهره، وكنتُ في أصلح جند وأطوعه وكان في أخبث جند وأعصاه، وتركته وأصحابَ الجمل وقلتُ: إن ظفروا به كانوا أهونَ علي منه، وإن ظفروا بهم اغتر بها في دينه، وكنتُ أحب إلى قریش منه. فيالك من جامع إلي ومُفرق عنه! (137)

ما لم يحولوا بيننا وبين مُلكنا

يروى أن معاوية بن أبي سفيان كان أكثر الناس حِلماً، وأوسعهم عفواً، وأشدَّهم إغضاءً عن نابذه، وأحسنهم احتمالاً لمن عازَّه وعانده. فمن ذلك أن لاجَّ أغلظ له في الكلام، فقيل له: يا أمير المؤمنين، أتحم عن هذا وقد قال ما قال؟ قال معاوية: ما كنت لأحول بين الناي وبين أسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين مُلكنا.

أسألك أن تدخلني الجنة

ويروى من غير وجه أن معاوية قال لجلسائه: أشتي أن أرى رجلاً قد لقي الناس، وسمع الأعاجيب، ورأى من كان قبلنا يحدثنا عن زمانه، وأين زماننا مما مر عليه. فقيل له: ذاك رجلٌ بحضرموت، فأُتي به، فأقبل عليه فقال له: ما اسمك؟ قال: أمد، قال: ابنُ من؟ قال: ابنُ أبد، قال: كم أتى عليك من السن؟ قال: ثلاثمائة وستون سنة، قال: كذبت، وتشاغل عنه بغيره. ثم أقبل عليه فقال له: ما اسمك؟ قال: أمد، قال: ابنُ من؟ قال: ابنُ أبد، قال: كم أتى عليك

من السنين؟ قال: ثلاثمائة وستون سنة، قال: فحدثنا عما رأيت من الأزمنة؛ أين زماننا منها؟ قال: وكيف تسأل رجلاً يكذب؟ قال: أحببت أن أعرف مقدار عقلك، قال: يومٌ شبيه بيوم، وليلة شبيهة بليلة، ولدٌ مولود، ووالدٌ مفقود، فلولا من يولد لم يبق على ظهرها أحد، ولولا من يموت لم يسعهم بلد، قال: ما كانت صناعتك؟ قال: كنت تاجراً. قال: فما بلغت في تجارتك؟ قال: كنت لا أشتري غَبْنًا، ولا أرد ربحاً، قال: سلني حاجتك، قال: أسألك أن تدخلني الجنة، قال: ليس ذلك إلي، قال: فأسألك أن ترد إلي شبابي، قال: ولا ذاك إلي. قال: فلست أرى بيدك شيئاً من أمور الدنيا والآخرة، قال: هو والله ذاك، قال: فارددني من حيث جئت، ففعل به ذلك.

نميل إذا نميل على أبينا

ويروى أن أبا الجهم الأموي قال: لقد بتُّ ليلة بأسرها قلقاً أفكر في حلم معاوية فيذهب عني وسني، قال: وغدوت عليه وأنا مُجمع لقاءه بما أرجو أن يطيشه، فدخلت عليه، وقد كان عنده رجل أغضبه بأشياء لقيه بها، فقلت في نفسي: ظفرت به؛ فسلمت عليه، فردَّ عليّ جواباً ضعيفاً، فقلت: يا بن هند، أبلغ بك الأمر إلى أن أسلم عليك فتزد عليّ مثل هذا الرد! والله لقد رأيت أمك وهي شابة ناهد، وأنا إذ ذاك أطلب الفجور، فعرضت عليّ نفسها فأبيتها، فقال: يا أبا الجهم، أما أنك لو نكحتها لنكحت حصاناً كريمة، ولكنك أهلاً لها. قال أبو الجهم: فوقعْتُ على رجله أقبليهما، وأقول: نقلبه لنخبر حالتيه ... فيكشف عنهما كرمًا ولينا نميل على جوانبه كأننا ... نميل إذا نميل على أبينا فقام معاوية فدخل إلى حجرة له فدعا بأبي الجهم فقال له: يا أبا الجهم، إياك وإغصاب الملوك، فإن لهم غضباً كغضب الصبيان، وبطشاً كبطش الأسد. يا غلام، أعطه ثلاثين ألف درهم، وليحملها معه ثلاثة من العبيد، فخرج من بين يديه ومعه تلك الصلة.

فوالله لأنت أنذل أهل الشام

ويروى أنه لما ورد عليه خبر علي بن أبي طالب، صلوات الله عليه سعد المنبر فقال: الحمد لله الذي أدالنا من عدونا، ورد إلينا من زماننا، فقام إليه رجل من أهل الشام، فقال: ما ذاك من كرامتك على الله يا معاوية، فقال له عمرو بن العاص: اسكت يا جاهل، فوالله لأنت أنذل أهل الشام وأقطعهم عن الكلام، فتمثل معاوية:

إني أرى الحلم محموداً مغبته ... والجهل أفنى من الأقوام أقواما

لقد حالت القدرة بيني وبين أولي الثّرات

ونظر يوماً إلى يزيد ابنه يضرب غلاماً له، فقال: يا يزيد، أتضرب من لا يمتنع منك! والله لقد حالت القدرة بيني وبين أولي الثّرات.

أنت صاحبنا يوم صفين

ويروى أن معاوية قال له: يا أحنف، أنت صاحبنا يوم صفين، والمخذول عن أمير المؤمنين؟ فقال الأحنف: والله يا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها يومئذٍ لفي صدورنا، وإن سيوفنا التي قاتلناك بها لعلی عواتقنا، ولئن دنوت إلينا شبراً من خير لندنون إليك ذراعاً من عُذر، ولئن شئت ليصفون لك ودنا بفضل حلمك عنا. قال: قد شئت.

لا جرم! لأقاسمته الجائزة

وروى زبير عن رجاله قال: دخلت على معاوية مَوْجِدةً على يزيد، فأرقَ لذلك ليلته، فلما أصبح بعث إلى الأحنف فقال له: كيف رضاك عن ولدك؟ - أو ما تقول في الولد؟ - قال الأحنف: فقلتُ في نفسي: ما سألني أمير المؤمنين عن هذا إلا لمَوْجِدةٍ دخلته على يزيد، فحضرني كلام لو كنت رَوَّأتُ فيه سنة كنتُ قد أجدتُ، فقلت: يا أمير المؤمنين: هم ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، وبهم نصول ونصل إلى كل حيلة، فإن سألوك فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يُمحِضوك ودَّهم، ويُلطِّفوك جهدهم، ولا تكن عليهم قفلاً لا تعطهم إلا نزرأ فيملّوا حياتك ويكرهوا قربك. فقال: لله در الأحنف! لقد دخلت عليّ وإني لمن أشد الناس مَوْجِدة على يزيد، فلقد سلّلت سَخِمة قلبي؛ يا غلام، اذهب إلى يزيد فقل له: إن أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك: قد أمرنا لك بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب، فأرسل من يقبض مالك، فأتاه الرسول فأعلمه، فقال: من كان عند أمير المؤمنين؟ فقال: الأحنف؛ فقال: لا جرم! لأقاسمته الجائزة، فوجّه برسول يأتيه بالمال ورسول يأتيه بالأحنف. فقال: يا أبا بحر: كيف كان رضا أمير المؤمنين؟ فأخبره: فقاسمه الجائزة، وأمر له بمائة ألف ومائة ثوب.

ما حال عمك أبي لهب؟

دخل عقيل بن أبي طالب على معاوية - وكان من أحضر الناس جواباً - فقال له معاوية: يا عقيل، ما حال عمك أبي لهب؟ وأين مكانه من النار؟ فقال: إذا أنت دخلتها فخذ على يسارك؛ فستجده مفترشاً عمّك حمالة الحطب؛ فأطرق معاوية.

ويروى أنه قال له يوماً: أيّما خير لك: أنا أم علي؟ فقال: ذاك خير لديني، وأنت خير لديّاي. وكان يُسبغ جائزته إذا وفد عليه.

والله جارُّك مما يُزْمَع النَفَرُ

وحدثني الرياشي قال: يروى أن عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان أسرَّ إلى معاوية سرّاً، فأتى أباه عنبسة فقال: إن معاوية أسرَّ إلي سرّاً، فأحدثك به؟ قال: لا، قال: ولم؟ قال: لأن الرجل إذا كتم سرّه كان الأمر إليه، وإذا أذاعه فالأمر عليه، ولا تجعل نفسك مملوكاً بعد أن كنت حرّاً، قال: أفيدخل هذا بين الأب وابنه؟ قال: لا يا بني، ولكن أكره أن تدلّ لسانك بإفشاء السر، قال فأتى معاوية فذكر ذلك له، فقال: أعتقك أخي من رق الخطأ، وأنشد:
دست إليّ رسولاً لا تكن عجلاً ... واحذر هُدَيْتَ وأمر الحازم الحذر
إني رأيت رجالاً من ذوي رَحِم ... هم العدوّ بظهر الغيب قد نذروا
إن يقتلوك كفاك القتل قادره ... والله جارُّك مما يُزْمَع النَفَرُ
فالسّرّ يكتمه الخَلان بينهما ... وكلّ سرّ عدا الخَلين منتشر (138)

ذا الوجهين خَلِيقٌ ألا يكون عند الله وجيهاً

وروي أن معاوية بن سفيان لما نصب يزيد لولاية العهد أقعده في قبة حمراء، فجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يميلون إلى يزيد، حتى جاء رجلٌ فعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين، اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها والأحنف جالسٌ-فقال له معاوية: ما بالك لا تقول يا أبا بحر! فقال: أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فقال: جزاك الله عن الطاعة خيراً! وأمر له بالوف، فلما خرج الأحنف لقيه الرجل بالباب، فقال: يا أبا بحر، إني لأعلم أن شر من خلق الله هذا وابنه، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع باستخراجها إلا بما سمعت، فقال الأحنف: يا هذا أمسك عليك، فإن ذا الوجهين خَلِيقٌ ألا يكون عند الله وجيهاً. (139)

والله لقد بايعتك وأنا كاره

وقال رجل لمعاوية: والله لقد بايعتك وأنا كاره، فقال معاوية: قد جعل الله في الكره خيراً كثيراً .
وقوله:

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... على نائبات الدهر حين تنوب

138 (المبرد ، الفاضل ، ص 22، 26 ، 31 ، 27 ، 28 ، 29 ، 31

139 (المبرد ، الكامل في اللغة و الأدب ، 1/ 44

نظيره قول كثير:
أقول لها يا عز كل مصيبة ... إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

هذا جزاء من عجل

وشهد أعرابي عند معاوية بشيء كرهه، فقال له معاوية: كذبت فقال الأعرابي: الكاذب والله متزمل في ثيابك. فقال معاوية وتبسم: هذا جزاء من عجل. (140)

ما ندري، أنخدع الناس أم يخدعوننا!

ويروى أن يزيد بن معاوية قال لمعاوية في يوم ببيع له على عهده، فجعل الناس يمدحونه ويقرظونه: "يا أمير المؤمنين، والله ما ندري، أنخدع الناس أم يخدعوننا!" فقال له معاوية: "كل من أردت خديعته فتخادع لك حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته".! (141)

ما رأيت رجلاً أحقرَ أولاً ولا أجلَ آخراً منه

ودخل النخارُ العذري على معاوية في عباءة؛ فاحتقره معاوية، فرأى ذلك النخار في وجهه، فقال له: يا أمير المؤمنين، ليست العباءة تكلمك، إنما يكلمك من فيها. ثم تكلم فملاً سمعه، ثم نهض ولم يسأله، فقال معاوية: ما رأيت رجلاً أحقرَ أولاً ولا أجلَ آخراً منه. (142)

فإن كل كريم طروب

وحدثت أن معاوية قال لعمره: امض بنا إلى هذا الذي قد تشاغل باللهو وسعى في هدم مروءته، حتى ننعى عليه، أي نعيب عليه فعله - يريد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب - فدخلوا إليه، وعنده سائب خاثر، وهو يلقي على جوارٍ لعبد الله، فأمر عبد الله بتتحية الجواري لدخول معاوية، وثبت سائب مكانه، وتتحى عبد الله عن سريرته لمعاوية، فرفع معاوية عمراً فأجلسه إلى جانبه، ثم قال لعبد الله: أعد ما كنت فيه، فأمر بالكراسي فالقيت، وأخرج الجواري، فتغنى سائب بقول قيس بن الخطيم:

ديارُ التي كادت ونحن على منى ... تحل بنا لولا نجاء الركائب
ومثلك قد اصببتُ ليست بكنة ... ولا جارة ولا حليلة صائب 1

140 (المبرد ، الكامل في اللغة و الأدب ، 1/ 280

141 (المبرد ، الكامل في اللغة و الأدب ، 2/ 83

142 (المبرد ، الكامل في اللغة و الأدب ، 2/ 125

ورددته الجواري عليه، فحرك معاويةً يديه وتحرك في مجلسه، ثم مد رجله، فجعل يضرب بهما وجه السرير. فقال له عمرو: اتد يا أمير المؤمنين، فإن الذي جئت لتلحاه أحسن منك حالاً وأقل حركة. فقال معاوية: اسكت لا أبا لك! فإن كل كريم طروب⁽¹⁴³⁾.

فحسبك ما سمعت

وتزعم الرواة أن رجلاً من أهل الكتاب وفد على معاوية، وكان موصوفاً بقراءة الكتب، فقال له معاوية: أتجد نعتي في شيء من كتب الله؟ قال: إي والله، لو كنت في أمة لوضعت يدي عليك من بينهم. قال: فكيف تجدني؟ قال: أجذك أول من يحول الخلافة ملكاً، والخشنة ليناً، ثم إن ربك من بعدها لغفور رحيم، قال معاوية: فسري عني، ثم قال: لا تقبل هذا مني، ولكن من نفسك، فاجتب⁽¹⁴⁴⁾ هذا الخبر. قال: ثم يكون ماذا؟ قال: ثم يكون منك رجل شراب للخمر، سفاك للدماء، يحتجن الأموال⁽¹⁴⁵⁾، ويصطنع الرجال، ويجنب⁽¹⁴⁶⁾ الخيول، ويبيح حرمة الرسول⁽¹⁴⁷⁾، قال: ثم ماذا؟ قال: ثم تكون فتنة⁽¹⁴⁸⁾ تتشعب بأقوام حتى يفضى الأمر بها إلى رجل أعرف نعته⁽¹⁴⁹⁾، يبيع الآخرة الدائمة بحظ من الدنيا مخسوس، فيجتمع عليه من آلك وليس منك، لا يزال لعدوه قاهراً، وعلى من ناواه⁽¹⁵⁰⁾ ظاهراً، ويكون له قرين⁽¹⁵¹⁾ مبير⁽¹⁵²⁾ لعين قال: أفترفه إن رأيته؟ قال: شد ما. فأراه من بالشام من بني أمية، فقال: ما أراه ههنا، فوجه به إلى المدينة مع ثقات من رسله، فإذا عبد الملك بن مروان يسعى مؤتزرأ في يده طائر، فقال للرسول: ها هو ذا! ثم صاح به: إلي أبو من؟ قال: أبو الوليد، قال: يا أبا الوليد، إن بشرتك ببشارة تسرك ما تجعل لي؟ قال: وما مقدارها من السرور حتى نعلم مقدارها من الجعل؟ قال:

143 (المبرد ، الكامل في اللغة و الأدب ، 2/ 192

144 (فاختبر، ويقال: اجتبيت الخراج اجتباء، أي جمعته.

145 (احتجن الشيء أخذه وحبسه.

146 (يجنب الخيل: يقودها إلى ما يركب منها اختيالا وعجبا بها.

147 (ذلك ما كان من قتل الحسين ومن معه من فتيان بني هاشم وإهانة آل البيت الذين أذهب

الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا".

148 (هي الفتنة التي وقعت بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية، وافتراق الناس فرقتين، فريق يدعو إلى ابن الزبير. وفريق يدعو إلى بني أمية.

149 (يريد به عبد الملك بن مروان: ولم يذكر معاوية بن يزيد ولا مروان لقصر مدتهما".

150 (ناواه: عاداه.

151 (يريد به الحجاج بن يوسف

152 (مبير: مهلك

أن تملك الأرض، قال: ما لي من مال، ولكن أرأيت إن تكلفت لك جعلاً، أنال ذلك قبل وقته؟ قال: لا، قال: فإن حرمتك، أتؤخره عن وقته؟ قال: لا، قال فحسبك ما سمعت.

فذكروا أن معاوية كان يكرم عبد الملك ليجعلها يداً عنده يجازيه بها في مخلفته في وقته. (153)

وسيفي صارم ومعني لساني

دخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميماً ، فقال له معاوية : إنك لدميم والجميل خير من الدميم ، وإنك لشريك وما لله شريك ، وإن أباك الأعور ، والصحيح خير من الأعور ، فكيف سدت قومك ؟ فقال له : إنك لمعاوية : فما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب ، وإنك لابن صخر والسهل خير من الصخر ، وإنك لابن حرب والسلم خير من الحرب ، وإنك لابن أمية وما أمية إلا أمة فصغرت فكيف صرت علينا أمير المؤمنين ؟ ثم خرج من عنده ، وهو يقول شعراً :

أيشتمني معاوية بن حرب ؟ . . . وسيفي صارم ومعني لساني
وحولي من بني عمي ليوث . . . ضراغمة تهش إلى الطعان

أحسننت يا ابن أبي محجن

وفد ابن أبي محجن على معاوية فقال له : أنت الذي أوصاك أبوك بقوله : إذا مت فادفني إلى جنب كرمة . . . يروي عظامي الباليات في الممات عروقتها

ولا تدفني في الفلاة فإنني . . . أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

فقال ابن أبي محجن : بل أنا الذي يقول أبي :

لا تسأل الناس ما مالي وكثرته . . . وسائل الناس ما جودي وما خلقي
أعطى الحسام غداة البين حصته . . . وعامل الرمح أرويه من العلق
وأطعن الطعنة النجلاء عن غرض عرض . . . وأكتم السر فيه ضربة العنق
ويعلم الناس أني من سراتهم . . . إذا أمس بضر عدة الفرق
قال معاوية له : أحسننت يا ابن أبي محجن ، وأمر له بصلة .

كان أمه نطحتك ؟

أكل أعرابي مع معاوية ، وجعل يمزق جديا على الخوان تمزيقا عنيفا ، ويأكله أكلا ذريعا ، فقال له معاوية : إنك تمزقه كأن أمه نطحتك ؟ فقال : وإنك تشفق عليه كأن أمه أرضعتك .

في شرح النهج لابن أبي الحديد قال : انتبه معاوية فرأى عبد الله بن الزبير جالسا تحت رجله على سريرته ، فقعد ، فقال له . يداعبه : يا أمير المؤمنين لو شئت أن أفتك بك لفعلت : فقال : لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر ، قال : وما الذي تنكره من شجاعتني وقد وقفت في الصف إزاء علي بن أبي طالب ؟ قال : لا جرم أنه قتلك وإياي بيسرى يديه ، وبقيت اليمنى فارغة طالبة من يقتله بها . (154)

وهل يتركني الدهر أن أنساه!

وروي أن عدي بن حاتم دخل على معاوية بن أبي سفيان فقال: يا عدي أين الطّرفات؟ يعني بنيه طريفاً وطارفاً وطرفاً. قال: قتلوا يوم صفين بين يدي علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. فقال: ما أنصفك ابن أبي طالب إذ قدّم بينك وآخر بنيه! قال: بل ما أنصفت أنا علياً إذ قُتل وبقيت! قال: صف لي علياً. فقال: إن رأيت أن تعفيني. قال: لا أعفيك. قال: كان والله بعيد المدى وشديد القوى، يقول عدلاً ويحكم فضلاً، تتفجّر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته، وكان والله غزير الدمعة طويل الفكرة، يحاسب نفسه إذا خلا ويقلب كفيه على ما مضى، يعجبه من اللباس القصير ومن المعاش الخشن، وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويدنينا إذا أتيناه، ونحن مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه لهيبته ولا نرفع أعيننا إليه لعظمته، فإن تبسّم فعن اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، يتحبب إلى المساكين، لا يخاف القويّ ظلمه ولا ييأس الضعيف من عدله، فأقسم لقد رأيته ليلة وقد مثل في محرابه وأرخی الليل سرباله وغارت نجومه ودموعه تتحادر على لحيته وهو يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، فكأنني الآن أسمعوه وهو يقول: يا دنيا أليّ تعرضت أم إليّ أقبلت؟ غري غيري، لا حان حينك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعيشك حقير وخطرك يسير، آه من قلة الزاد وبعد السفر وقلة الأنيس! قال: فوكفت عينا معاوية ينشّفهما بكمّه ثم قال: يرحم الله أبا الحسن! كان كذا فكيف صبرك عنه؟ قال:

كصبر من ذبح ولدها في حجرها فهي لا ترقأ دمعها ولا تسكن عبرتها. قال: فكيف ذكرك له؟ قال: وهل يتركني الدهر أن أنساه! وهذا الخبر أتم من خبر ابن عباس، رحمه الله.

محاسن برّ البنات

قال عوانة: بلغنا أن شيخاً من أصحاب معاوية كان يكتب علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه، وقد كان طعن في السن، فبلغ معاوية خبره، فدعاه فقال: أيها الشيخ إنك لتكتب علياً، رضي الله عنه، ولولا سنّك لقتلتك فلا تفعل ولا تعد. فوقع كتاب له بعد ذلك إلى علي، رحمه الله، في يدي معاوية فدعاه وقال: أتعرف هذا الكتاب؟ قال: نعم، كتب فأجبتة، فأمر معاوية بقتله. فانتهى الخبر إلى ابنة له صغيرة، فجاءت حتى قامت بين يدي معاوية وأنشأت تقول: معاوي لا تقتل أباً كان مشفقاً ... علينا فنبقى إن فقدناه شرّداً وتوتم أولادٌ صغارٌ بقتله ... وإن تعف عنه كنت بالعفو أسعداً معاوي هبه اليوم لله وحده ... وللباقيات الصارخات تلدداً معاوي منك العلم والحلم والتقى ... وكنت قديماً يا ابن حربٍ مسدداً فعجب معاوية وأصحابه منها ودمعت عيناه ووهبه لها.

محاسن البنات

قال: ودخل عبد الله بن الزبير على معاوية بن أبي سفيان وبنية له تمرغ على صدره فقال: أمطها عنك يا أمير المؤمنين فإنهن يقرين الأعداء ويورثن البعداء. فقال معاوية: مهلاً يا ابن الزبير فما مرّض المرضي ولا ندب الموتى ولا برّ الأحياء كهنّ. فقال ابن الزبير: قد تركتهن أثر عندي من الأبناء. وحكي أنه قال: والله لقد دخلت يوماً وما أحدٌ أبغض إليّ منهنّ وإنّي أخرج وما أحد أحبّ إليّ منهنّ.

أنا والله قتلته

وقال رجل من قريش: ما أظن معاوية أغضبه شيء قط. فقال بعضهم: إن ذكرت أمه غضب. فقال مالك بن أسماء المنى القرشي: أنا أغضبه إن جعلتم لي جعلاً. ففعلوا. فأتاه في الموسم فقال له: يا أمير المؤمنين إن عينيك لتشبهان عيني أمك. قال: نعم كانتا عيني طالما أعجبتا أبا سفيان. ثم دعا مولاه شقران فقال له: اعدد لأسماء المنى دية ابنها فإني قد قتلته وهو لا يدري. فرجع وأخذ الجعل. فقيل له: إن أتيت عمرو بن الزبير فقل له مثل ما قلت لمعاوية أعطيناك كذا وكذا. فأتاه فقال له ذلك فأمر بضربه حتى مات. فبلغ معاوية فقال: أنا والله قتلته. وبعث إلى أمه بديته وأنشأ يقول:

ألا قل لأسماء المنى أم مالك ... فإني لعمر الله أهلكت مالكا (155)
لقد استحققت

قال معاوية لعرابة الأوسى: بأي شيء استحققت أن يقول فيك الشّماخ:
رأيت عراية الأوسى يسمو ... إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقّاها عراية باليمين
فقال: عراية: سماع هذا من غيري أولى بك وبى يا أمير المؤمنين، فقال:
عزمت عليك لتخبرني. فقال: بإكرامي جليسي، ومحاماتي على صديقي.
فقال معاوية: لقد استحققت.

متى ذهبت عينك؟

دخل عديّ بن حاتم على معاوية، وعنده عبد الله بن عمرو، فقال له عبد الله:
يا عديّ متى ذهبت عينك؟ قال: يوم مثل أبوك هارباً، وضرب على قفاه مولياً،
وأنا يومئذ على الحق، وأنت وأبوك على الباطل.
قال معاوية لعقيل بن أبي طالب: ما أبين الشبق في رجالكم يا بني هاشم! قال:
لكنه في نسائك يا بني عبد شمس أبين.
قال زهير:

" ومن لا يكرّم نفسه لا يكرّم " ... " ..ومن لا يتّق الشّتّم يشتم "

تصابون في بصائرکم

قال معاوية لابن عباس: أنتم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم. فقال ابن
عباس: وأنتم يا بني أمية تصابون في بصائرکم.

أين ترى عمك أبا لهب؟

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب: أين ترى عمك أبا لهب؟ قال: في النار،
مفترشاً عمك حمالة الحطب. وكانت أم جميل امرأة أبي لهب بنت حرب بن
أمية ابن عبد شمس.

قال معاوية بكلام عرّض فيه بعبد الله بن الزبير، فقال: يا أمير المؤمنين لا
يكن حقنا منك أن تمسك يدك مغلولة إلى عنقك، وتعمل لسانك في قومك.

طلبناها من أسافلها

سأل ابن الزُّبير معاوية حاجة فلم يقضها، فاستعان عليه بمولاة له، فقضى
حاجته، فقال له رجل: استعنت بامرأة! فقال: إذا أعيت الأمور من أعاليها
طلبناها من أسافلها.

ترده علي

قال معاوية يوماً لعمر بن العاص: لي إليك حاجة. قال: ولي إليك حاجة يا أمير المؤمنين. قال: تهب لي الوهط. قال: هو لك يا أمير المؤمنين. قال معاوية: اذكر حاجتك قال: ترده علي.

أنت الزمان

قال معاوية لابن الكوّاء: صف لي الزمان، فقال: أنت الزمان إن تصلح يصلح، وإن تفسد يفسد.

خير من هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " صنفان من أمّتي إذا صلحا صلح الناس، الأمراء والعلماء " .

سمعتهم يشتمون الأنبياء!

دخل رجلٌ من العامة الجهلة الحمقاء على شيخ من شيوخ أهل العلم، فقال: أصلح الله الشيخ، لقد سمعت في السوق الساعة شيئاً منكراً، ولا ينكره أحد قال: وما سمعت؟ قال: سمعتهم يشتمون الأنبياء! قال: ومن المشتوم من الأنبياء؟ قال: سمعتهم يشتمون معاوية. قال: يا أخي ليس معاوية بنبي. قال: فهبه نصف نبيّ لم يشتم.

قلوبنا ملئت خيراً

قال معاوية بن أبي سفيان لأبي مسلم الخولاني: إنكم معشر العباد فيكم النكاح والحدة والسماح. قال: أما النكاح فإننا لا نعدل عن أهلينا، وأما الحدة فإن قلوبنا ملئت خيراً فلا موضع فيها للشر، وأما السماح فبحسن الظن منا بالخلف من الله تعالى.

ألم تقل إنك صائم؟

دخل جنادة بن أبي أمية على معاوية، وهو يأكل، فدعاه إلى الأكل، فقال: أنا صائم، قلم تزل الألوان تختلف بين يدي معاوية حتى جئ بجدي محنود سمين، فقال جنادة: ليأمر لي أمير المؤمنين بماء أغسل يدي وأكل من هذا الجدي. فقال له: ألم تقل إنك صائم؟ قال: بلى. ولكني على رد يوم أقدر مني على رد مثل هذا الجدي. فضحك معاوية وأمر بالماء، فغسل يده وأكل معه.

(156)

ولكنها السنة بني هاشم الحداد التي تفلق الصخر

وكان لمعاوية بن أبي سفيان عينٌ بالمدينة يكتبُ إليه بما يكونُ من أمور الناس وقريش ، فكتب إليه : إنَّ الحسين بن علي أعتقَ جاريةً له وتزوجها ؛ فكتب معاوية إلى الحسين : من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن علي . أما بعد ، فإنه بلغني أنك تزوجتَ جاريته ، وتركتَ أكفأكَ من قريش ، ممن تستنجد به في الصهر ، فلا لنفسك نظرت ، ولا لولدك انتقيت

فكتب إليه الحسين بن علي : أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وتغييرك إياي بأني تزوجتُ مولاتي ، وتركتُ أكفائي من قريش ، فليس فوق رسول الله منتهى في شرف ، ولا غاية في نسب ؛ وإنما كانت ملكٌ يميني ، خرجت عن يدي بأمر التمسث فيه ثواب الله تعالى ، ثم ارتجعتها على سنة نبيه ، (صلى الله عليه وسلم) ، وقد رفع الله بالإسلام الخسيصة ، ووضع عنا به النقيصة ؛ فلا لوم على امرئ مسلم إلا في أمر مآثم ، وإنما اللوم لوم الجاهلية . فلما قرأ معاوية كتابه نبذه إلى يزيد فقراه ، وقال : لشد ما فخر عليك الحسين قال : لا ، ولكنها السنة بني هاشم الحداد التي تفلق الصخر ، وتعرف من البحر والحسين - رضي الله عنه - هو القائل : الوافر :
لَعَمْرُكَ إِنِّي لِأَحِبُّ دَاراً . . . تَحُلُّ بِهَا سُكَيْنَةُ وَالرَّبَابُ (157)
أَحِبُّهُمَا وَأَبْذُلُ كُلَّ مَالِي . . . وَلَيْسَ لِلأَئِمِّ عِنْدِي عِتَابُ

اصرفها إلى رحلك

وأهدى عمرو بن العاص إلى معاوية ثلاثين فرساً من سوابق خيل مصر ، فعرضت عليه ، وعنده عقبة بن سنان بن يزيد الحارثي ، فقال له معاوية : كيف ترى هدايانا يا أبا سعيد ؟ فإن أخاك عمراً قد أطنبَ في وصفها ، فقال : أراها يا أمير المؤمنين على ما وصف ، وإنها لمخيلة بكل خير ؛ إنها لسامية العيون ، لاحقة البطون ، مصغية الآذان ، قباء الأسنان ، ضخام الركبات ، مشرفات الحجبات ، رحاب المناخر ، صلاب الحوافر ، وقعها تحليل ، ورفعها تعليل ، فهذه إن طلبت سبقت ، وإن طلبت لحقت . قال له معاوية : اصرفها إلى رحلك ؛ فإن بنا عنها غنى ، وبفتيانك إليها حاجة . (158)

157 (سكينه : ابنته ، والرباب : أمها ، وهي بنت امرئ القيس بن الجرول الكلبية .

158 (أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني ، زهر الأداب وثمر الألباب ، تحقيق : أ. د يوسف على طویل ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1417 هـ - 1997 م ، 1/ 57، 61، 69 -

دهاء معاوية - رحمه الله - :

وكان معاوية بن أبي سفيان من الدهاة ؛ وله أخبار في الدهاء تدل على بعد غوره وحدة ذهنه .

فمنها أن يزيد ابنه سمع بجمال زينب بنت إسحاق زوج عبد الله بن سلام القرشي ، وكانت من أجمل النساء في وقتها وأحسنهن أدباً وأكثرهن مالاً ، ففتن بها يزيد ؛ فلما عيل صبره ذكر ذلك لبعض خصيان أبيه ، وكان ذلك الخصي خاصاً بمعاوية واسمه رفيق ، فذكر رفيق ذلك لمعاوية وقال له : إن يزيد قد ضاق ذرعه بها .

فبعث معاوية إلى يزيد فاستفسره عن أمره ؛ فبث له شأنه ؛ فقال : مهلاً يا يزيد ؛ فقال له : علام تأمرني بالمهل وقد انقطع منها الأمل ؟ فقال له معاوية : فأين مروءتك وحجائك وتقاك ؟ فقال : قد عيل الصبر ، ولو كان أحدٌ ينتفع فيما يبتلى به من الهوى بتقاه ، أو يدفع ما أقصده بحجاه لكان أولى الناس به داود حين ابتلي به ؛ فقال : اكتم يا بني أمرك ، فإن البوح به غير نافعك ، والله بالغ أمره فيك ، ولا بد مما هو كائن .

وأخذ معاوية في الاحتيال في تبليغ يزيد مناه ، فكتب إلى زوجها عبد الله بن سلام ، وكان قد استعمله على العراق : أن أقبل حين تنظر كتابي لأمر فيه حظك إن شاء الله تعالى فلا تتأخر عنه .

فأخذ السير وقدم ، فأنزله معاوية منزلاً كان قد هيئ له وأعد فيه نزله ؛ وكان عند معاوية يومئذ بالشام أبو هريرة وأبو درداء ، فقال لهما معاوية : إن الله قد قسم بين عباده قسماً ووهبهم نعماً أوجب عليهم فيها شكره وحتم عليهم حفظها ، فحباني منها عز وجل بأتم الشرف وأفضل الذكر ، وأوسع علي الرزق ، وجعلني راعي خلقه ، وأمينه في بلاده ، والحاكم في أمر عباده ، ليبلوني أ أشكر أم أكفر .

وأول ما ينبغي للمرء أن يتفقد وينظر من استرعاه الله أمرهم ، ومن لا غنى به عنه .

وقد بلغت لي ابنة أريد إنكاحها والنظر في اختيار من يباعلها ، لعل من يكون بعدي يقتدى فيه بهديي ويتبع فيه أثري فإنه قد يلي هذا الملك بعدي من يغلب عليه الشيطان ويرقيه إلى تعضيل بناتهم فلا يرون لهم كفواً ولا نظيراً ، وقد رضيت لها ابن سلام القرشي ، لدينه وشرفه وفضله ومروءته وأدبه ؛ فقالا له : إن أولى الناس برعاية نعم الله وشكرها وطلب مرضاته فيما اختصه منها

لأنت ؛ فقال لهما معاوية : فاذكرا له ذلك عني ، وقد كنت جعلت لها في نفسها شورى ، غير أنني أرجو ألا تخرج من رأيي إن شاء الله .
فخرجا من عنده وأتيا عبد الله بن سلام وذكرا له القصة .

ثم دخل معاوية على ابنته وقال لها : إذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلام وحضاك على المسارعة إلى اتباع رأيي فيه ، فقوللي لهما : إنه كفاء كريم وقريب حميم ، غير أن تحتة زينب بنت إسحاق ، وأخاف أن يعرض لي من الغيرة ما يعرض للنساء فأتناول منه ما يسخط الله تعالى فيه فيعذبني عليه ، ولست بفاعلة حتى يفارقها .

فلما اجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله وأعلماه بقول معاوية ، ردهما إليه يخطبان له منه ، فأتياه ؛ فقال : قد علمتما رضائي به وحرصتي عليه ، وكنت قد أعلمتكما الذي جعلت لها في نفسها من الشورى ، فادخلا عليها واعرضا عليها الذي رأيت لها .

فدخلا عليها وأعلماهما ؛ فقالت لهما ما قاله معاوية لها .

فرجعا إلى ابن سلام وأعلماه بما قالتة .

فلما ظن أنه لا يمنعها منه إلا فراق زينب أشهدهما بطلاقها وأعداهما إلى ابنة معاوية .

فأتيا معاوية وأعلماه بما كان من فراق عبد الله زوجته رغبة في الاتصال بابنته ؛ فأظهر معاوية كراهة فعله وفراقه لزينب وقال : ما استحسننت له طلاق امرأته ولا أحببته ، فانصرفا في عافية ثم عودا إليها وخذا رضاها ، فقاما ثم عادا إليه ، فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها تبرياً من الأمر ، وقال : لم يكن لي أن أكرهها وقد جعلت لها الشورى في نفسها . فدخلوا عليها وأعلماهما بطلاق عبد الله بن سلام امرأته ليسرها ، وذكراً من فضله وكمال مروءته وكرم محتده ؛ فقالت لهما : إنه في قریش لرفيع القدر ، وقد تعرفان أن الأناة في الأمور أرفق لما يخاف من المحذور ، وإنني سأئله عنه حتى أعرف دخلة أمره وأعلمكما بالذي يزينه الله لي ، ولا قوة إلا بالله ؛ فقالا : وفقك الله وخار لك .

وانصرفا عنها ، وأعلماه عبد الله بقولها ؛ فأنشد :

فإن يك صدر هذا اليوم ولى . . . فإن غداً لناظره قريب

وتحدث الناس بما كان من طلاق عبد الله زينب وخطبته ابنة معاوية ، ولاموه على مبادرته بالطلاق قبل إحكام أمره وإبرامه .

ثم استحث عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء ؛ فأتياها وقالا لها : اصنعي ما أنت صانعة واستخيري الله ، فإنه يهدي من استهداه ؛ فقالت : أرجو ، والحمد لله ، أن يكون الله قد خار لي ، وقد استبرأت أمره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسي ، ولقد اختلف من استشرته فيه ، فمنهم الناهي عنه ومنهم الأمر به ، واختلافهم أول ما كرهت .

فلما بلغاه كلامها علم أنه مخدوع ، وقال : ليس لأمر الله راد ، ولا لما لا بد منه صاد ؛ فإن المرء وإن كمل له حلمه واجتمع له عقله واستد رأيه ليس بدافع عن نفسه قدراً برأي ولا كيد ولعل ما سروا به واستجدلوا له لا يدوم لهم سروره ، ولا يصرف عنهم محذوره .

وذاع أمره وفشا في الناس ، وقالوا : خدعه معاوية حتى طلق امرأته ، وإنما أرادها لابنه ، وقبحوا فعله .

فتمت مكيدته هذه ؛ لكن المقادير أتت بخلاف تدبيره وبضد تقريره .
وذلك أنه لما انقضت أقراء زينب ، وجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لها على ابنه يزيد ؛ فخرج حتى قدم الكوفة ، وبها يومئذ الحسين بن علي رضي الله عنهما ، فبدأ أبو الدرداء بزيارته ، فسلم عليه الحسين وسأله عن سبب مقدمه ؛ فقال : وجهني معاوية خاطباً على ابنه يزيد زينب بنت إسحاق ؛ فقال له الحسين : لقد كنت أردت نكاحها وقصدت الإرسال إليها إذا انقضت أقراؤها ، فلم يمنعني من ذلك إلا تخير مثلك ، فقد أتى الله بك ، فاخطب -
رحمك الله - علي وعليه ، لتتخير من اختاره الله لها ، وهي أمانة في عنقك حتى تؤديها إليها ، وأعطها من المهر مثل ما بذل معاوية عن ابنه ؛ فقال : أفعل إن شاء الله .

فلما دخل عليها أبو الدرداء قال : أيتها المرأة ، إن الله خلق الأمور بقدرته ، وكونها بعزته ، فجعل لكل أمر قدراً ، ولكل قدر سبباً فليس لأحد عن قدر الله مستحاص ، ولا للخروج عن أمره مستناص ؛ فكان مما سبق لك وقدر عليك الذي كان من فراق عبد الله بن سلام إياك ، ولعل ذلك لا يضررك ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ؛ وقد خطبك أمير هذه الأمة وابن ملكها وولي عهده والخليفة من بعده يزيد بن معاوية ، والحسين ابن بنت رسول الله (ﷺ) وسيد شباب أهل الجنة ، وقد بلغك شأنهما وسناوهما وفضلهما ، وقد جئتكم خاطباً عليهما ، فاختاري أيهما شئت ؛ فسكتت طويلاً ثم قالت : يا أبا الدرداء ، لو أن هذا الأمر جاءني وأنت غائب لأشخصت فيه الرسل إليك واتبعت فيه رأيك ولم أقتطعه دونك ، فأما إذ كنت أنت المرسل فقد فوضت أمري بعد الله إليك

وجعلته في يديك ، فاختر لي أرضاهما لديك ، والله شاهدٌ عليك ، فاقض في أمري بالتحري ولا يصدنك عن ذلك اتباع هوى ، فليس أمرهما عليك خفياً ، ولا أنت عما طوقتك غيباً ؛ فقال : أيتها المرأة ، إنما علي إعلامك وعليك الاختيار لنفسك ؛ قالت : عفا الله عنك إنما أنا ابنة أخيك ، ولا غنى لي عنك ، فلا تمنعك رهبة أحدٍ عن قول الحق فيما طوقتك ، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حملتك ؛ والله خير من روعي وخيف ، إنه بنا خير لطيف .

فلما لم يجد بداً من القول والإشارة قال : أي بنية ، إن ابن بنت رسول الله (ﷺ) أحب إلي وأرضى عندي ، والله أعلم بخيرهما لك ، وقد رأيت رسول الله (ﷺ) وقد وضع شفتيه على شفتي الحسين ، فضعي شفتيك حيث وضع رسول الله (ﷺ) شفتيه ؛ قالت : اخترته وأردته ورضيته .

فتزوجها الحسين وساق لها مهراً عظيماً . فبلغ ذلك معاوية فتعاضمه ولام أبا الدرداء شديداً ، وقال : من يرسل ذا بله وعمى يركب خلاف ما يهوى .

وأما عبد الله ابن سلام فإن معاوية اطرحه وقطع عنه جميع روافده ، لسوء قوله فيه وتهمته أنه خدعه ، ولم بزل يجفوه حتى عيل صبره وقل ما في يديه . فرجع إلى العراق ، وكان قد استودع زينب قبل طلاقه لها مالاً عظيماً ودرأ كثيراً ، فظن أنها تجرده لسوء فعله بها وطلاقها من غير شيء كان منها ، فلقي حسيناً فسلم عليه ، ثم قال : قد علمت ما كان من خبري وخبر زينب ، وكنت قد استودعتها مالاً ولم أقبضه ، وأثنى عليها وقال له : ذاكرها أمري واحضضها على رد مالي .

فلما انصرف الحسين إليها قال لها : قد قدم عبد الله بن سلام وهو يحسن الثناء عليك ويحمل النشر عنك في حسن صحبتك وما آنسه قديماً من أمانتك ، فسرني ذلك وأعجبني ، وذكر أنه كان قد استودعك مالاً فأدي إليه أمانته وردي عليه ماله ، فإنه لم يقل إلا صدقاً ولم يطلب إلا حقاً ؛ فقالت : صدق ، استودعني مالاً لا أدري ما هو ، فادفعه إليه بطابعه ؛ فأثنى عليها حسين خيراً وقال : ألا أدخله عليك حتى تتبرئي إليه منه كما دفعه إليك ؟ ثم لقي عبد الله وقال : ما أنكرت مالك ، وإنها زعمت أنه بطابعك ؛ فادخل عليها وتسلم مالك منها ؛ فقال : أو ما تأمر من يدفعه إلي ؟ قال : لا بل تقبضه منها كما دفعته إليها .

ودخل عليها حين وقال : هذا عبد الله قد جاء يطلب وديعته ؛ فأخرجت إليه البدر فوضعتها بين يديه وقالت : هذا مالك ؛ فشكر وأثنى .

وخرج حسين عنهما ، وفض عبد الله ابن سلام خواتم بدره وحثي لها من ذلك وقال : خذي فهو قليلٌ مني ؛ فاستعبرا جميعاً حتى علت أصواتهما بالبكاء أسفاً على ما ابتليا به ؛ فدخل الحسين عليهما وقد رقي لهما فقال : أشهد الله أنها طالقٌ ثلاثاً ، اللهم قد تعلم أني لم أستكحها رغبة في مالها ولا جمالها ، ولكني أردت إحلالها لبعْلِها .

فسألها عبد الله أن تصرف إلى حسين ما كان قد ساق إليها من مهر ؛ فأجابته إلى ذلك ؛ فلم يقبله الحسين وقال : الذي أرجو إليه من الثواب خيرٌ لي . فلما انقضت أقرأؤها تزوجها عبد الله ، وحرّمها الله تعالى يزيد بن معاوية (159).

هذا ملك كبير الحيلة

ومن مكاييد معاوية أن رجلاً من قريش أسر فحمل إلى صاحب القسطنطينية ، فكلّمه ملك الروم فجأوبه القرشي بجواب لم يوافقه ؛ فقام إليه رجل من بطارقة صاحب القسطنطينية فوكّزه ، فقال القرشي : وامعاوياه لقد أغفلت أمورنا وأضعتنا .

فوصل الخبر إلى معاوية فطوى عليه واحتال في فداء الرجل . فلما وصل إليه سأله عن أمره مع صاحب القسطنطينية وعن اسم البطريق الذي وكّزه ؛ فلما عرفه أرسل إلى رجل من قواد صور الذين كانوا قواد البحر ممن عرف بالنجدة وغزو الروم ، وقال له : أنشئ مركباً يكون له مجاديف في جوفه ، واستعمل السفر إلى بلاد الروم ، وأظهر أنك إنما تسافر لبلادهم على وجه السر والاستتار منا ، وتوصل إلى صاحب القسطنطينية ومكنه من المال واحمل إليه الهدايا وإلى جميع أصحابه ، ولا تعرض لفلان يعني الذي لطم الرجل القرشي واعمل كأنك لا تعرفه ، فإذا كلمك وقال لك : لأي معنى تهادي أصحابي وتتركني ، فاعتذر إليه وقل له : أنا رجل أدخل هذه المواضع مستتراً ولا أعرف إلا من عرفت به ، فلو عرفت أنك من وزراء الملك لهاديتك كما هاديت أصحابك ، ولكني إذا انصرفت إليكم مرة أخرى سأعرف حقك . ففعل القائد ذلك .

ولما انصرف إليهم ثانية هاداه وأطفه وأربى في هديته على أصحابه ، ولم يزل حتى اطمأن إليه العُج .

فلما كان في إحدى سفراته قال له البطريق : كنت أحب أن تجلب لي من بلاد المسلمين وطاء ديباج يكون على ألوان الزهر ؛ قال : نعم .

فلما انصرف أخبر معاوية بما طلبه البطريق ؛ فأمر له ببساط على ما وصف ، وقال : إذا دخلت وادي القسطنطينية فأخرجه وابسطه على ظهر المركب وتربص في الوادي حتى يصل الخبر إلى ذلك العلج ، وابعث له في السر وتحين خروجه إلى ضيعته التي له على ضفة وادي القسطنطينية ، فإذا وصلت إلى حد ضيعته فابتدئ بها ، لعل يحمله الشره على الدخول إليك ؛ فإذا حصل عندك في المركب فمر الرجال بإشارة تكون بينك وبينهم أن يستعملوا المجاديف التي في جوف المركب ، وكر به راجعاً إلى الشام . ففعل ما أمره به معاوية .

وصادف وصول ذلك القائد وجود البطريق في ضيعته ، فبسط ذلك البساط على ظهر المركب ووصل إلى عرض ضيعة العلج ؛ فلما عاين البساط حمله الشره والحرص على أن دخل المركب ، فلما صار في المركب أشار القائد إلى رجاله فرجعوا بالمركب بعد أن أوثق البطريق ومن معه ، وسار بهم حتى قدم على معاوية . فأحضر معاوية البطريق ووقفه بين يديه ، وأحضر القرشي وقال : هذا صاحبك ؟ قال : نعم ؛ قال : قم فاصنع به ما صنع بك ولا تزد ؛ فقام القرشي فوكزه كما كان فعل به العلج .

ثم قال معاوية للبطريق : ارجع إلى ملكك وقل له : تركت ملك الإسلام يقتص من أصحاب بساطك ، وقال للذي ساقه : انصرف به إلى أول أرض الروم وأخرجه ، واترك له البساط وكل ما سألك أن تجمل له من هدية . فانصرف به إلى فم وادي القسطنطينية ، فوجد ملك الروم قد صنع سلسلة على فم الوادي ووكل بها الرجال ، فلا يدخل أحد إلى الوادي إلا بإذنه ؛ فأخرج العلج ومن معه وما معه .

فلما وصل إلى ملكه ووصف له ما صنع به معاوية قال : هذا ملك كبير الحيلة

فَعَظُمَ مَعَاوِيَةَ فِي أَعْيُنِهِمْ وَفِي نَفُوسِهِمْ فَوْقَ مَا كَانَ .
وعلق النويري علي هذه الواقعة بقوله : وهذه الواقعة محاسنها تستر مساوي ما تقدمها .⁽¹⁶⁰⁾

ذكرت من لا ينكر فضله

قال الأحنف: دخلت على معاوية فقدم إلي من الحلو والحامض ما كثر تعجبي منه، ثم قدم لونا ما أدري ما هو، فقلت ما هذا؟ قال: مصارين البط محشوة بالمخ قد قلى بدهن الفستق وذر عليه الطبرزد، فبكيت، فقال: ما يبكيك؟ قلت: ذكرت علياً، بينما أنا عنده فحضر وقت إفطاره، فسألني المقام إذا دعا بجراب مختوم، قلت: ما في الجراب؟ قال: سويق شعير، قلت خفت عليه أن يؤخذ أوبخلت به؟ قال: لا ولا أحدهما ولكني خفت أن يلته الحسن والحسين بسمن أو زيت قلت: محرم هو يا أمير المؤمنين؟ قال: لا ولكن يجب على أئمة الحق أن يعتدوا أنفسهم من ضعفة الناس لئلا يطغي الفقير فقره، قال معاوية: ذكرت من لا ينكر فضله.

كيف ترى ما ها هنا ؟

ولما بنى معاوية خضراء دمشق أدخلها أبا ذر، فقال له: كيف ترى ما ها هنا؟ قال: إن كنت بنيتها من مال الله عزوجل فأنت من الخائنين، وإن كنت بنيتها من مالك فأنت من المسرفين.

كفيت الغائب والشاهد

قدم وفد العراق على معاوية وفيهم الأحنف، فقام الآذن وقال: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن يتكلم أحد إلا لنفسه، فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عزمة أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردت، ونازلة نزلت، ونائبة نابت، والكل بهم الحاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبره. فقال: حسبك يا أبا بحر فقد كفيت الغائب والشاهد.

لا أشوب هذه المكرمة بالمسألة انفسى

روي عن سودة بنت عمارة الهمدانية، وفدت على معاوية فقال لها: ما حاجتك؟ قالت: إنك أصبحت للناس سيذاً، ولأمرهم متقلداً، والله مسائك عن أمرنا، وما افترض عليك من حقنا، ولا يزال يقدم علينا من ينوء بعزك ويبطش بسلطانك فيحصدنا حصد السنبل، ويدوسنا دوس البقر، ويسومنا الخسيصة، ويسلبنا الجليلة، وهذا بسر بن أرطاة قدم علينا من قبلك فقتل رجالي، يقول لي فوهي بما أستعصم الله سبحانه وتعالى منه وألجأ إليه فيه، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة. فإما عزلته عنا فشكرناك، وإما لا فعرفناك. فقال معاوية: أتهديني بقومك؟ لقد هممت أن أحملك على قتب أشرس فأردك إليه ينفذ فيك حكمه. فأطرقت تبكي ثم أنشأت تقول:

صلى الاله على جسم تضمنه ... قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به بدلاً ... فصار بالحق والإيمان مقرونا
فقال لها: ومن ذاك؟ قالت: علي بن أبي طالب رضوان الله عليه. قال: وما
صنع بك حتى صار عندك كذا؟ قالت: قدمت عليه في مصدق قدم علينا من
قبله، والله ما كان بيني وبينه إلا ما بين الغث والسمين، فأتيت علياً لأشكو
إليه ما صنع بنا فوجدته قائماً يصلي. فلما نظر إلي انفتل من صلاته ثم قال
لي، برأفة وتعطف: ألك حاجة؟ فأخبرته، فبكى ثم قال: اللهم أنت الشاهد علي
وعليهم، إني لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك؛ ثم أخرج من جيبه قطعة
جلد كهينة طرف الجراب، فكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم " أوفوا
المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض
مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ " " هود:
85 - 86 . إذا قرأت كتابي هذا فأحتفظ بما في يديك من عملنا حتى يقدم
عليك من يقبضه منك، والسلام.

فأخذته منه والله ما ختمه بطين ولا خزمه بخزام، فقرأته.
فقال لها معاوية: لقد لمظكم ابن أبي طالب الجراءة على السلطان، فبطيئاً ما
تفطمون، ثم قال: اكتبوا لها برد مالها والعدل عليها. قالت: ألي خاصة أم
لقومي عامة؟ قال: ما أنت وقومك؟ قالت: هي إذن والله الفحشاء واللؤم، إن
كان عدلاً شاملاً وإلا أنا كسائر قومي، قال: اكتبوا لها ولقومها.
ومثله خبر الراعي مع عبد الملك لما أنشده قوله: من البسيط
فإن رفعت بهم رأساً نعشتهم ... وإن لقوا مثلها في قابل فسدوا
قال له: تريد ماذا؟ قال: ترد عليهم صدقاتهم، وتدر أعطيائهم، وتنعش
فقيروهم، وتخفف مؤونة غنيهم، قال: إن ذا لكثير، قال: أنت أكثر منه، قال: قد
فعلت فسלني حوائجك، قال: قد قضيتها، قال: سل لنفسك، قال: لا والله لا
أشوب هذه المكربة بالمسألة لنفسي.

هل لك من حاجة؟

خرج معاوية متنزهاً فمر بحواء (161) ضخم فقصد لبيت منه، فإذا بفنائها
امراً برزة، فقال لها: هل من غداء؟ قالت: نعم حاضر، قال: وما غداؤك؟
قالت خبز خمير، وماء نمير، وحيس فطير، ولبن هجير، فتنى وركه ونزل،
فلما تغدى قال: هل لك من حاجة؟ فذكرت حاجة أهل الحواء، قال: هاتي

حاجتك في خاصة نفسك، قالت: يا أمير المؤمنين إني أكره أن تنزل وادياً
فيرف أوله ويقف آخره. (162)

وتجلدي للشامتين

وحكي أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه لما مرض مرضه الذي
مات فيه دخل عليه بعض بني هاشم ليعوده فلما استأذن عليه قام وجلس
وأظهر القوة والتجلد وأذن للهاشمي فدخل عليه ثم قال متمثلاً بقول أبي
ذؤيب الهذلي من قصيدة رثى بها أولاداً له ماتوا بالطاعون:
وتجلدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا أتضعع
فأجابه علي الفور من القصيدة المذكورة بعينها:
وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

قد رأيتها؟

جلست ميسون بنت بحدل الكلبية ترجل ابنها يزيد بن معاوية، وميسون يومئذ
مطلقة، ومعاوية وفاخته بنت قرظة ينظران إليهما، ويزيد وأمه لا يعلمان،
فلما فرغت من ترجيله نظرت إليه فأعجبها وقبلت بين عينيه، فقال معاوية
بيتاً من شعر:

إذا مات لم تغلح مزينة بعده ... فنوطي عليه يا مزين التمائما
قال: ومضى يزيد فأتبعه فاخنة بصرها، وقالت: لعن الله سواد ساقي أمك،
فقال معاوية: قد رأيتها؟ أما والله على ذاك لما فرجت عنه وركاها خير مما
تفرجت عنه وركاك.

وكان لمعاوية من بنت قرظة عبد الله، وكان أحق الناس، قالت فاخنة: لا
والله ولكنك تؤثر هذا عليه، فقال: سوف أبين لك ذلك حتى تعرفيه قبل أن
تقومي من مجلسك، يا غلام! ادع لي عبد الله، فدعاه فقال له معاوية: يا بني!
إني قد أردت أن أسعفك وأن أصنع بك ما أنت أهله، فسل أمير المؤمنين
فلمست تسله شيئاً إلا أعطاكه. فقال: حاجتي أن تشتري لي كلباً فارهاً وحماراً،
فقال معاوية: يا بني! أنت حمار ونشتري لك حماراً، قم فاخرج، قال: كيف
رأيت؟ يا غلام! ادع لي يزيداً، فدعاه.

فقال: يا بني! إن أمير المؤمنين قد أراد أن يسعفك ويوسع عليك ويصنع بك
ما أنت أهله، فاسأله ما بدا لك، قال: فخر ساجداً ثم قال حين رفع رأسه:
الحمد لله الذي بلغ أمير المؤمنين هذه المدة، وأراه في هذا الرأي، حاجتي أن
تعقد لي العهد من بعدك، وتولياني العام صائفة المسلمين، وتحسن جهازي

وتقويني، فتكون الصائفة أول أسفاري، وتأذن لي في الحج إذا رجعت
وتولينني الموسم، وتزيد أهل الشام عشرة دنائير لكل رجل، وتجعل ذلك
بشفاعتي، وتفرض لأيتام بني جمح وأيتام بني سهم وأيتام بني عدي، قال:
مالك ولبني عدي؟ قال: لأنهم جالفوني وانتقلوا إلى داري، قال معاوية: قد
فعلت - إذا رجعت - ذلك بك، وقبل وجهه وقال لابنة قرظة: كيف رايت؟ قالت:
يا أمير المؤمنين! أوصه بي، فأنت أعلم به، ففعل.⁽¹⁶³⁾

وفي رواية: أن عبد الله سأل مالاً وأرضاً، وأن يزيد قال لمعاوية: اعتقني من
النار أعتق الله رقبتك من النار، فقال له: وكيف؟ قال: لأنني وجدت في الأثر
أنه " من تقلد أمر الأمة ثلاثة أيام حرمه الله على النار " ، فاعهد إلي من
بعدك .

يا أبه! قال يزيد بن معاوية لأبيه: يا أبه! هل ذممت عاقبة حلم قط أم حمدت
عاقبة إقدام قط؟ قال: ما حلمت عن لئيم وإن كان ولياً إلا أعقبتني ندماً، ولا
أقدمت على كريم وإن كان عدواً إلا أعقبتني أسفاً.⁽¹⁶⁴⁾

ما بكل هذا أمرتك!

قيل: وشرب يزيد بن معاوية ذات يوم وعنده الأخطل فلما ثمل قال: يا أخطل
اهجني ولا تفحش، فأنشأ يقول:

ألا اسلم سلمت أبا خالدٍ ... وحياك ربك بالعنقر
وروى عظامك بالخندري ... س قبل الممات ولم تعجز
أكلت الدجاج فأفنيته ... فهل في الحنايص من مغمز
ودينك حقاً كدين الحما ... ر بل أنت أكفر من هرمز

فرفع يده ولطمه وقال: يا ابن اللخناء ما بكل هذا أمرتك!⁽¹⁶⁵⁾

ودخل الحسين يوماً على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يفتخر ويقول نحن ونحن
ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا والحسين ساكت فأذن المؤذن فلما قال أشهد

¹⁶³ (المعافى بن زكريا ، الجليس الصالح والأنيس الناصح ، 131/1

¹⁶⁴ (ابن الحداد ، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس ، ص22

¹⁶⁵ (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 121/1

أن محمد رسول الله قال الحسين يا يزيد جد من هذا فخل يزيد ولم يرد جوابا وفي ذلك يقول علي بن محمد بن جعفر
لقد فاخرتنا من قریش عصابة ... بمط خدود وامتداد اصابع
فلما تنازعنا الفخار قضي لنا ... عليهم بما نهوى نداء الصوامع
ترانا سكوتا والشهيد بفضلنا ... عليهم جهير الصوت من كل جامع
وله ايضا :
إني وقومي من أنساب قومهم ... كمسجد الخيف من بحبوحة الخيف
ما علق السيف منا باين عشرة ... إلا وهمة أمضي من السيف (166)

أول من جمع بين التهنة والتعزية

ودخل عطاء بن أبي سفي على يزيد بن معاوية وهو أول من جمع بين التهنة والتعزية فقال رزئت خليفة الله وأعطيت خلافة الله قضى معاوية نحبه فغفر الله ذنبه ووليت الرئاسة وكنت أحق بالسياسة فاحتسب عند الله أعظم الرزية واشكر الله على أعظم العطية . (167)

أوسعت يا أبا أمية فاجلس

وعن العتبي، قال: لما عقد معاوية البيعة ليزيد، قام الناس يخطبون، فقال معاوية لعمر بن سعيد: قم يا أبا أمية. فقام، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فإن يزيد بن معاوية أنبل ما تأملونه، وأجل ما تأمنونه، ان استضيفتم إلى حلمه وسعكم، وان احتجتم إلى رأيه ارشدكم، وان افتقرتم إلى ذات يده اغناكم، جذع قارع، سوبق فسبق، وموجد فمجد، وقورع ففاز سهمه، فهو خلف أمير المؤمنين، ولا خلف منه. فقال معاوية: أوسعت يا أبا أمية فاجلس. (168)

166 (الأبشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق : د. مفيد محمد قميحة ، دار الكتب

العلمية – بيروت ، الطبعة الثانية ، 1986 ، 289/1

167 (الأبشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف، 166/2

168 (ابن دريد ، تعليق من أمالي ابن دريد، 21/1

إن هذا المنبر لم ينصب للشعر

وروى أن رجلاً صعد المنبر أيام يزيد بن معاوية وكان والياً على قوم فقال لهم أيها الناس إني إن لم أكن فارساً طبا بهذا القرآن فإن معي من أشعار العرب ما أرجو أن يكون خلفاً منه وما أساء القائل أخو البراجم حيث قال : وما عاجلات الطير يذنين للفتى ... رشادا ولا من ريثن يخب ورب أمور لا تضيرك ضيرة ... وللقلب من مخشاتها وجيب ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... على نائبات الدهر حين تنوب وفي الشك تفريط وفي الحزم قوة ... ويخطئ الفتى في حدسه ويصيب فقال رجل من كلب إن هذا المنبر لم ينصب للشعر بل ليحمد الله تعالى (169)

لم كرهت الإفراط في تقديمي ؟

قال يزيد بن معاوية لجميل بن أوس ، وكان أكرمه واجتباه : لم كرهت الإفراط في تقديمي ، وتطامنت عن الدرجة التي سما بك إليها مكانك مني ؟ فقال : أيد الله سلطانك ، وأعلى مكانك ، إن الذين كانوا قبلنا من أهل العلوم والآداب ، والعقول والألباب ، كانوا أطول أعماراً منا ، وأكثر للزمان صُحبة ، وأكثر للأيام تجربة ، وقد قال الحكيم : بقدر الثواب عند الرضا يكون العقاب عند السخط ، وبقدر السمو في الرفعة تكون وجبة الرفعة ، ولا خير فيمن لا يسمع الموعدة ، ولا يقبل النصيحة ، وأنا يا أمير المؤمنين ، وإن كنت آمناً من التعرض لسخطك والدنو مما يقرب منه ، فلست بآمن من طعن المساوي في الدرجة عندك ، وحقر المشاركة لي في المنزلة منك ، وليس من تقديمك قليل ، ولا من تعظيمك يسير ، فإن أقل ذلك فيه النباهة ، والفخر ، والثناء ، والذكر ، وحسبي مما بذلته من أموالك استحقاقي عندك لإكرامك ، وحسبي من تقديمك خالص رضاك ، وصفاء ضميرك . (170)

فكيف تشاتم رجلاً قبل أن تعلم ما يقال لك وفيك؟

كان بين يزيد بن معاوية وبين اسحق بن طلحة بن عبيد الله كلام بين يدي معاوية فقال يزيد: يا اسحق إن خيراً لك أن يدخل بنو حرب كلهم الجنة! فقال اسحق: وأنت والله لخير لك أن يدخل بنو العباس كلهم الجنة! فأنكر يزيد ولم يدر ما عناه؛ فلما قام اسحاق قال معاوية: أتدري ما عناه اسحق؟ قال يزيد: لا. قال: فكيف تشاتم رجلاً قبل أن تعلم ما يقال لك وفيك؟ إنه عنى ما زعم

الناس أن أبا العباس أبي، وكانت هند اتهمت به وبغيره، ولذلك لما جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تباعه فتلا عليها الآية، فلما بلغ قوله ولا يزينين قال: وهل تزني الحرة؟ فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عمر وتبسم.⁽¹⁷¹⁾

بنس الضيف أنت

كانت عند عبد الله بن جعفر جارية مغنية يقال لها عمارة، وكان يجد بها وجداً شديداً، وكان لها ثمنه مكان لم يكن لأحد من جواريه، فلما وفد عبد الله بن جعفر على معاوية خرج بها معه فزاره يزيد، ذات يوم، فأخرجها إليه، فلما نظر إليها، وسمع غناءها، وقعت في نفسه، فأخذه عليها ما لا يملكه، وجعل لا يمنعه من أن يبوح بما يجد بها إلا مكان أبيه مع يأسه من الظفر بها، فلم يزل يكاتم الناس أمرها إلى أن مات معاوية، وأفضى الأمر إليه، فاستشار بعض من قدم عليه من أهل المدينة وعامة من يثق به في أمرها، وكيف الحيلة فيها، ف قيل له: إن أمر عبد الله بن جعفر لا يرام، ومنزلته من الخاصة والعامة ومنك ما قد علمت؛ وأنت لا تستجيز إكراهه، وهو لا يبيعها بشيء أبداً، وليس يغني في هذا إلا الحيلة، فقال: انظروا لي رجلاً عراقياً له أدب وظرف ومعرفة، فطلبوه، فأتوه به، فلما دخل رأى بياناً وحلاوةً وفهماً، فقال يزيد: إني دعوتك لأمر إن ظفرت به فهو حظك آخر الدهر ويد أكافئك عليها إن شاء الله تعالى؛ ثم أخبره بأمره، فقال له: عبد الله بن جعفر ليس يرام ما في قلبه إلا بالخديعة، ولن يقدر أحد على ما سألت، فأرجو أن أكونه، والقوة بالله، فأعني بالمال. قال: خذ ما أحببت.

فأخذ من طرف الشام وثياب مصر، واشترى متاعاً للتجارة من رقيق ودواب وغير ذلك، ثم شخص إلى المدينة، فأناخ بعريضة عبد الله بن جعفر، واكترى منزلاً إلى جانبه، ثم توسل إليه وقال: إني رجل من أهل العراق قدمت بتجارة وأحببت أن أكون في عز جوارك وكنفك إلى أن أبيع ما جئت به، فبعث عبد الله بن جعفر إلى قهرمانه أن أكرم الرجل، ووسع عليه في نزوله. فلما اطمأن العراقي سلم عليه أياماً وعرفه نفسه، وهياً له بغلة فارهة، وثياباً من ثياب العراق والطفاف، فبعث بها إليه، وكتب معها: يا سيدي! إني رجل تاجر، ونعم الله علي سابغة، وقد بعثت إليك بشيء من تحف وكذا من الثياب والعطر، وبعثت ببغلة خفيفة العنان، وطبئة الظهر، فاتخذها لرجلك، فأنا أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ، ألا قبلت هديتي ولم توحشني بردها، إني

أدين الله تعالى بحبك وحب أهل بيتك، وإن أعظم أمني في سفرتي هذه أن أستفيد الأنس بك والتحرم بمواصلتك.

فأمر عبد الله بقبض هديته، وخرج إلى الصلاة، فلما رجع مر بالعراقي في منزله، فقام إليه، وقبل يده، واستكثر منه، فرأى أدباً وظرفاً وفصاحة، فأعجب به وسر بنزوله عليه، فجعل العراقي في كل يوم يبعث إلى عبد الله بلطف تطرفه، فقال عبد الله: جرى الله ضيفنا هذا خيراً، فقد ملأنا شكراً، وما نقدر على مكافأته.

فإنه لذلك إلى أن دعاه عبد الله، ودعا بعمارة في جواريه، فلما طاب لهما المجلس، وسمع غناء عمارة، تعجب، وجعل يزيد في عجبه، فلما رأى ذلك عبد الله سر به إلى أن قال له: هل رأيت مثل عمارة! قال: لا والله يا سيدي ما رأيت مثلها، وما تصلح إلا لك، وما ظننت أن يكون في الدنيا مثل هذه الجارية، حسن وجه، وحسن عمل، قال: فكم تساوي عندك؟ قال: ما لها ثمن إلا الخلافة؟ قال: تقول هذا لتزين لي رأياً فيها وتجتلب سروري؟ قال له: يا سيدي، والله، إني لأحب سرورك، وما قلت لك إلا الجدة، وبعد فإني تاجر أجمع الدراهم إلى الدرهم، طلباً للربح، ولو أعطيتها بعشرة آلاف دينار لأخذتها. فقال له عبد الله: عشرة آلاف؟ قال: نعم! ولم يكن في لك الزمان جارية تعرف بهذا الثمن. فقال له عبد الله: أنا أبيعكها بعشرة آلاف. قال: قد أخذتها. قال: هي لك، قال: قد وجب البيع، وانصرف العراقي.

فلما أصبح عبد الله لم يشعر إلا بالمال قد جيء به، ففيل لعبد الله: قد بعث العراقي بعشرة آلاف دينار، وقال: هذا ثمن عمارة، فردها، وكتب إليه: إنما كنت أمزح معك، ومما أعلمك أن مثلي لا يبيع مثلها. فقال له: جعلت فداك! إن الجد والهزل في البيع سواء. فقال له عبد الله: ويحك! ما أعلم جارية تساوي ما بذلت، ولو كنت بائعها من أحد لأثرتك، ولكني كنت مزاحاً، وما أبيعها بملك الدنيا لحرمتها بي وموضعها من قلبي. فقال العراقي: إن كنت مزاحاً، فإني كنت جاداً، وما اطلعت على ما في نفسك وقد ملكت الجارية، وبعثت إليك بثمنها، وليس تحل لك، وما لي من أخذها من بد. فمانعه إياها، فقال له: ليست لي بينة، ولكني أستحلفك عند قبر رسول الله ﷺ، ومنبره. فلما رأى عبد الله الجد قال: بئس الضيف أنت، ما طرفنا طارق، ولا نزل بنا نازل أعظم بلية منك، أتحلفني فيقول الناس: اضطهد عبد الله ضيفه وقهره وأجأه إلى أن استحلفه؟ أما والله ليعلمن الله، عز وجل، أنني سأبليه، في هذا الأمر، الصبر وحسن العزاء.

ثم أمر قهرمانه بقبض المال منه، وبتجهيز الجارية بما يشبهها من الخدم والثياب والطيب، فجهزت بنحو من ثلاثة آلاف دينار، وقال: هذا لك ولك عوضها مما ألطفتنا، والله المستعان.

فقبض العراقي الجارية وخرج بها، فلما برز من المدينة قال لها: يا عمارة! إني، والله، ما ملكتك قط، ولا أنت لي، ولا مثلي يشتري دارية بعشرة آلاف دينار، وما كنت لأقدم على ابن عم رسول الله ﷺ، فأسلبه أحب الناس إليه لنفسي، ولكني دسيس من يزيد بن معاوية، وأنت له وفي طلبك بعث بي فاستتري مني، وإن داخلني الشيطان في أمرك، أو تآقت نفسي إليك فامتنعي. ثم مضى بها حتى ورد دمشق، فتلقيها الناس بجنابة يزيد، وقد استخلف ابنه معاوية بن يزيد، فأقام الرجل أياماً، ثم تطف للدخول عليه، فشرح له القصة، ويروى أنه لم يكن أحد من بني أمية يعدل بمعاوية بن يزيد في زمانه نبلاً ونسكاً، فلما أخبره قال: هي لك وكل ما دفعه إليك من أمرها فهو لك، وارحل من يومك، فلا أسمع بخبرك في شيء من بلاد الشام.

فرحل العراقي ثم قال للجارية: إني قلت لك ما قلت حين خرجت بك من المدينة، فأخبرت أنك ليزيد، وقد صرت لي، وأنا أشهد الله أنك لعبد الله بن جعفر، وإني قد رددتك عليه، فاستتري مني.

ثم خرج بها حتى قدم المدينة، فنزل قريباً من عبد الله، فدخل عليه بعض خدمه فقال له: هذا العراقي ضيفك الذي صنع بنا ما صنع، وقد نزل العرصة، لا حياه الله، فقال عبد الله: مه! أنزلوا الرجل وأكرموه.

فلما استقر بعث إلى عبد الله: جعلت فداك! إن رأيت أن تأذن لي أذنة خفيفة لأشافهك بشيء فعلت. فأذن له، فلما دخل سلم عليه، وقبل يده، فقربه عبد الله، ثم اقتص عليه القصة، حتى إذا فرغ قال: قد والله وهبتها لك قبل أن أراها، وأضع يدي عليها، فهي لك، ومردودة عليك. وقد علم الله تعالى أنني ما رأيت لها وجهاً إلا عندك. فبعث إليها، فجاءت وجاء بما جهزها به موفراً، فلما نظرت إلى عبد الله خرت مغشياً عليها، وأهوى إليها عبد الله فضمها إليه. وخرج العراقي وتصايح أهل الدار: عمارة عمارة، فجعل عبد الله يقول، ودموعه تجري: أحلم هذا، أحق هذا؟ ما أصدق بهذا. فقال له العراقي: جعلت فداك! قد ردها عليك إيثارك الوفاء وصبرك على الحق وانقيادك له. فقال عبد الله: الحمد لله، اللهم إنك تعلم أنني تصبرت عنها، وآثرت الوفاء، وأسلمت لأمرك، فرددتها علي بمنك، فلك الحمد! ثم قال: يا أبا العراق ما في الأرض أعظم منةً منك، وسيجازيك الله تعالى.

وأقام العراقي أياماً، وباع عبد الله غنماً له بثلاثة عشر ألف دينار، وقال لقهرمانه: احملها إليه، وقل له: اعذر، واعلم أنني لو وصلتك بكل ما أملك لرأيتك أهلاً لأكثر منه، فرحل العراقي محموداً وأفر العرض والمال.⁽¹⁷²⁾

وإني أستشيرك فأشر عليّ

كتب يزيد بن معاوية إلى أبي هريرة يأمره أن يخطب عليه هند بنت سهيل ابن عمرو أخي بني عامر بن لؤي . فجاءها أبو هريرة فخطبها على يزيد ، فقالت له : فإن حسن بن عليّ خطبني ، وإني أستشيرك فأشر عليّ . فقال : إني أشير عليك أن تضعي فاك حيث وضع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاه ، فتزوجت الحسن عليه السلام .⁽¹⁷³⁾

ولو كانت أكنت تفي بها ؟

بعث يزيد بن معاوية عبيد الله بن عضاء الأشعري إلى ابن الزبير فقال له : إن أول أمرك كان حسناً فلا تفسده بآخره . فقال ابن الزبير : إنه ليست ليزيد في عنقي بيعة . قال له : ولو كانت أكنت تفي بها ؟ قال : نعم . قال : يا معشر المسلمين قد سمعتم ما قال ، وقد بايعتم ليزيد ، وهو يأمركم بالرجوع عن بيعته .⁽¹⁷⁴⁾

وترك كثيراً مما كان عليه

وفد هانئ بن قبيصة على يزيد بن معاوية فاحتجب عنه أياماً ثم إن يزيد ركب يوماً يتصيد ، فتلقيه هانئ فقال : إن الخليفة ليس بالمحتجب المتخلي ، المتنحي ، ولا بالمتطرف المتنحي ولا الذي ينزل على العدوات والفلوات ، ويخلو بالذات والشهوات ، وقد وليت أمرنا ، فأقم بين أظهرنا ، وسهل إذننا واعمل بكتاب الله فينا ، فإن كنت عجزت عما هاهنا ، واخترت عليه غيره ، فاردد علينا بيعتنا ، نبايع من يعمل بذلك فينا ونقمه ، ثم عليك بخلواتك ، وصيدك وكلابك . قال : فغضب يزيد وقال : والله لولا أن أسن بالشام سنة العراق لأقمت أودك . ثم انصرف وما هاجه بشيء وإذن له ولم تتغير منزلته عنده ، وترك كثيراً مما كان عليه .⁽¹⁷⁵⁾

لست في العير ولا في النفير

¹⁷² (السراج القارئ ، مصارع العشاق ، ص 153-154)

¹⁷³ (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نثر الدر ، 74/2)

¹⁷⁴ (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نثر الدر ، 94/4)

¹⁷⁵ (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نثر الدر ، 12/6)

وجرى في الإسلام كلام بين يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وبين عمرو الأشدق فقال عمرو ليزيد أسكت فلست في العير ولا في النفير فقال يزيد لجلسائه إن هذا الأحق سمع كلمة فأحب أن يتمثل بها ولم يحسن أن يضعها موضعها، يقول لي لست في العير ولا في النفير وصاحب العير جدي أبو سفيان وصاحب النفير جدي عتبة بن ربيعة.⁽¹⁷⁶⁾

هلا قلت وافق المعنى تفسيراً

سأل يزيد بن معاوية الأحنف عن المروعة، فقال: التقى والاحتمال، ثم أطرق هنيئة فقال:

وإذا جميل الوجه لم ... يأت الجميل فما جماله

ما خير أخلاق الفتى ... إلا تقاه واحتماله

فقال يزيد: أحسنت يا أبا بحر، وافق البم زيراً. فقال الأحنف: هلا قلت وافق المعنى تفسيراً.⁽¹⁷⁷⁾

أخاف أن يبلغ أمير المؤمنين!

أهدى يزيد بن معاوية إلى عبد الله بن جعفر هدية فيها در وجوهر وعطر وكسى فقال للرسول: اختر ما شئت منها، فاختار فصاً من ياقوت أحمر وجد في خزائن ذي القرنين مما كان لدارا بن دارا، فقال: خذه وكل ما في السفط، فقال: أخاف أن يبلغ أمير المؤمنين! قال: ومن يبلغ ذاك إلا أنا وأنت؟ فأخذه.⁽¹⁷⁸⁾

كم كان أمير المؤمنين يعطيك؟

ورد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه على يزيد بن معاوية، فقال له: كم كان أمير المؤمنين يعطيك؟ قال: كان رحمه الله يعطيني ألف ألف. فقال يزيد: قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف. قال: بأبي أنت وامي. قال: ولهذه ألف ألف. قال: أما أني لأقولها لأحد بعدك. قال: ولهذه ألف ألف. قال: ما يمنعني من الأطناب في وصفك إلا الإشفاق عليك من جودك. قال: ولهذه ألف ألف. وحمل المال معه، ففيل ليزيد: فرغت بيت مال المسلمين على رجل واحد. قال: إنما دفعته إلى أهل المدينة أجمعين. ثم وكل به من يعرفه خبره من حيث

¹⁷⁶ (الزجاجي، الأمالي ، 37/1

¹⁷⁷ (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 385/1

¹⁷⁸ (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 397/1

لا يعلم، فلما دخل المدينة فرق المال فيها حتى احتاج بعد شهر الى القرض.⁽¹⁷⁹⁾

فما ترى فيه؟

دخل يزيد بن معاوية على أبيه فوجده مطرقاً فقال: يا أمير المؤمنين ما هذا الأمر الذي أشجأك؟ قال: أمر أمرضني وأقلقتني منذ اليوم، وما أدري ما اعمل فيه قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا الفاسق أبو دهبيل كتب إلى أختك عاتكة بهذه الأبيات:

أعاتك هلا إذ بخلت فلم تري ... لذي صبوة زلفى لديك ولا حقاً
رددت فؤاداً قد تولى به الهوى ... وسكنت عيناً لا تمل ولا ترقاً
ولكن خلعت القلب بالوعد والمنى ... ولم أر يوماً منك جوداً ولا صدقاً
فواكبي إذ ليس لي منك مجلس ... فأشكو الذي بي من هواك وما ألقى
وأكبر همي أن أرى منك مرسلأ ... وطول النهار جالس أرقب الطرقة
رأيتك تزدادين للصب غلظة ... ويزداد قلبي كل يوم لكم عشقاً
فلم تزل باكية منذ اليوم قد أفسدها الخبيث فما ترى فيه؟ قال: والله يا أمير المؤمنين إن الشأن فيه لهين قال: وما هو؟ قال: عبد من عبيدك يكمن له في بعض أزقة مكة فيريحنا منه. فقال معاوية: أف لك، والله إن امرءاً يريد بك ما يريد ويسمو بك إلى ما يسمو لغير ذي رأي، فأنت قد ضاق ذرعك بكلمة، وقصر فيها باعك، حتى أردت أن تقتل فيها رجلاً من قريش. أو ما تعلم أنك إن فعلت ذلك صدقت قوله وجعلتنا أحوثة أبداً. قال: يا أمير المؤمنين إنه قال قصيدة أخرى تناشدها أهل مكة وسارت حتى بلغتني فأوجعتني وحملتني على ما أشرت فيه قال: وما هي قال:

حمى الملك الجبار في لقاءها ... فمن دونها تخشى المتالف والقتل
فلا خير في حب يخاف وباله ... ولا في حبيب لا يكون له وصل
فواكبي إني سهرت بحبها ... ولم تك فيما بيننا ساعة بذل
ويا عجباً إني أكاتم حبها ... وقد شاع حتى قطعت دونها السبل
فقال معاوية: قد والله رفعت عني فما كنت آمن أن يكون وصل إليها، فإما وهو يشكو أنه لم يكن بينهما وصل ولا بذل فالخطب أيسر علي، قم عني واكتم ما كان. فقام يزيد وانصرف. وحج معاوية في تلك السنة، فلما انقضت أيام الحج كتب أسماء وجوه قريش وأشرافهم وكتب فيهم اسم أبي دهبيل، ثم دعاهم ففرق في جميعهم الصلات السنية، وأجازهم الجوائز الكثيرة فلما

قبض أبو دهبل جائزته وقام لينصرف، دعا معاوية إليه فقال له: يا أبا دهبل مالي أرى أبا خالد يزيد بن أمير المؤمنين عليك ساخطاً في قوارص ثابتة عنك، وشعر لا تزال قد نطقت به وأنفذ إلى خصماننا وموالينا؟ لا تعرض لأبي خالد، فجعل أبو دهبل يعتذر إليه ويحلف أنه مكذوب عليه. فقال له معاوية: لا بأس عليم وما يضرك هذا عندنا، هل تأهلت؟ قال: لا. قال: فأبي بنات عمك أحب إليك قال: فلانة. قال: قد زوجها أمير المؤمنين وأصدقها عنك ألفي دينار وأمر لك بألف دينار. فلما قبض قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يعفو لي عما مضى فإن نطقت ببیت في معنى ما سبق مني فقد أبحت به دمي وفلانة التي زوجها أمير المؤمنين طالق البتة. فسرّ بذلك معاوية، وضمن له أن يرضي يزيد عنه، ووعدته بإدراار ما وصله به كل سنة وانصرف إلى دمشق، ولم يحج معاوية في تلك السنة إلا من أجل أبي دهبل.⁽¹⁸⁰⁾

يعوقني عنه أبوك وينهاني

عن إبراهيم بن جعفر بن محمود الأشهلي عن أبيه قال كان حويطب بن عبد العزى قد بلغ مائة وعشرين سنة ستين في الجاهلية وستين في الإسلام فلما ولي مروان بن الحكم المدينة دخل عليه حويطب فقال له مروان ما نيتك فأخبره فقال له تأخر إسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث فقال والله لقد هممت بالإسلام غير مرة وكل ذلك يعوقني عنه أبوك وينهاني ويقول تدع دين آبائك لدين محمد فأسكت مروان وندم على ما كان.

أظنك أحق

قال مروان لحبيش بن دلجة أظنك أحق، فقال أحق ما يكون الشيخ إذا عمل بظنه⁽¹⁸¹⁾.

كيف رأيت مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه؟

وقيل لأبي عقيل البليغ العراقي: كيف رأيت مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه؟ قال: رأيت رغبته في الشكر، وحاجته إلى القضاء أشد من حاجة صاحب الحاجة.⁽¹⁸²⁾

¹⁸⁰ (القاضي التنوخي، المستجد من فعلات الأجواد ، 65/1

¹⁸¹ (ابن الجوزي، الأذكياء ، ص 62

¹⁸² (ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد ، 64/1

وما هي؟

بينما معاوية بن أبي سفيان جالس في أصحابه إذ قيل له: الحسنُ بالباب؟ فقال معاوية: إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه؛ فقال له مروان بن الحكم: ائذن لي، فإني أسأله ما ليس عنده فيه جواب؛ قال معاوية: لا تفعل، فإنهم قوم قد ألهموا الكلام، وأذن له. فلما دخل وجلس، قال له مروان: أسرع الشيب إلى شاربك يا حسن، ويقال إن ذلك من الخرق، فقال الحسن: ليس كما بلغك، ولكننا - معشر بني هاشم - أفواهُنا عذبة شفاهُها، فنساونا يُقبلن علينا بأنفاسهن وقبلهن، وأنتم معشر بني أمية فيكم بحر شديد، فنساؤكم يصرفن أفواهُهن وأنفاسهن عنكم إلى أصدائكم، فإنما يشيب منكم موضع العذار من أجل ذلك. قال مروان: إن فيكم يا بني هاشم خصلة سوء؟ قال: وما هي؟ قال: الغلظة؟ (183) قال: أجل، نزع الغلظة من نساننا ووُضعت في رجالنا، ونزع الغلظة من رجالكم ووُضعت في نساءكم، فما قام؟ لأموية إلا هاشمي. فغضب معاوية، وقال: قد كنت أخبرتكم فأبيتُم حتى سمِعتم ما أظلم عليكم بيتكم، وأفسد عليكم مجلسكم. فخرج الحسن وهو يقول:

ومارستُ هذا الدهرَ خمسين حجةً ... وحمساً أزجي، قائلاً بعد قائل
فلا أنا في الدنيا بلغتُ جسيمها ... ولا في الذي أهوى كدحتُ بطائل
وقد شرعت دوني المنايا أكفها ... وأيقنتُ أنني رهن موتٍ مُعاجل (184)

أشِر علي في الحسين؟

قال العتبي: دعا معاوية مروان بن الحكم، فقال له: أشِر علي في الحسين؟ قال: تخرجه معك إلى الشام فتقطعه عن أهل العراق وتقطعهم عنه؛ قال: أردت والله أن تستريح منه وتبتليني به، فإن صبرت عليه صبرت على ما أكره، وإن أسأت إليه كنت قد قطعتُ رحمه. فأقامه، وبعث إلى سعيد ابن العاص، فقال له: يا أبا عثمان، أشِر علي في الحسين؟ قال: إنك والله ما تخاف الحسين إلا على من بعدك، وإنك لتخلف له قرناً إن صارعه ليصرعنه، هان سابقه ليسبقته، فذر الحسين منبت النخلة، يشرب من الماء، ويصعد في الهواء، ولا يبلغ إلى السماء؛ قال: فما غيبك عني يوم صقين؟ قال: تحملتُ الحرم، وكُفيت الحزم، وكنت قريباً، لو دعوتنا لأجبناك، ولو أمرت لأطعنك؛ قال معاوية: ي أهل الشام، هؤلاء قومي وهذا كلامهم. (185)

183 (الغلظة - شهوة النكاح من الرجال والنساء

184 (ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 468/1

185 (ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 469/1

كلام مروان بن الحكم وولده في الخلفاء

كتب مروان إلى النعمان بن بشير يخطبُ إليه ابنته أمَّ أبانٍ لابنه عبد الملك :
بسم الله الرحمن الرحيم . من مروان بن الحكم إلى النعمان بن بشير . سلام
عليك ، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فإن لله ذو الجلال
والإكرام والعظمة والسلطان ، قد خصَّكم - معاشر الأنصار - بنُصرة دينه ،
وإعزاز نبيه محمدٍ - (صلى الله عليه وسلم) - وقد جعلك منهم في البيتِ
العميم ، والفرع القديم . وقد دعاني إلى إحياء مصاهرتك والإيثار لك على
الأكفاء من ولدِ أبي . وقد أحببتُ أن تزوجَ ابني عبد الملك بن مروان ابنتك أمَّ
أبان بنتَ النعمان ، وقد جعلت صداقها ما نطق به لسانك وترنَّمت به شفتاك ،
وبلغهُ مُناكَ . وحكمت به في بيت المال قبلك . فكتب إليه النعمان : من النعمان
بن بشير إلى مروان بن الحكم . بدأت باسمي سنة من رسول الله - (صلى الله
عليه وسلم) - وذلك أني سمعتُ خليلي - (صلى الله عليه وسلم) - يقول : ' إذا كتب أحدكم إلى أحدٍ فأبيدأ بنفسه ' .

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، تذكر من مودَّتِكَ ما أراك صادقاً ، فغُماً أصبت ،
وبحظك أخذت ، ونفسك زكَّيت ، لأنَّ ناساً قد جعل الله حميداً حُبنا إيماناً ،
وبُغضنا نفاقاً . وأما ما أطنَّبت فيه من ذكرِ شرفنا ، وقديم سلفنا ، ففي مدح
الله لنا وذكره إيانا في كتابه المنزل ، وقرآنه المفصَّل على نبيه - (صلى الله
عليه وسلم) - ما أغنى به عن مدح غيره من المخلوقين ، فأما ما ذكرت من
إيثارك إياي بابنك عبد الملك على الأكفاء من ولد أبيك ، فحظي منك مردودٌ
عليهم ، موَفَّر لهم غير مشاحٍ فيه ، ولا منافسٍ عليه ، وأما ما ذكرت من
بذلِكَ لي من بيت المال قبلي ، وبما نطق به لساني ، وترنَّمت به شفتاي ،
وبلغهُ مناي ، فلعمري لقد أصبح حظي فيه - والحمدُ لله - أوفر من حظك ،
وسهَّمي فيه أجزَلَ من سهمك ، وأمرني فيه أجوز من أمرك ، وبعد : فلو أنَّ
نفسي طاوعتني لأصَبَحْتُ . . . لها حَفْدٌ مما يُعدُّ كثيرٌ ولكنها نفسٌ عليَّ كريمةٌ
. . . عيوفٌ لأصهارِ اللئامِ قذورٌ في أبياتٍ أخر قال معاوية لمروان : من ترى
لأهل العراق ؟ قال : من لا يَفحجُ الحلوبَ حتى تدنو الدِّرة ، ولا يَدني العلبةُ
حتى تَمسحَ الضَّرَّة . وقال مروان لابنه : أثر الحق ، وحصن مملكتك بالعدل ،
فإنه سورها المنيع الذي لا يُغرقه ماءٌ ، ولا تحرقه نارٌ ، ولا يهدمه منجنيق .
وذكر أبو هريرة معاوية في مجلس فيه مروان فاغتابه ، ثم خاف أن يبلغ
معاوية ذلك ، فقال : إنَّ رسول الله - (صلى الله عليه وسلم) - قال : '

المجالس بالأمانة¹⁸⁶ وسأل مروان أن يكتّم عليه . فقال مروان : والله . لما ركبت مني في ظنك بي أني أنقل حديثك أعظم ممّا ركبت من معاوية . (186)
ما أحسبه ضر أباه إن كنت خيراً منه

حبس مروان بن الحكم رجلاً من بني عبس فأتاه بشيخ منه فكلّمه فيه فأبى أن يطلقه . فقال : أما والله لئن كنت حبسته ، لقد كان تقياً ، ذا مروءة . قال : وما المروءة فيكم يا أخا بني عبس ؟ قال : صدق الحديث وصلة الرحم ، وإصلاح المال . فأعجب مروان وكان إذا أعجب الشيء دعا له ابنه عبد الملك وعبد العزيز ليسمعا ، قال : فدعاهما ثم استعاده ، فأعاد الشيخ القول ، وحضر طعام مروان فدعاه إلى طعامه فلم يجبه ، فدعا ابناً له كان معه فأجاب . قال مروان للشيخ . ابنك خير منك يا أخا بني عبس ، دعوناك إلى طعامنا فلم تجب ، ودعونه فأجاب فقال العبسي : ما أحسبه ضر أباه إن كنت خيراً منه . فضحك مروان حتى استلقى وأطلق له صاحبه . (187)
أتقضي لي ثلاثين حاجة ؟

وقال مروان بن الحكم يوماً إني مشغوف ببغلة للحسن بن عليّ - عليهما السلام - فقال له ابن أبي عتيق : إن دفعتها إليك أتقضي لي ثلاثين حاجة ؟ ومروان يومئذ أمير بالمدينة . قال : نعم ، قال : إذا اجتمع الناس عندك العشيّة فإني آخذ في مآثر قريش ، وأمسك عن ذكر الحسن ، فلّمني على ذلك ، فلما أخذ القوم مجالسهم أفاض في أوليّة قريش . فقال له مروان : ألا تذكر أوليّة أبي محمد ، وله في هذا ما ليس لأحد ؟ قال : إنما كنا في ذكر الأشراف ، ولو كنا في ذكر الأنبياء لقدّمنا لأبي محمد ماله . فلما خرج ليركب تبعه ابن أبي عتيق ، فقال له الحسن - عليه السلام ، وتبسّم - ألك حاجة ؟ فقال ذكرت البغلة ، فنزل الحسن ودفعها إليه . (188)

أفرضوا له

قال عبد الرحمن : وقف أعرابي على مروان بن الحكم وهو يفرض للناس بالمدينة فقال له : افرض لي فقال : قد طوينا الكتاب . فقال : افرض لي . فقال : قد طوينا الكتاب . فقال : أما علمت إني القائل : الوافر إذا هزّ الكريم يزيد خيراً ... وان هزّ اللئيم فلا يزيد

186 (الآبي ، نشر الدر ، 30-29/3)

187 (الآبي ، نشر الدر ، 28/6)

188 (الآبي ، نشر الدر ، 178/7)

فقال له مروان: نشدتك بالله أنت القائل له؟ قال: نعم. قال: أفرضوا له. (189)
فقد طمع فيه من هو دونه

نازع عبد الله بن الزبير مروان بن الحكم عند معاوية، فقال ابن الزبير: يا معاوية لا تدع مروان يرمي جماهير قريش بمشاقصه (190)، ويضرب صفاتهم بمعوليه، فإنه لولا مكانك لكان أخف على رقابنا من فراشة وريشة نعامة، وأقل في نفوسنا من خشاشة، ولئن ملك أعنة خيل تنقاد له ليركبن منك طبقاً تخافه. فقال له معاوية: إن يطلب هذا الأمر فقد طمع فيه من هو دونه، وإن تركه تركه لمن هو فوقه، وإن أراكم منتهين حتى يبعث الله عليكم من لا يعطف عليكم بقرابة، ولا يذكركم عند ملمة، ويسومكم خسفاً، ويوردكم حتفاً. قال ابن الزبير: إذن والله نطلق عقال الحرب بكتائب تمور كرجل الجراد حافتاه الأسل، لها دوي كدوي الريح، تتبع غطريفاً من قريش لم تكن أمه براعية ثلة. فقال معاوية: أنا ابن هند أطلقت عقال الحرب، فأكلت ذروة السنام، وشربت عنقوان المكرع، وليس للأكل إلا الفلذة، ولا للشارب إلا الرنق (191).

مالك لم تجب صاحبك!

وروى عقيل بن خالد عن ابن شهاب أن مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير اجتمعا ذات يوم في حجرة عائشة - رضي الله تعالى عنها - والحجاب بينهما وبينها، يحدثانها ويسألانها، فجرى الحديث بين مروان وابن الزبير ساعة وعائشة تسمع، فقال مروان:

فمن يشأ الرحمن يخفض بقدره ... وليس لمن لم يرفع الله رافع
فقال ابن الزبير:

ففوض إلى اله الأمور إذا اعترت ... وبالله لا بالأقربين أدافع
فقال مروان:

وداو ضمير القلب بالبر والتقى ... فلا يستوي قلبان: قاسٍ وخاشع
فقال ابن الزبير:

ولا يستوي عبدان، هذا مكذب ... عتل لأرحام العشيرة قاطع
فقال مروان:

وعبد يجافي جنبه عن فراشه ... يبيت يناجي ربه وهو خاشع

189 (الزجاجي ، أخبار أبي القاسم الزجاجي ، 44/1

190 (المَشَقَصُ : سَهْمٌ فِيهِ نَصْلٌ عَرِيضٌ يُرْمَى بِهِ الْوَحْشُ .

191 (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 100/2

فقال ابن الزبير: وللخير أهل يعرفون بهديهم ... إذا اجتمعت عند الخطوب المجمع
فقال مروان: وللشر أهل يعرفون بشكلهم ... تشير إليهم بالفجور الأصابع

فسكت ابن الزبير ولم يجب، فقالت عائشة رضي الله عنها: يا عبد الله، مالك لم تجب صاحبك! فوالله ما سمعت تجادل رجلين تجادلاً في نحو ما تجادلتما فيه، أعجب إلي من تجادلكما؛ فقال ابن الزبير: إني خفت عوار القول فكففت، فقالت عائشة رضي الله عنها: أما إن لمروان إرثاً في الشعر ليس لك من قبل صفوان بن المحرث الكناني - وكانت أم مروان آمنة بنت علقمة بن صفوان.⁽¹⁹²⁾

رأي عبد الملك في الجوّاري

قال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتخذ جارية للمتعة، فليتخذها بربريةً ومن أراد للولد فليتخذها فارسيةً؛ ومن أرادها للخدمة فليتخذها روميةً.

حين جعلوك خليفة من بين رجال العالمين

قوله: وفدت عزة وبثينة على عبد الملك بن مروان فلما دخلتا عليه انحرف إلى عزة، وقال لها: أنت عزة كثير؟ قالت: لست لكثير بعزة ولكني أم بكر الضمريّة. قال أتروين قول كثير فيك؟

لقد زعمت أنني تغيرت بعدها ... ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغير تغير جسمي والخلقة كالتّي ... عهدي، ولم يخبر بسرّك مخبر قالت: لست أروي هذا، ولكني أروي غيره حيث يقول:

كأنّي أنادي صخرة حين أعرضت ... من الصّمّ لو يمشي بها العصم زلت صفوحاً فما تلقاك إلّا بحيلة ... فمن ملّ منها ذلك الوصف ملّت

ثمّ عطف على بثينة فقال لها: ما رأي جميل حين لهج بذكرك بين النساء كلهن؟ قالت: الذي رأي فيك الناس حين جعلوك خليفة من بين رجال العالمين. فضحك حتّى بدت سنّ له سوداء، كان يخفيها، وأجزل جائزتهما وقضى حوائجهما.

فصار يجمعنا في بطنها الكفن

ومن ذلك ما حكى جميل بن معمر العذري: أنّه دخل على عبد الملك بن مروان، فقال له: يا جميل حدّثني ببعض أحاديث بني عذرة. فإنّه بلغني إنّهم

أصحاب أدبٍ وغزلٍ. قال: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمك أن آل بئينة انتجعوا عن حيّهم، فوجدوا النّجعة بموضع نازح فظعنوا، فخرجت أريدهم، فبينما أنا أسير إذ غلّطت الطّريق وأجنّني الليل فلاحت لي نارٌ، فقصدتها حتّى وردت على راعٍ في أصل جبل قد انحنى عنه إلى كهفٍ فيه، فسلمت، فردّ عليّ السّلام، وقال: أظنّك قد غلّطت الطّريق؟ فقلت: أجل. فقال: انزل وبت الليلة فإذا أصبحت وقفت على القصد فنزلت فرحب بي وأكرمني وذبح شاة، وأجّج ناره، وجعل يشوي ويلقي بين يدي، ويحدّثني في خلال ذلك. ثمّ قام بإزارٍ كان معه فوضع به جانب الخبا ومهّد لي محلاً خالياً فنمت.

فلما كان في الليل سمعته يبكي إلى شخصٍ كان معه، فأرقت له ليلتي. فلما أصبحت طلبت الإذن فأبى، وقال: الضّيافة ثلاث. فجلست وسألته عن اسمه ونسبه وحاله، فانتسب فإذا هو من بني عذرة، من أشرفهم. فقلت: وما الذي جاء بك إلى هذا؟ فأخبرني أنّه كان يهوى ابنة عمّ له، وأنّه خطبها من أبيها فأبى أن يزوّجها إيّاها لقلة ذات يده، وأنّه تزوّجها رجلٌ من بني كلاب وخرج بها عن الحي، وأسكنها في موضعه. وأنّه رضي أن يكون لزوجها راعياً حتّى تأتيه ابنة عمّه فيراها. وأقبل يشكو قديم عشقه لها، وصبايته بها حتّى أتى المساء، وحن وقت مجيئها. فجعل يتقلقل ويقوم ويقعد، ثمّ وثب قائماً على قدميه، وأنشأ يقول:

ما بال مية لا تأتي كعادتها ... أعاجها طربٌ أو صدها شغل
لكنّ قلبي عنكم ليس يشغله ... حتّى الممات وما لي غيركم أمل
لو تعلمين الذي بي من فراقكم ... لما اعتذرت، ولا طابت لك العلل
نفسي فداؤك، قد أحللت بي سقماً ... تكاد من حرّه الأعضاء تنفصل
لو أنّ ما بي من سقمٍ على جبلٍ ... لزال وانهدّ من أركانه الجبل
ثمّ قال لي: اجلس، يا أخا بني عذرة، حتّى أكشف خبر ابنة عمّي. ثمّ مضى فغاب عن بصري، فلم ألبث أن أقبل وعلى يديه محمول، وقد علا شهيقه ونحيبه، فقال: يا أخي هذه ابنة عمّي أرادت زيارتي فاعترضها الأسد فأكلها. ثمّ وضعها بين يديّ، وقال: على رسلك، حتّى أعود إليك. فغاب عن نظري فأبطأ، حتّى آيست من رجوعه، فلم ألبث أن أقبل ورأس الأسد على يديه فوضعه ثمّ، قال: يا أخي إنّك ستراني ميتاً فاعمد إليّ وإلى ابنة عمّي فأدرجنا في كفنٍ واحدٍ، وأدفنّا في قبرٍ واحدٍ، واكتب على قبرنا هذين البيتين:
كنا على ظهرها والعيش في مهلٍ ... والشّمل يجمعنا والدار والوطن
ففرّق الدهر بالتّصريف إفتنا ... فصار يجمعنا في بطنها الكفن

ورد الغنم إلى صاحبها، وأعلمه بقصتها. ثم عمد إلى خناق وطرحه في عنقه، فناشدته الله لا تفعل، فأبى وخنق نفسه حتى مات. فلما أصبحت كقنتهما ودفنتهما وكتبت الشعر كما أمر، ورددت الغنم إلى صاحبها وأعلمته بقصتهما، فحزن حزناً خفت عليه الهلاك أسفاً على ما فرط من عدم اجتماعهما.

الحجاج وابنة عبد الله بن جعفر

وتزوج الحجاج ابنة عبد الله بن جعفر، فلما دخلت عليه نظر إليها وعبرتها تجود على خدّها، فقال لها: بأبي وأمي، ممّ تبكين؟ فقالت: من شرف اتّضع، ومن ضعة شرفت. فلما كتب إليها عبد الملك بن مروان بطلاقها، قال لها: إنّ أمير المؤمنين امرني بطلاقك. قالت: هو والله أبرّ بي ممّن زوجك إياي. فلما مات أبوها لم تبك عليه، فقيل لها في ذلك، فقالت: والله أنّ الحزن ليبعثني، وإنّ الغيظ ليصمتني.

عبد الملك يعيب قولاً على نصيب

وأما قول نصيب:

أهيم بدعد ما حييت وإن أمت ... فيا ليت شعري من يهيم بها بعدي
فإني لم أجد له تأويلاً. وعاب ذلك عليه عبد الملك بن مروان، وقال لجلسائه:
أو لو كنتم قائلين هذا البيت ما كنتم تقولون؟ قالوا: لا ندري، فكيف كان أمير المؤمنين قائلًا: قال: كان يقول:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت ... فلا صلحت دعد لذي خلّة بعدي

أهدر دمه ولم يتمتع بها

نزل أعرابي من طيء، يقال له المثنى بن معروف، بأبي جبر الفزاري فسمعه يوماً يقول: لوددت أنّي بت الليلة خالياً ببنت عبد الملك بن مروان. فقال المثنى: أحلاًّ أم حراماً؟ فقال: ما أبالي. قال: فوثب إليه فضرب رأسه برحالة فشجّه، ثم ارتحل وهو يقول:

أبلغ أمير المؤمنين رسالة ... على النأي إنّي قد وترت أبا جبر

نشرت على اليافوخ منه رحالة ... لنصري أمير المؤمنين ولا يدري

وما كان شيء غير أنّي سمعته ... ينادي نساء المؤمنين بلا مهر

قال، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فأهدر دم أبي جبر وبعث إلى المثنى بصلة جزيلة.

أرادها لحسن ثغرها فقط

وكانت خولة بنت منظور بن زياد الفزاري عند الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، وكانت أختها عند عبد الله بن الزبير، وهي أحسن الناس ثغراً، وأتمهم جمالاً. فلما رأى ذلك عبد الملك بن مروان وقد قتل عبد الله بن الزبير زوجها، ثم خطبها، فكرهت أن تتزوجوه وهو قاتل زوجها، فأخذت فهِراً وكسرت به أسنانها. وجاء رسول عبد الملك فخطبها، فأذنت له ليراها، فأدّى إليها رسالته ورأى ما بها، فقالت: ما لي عن أمير المؤمنين رغبة، ولكني كما ترى، فإن أحبتي فأنا بين يديه، فأتاه الرسول فأعلمه بذلك، فقال: أنا، والله، إنما أردتها على حسن ثغرها الذي بلغني، وأما الآن فلا حاجة لي فيها.

قد عفوت عنه

وحكى الهيثم بن عدي، عن ابن عباس، قال: كانت عاتكة بنت يزيد بن معاوية تحت عبد الملك بن مروان، وكان يجد بها ويحبها حباً شديداً، فغضبت عليه، فطلب رضاها بكل أمر، فأبت حتى أضرب به ذلك وشكا إلى خاصته. فقال له عمر بن الأسدي: ما لي إن أرضيتها؟ قال له: حكمك. قال، فخرج فاتاها وجلس بين يديها يبكي. فقال له خاصتها: ما لك يا أبا حفص؟ قال: لقد جئت إلى بنت عمي في أمرٍ مهمٍ عظيم، فاستأذني لعلها تقضي حاجتي. فقالت: ما بالك؟ فقال لها: قد عرفت حالي مع أمير المؤمنين عبد الملك، ولم يكن لي غير ابنين، فتعدى أحدهما على الآخر فقتله. فقلت: أنا وليّ الدّم وقد عفوت. فقال أمير المؤمنين: ما أحب أن أعود رعيّتي هذا. وهو قتله بالغداة فنشدتك الله ألا كلمته فيه، وسألته في إبقائه لي، فإنك تجمعين في ذلك إحياءه وإحياء نفسي. فإنه إن قتله قتلت نفسي. فقالت: ما أكلّمه. فقال لها: ما أظنك تكسبين شيئاً أحب من إحياء نفسيين. . . وبكى بكاءً شديداً: فلم يزل بها صواحبتها وخدمها وحاشيتها حتى قالت: عليّ بثيابي. فلبست، وكان بينها وبينه بابٌ قد ردمته. فأمرت بفتحه ثم دخلت. فأقبل أحد الغلمان فقال: يا أمير المؤمنين هذه عاتكة. قال: ويلك رأيتها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. وإذا هي قد أقبلت وعبد الملك على سريرته. فسلمت، فسكت، فقالت: أما والله لولا مكان عمر ابن بلال ما فعلت، ولا أتيتك والله. إن عدا أحد بنيي على الآخر فقتله، وهو الولي وقد عفا عنه، لتقتله؟ قال: أي والله، وهو راغم. قالت: أنشدك الله أن لا تفعل. فدنت فأخذت بيده، فأعرض عنها، فأخذت أرجله فقبلتها، فأكب عليها وضمها إلى نفسه ورفعها إلى سريرته، وقال: قد عفوت عنه. فتراضيا.

وراح عبد الملك فجلس مجلس الخاصة، فدخل عمر بن بلال، فقال: يا أبا حفص أطففت الحيلة في القيادة فكك حكمك! فقال: يا أمير المؤمنين، ألف دينار ومزرعة بما فيها من الرقيق والآلة. قال: هي لك. قال: ومرابض لولدي وأهل بيتي. قال: وذلك كله لك... وبلغ عاتكة الخبر فقالت: ويلي على القواد خدعني.

أريحية عبد الملك بن مروان

قال أبو عبيدة: كان بأرض الحجاز رجل له ابنة جميلة فهو يها ابن عم لها فبذل لها أربعة آلاف درهم، فأبى أبوها أن يزوجه منها، وأجدبت البادية، فدخل ابن عمها على عمه ذات يوم فشكا إليه ما يلقي. فقال له: قد كنت بذلت لنا أربعة آلاف درهم، فأعطنا إيها، فأنت أحب إلينا لقربتك. قال له: أجّلني شهراً. فأجله، ولم يكن مع الفتى إلا ناقة، فركبها ومضى إلى عبد الملك بن مروان فطلب الإذن فلم يؤذن له. فقال: إني رسول فلان عامل أمير المؤمنين على الحجاز. فأدخل عليه من ساعته. قال: معك كتاب من فلان؟ قال: لا، قال فرسالة؟ فأنشأ يقول:

ماذا يقول أمير المؤمنين لمن ... أدلى إليك بلا قربى ولا سبب مدّة، عقله من حبّ جارية ... موصوفة بكمال الحسن والأدب خطبتها إذ رأيت الناس قد لهجوا ... بذكرها، والهوى يدعو إلى العطب فقلت، لي حسبّ زاك، ولي شرف ... قالوا: الدراهم خير من ذوي الحساب، إنّا نريد ألوفاً منك أربعة ... ولست أملك غير الحسن والقتب. فامنن عليّ، أمير المؤمنين، بها، ... واجمع بها شمل هذا البائس العرب فما وراءك، بعد الله، مطلب، ... أنت الرجاء وأقصى غاية الطلب فضحك عبد الملك وأمر له بأربعة آلاف درهم، وقال هذا صداق أهلك، وزاده أربعة أخرى وقال له أولم بهذه، وأنفق عليها منها. فقبضها ومضى. فتزوج بالجارية. (193)

والله ما أردت إلا ذلك!

من المنقول عن ابن أخي الأصمعي قال: وجه عبد الملك بن مروان عامر الشعبي إلى ملك الروم في بعض الأمر له فاستكثر الشعبي فقال له من أهل بيت الملك أنت قال لا فلما أراد الرجوع إلى عبد الملك حمله رقعة لطيفة وقال إذا رجعت إلى صاحبك أبلغته جميع ما يحتاج إلى معرفته من ناحيتنا فادفع إليه هذه الرقعة فلما صار الشعبي إلى عبد الملك ذكر ما أحتاج إلى ذكره

ونهض من عنده فلما خرج ذكر الرقعة فرجع فقال يا أمير المؤمنين أنه حملني إليك رقعة نسيتها حتى خرجت وكانت في آخر ما حملني فدفعها إليه ونهض فقرأها عبد الملك قال فأمر برده فقال أعلمت ما في هذه الرقعة قال فيها عجبت من العرب كيف ملكت غير هذا أفندري لم كتب إلي بمثل هذا فقال لا فقال حسدني عليك فأراد أن يغريني بقتلك فقال الشعبي لو كان رأيك يا أمير المؤمنين ما تسكرني فبلغ ذلك ملك الروم ففكر في عبد الملك فقال لله أبوه والله ما أردت إلا ذلك!.

وذلك أني رجل مشؤوم

وعن الأصمعي عن أبيه قال أتى عبد الملك بن مروان برجل كان مع بعض من خرج عليه فقال اضربوا عنقه فقال يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزائي منك قال وما جزاؤك قال والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك وذلك أني رجل مشؤوم ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم وقد بان لك صحة ما ادعيت وكنت لك خيراً من مائة ألف معك فضحك وخلي سبيله⁽¹⁹⁴⁾

فاني لا أعد انتقام غيري انتقاما

وقال ابو الحسن : أربى غلام من بني علي على عبد الملك وعبد الملك يومئذ غلام فقال له كهل من كهولهم لما رآه ممسكا عن جواب المربي عليه لو شكوته الى عمه انتقم لك منه قال أمسك يا كهل فاني لا أعد انتقام غيري انتقاما.

شغلني الغضب له عن الحزن عليه

و قال ابو الحسن : خاض جلساء عبد الملك يوما في قتل عثمان فقال رجل منهم يا أمير المؤمنين في اي سنك كنت يومئذ قال كنت دون المحتلم قال فما من حزنك عليه قال شغلني الغضب له عن الحزن عليه.⁽¹⁹⁵⁾

خبر الحجاج بن عبد الله الثعلبي مع عبد الملك

كان عبد الله بن الحجاج الثعلبي من أشد الناس على عبد الملك بن مروان في طاعة ابن الزبير مع القيسية، فلما قتل ابن الزبير أرسل عبد الملك يطلب عبد الله بن الحجاج فلم يظفر به، فلما خاف عبد الله بن الحجاج أن يظفر به أقبل فدخل على عبد الملك في اليوم الذي يطعم فيه أصحابه فمثل بين يديه ثم، قال:

¹⁹⁴ (ابن الجوزي، الأذكياء ، ص 16 ، 56

¹⁹⁵ (أبي عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين ، تحقيق : المحامي فوزي عطوي ، دار صعب

– بيروت ، الطبعة الأولى ، 1968 ، ص 372

منع الفرار فجئت نحوك هارباً ... جيش يجر ومقتب يتلمع
فقال: أي الأخابث أنت؟ فقال:

ارحم أصيبيتي هديت فإنهم ... حبل تدرج بالشرية جوع
فقال: أجاج الله بطونهم، فقال:

مال لهم فيمن يظن جمعته ... يوم القلب فحيز عنهم أجمع
فقال: أحسبه كسب سوء، فقال:

أدنوا لترحمني وتقبل توبتي ... وأراك تدفعني فأين المدفع
قال: إلى النار، فقال:

ضاقت ثياب الملبسين ونفعهم ... عني فألبسني فتوبك أوسع

قال: فنزع مطرفاً كان عليه فطرحة عليه، ثم قال له: آكل؟ قال: كل. فلما

وضع يده على الطعام قال: أمنت ورب الكعبة، قال: كنت من كنت إلا عبد الله
بن حجاج، قال: فأنا عبد الله بن حجاج، قال: أولى لك.

وقد روى لنا هذا الخبر عن طريق آخر، وفيه: أن عبد الله قال له: لا سبيل لك
إلى قتلي، قد جلست في مجلسك وأكلت طعامك ولبست من ثيابك.

اللائحون من الخاصة

قال أبو الزناد: كان الوليد بن عبد الملك بن مروان لحياناً كأي أسمعته على
منبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: يا أهل المدينة. قال: وقال عبد
الملك بن مروان لرجل من قریش: إنك لرجل لولا أنك لحيان، فقال: وهذا ابنك
الوليد يلحن، قال: لكن ابني سليمان لا يلحن، قال الرجل: وأخي فلان لا يلحن.

أشعر من مضى ومن بقي

عن أبي عمرو الشيباني، قال: حدثني مروان بن أبي حفصة، قال: جلس عبد
الملك بن مروان يوماً للناس على سرير، وعند رجل السرير محمد بن يوسف
أخو الحجاج بن يوسف، وجعل الوفود يدخلون عليه ومحمد بن يوسف يقول: يا
أمير المؤمنين! هذا فلان، هذا فلان، إلى أن دخل جرير بن الخطفي فقال: يا
أمير المؤمنين! هذا جرير بن الخطفي، قال: فلا حياه الله، القاذف للمحصنات
والعاضة لأعراض الناس (196) - فقال جرير: يا أمير المؤمنين دخلت

196 (العاضه: المغتاب، ويقال: العاضه : النمام، ويقال: الساحر، قال القاضي: ومنه الخبر عن
النبي صلى الله عليه وسلم: أنه لعن العاضه والمستعضه، يعني الساحرة والمستسحرة، قال
الراجز:

الماء من عضاھن زمزمه

وقيل في قول الله تعالى: " الذين جعلوا القرآن عضين " أقوال منها: هذا، وهو أن المشركين
قالوا: هو سحر، وقيل: إنهم عضوه بأن آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، وقيل، بل اقتسموه بينهم

فاشرأب الناس نحوي، ودخل قوم بعدي فلم يشرئب الناس إليهم، فقدرت أن ذلك لذكر جميل ذكرني به أمير المؤمنين، فقال عبد الملك: لما ذكرت لي قلت: لا حياه الله القاذف للمحصنات العاضه لأعراض الناس، فقال جرير: والله يا أمير المؤمنين ما هجوت أحداً حتى أجزه عرضي سنة، فإن أمسك أمسكت، وإن أقام استعنت عليه وهجوته، فقال له: هذا صديقك أبو مالك سلم عليه - يعني الأخطل - فاعتنقه وقال: والله يا أمير المؤمنين ما هجاني أحد كان هجاؤه علي أشد من هجائه، إلا أنني كنت أظن أنه يرشي علي هجائي، فقال له الأخطل: كذبت وأتن أمك، قال له جرير: صدقت وخنازير أمك، فقال عبد الملك: أحضروا جامعة فأحضرت و غمز الوليد الغلام أن ناجز بها، فقال عبد الملك للأخطل: أنشد، فأنشد:

تأبد الربع من سلمي بأجفار ... وأقفرت من سلمي دمنة الدار
حتى ختمها، فقال له عبد الملك: قضينا لك أنك أشعر من مضى ومن بقي.
من مدحنا فليمدحنا هكذا

واستأذنت قيس عبد الملك في أن ينشد جرير فأبى، ولم يزل جرير مقيماً دهرًا يلتمس إنشاد عبد الملك وقيس تشفع له، وعبد الملك يأبى إلى أن أذن له يوماً، فأنشده:

أتصحو بل فؤادك غير صاح ... عشية هم صحبتك بالرواح
فقال عبد الملك: بل فؤادك يا بن اللخاء (197) ، فلما انتهى إلى قوله:
تعزت أم حزرة ثم قالت ... رأيت الموردين ذوي اللقاح
تعلل وهي ساغبة بنيتها ... بأنفاس من الشبم القراح (198)

استهزاء فقالوا: لفلان هذه السورة ولفلان هذه السورة، فعضوه كما تعضى الشاة وكما تجزأ أعضاء الجزور فتقسم وتوزع بين مقتسميها وهذا فيما يتضمن عنه بمشيئة الله وعونه كتابنا المسمى البيان الموجز عن علوم القرآن المعجز ونأتي على ما جاء فيه عن أهل العلم، وأصحاب التأويل والمفسرين، وعن أصحاب المعاني النحويين، ومن العضه السحر، ما أنشدنيه عبيد الله بن محمد بن جعفر الأزدي، قال: أنشدنا أحمد بن يحيى:

أعوذ بربي من النافثا ... في عقد العاضه المعضه
وقال: يعني بهما الساحر، وقال أبو موسى الحامض: المعضه الذي يأتي بالأمر العظيم ثم يبهت

(197) اللخاء: المنتنة الريح

(198) قال أبو بكر: الشبم: البارد، والقراح: الماء الذي ليس معه لبن، والساغبة الجائعة، قال القاضي: ومن دعاء العرب: حلبت قاعداً وشربت بارداً، يريدون كنت ذا غنم تحلبها وأنت قاعد ولا إبل لك تحلبها قائماً، وشربت بارداً أي ماء محضاً، قال عبد الملك: لا أروى الله عيمتها، قال القاضي: العيمة: شهوة اللبن، يقال: عمت إلى اللبن أعيم عيمة، ومن دعاء العرب: ما له عام وغام وآم، فغام: قرم إلى اللبن ولم يقدر عليه، وآم: ماتت امرأته، كما قال الشاعر:

، فلما انتهى إلى قوله:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح
قال عبد الملك: من مدحنا فليمدحنا هكذا. فلما ختمها أمره بإعادتها، فلما
أنشد:

أتصحو أم فؤادك غير صاح
لم يقل له ما قال في المرة الأولى، ولما ختمها أمر له بمائة ناقة بأداتها
ورعاتها، فقال جرير: يا أمير المؤمنين! اجعلها من إبل كلب، وإبل كلب إبل
كرام.

خبر وضاح اليمن

عن هشام بن محمد بن السائب، قال: كانت عند يزيد بن عبد الملك بن مروان أم
البنين بنت فلان، وكان لها من قلبه موضع قال: فقدم عليه من ناحية مصر
بجوهر له قيمة وقدر، قال: فدعا خصياً له فقال: اذهب بهذا إلى أم البنين وقل
لها: أتيت به الساعة فبعثت به إليك، قال: فأتاها الخادم فوجد عندها وضاح
اليمن وكان من أجمل العرب وأحسنها وجهاً، فعشقتة أم البنين فأدخلته
عليها، فكان يكون عندها فإذا أحست بدخول يزيد بن عبد الملك عليها أدخلته
في صندوق من صناديقها، فلما رأت الغلام قد أقبل أدخلته في الصندوق فرآه
الغلام ورأى الصندوق الذي دخل فيه، فوضع الجوهر بين يديها وأبلغها
الرسالة، ثم قال: يا سيدتي هبي لي منه لؤلؤة، قالت: لا، ولا كرامة، فغضب
وجاء إلى مولاه فقال: يا أمير المؤمنين! إني دخلت عليها وعندها رجل، فلما
رأيتي أدخلته صندوقاً فهو في الصندوق الذي من صفته كذا وكذا وهو الثالث
أو الرابع، فقال له يزيد: كذبت يا عدو الله، جنوا في عنقه فوجأوا عنقه
ونحوه عنه، قال: فأمهل قليلاً ثم قام فلبس نعله ودخل على أم البنين وهي
تمتشط في خزانها، فجاء حتى جلس على الصندوق الذي وصف له الخادم،
فقال: يا أم البنين! ما أحبب إليك هذا البيت؟ قالت: يا أمير المؤمنين! أدخله
لحاجتي وفيه خزانتي فما أردت من شيء أخذته من قرب، قال: فما في هذه
الصناديق التي أراها؟ قالت: حلي وأثاثي، قال: فهبي لي منه صندوقاً، قالت:
كلها يا أمير المؤمنين، قال: لا أريد إلا واحداً ولك علي أعطيك زنته وزنة ما
فيه ذهباً، قالت: فخذ ما شئت، قال: هذا الذي تحتي، قالت: يا أمير المؤمنين!
عد عن هذا وخذ غيره، فإن لي فيه شيئاً يقع بمحبتتي، قال: ما أريد غيره،

وأبنا وقد آمت نساء كثيرة ... ونسوان سعد ليس فيهن أيم
معنى آمت نساء مات أزواجهن، وغام: عطش فلم يقدر على الماء

قالت: هو لك، قال: فأخذه ودعا الفراشين فحملوا الصندوق فمضى به إلى مجلسه فجلس ولم يفتحه ولم ينظر ما فيه، فلما جنه الليل دعا غلاماً له أعجمياً، فقال له: استأجر أجراً غرباء ليسوا من أهل المصر، قال: فجاء بهم فأمرهم فحفروا له حفرة في مجلسه حتى بلغ الماء، ثم قال: قدموا لي الصندوق فألقي في الحفرة ثم وضع فمه على شفره فقال: يا هذا! قد بلغنا عنك الخبر فإن يكن حقاً فقد قطعنا أثره وإن يكن باطلاً فإنما دفنا خشباً، ثم أهالوا عليه التراب حتى استوى، قال: فلم ير وضاح اليمن حتى الساعة، قال: فلا والله ما بان لها في وجهه ولا في خلائقه ولا في شيء حتى فرق الموت بينهما.

حقق الله لهم أمنياتهم

عن الشعبي، قال: لقد رأيت عجباً، كنا بفناء الكعبة أنا، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، ومصعب بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، قال القوم بعد أن فرغوا من حديثهم: ليقم رجلٌ رجلٌ منكم فليأخذ بالركن اليماني ويسأل الله حاجته، فإنه يعطي من سعة.

قم يا عبد الله بن الزبير فإنك أول مولود ولد في الهجرة، فقام فأخذ بالركن اليماني فقال: اللهم إنك عظيم، أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك، وبحرمة نبيك، ألا تميتني من الدنيا حتى توليني الحجاز ويسلم علي بالخلافة.

وجاء حتى جلس، فقالوا: قم يا مصعب بن الزبير، فقام فأخذ بالركن اليماني وقال: اللهم إنك رب كل شيء وإليك يصير كل شيء، أسألك بقدرتك على كل شيء ألا تميتني من الدنيا حتى توليني العراقيين، وتزوجني سكينة بنت الحسين بن علي عليهما السلام، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله.

وجاء حتى جلس، فقالوا: قم يا عبد الملك بن مروان، فقام وأخذ بالركن اليماني، وقال: اللهم رب السموات السبع والأرضين السبع، ذات النبت بعد القفر، أسألك بما سألك المطيعون لأمرك، وأسألك بحرمة وجهك، وأسألك بحقك على جميع خلقك، وبحق الطائفين حول بيتك، ألا تميتني من الدنيا حتى توليني شرق الأرض وغربها، ولا ينازعني أحدٌ إلا أتيت برأسه، ثم جاء حتى جلس.

ثم قالوا: قم يا عبد الله بن عمر، فقام حتى أخذ بالركن اليماني، ثم قال: اللهم إنك رحمنٌ رحيم، أسألك برحمتك التي سبقت غضبك، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك، ألا تميتني من الدنيا حتى توجب لي الجنة.

قال الشعبي: فما ذهبت عيناى من الدنيا حتى رأيت كل رجل منهم قد أعطي ما سأل من الدنيا، وبشر عبد الله بن عمر بالجنة.

خبران يرويهما الزهري عن نفسه

عن الزهري، قال: أتيت عبد الملك بن مروان فاستأذنت عليه فلم يؤذن لي، فدخل الحاجب، فقال: يا أمير المؤمنين إن بالبواب رجلاً شاباً أحمر، زعم أنه من قریش، قال: صفه فوصفه له، قال: لا أعرفه إلا أن يكون من ولد مسلم بن شهاب، فدخل عليه، فقال: هو من بني مسلم فدخلت، قال: من أنت؟ فانتسبت له وقلت: إن أبي هلك وترك عيلاً صبية، وكان رجلاً متلاًفاً لم يترك مالاً، فقال: لي عبد الملك: أقرأت القرآن؟ قلت: نعم بإعرابه، قال: وما ينبغي منه من وجوهه وعلله؟ قال: قلت: نعم، قال: إنما فوق ذلك فضل إنما يراى أن يعاى ويلغز به، قلت: نعم، قال: تعلمت الفرائض؟ قلت: نعم، قال: الصلب والجد واختلافهما؟ قلت: أرجو أن أكون قد فعلت، قال: وكم دين أبيك؟ قلت له: كذا وكذا، قال: قد قضى الله دين أبيك، وأمر لي: بجائزة ورزق يجري، وشراء دارٍ قطيعة بالمدينة، وقال: اذهب فاطلب العلم ولا تشاغل عنه بشيءٍ فإني أرى لك عيناً حافظة وقلباً زاكياً، وأنت الأنصار فى منازلهم، قال الزهري وكنت أخذت العلم عنهم بالمدينة، فلما خرجت إليهم إذا علم جم فأتبعتهم حتى ذكرت لي امرأة نحو قباء تروي رؤيا فأتيتها، فقلت: أخبريني بروياك، قال: فقالت: كان لي ولدان واحد حين حبا، والآخر يتبعه، وهلك أبوهما وترك واهناً (199) وداجناً (200) ونخلات، فكان الداجن نشرب لبنها ونأكل تمر النخلات، فإني لبين النائمة واليقظانة ولنا جدٍ فرأيت كأن ابني الأكبر قد جاء إلى شفرةٍ لنا فأخذها، وقال يا أمه! قد أضرت بنا وحبست اللبن عنا، فأخذ الشفرة وقام إلى ولد الداجن فذبحه بتلك الشفرة، ثم نصب قدراً لنا ثم قطعه ووضعها فيها، ثم قام إلى أخيه فذبحه بتلك الشفرة، واستنبت مذعورة وإذا ابني الأكبر قد جاء، فقال: يا أمه! أين اللبن، فقلت: يشربه ولد هذه الداجن، فقال: ما لنا فى هذا من شيءٍ، وقام إلى الشفرة فأخذها ثم أمرها على حلق الداجن ثم نصب القدر، قالت: فلم أكلمه حتى قمت

199 (الخادم: ويقال مهن الرجل مهنةً ومهنةً، وفلان فى مهنة أهله ومهنة أهله، ويقال: مهن مهانةً من الهوان، ومن المهان بمعنى الخادم، قول الشاعر: وهزنن منى أن رأين مويهنأ ... تبدو عليه شتامة المملوك
200 (الداجن هي الشاة من شياه البيوت التي تعلف

إلى ابني الصغير فاحتضنته فأتيت به بعض بيوت الجيران فخبأته عندهم، ثم أقبلت مغتمة لما رأيت، ثم صعد على بعض تلك النخلات فأنزل رطباً ثم قال: يا أمه! أدني فكلي، قلت: لا أريد، ثم مضى في بعض حوائجه وترك القدر فإني لمنكبة على بليس (201) عندي إذ ذهب بي النوم فإذا أنا بات قد أتاني، فقال: مالك مغتمة؟ فقلت: لكذا وكذا، ولأن ابني صنع كذا وكذا، فنادى يا رؤياه يا رؤياه! فجاءت امرأة شابة حسنة الوجه طيبة الريح، فقال: ما أردت من هذه المرأة الصالحة، قالت: ما أردت منها شيئاً، فنادى: يا أضغات يا أضغات! فأقبلت امرأة سوداء الخلقة وسخة الثياب دونها، فقال: ما أردت من هذه المرأة؟ قالت: رأيته صالحة فأردت أن أغمها، قالت: ثم انتبهت فإذا ابني أقبل، فقال: يا أمه! أين أخي؟ قلت: لا أدري حبا إلى بعض الجيران، قالت: فذهب يمشي لهو أهدي إلى موضعه حتى أخذه وجاء به فقبله، ثم قعد فأكل وأكلت معه.

قاتلك الله من شيخ

عن أبي مهدية قال أخبرني أبو عفير الدؤلي وكان شاعراً قال: كنت عند عبد الملك بن مروان إذ دخل أبو الأسود الدؤلي وكان أحول دميماً قبيح المنظر، فقال له عبد الملك يمازحه: يا أبا الأسود لو علقت عليك عوذة تدفع عنك العين، فقال: إن لك جواباً يا أمير المؤمنين، وأنشد:

أفنى الجديد الذي فارقت جدته ... كُرُّ الجديدين من آتٍ ومنطلق
لم يتركاً لي في طول اختلافهما ... شيئاً يخاف عليه لذعة الحديق
أما والله لئن كانت أبلتني السنون، وأسرعت إلي المنون، لما أبلت ذلك إلا في موضعه، ولرب يوم كنت فيه إلى الأنسات البيض أشهى منك إليهن في يومك هذا على عجبك بنفسك، وإني اليوم لكما قال امرؤ القيس:

أراهن لا يحببن من قل ماله ... ولا من رأين الشيب فيه وقوسا
ولقد كنت كما قال أيضاً:

يرعن إلى صوتي إذا ما سمعنه ... كما ترعوي عيط (202) إلى صوت أعيسا (203)

قال له عبد الملك: قاتلك الله من شيخٍ ما أعظم همتك.

201 (البلس: بعض ما يكون في رحل القوم من المتاع الذي يتكأ عليه

202 (العيط: جمع عيطاء، وهي الناقة الطويلة العنق

203 (والأعيس: فحل أبيض تعلوه شقرة

إهانة الحجاج لأنس وما نجم عنها

عن عوانة بن الحكم الكلبي قال: دخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف، فلما وقف بين يديه سلم عليه فقال أيها يا أنيس، يوم لك مع علي، ويوم لك مع ابن الزبير، ويوم لك مع ابن الأشعث، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشأفة، ولأقلعنك كما تقلع الصمغة، فقال أنس: إياي يعني الأمير أصلحه الله؟ فقال: إياك سك الله سمعك (204)، قال أنس: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلة قتلت ولا أي ميتة مت. ثم خرج من عند الحجاج فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً وشفق عجباً، وتعاضمه ذلك من الحجاج. وكان كتاب أنس بن مالك إلى عبد الملك بن مروان: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك، أما بعد، فإن الحجاج قال لي هجراً، وأسمعي نكراً، ولم أكن لذلك أهلاً، فخذ لي على يديه فإني أمت بخدمتي رسول الله ﷺ وصحبتني إياه، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. فبعث عبد الملك إلى إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، وكان مصادقاً للحجاج، فقال له: دونك كتابي هذين فخذهما واركب البريد إلى العراق، فأبدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ فادفع كتابه إليه وأبلغه مني السلام وقل له: يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتاباً إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك. وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من شكاتك للحجاج، وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك، فإن عاد لمثلها فاكتب إلي بذلك أنزل به عقوبتي، وتحسن لك معونتي، والسلام، فلما قرأ أنس بن مالك كتابه وأخبر برسالته قال: جرى الله أمير المؤمنين عني خيراً وعافاه وكافأه عني بالجنة، فهذا كان ظني به والرجاء منه. فقال إسماعيل بن عبد الله لأنس: يا أبا حمزة إن الحجاج عامل أمير المؤمنين وليس بك عنه غنى ولا بأهل بيتك، ولو جعل لك في جامعة ثم دفع إليك لقد أن يضر وينفع، فقاربه وداره، فقال أنس: أفعل إن شاء الله. ثم خرج إسماعيل من عنده فدخل على الحجاج، فلما رآه الحجاج قال: مرحباً برجل أحبه وكنت أحب لقاءه، فقال له إسماعيل: وأنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به، قال: وما أتيتني به؟ قال: فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس عليك غضباً ومنك بعداً، قال: فاستوى الحجاج

جالساً مرعوباً فرمى إليه إسماعيل بالطومار، فجعل الحجاج ينظر فيه مرة ويعرق وينظر إلى إسماعيل أخرى، فلما نفذه قال: قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه، فقال له إسماعيل: لا تعجل، قال: كيف لا أعجل وقد أتيتني بآبدة؟ وكان في الطومار: إلى الحجاج بن يوسف: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجاج بن يوسف: أما بعد، فإنك عبد طمت بك الأمور فسموت فيها وعدوت طورك، وجاوزت قدرك، وركبت داهية إداً، وأردت أن تبورني، فإن سوغتكها مضيت قدماً، وإن لم أسوغها رجعت القهقري، فلغتك الله عبداً أخفش العينين منقوص الجاعرتين، أنسيت كاسب آبائك بالطائف وحفرهم الآبار ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب؟! (205) والله لأغمزنك غمز الليث الثعلب والصقر الأرنب، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا فلم تقبل له أحسانه ولم تجاوز له إساءته، جراءة منك على الرب عز وجل، واستخفافاً منك بالعهد، والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلاً خدع عذرة وعيسى بن مريم لعظمتته وشرفته واکرمته، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ خدمه ثمانين سنين يطلعه على سره ويشاوره في أمره، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه، فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه ونعله، وإلا أتاك مني سهم مثكل بحتفٍ قاضٍ و " لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون " الأنعام: 67.

يشكو والي السماوة إلى عبد الملك

عن أبي عبيدة قال: ولي عبد الملك بن مروان صدقات كلب رجلاً من بني أمية، وكانت الروم قد نزعت، وكان أشقر غضاً، فدخل أعرابي جلف جاف على عبد الملك في جفة الناس، فلما مثل بين يديه قال يا إنسان إنك مدبر مربوب، قال: أجل فما تشاء؟ قال: قد احتجبت بهذه المدرة ووليت خطابنا أصهب غضاً (206) كالقرعوش (207) طمطمانيأ (208) أطوماً (209) كأن

(205) ابن المستفرمة بعجم الزبيب : كانت المرأة تستعمل عجم الزبيب لتضييق قبلها في ما ذكر بعض أهل العلم وهو حبه، والنوى كله يقال له عجم واحدته عجمة، قال الأعشى:

مقaddock بالخيال أرض العدو ... وجذعائها كلقيط العجم

قيل: صارت من صلابتها مثل النوى. وقال أبو عبيدة: عجم عجماً أي ليك لأنه نوى الفم فهو أصلب ليس بنوى خل ولا نبيذ فهو أصلب وأملس، وإنما أراد صلابتها وضمها، ولقيط أراد ملفوظ مثل جريح ومجروح، ويروى كلفيظ العجم أي ملفوظ ملقى.

(206) الغضا : الغتم

(207) القرعوش ولد البختية وهو لا ينبج ولا ينفع

وجهه جهوة قرء قد قشر بصرها، وكأن فاه سرم أتان، قد قاشها عير فهي ترمز، إن كشرت بسر، وإن خاطبت نهر، وإن تألفت زبر، فلا الكلام مدفوع، ولا القول مسموع، ولا الحق متبوع، ولا الجور مردوع، ولنا ولك مقام فيه ينص الخصام، وترجف الأقدام، وينتصف المظلوم، وينعش المهضوم؛ ها إن ملكك هناك زائل، وعزك حائل، وناصرك خازل، والحاكم عليك عادل؛ فاكبأن عبد الملك وتضاءلت أقطاره وترادت عبراته في صدره، ثم قال: لله أبوك، أي ظلم نالك منا حتى أجاك إلى هذا المقال؟ قال: ساعيك في السماوة، نهاره لهو، ومقاله لغو، وغضبه سطو، يجمع المباquit ويحتجن المشائط ويستنجد العمارط، فأمر عبد الملك بصرف العامل.

أيمن بن خريم لا يقاتل مصلياً

عن الشعبي أن عبد الملك بن مروان قال لأيمن بن خريم بن فاتك: ألا تخرج فتقاتل معنا؟ فقال: إن أبي وعمي شهدا بداراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمراني أن لا أقاتل رجلاً يصلي، فإن أعطيتني براءة من النار قاتلت معك، فتركه. وهو الذي يقول:

فلست مقاتلاً رجلاً يصلي ... على سلطان آخر من قريش

له سلطانه وعلي وزري ... معاذ الله من سفه وطيش

أقتل مسلماً في غير جرم ... فليس بنافعي ما عشت عيشي

معاوية واللقمة التي لم تكتب له

عن عبد الملك بن مروان قال: جلست مع معاوية على غدائه فأخذ لقمةً فهيأها، وأخذ يتحدث فوضعها، فأخذتها، فعل ذلك مراراً يضعها وأخذها وألقمها، فسمعتة يقول وهو يخطب: إن الرجل ليرفع اللقمة إلى فيه يراها من رزق الله له قد كتبها لغيره فيأكلها الذي كتبت له.

الحجاج وابن الحنفية وشكوى الثاني لعبد الملك

قال محمد بن هشام السعدي التميمي: خرج الحجاج بن يوسف وابن الحنفية من عند عبد الملك بن مروان، فلما صارا في الطريق قال الحجاج لمحمد بن الحنفية: لقد بلغني أن أباك كان إذا فرغ من القنوت يقول كلاماً حسناً أحببت أن أعرفه، فتحفظه؟ قال: لا، قال: سبحان الله، ما أوحش لقاءكم، وأفزع لفظكم، وأشدّ خنزوانتكم، ما تعدون الناس إلا عبيداً، ولقد خضتم الفتنة

208 (الطمطاني: الأعم

209 (والأطوم: الذي لا يفهم ولا يفهم. وإنما أخذ من جلد الأطوم وهي دابة من دواب البحر صلبة الجلد، وقال قوم: هي السلحفاة.

خوضاً وقتلتم المهاجرين والنصارى. فنظر إليه ابن الحنفية وأنكر لفظه وأحفظه، فوقف وسار الحجاج. ورجع ابن الحنفية إلى باب عبد الملك فقال للآذن: استأذن لي، فقال: ألم تكن عنده قبل وخرجت أنفاً، فما ردك وقد ارتفع أمير المؤمنين؟ قال: لست أبرح حتى ألقاه. فكره الآذان غضب الخليفة فدخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين، هذا محمد بن الحنفية مستأذن عليك، فقال: ألم يكن عندي قبل، لقد رده أمر، إذن له. فلما دخل عليه تحلل عن مجلسه كما كان يفعل فقال: يا أمير المؤمنين هذا الحجاج أسمعني كلاماً تكمشت له (210)، وذكر أبي بكلام تقمعت له (211)، وما أحرث حرفاً، قال: فما قال لك حتى أعمل على حبسه؟ قال: وكأنما تفقأ في وجهه الرمان ونخسه شوك، فخبّره عما سألته عنه، فقال لصاحب شرطته: عليّ بالحجاج الساعة. فأتاه في منزله حين خلع ثيابه فحمله حملاً عنيفاً، وانصرف ابن الحنفية فجاء الحجاج فوقفه بالباب طويلاً ثم قال: إذن له، فدخل فسلم عليه، فقال له عبد الملك:

لا أنعم الله بعمرٍ عينا... تحية السُّخط إذا التقينا
يا لكع (212) وهرّاة البقار (213)، ما أنت ومحمد ابن الحنفية؟! قال: يا أمير المؤمنين، ما كان إلّا خيراً، قال: كذبت والله لهو أصدق منك وابرّ، ذكرته وذكرت أباه، فوالله ما بين لابتيتها أفضل من أبيه؛ وما جرى بينك وبينه؟ قال: سألته يا أمير المؤمنين عن شيء بلغني كان أبوه يقوله بعد القنوت، قال: لا أعرفه، فعلمت أن ذاك مقت منه لنا ولدولتنا، فأجبت به بالذي بلغك. فقال له عبد الملك: أسأت ولوّمت، والله لولا أبوه وابن عمّه لكنا حيارى ضلّالاً، وما أنبت الشعر على رؤوسنا إلّا الله عز وجل وهم، وما أعزّنا بما ترى إلّا رحمهم وريحهم الطيبة، والله لا كلّمك كلمة أبداً، أو تجيئني بالرضا منه، وتسأل سخيمته. قال: فمضى الحجاج من فوره، فألفاه وهو يتغذى مع أصحابه، قال: فاستأذن فأبى أن يأذن له، فقال له بعض أصحابه: أتى برسالة أمير المؤمنين، فأذن له، فقال: إن أمير المؤمنين أرسلني أن أسأل سخيمتك، وأقسم أن لا يكلمني أبداً حتى آتية بالرضى منك، وأنا أحبّ، برحمتك من

210 (تكمشت له " أي انقبضت منه

211 (تقمعت له " يقال: قد تقمّع الرجل وانقمع إذا انخزل وانكسر.

212 (وقول عبد الملك: " يا لكع " يريد يا عبد أو يا لنيم.

213 (وقوله " " وهرّاة البقار " يعني عصا الراعي التي يزود بها البقر، يريد أنّه لا يصلح إلّا لأداني الأمور.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا عفوت عما كان، وغفرت ذنباً إن كان. فقال: قد فعلت على شريطة فتفعلها، قال: نعم، قال: على صرم الدهر. قال: ثم انصرف الحجاج فدخل على عبد الملك فقال: ما صنعت؟ قال: جئت برضاه وسملت سخيمته وأجاب إلى ما أحب وهو أهل ذلك. قال: فأني شيء آخر ما كان بينك وبينه؟ قال: رضي على شريطة، على صرم الدهر، فقال: شنشنة أعرفها من أخزم، انصرف. فلما كان من الغد دخل ابن الحنفية على عبد الملك فقال له: أذاك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فرضيت وأجبته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: ثم مال إليه فقال: هل تحفظ ما سألك عنه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين وما منعتني أن أبثه غياه إلا مقتي له فأنه من بقية ثمود. فضحك عبد الملك ثم قال: يا سليمان - لغليم له - كاتباً ودواةً وقرطاساً، قال: فكتب بخطه: بسم الله الرحمن الرحيم، كان أمير المؤمنين علي عليه السلام إذا فرغ من وتره رفع يده إلى السماء وقال: اللهم حاجتي العظمى التي إن قضيتها لم يضرني ما منعتني، وإن منعتني لم ينفعني ما أعطيتني. فكأك الرقاب، فكأ رقبتني من النار، رب ما أنا إن تقصد قصدي بغضب منك يدوم علي، فوعزتك ما يحسن ملكك إحساني، ولا تقبحه إساءتي، ولا ينقص من خزانك غنائي، ولا يزيد فيها فقري. يا من هو هكذا اسمع دعائي وأجب ندائي، وأقلني عثرتي، وارحم غربتي ووحشتي ووحدتي في قبري، ها أنا ذا يا رب برمتي (214). ويأخذ بتلابيبه ثم يركع. فقال عبد الملك: حسن والله رضي الله عنه. (215)

(214) ها أنا ذا يا رب برمتي " العرب تقول: أخذ فلان كذا وكذا برمته، يريدون أخذه كله واستوفاه ولم يغادر شيئاً منه؛ وكذلك قولهم أخذه بأسره، والأسر القيد، وبه سمى الأسير أسيراً وهو الآخذ بمعنى المأخوذ، وكانوا يشدون بالقد إذا أسروه. وأما الرمة فالحبل البالي كانوا يشدون الأمتعة به، ومنه قول ذي الرمة: أشعث باقي رمة التقليد وقيل: إنما سمى ذا الرمة لقوله هذا، وهو غيلان بن عقبة، فأما الرمة بالكسر فالعظم البالي، ويقال: رمّ العظم يرم وهو رميم، ومنه قول الشاعر:

والنيب إن تعر مني رمة خلقاً ... بعد الممات فإني كنت أتر

(215) المعافى بن زكريا، المجلس الصالح والأنيس الناصح، ص 88، 110، ص 126، 127، 165، 175، 271، 273-274، 317، 348، 384، 475

ما ترى؟

لما أتى عبد الملك بن مروان بأسرى بني الأشعث؛ قال لرجاء بن حيوة: ما ترى؟ قال: إن الله أعطاك ما تحب من الظفر فأعطه ما يحب من العفو! فعفا عنهم. (216)

لو سبق سماعه فعلى لأمسكت

قال أبو الحسن المدائني: لما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد ما صالحه وكتب إليه أماناً وأشهد شهوداً، قال عبد الملك بن مروان لرجل كان يستشيريه ويصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر: ما رأيك في الذي كان مني؟ قال: أمر قد فات دركه. قال: لتقولن. قال: حزم لو قتلته وحييت. قال: أو لست بحي؟ فقال: ليس بحي من أوقف نفسه موقفاً لا يوثق له بعهد ولا بعقد. قال عبد الملك: كلام لو سبق سماعه فعلى لأمسكت.

أشكو إليك الشرف يا أمير المؤمنين

ودخل أبو الريان على عبد الملك بن مروان، وكان عنده أثيراً، فراه خائراً (217)، فقال: يا أبا الريان، مالك خائراً؟ قال: أشكو إليك الشرف يا أمير المؤمنين. قال: وكيف ذلك؟ قال: نسأل ما لا نقدر عليه ونعتذر فلا نعذر. قال عبد الملك: ما أحسن ما استمنحت، واعتذرت يا أبا الريان! أعطوه كذا وكذا.

أتلوماني على هذا؟

ودخل أعشى ربيعة على عبد الملك بن مروان وعن يمينه الوليد، وعن يساره سليمان. فقال له عبد الملك: ماذا بقي يا أبا المغيرة؟ قال: مضى ما مضى وبقي ما بقي، وأنشأ يقول:

وما أنا في حقي ولا في خصومتي ... بمهتضم حقي ولا قارع سني
ولا مسلم مولاي من سوء ما جنى ... ولا خائف مولاي من سوء ما أجني
وفضلى في الأقوال والشعر أنني ... أقول الذي أعني وأعرف ما أعني
وأن فؤادي بين جنبي عالم ... بما أبصرت عيني وما سمعت أذني
وإني وإن فضلت مروان وابنه ... على الناس قد فضلت خير أب وابن
فضحك عبد الملك، وقال للوليد وسليمان: أتلوماني على هذا؟ وأمر له بعشرة آلاف.

(216) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ص 24، 29

(217) خار الحر والرجل يخور خوورة: ضعف وانكسر.

وفود عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان

قال بديح: وفد عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان، وكان زوج ابنته أم كلثوم من الحجاج على ألفي ألف في السر وخمسمائة في العلانية، وحملها إليه إلى العراق، فمكثت عنده ثمانية أشهر. قال بديح: فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان، خرجنا معه حتى دخلنا دمشق، فإنا لنحط رحالنا إذ جاءنا الوليد بن عبد الملك على بغلة وردة ومعه الناس، فقلنا: جاء إلى ابن جعفر ليحييه ويدعوه إلى منزله. فاستقبله ابن جعفر بالترحيب؛ فقال له: لكن أنت لا مرحباً بك ولا أهلاً؛ مهلاً يا بن أخي، فلست أهلاً لهذه المقالة منك؛ قال: بلى ولشر منها؛ قال: وفيم ذلك؟ قال: إنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب، وسيدة بني عبد مناف، ففرشتها عبد ثقيف يتفخذها؛ قال: وفي هذا عتب علي يا بن أخي؟ قال: وما أكثر من هذا؟ قال: والله إن أحق الناس أن لا يلومني في هذا لأنت وأبوك، إن كان من قبلكم من الولاة ليصلون رحمي، ويعرفون حقي، وإنك وأباك منعتاني ما عندكما حتى ركبني من الدين ما والله لو أن عبداً مجدعاً حبشياً أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها، فإنا فديت بها رقبتني من النار. قال: فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه، ومضى حتى دخل على عبد الملك - وكان الوليد إذا غضب عرف ذلك في وجهه - فلما رآه عبد الملك قال: مالك أبا العباس؟ قال: إنك سلطت عبد ثقيف وملكته ورفعته، حتى تفخذ نساء عبد مناف، وأدركته الغير. فكتب عبد الملك إلى الحجاج يعزم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها. فما قطع الحجاج عنها رزقاً ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا. قال: وما زال واصلاً لعبد الله بن جعفر حتى هلك.

قال بديح: فما كان يأتي علينا هلال إلا وعندنا غير مقبلة من الحجاج، عليها لطف وكسوة وميرة، حتى لحق عبد الله بن جعفر بالله.

ثم استأذن ابن جعفر على عبد الملك، فلما دخل عليه استقبله عبد الملك بالترحيب، ثم أخذ بيده فأجلسه معه على سريره، ثم سألها فألطف المسألة، حتى سألها عن مطعمه ومشربه، فلما انقضت مسألتها، قال له يحيى بن الحكم: أمن خبيثة كان وجهك أبا جعفر؟ قال: وما خبيثة؟ قال: أرضك التي جئت منها؛ قال: سبحان الله! رسول الله ﷺ يسميها طيبة وتسميها خبيثة! لقد اختلفتما في الدنيا وأظنكما في الآخرة مختلفين. فلما خرج من عنده هياً له ابن جعفر هدايا وألطافاً. فقلت لبديح: ما قيمة ذلك؟ قال: قيمته مائة ألف، من وصفاء ووصائف وكسوة وحرير ولطف من لطف الحجاز. قال: فبعثني بها،

فدخلت عليه وليس عنده أحد، فجعلت أعرض عليه شيئاً شيئاً. قال: فما رأيت مثل إعظامه لكل ما عرضت عليه من ذلك، وجعل يقول كلما أريته شيئاً: عافى الله أبا جعفر، ما رأيت كاليوم، وما كنا نريد أن يتكلف لنا شيئاً من هذا، وإن كنا لمتذممين محتشمين. قال: فخرجت من عنده، وإذن لأصحابه، فوالله لبينا أنا أحدثه عن تعجب عبد الملك وإعظامه لما أهدى إليه، إذا بفارس قد أقبل علينا، فقال: أبا جعفر، إن أمير المؤمنين يقرأ السلام عليك، ويقول لك: جمعت لنا وخش رقيق الحجاز أباقيهم، وحبست عنا فلانة، فابعث بها إلينا - وذلك أنه حين دخل عليه أصحابه جعل يحدثهم عن هدايا ابن جعفر ويعظمها عندهم؛ فقال له يحيى بن الحكم: وماذا أهدى إليك ابن جعفر؟ جمع لك وخش رقيق الحجاز وأباقيهم وحبس عنك فلانة؛ قال: ويلك! وما فلانة هذه؟ قال: ما لم يسمع والله أحد بمثلها قط جمالاً وكمالاً وخلقاً وأدباً، لو أراد كرامتك بعث بها إليك؛ قال: وأين تراها، وأين تكون؟ قال: هي والله معه، وهي نفسه التي بين جنبيه - فلما قال الرسول ما قال، وكان ابن جعفر في أذنه بعض الوقر إذا سمع ما يكره تصام، فأقبل علي فقال: ما يقول بديح؟ قال: قلت: فإن أمير المؤمنين يقرأ السلام ويقول: إنه جاءني بريد من ثغر كذا يقول: إن الله نصر المسلمين وأعزهم؛ قال: اقرأ أمير المؤمنين السلام، وقل له: أعز الله نصرك، وكبت عدوك؛ فقال الرسول: يا أبا جعفر، إني لست أقول هذا، وأعاد مقالته الأولى. فسألني، فصرفته إلى وجه آخر؛ فأقبل علي الرسول، فقال: يا ماص أبرسل أمير المؤمنين تهكم؟ وعن أمير المؤمنين تجيب هذا الجواب؟ قال: والله لأظن دمك؛ فأنصرف. وأقبل علي ابن جعفر فقال: من ترى صاحبنا؟ قال: صاحبك بالأمس؛ قال: أظنه، فما الرأي عندك؟ قلت: يا أبا جعفر، قد تكلفت له ما تكلفت فإن منعتها إياه جعلتها سبباً لمنعك، ولو طلب أمير المؤمنين إحدى بناتك ما كنت أرى أن تمنعها إياه، قال: ادعها لي. فلما أقبلت رحب بها، ثم أجلسها إلى جنبه، ثم قال: أما والله ما كنت أظن أن يفرق بيني وبينك إلا الموت؛ قالت: وما ذاك؟ قال: إنه حدث أمر وليس والله كائناً فيه إلا ما أحببت، جاء الدهر فيه بما جاء؛ قالت: وما هو؟ قال: إن أمير المؤمنين بعث يطلبك، فإن تهوين فذاك، وإلا والله لا يكون أبداً؛ قالت: ما شيء لك فيه هو؟ ولا أظن فيه فرجاً عنك إلا فديته بنفسي، وأرسلت عينيها بالبكاء؛ فقال لها: أما إذا فعلت فلا ترين مكروهاً، فمسحت عينيها، وأشار إلي فقال: ويحك يا بديح! استحثها قبل أن تتقدم إلي من القوم بادرة. قال: ودعا بأربع وصائف ودعا من صاحب نفقته بخمسمائة دينار، ودعا مولاة له كانت تلي طيبه،

فدحست لها ربة عظيمة مملوءة طيباً، ثم قال: عجلها ويلك! فخرجت أسوقها حتى انتهيت إلى الباب، وإذا الفارس قد بلغ عني، فما تركني الحجاب أن تمس رجلاي الأرض حتى أدخلت على عبد الملك وهو يتلظى؛ فقال لي: يا ماص! وكذا أنت المجيب عن أمير المؤمنين والمتهم برسله؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ائذن لي أتكلم؛ قال: وما تقول يا كذا وكذا؟ قلت: ائذن لي يجعلني الله فداك أتكلم؛ قال: تكلم؛ قلت: يا أمير المؤمنين، أنا أصغر شأنًا، وأقل خطراً من أن يبلغ كلامي من أمير المؤمنين ما أرى، وهل أنا إلا عبد من عبيد أمير المؤمنين، نعم قد قلت ما بلغك، وقد يعلم أمير المؤمنين أنا إنما نعيش في كنف هذا الشيخ، وأن الله لم يزل إليه محسناً، فجاءه من قبلك شيء ما أتاه قط مثله، إنما طلبت نفسه التي بين جنبيه، فأجبت بما بلغك لأسهل الأمر عليه، ثم سألتني فأخبرته، واستشارني فأشرت عليه، وها هي ذه قد جئتك بها؛ قال: أدخلها ويلك! قال:

فأدخلتها عليه، وعنده مسلمة ابنة غلام ما رأيت مثله ولا أجمل منه حين اخضر شاربه، فلما جلست وكلها أعجب بكلامها، فقال: لله أبوك! أمسكك لنفسي أحب إليك، أم أهبك لهذا الغلام؟ فإنه ابن أمير المؤمنين؛ قالت: يا أمير المؤمنين، لست لك بحقيقة، وعسى أن يكون هذا الغلام لي وجهاً؛ قال: فقام من مكانه ما راجعها؛ فدخل وأقبل عليها مسلمة، يالكاع، أعلى أمير المؤمنين تختارين؟ قالت: يا عدو نفسه، إنما تلومني أن اخترتك! لعمر الله، لقد قال: رأي من اختارتك. قال: فضيقت والله مجلسه؛ واطلع علينا عبد الملك، قد ادهن بدهن وارى الشيب، وعليه حلة تتلأأ كأنها الذهب، بيده مخرصة يخطر بها، فجلس مجلسه على سريره، ثم قال: إيها! لله أبوك! أمسكك لنفسي أحب لك، أم أهبك لهذا الغلام؟ قالت: ومن أنت أصلحك الله؟ قال لها الخصي: هذا أمير المؤمنين؛ قالت: لست مختارة على أمير المؤمنين أحداً؛ قال: فأين قولك أنفاً؟ قالت: رأيت شيخاً كبيراً، وأرى أمير المؤمنين أشب الناس وأجملهم، ولست مختارة عليه أحداً، قال: دونكها يا مسلمة. دخلتها عليه، وعنده مسلمة ابنة غلام ما رأيت مثله ولا أجمل منه حين اخضر شاربه، فلما جلست وكلها أعجب بكلامها، فقال: لله أبوك! أمسكك لنفسي أحب إليك، أم أهبك لهذا الغلام؟ فإنه ابن أمير المؤمنين؛ قالت: يا أمير المؤمنين، لست لك بحقيقة، وعسى أن يكون هذا الغلام لي وجهاً؛ قال: فقام من مكانه ما راجعها؛ فدخل وأقبل عليها مسلمة، يالكاع، أعلى أمير المؤمنين تختارين؟ قالت: يا عدو نفسه، إنما تلومني أن اخترتك! لعمر الله، لقد قال: رأي من اختارتك. قال:

فضيقت والله مجلسه؛ واطلع علينا عبد الملك، قد ادهن بدهن وارى الشيب،
وعليه حلة تتلأأ كأنها الذهب، بيده مخرصة يخطر بها، فجلس مجلسه على
سريره، ثم قال: إيها! لله أبوك! أمسكك لنفسي أحب لك، أم أهبك لهذا الغلام؟
قالت: ومن أنت أصلحك الله؟ قال لها الخصي: هذا أمير المؤمنين؛ قالت:
لست مختارة على أمير المؤمنين أحداً؛ قال: فأين قولك آنفاً؟ قالت: رأيت
شيخاً كبيراً، وأرى أمير المؤمنين أشب الناس وأجملهم، ولست مختارة عليه
أحداً، قال: دونكها يا مسلمة.

قال بديح: فنشرت عليه الكسوة والدنانير التي معي، وأريته الجواري
والطيب؛ قال: عافى الله ابن جعفر، أخشي أن لا يكون لها عندنا نفقة وطيب
وكسوة؟ فقلت: بلى، ولكن أحب أن يكون معها ما تكفي به حتى تستأنس.
قال: فقبضها مسلمة. فلم تلبث عنده إلا يسيراً حتى هلك. قال بديح: فوالله
الذي ذهب بنفس مسلمة، ما جلست معه مجلساً، ولا وقفت موقفاً أنازعه فيه
الحديث إلا قال: أبغني مثل فلانة، فأقول: أبغني مثل ابن جعفر.
قال: فقلت لبديح: ويلك! فما أجازه به؟ قال: قال: حين دفع إليه حاجته ودينه،
لأجيزتك جائزة، لو نشر لي مروان من قبره ما زدته عليها، فأمر له بمائة
ألف، وأيم الله إني لا أحسبه أنفق في هديته ومسيره ذلك وجاريته التي كانت
عدل نفسه مائتي ألف.⁽²¹⁸⁾

وفود الشعبي على عبد الملك بن مروان

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: أن ابعث رجلاً يصلح للدين
واللدينا، أتخذه سميراً وجليساً وخلياً؛ فقال الحجاج: ما له إلا عامر الشعبي،
وبعث به إليه. فلما دخل عليه وجده قد كبا مهتماً، فقال: ما بال أمير
المؤمنين؟ قال: ذكرت قول زهير:

كأني وقد جاوزت تسعين حجة ... خلعت بها عني عذار لجامي

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يرمى وليس برامي

فلو أنني أرمى بنبل رأيتها ... ولكنني أرمى بغير سهام

على الراحتين تارة وعلى العصا ... أنوء ثلاثاً بعدهن قيامي

قال له الشعبي: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة وقد
بلغ سبعين حجة:

كأني وقد جاوزت سبعين حجة ... خلصت بها عن منكبي رداً

ولما بلغ سبعاً وسبعين سنة قال:
 بانئت تشكي إلى النفس موهنة ... وقد حملتك سبعاً بعد سبعيناً
 فإن تزادي ثلاثاً تبليغي أملاً ... وفي الثلاث وفاء للثمانيناً
 ولما بلغ تسعين سنة قال:
 وقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الناس كيف لبيد
 ولما بلغ عشراً ومائة قال:
 أليس ورائي إن تراخت منيتي ... لزوم العصا تحنى عليها الأصابع
 أخبر أخبار القرون التي خلت ... أنوء كأني كلما قمت راع
 ولما بلغ ثلاثين ومائة وحضرته الوفاة قال:
 تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
 فقوما فقولا بالذي تعلمانه ... ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
 وقولا هو المرء الذي لا صديقه ... أضاع ولا خان الخليل ولا غدر
 إلى سنة ثم السلام عليكما ... ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر
 قال الشعبي: فلقد رأيت السرور في وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها. (219)

وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان

قال عمران بن عبد العزيز: لما ولي الحجاج بن يوسف الحرمين بعد قتله ابن الزبير استخلص إبراهيم بن محمد بن طلحة فقربه وعظم منزلته، فلم تزل حاله عنده حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان، فخرج معه معادلاً، لا يقصر له في بر ولا إعظام، حتى حضر به عبد الملك، فلما دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال له: قدمت عليك أمير المؤمنين برجل الحجاز، لم أدع له بها نظيراً في الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب، مع قرابة الرحم ووجوب الحق وعظم قد الأبوة وما بلوت منه في الطاعة والنصيحة وحسن الموازنة، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة، وقد أحضرته بابك ليسهل عليه إذنك، وتعرف له ما عرفتك؛ فقال: أذكرتنا رحماً قريبة وحقاً واجباً، يا غلام، ائذن لإبراهيم بن محمد بن طلحة، فلما دخل عليه أدناه عبد الملك حتى أجلسه على فراشه، ثم قال له: يا بن طلحة، إن أبا محمد ذكرنا ما لم نزل نعرفك به في الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب، مع قرابة الرحم ووجوب الحق وعظم قدر الأبوة، وما بلاه منك في الطاعة والنصيحة وحسن الوازرة، فلا تدعن حاجة عن خاصة نفسك وعامتك إلا ذكرتها؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إن أول الحوائج وأحق ما قدم بين يدي الأمور ما كان لله فيه رضا، ولحق نبيه صلى الله عليه

وسلم أداء، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة، وعندي نصيحة لا أجد بداً من ذكرها، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خال، فأخطني يا أمير المؤمنين ترد عليك نصيحتي؛ قال: دون أبي محمد؟ قال: نعم، دون أبي محمد. قال عبد الملك للحجاج: قم. فلما خطر الستر أقبل علي، فقال: يا بن طلحة، قل نصيحتك؛ فقال: تالله يا أمير المؤمنين، لقد عمدت إلى الحجاج في تغطرسه، وتعجرفه، وبعده من الحق، وقربه من الباطل، فوليته الحرمين، وهما ما هما وبهما ما بهما من المهاجرين والأنصار والموالي الأخيار يطوهم بطغام أهل الشام ورعاع لا روية لهم في إقامة حق ولا في إزاحة باطل، ويسومهم الخسف ويحكم فيهم بغير السنة، بعد الذي كان من سفك دمائهم، وما انتهك من حرمة، ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله زاهق، وفيما بينك وبين نبيك غداً إذا جاثاك للخصومة بين يدي الله في أمته، أما والله لا تتجو هنالك إلا بحجة، فأربع على نفسك أودع. فقال له عبد الملك: كذبت ومنت وظن بك الحجاج ما لم يجده فيك، وقد يظن الخير بغير أهله، قم فأنت الكاذب المائن. قال: فقمتم وما أعرف طريقاً، فلما خطر الستر لحقتي لاحق، فقال: احبسوا هذا، وقال للحجاج: ادخل، فدخل، فمكث ملياً من النهار لا أشك أنهما في أمري، ثم خرج الأذن، فقال: ادخل يا بن طلحة، فلما كشف لي الستر لقيني الحجاج، وهو خارج وأنا داخل، فاعتنقني وقبل ما بين عيني، وقال: أما إذا جرى الله المتواخين خيراً تواصلهم فجزاك الله عني أفضل الجزاء، فوالله لئن سلمت لك لأرفعن ناظرك، ولأعلن كعبك، ولأتبعن الرجال غبار قدميك؛ قال: قلت: يهزأ بي وحق الكعبة. فلما وصلت إلى عبد الملك أدناني حتى أدناني عن مجلسي الأول، ثم قال: يا بن طلحة، لعل أحداً شاركك في نصيحتك هذه؟ قلت: والله يا أمير المؤمنين، ما أعلم أحداً أنصع عندي يداً ولا أعظم معروفاً من الحجاج، ولو كنت محابياً أحداً لغرض دنيا لحابيته، ولكني آثرت الله ورسوله وآثرتك والمؤمنين عليه؛ قال: قد علمت أنك لم ترد الدنيا، ولو أردتها لكانت لك في الحجاج، ولكن أردت الله والدار الآخرة، وقد عزلته عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما، وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استقلالاً لهما، ووليته العراقيين، وما هنالك من الأمور التي لا يدحضها إلا مثله، وأعلمته أنك استدعيتني إلى ولايته عليهما استزادة له، لألزمه بذلك من حقك ما يؤدي إليك عني أجر نصيحتك، فأخرج معه فإنك غير ذام لصحبته. فخرجت مع الحجاج وأكرمني أضعاف إكرامه.⁽²²⁰⁾

وفود جرير على عبد الملك بن مروان

لما مدح جرير بن الخطفي الحجاج بن يوسف بشعره الذي يقول فيه:
من سد مطلع النفاق عليكم ... أم من يصول كصوله الحجاج
أم من يغار على النساء حفيظة ... إذ لا يثقن بغيرة الأزواج
وقوله:

دعا الحجاج مثل دعاء نوح ... فأسمع ذا المعارج فاستجابا
قال له الحجاج: إن الطاقة تعجز عن المكافأة، ولكني موفدك على أمير
المؤمنين عبد الملك بن مروان، فسر إليه بكتابي هذا. فسار إليه، ثم استأذنه
في الإنشاد، فأذن له، فقال:

أتصحو بل فؤادك غير صاحي

قال له عبد الملك: بل فؤادك. فلما انتهى إلى قوله:

تعزت أم حزرة ثم قالت ... رأيت الواردين ذوي امتياح

ثقي بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالنجاح

سأشكر إن رددت إلي ريشي ... وأثبت القوادم في جناحي

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

ارتاح عبد الملك وكان متكئاً، فاستوى جالساً، ثم قال: من مدحنا منكم

فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت؛ ثم قال له: يا جرير، أترى أم حزرة ترويهامائة

ناقة من نعم كلب؟ قال: إذا لم تروها يا أمير المؤمنين فلا أرواها الله. فأمر له

بمائة ناقة من نعم كلب كلها سود الحديقة؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إنها أباق

ونحن مشايخ، وليس بأحدنا فضل عن راحلته؛ فلو أمرت بالرعاء؛ فأمر له

بثمانية من الرعاء. وكانت بين يدي عبد الملك صحاف من فضة يقرعها

بقضيب في يده؛ فقال له جرير: والمحلب يا أمير المؤمنين، وأشار إلى

صحفة منها، فنبذها إليه بالقضيب وقال: خذها لا نفعتك. ففي ذلك يقول

جرير:

أعطوا هنيئة يحدوها ثمانية ... ما في عطائهم من ولا شرف⁽²²¹⁾

من أنت؟

قال ابن شهاب الزهري: دخلت على عبد الملك بن مروان في رجال من أهل

المدينة، فرآني أحدثهم سناً، فقال لي: من أنت؟ فانتسبت له؛ فقال: لقد كان

أبوك وعمك نعاقين في فتنة ابن الأشعث؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، إن مثلك

إذا عفا لم يعدد، وإذا صفح لم يثرب. فأعجبه ذلك، وقال: أين نشأت؟ قلت:

بالمدينة؛ قال: عند من طلبت؟ قلت: سعيد بن المسيب؛ وسليمان بن يسار، وقبيصة بن ذؤيب؛ قال: فأين أنت من عروة بن الزبير؟ فإنه بحر لا تكدره الدلاء. فلما انصرفت من عنده لم أبارح عروة بن الزبير حتى مات.

أبا لحرمان يهددني!

قال العتبي: أمر عبد الملك بن مروان بقطع أرزاق آل أبي سفيان وجوائزهم لموجودة وجدها على خالد بن يزيد بن معاوية فدخل عليه عمر بن عتبة، فقال: يا أمير المؤمنين، إن أدنى حقك معتب، وبعضه فادح لنا، ولنا من حقك علينا حق عليك، بإكرام سلفنا لسلفك، فانظر إلينا بالعين التي نظروا بها إليهم، وضعنا بحيث وضعتنا الرحم منك؛ قال: عبد الملك: إنما ما يستحق عطيتي من استعطاها، فأما من ظن أنه يكتفي بنفسه، فسنكله إلى نفسه، ثم أمر له بعطيته.

فبلغ ذلك خالداً فقال: أبا لحرمان يهددني! يد الله فوق يده باسطة، وعطاء الله دونه مبذول، فأما عمرو فقد أعطى من نفسه أكثر مما أخذ لها.

مذ متى اعتللت؟

وجد عبد الملك بن مروان على رجل فجفاه وأطرحه، ثم دعا به ليسأله عن شيء، فراه شاحباً ناحلاً، فقال له: مذ متى اعتللت؟ فقال: ما مسني سقم، ولكنني جفوت نفسي إذ جفاني الأمير، وآليت أن لا أرضى عنها حتى يرضى عني أمير المؤمنين. فأعاده إلى حسن رأيه.

اجعله من بعض ذنوبك التي تستغفر الله منها

أتي عبد الملك بن مروان بأعرابي سرق، فأمر بقطع يده فأنشأ يقول:
يدي يا أمير المؤمنين أعيذا ... بعفوك أن تلقى مكاناً يشينها
ولا خير في الدنيا وكانت حبيبة ... إذا ما شمالي فارقتها يمينها
فأبى إلا قطعه؛ فقالت أمه: يا أمير المؤمنين، واحدي وكاسبي؛ قال: بئس الكاسب كان لك، وهذا حد من حدود الله؛ قال: يا أمير المؤمنين، اجعله من بعض ذنوبك التي تستغفر الله منها، فعفا عنه.

أنت رأيت ذلك؟

قال أبو الحسن المدائني: كان العباس بن سهل والي المدينة لعبد الله بن الزبير، فلما بايع الناس عبد الملك بن مروان، ولي عثمان بن حيان المري، وأمره بالغلظة على أهل الظنة، فعرض يوماً بذكر الفتنة وأهلها، فقال له قائل: هذا العباس بن سهل على ما فيه، كان مع ابن الزبير وعمل له؛ فقال عثمان بن حيان: ويلي عليه، والله لأقتلنه؛ قال العباس: فبلغني ذلك، فتغيبت

حتى أضرب بي التغيب، فأنتيت ناساً من جلسائه فقلت لهم: ما لي أخاف وقد أمني عبد الملك بن مروان؟ فقالوا: والله ما يذكرك إلا تغيب عليك، وقلما كلم على طعامه في ذنب إلا انبسط، فلو تنكرت وحضرت عشاءه وكلمته. قال: ففعلت، وقلت على طعامه وقد أتى بجفنة ضخمة ذات ثريد ولحم: والله لكأني أنظر إلى جفنة حيان بن معبد والناس يتكاوسون عليها، وهو يطوف في حاشيته، يتفقد مصالحها، يسحب أردية الخز، حتى إن الحسك ليتعلق به فما يميطة، ثم يؤتى بجفنة تهادى بين أربعة، ما يستقلون بها إلا بمشقة وعناء، وهذا بعد ما يفرغ الناس من الطعام ويتتحون عنه، فيأتي الحاضر من أهله بالدنو والطارئ من أشراف قومه، وما بأكثرهم من حاجة إلى الطعام، وما هو إلا الفخر بالدنو من مائدته والمشاركة ليده؛ قال: هيه، أنت رأيت ذلك؟ قلت: أجل والله؛ قال لي: ومن أنت؟ قلت: وأنا آمن؟ قال: نعم؛ قلت: العباس بن سهل بن سعد الأنصاري، قال: مرحباً وأهلاً، أهل الشرف والحق. قال: فلقد رأيتني بعد ذلك وما بالمدينة رجل أوجه مني عنده. فقليل له بعد ذلك: أنت رأيت ونزلنا ذلك الماء وغشيناه وعليه عباءة ذكوانية، فلقد جعلنا ندوده عن رحلنا مخافة أن يسرقه.

ما خرج هذا إلا من كلام النبوة

وكتب ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان: أكلت لحم الجمل الذي هرب عليه أبوك من المدينة لأغزيناك جنوداً مائة ألف ومائة ألف. فكتب عبد الملك إلى الحجاج أن يبعث إلى عبد الله بن الحسن ويتوعده ويكتب إليه بما يقول، ففعل، فقال عبد الله بن الحسن: إن لله عز وجل لوحاً محفوظاً، يلحظه كل يوم ثلثمائة لحظة، ليس منها لحظة إلا يحيي فيها ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء، وإنني لأرجو أن يكفينيك منها بلحظة واحدة. فكتب به الحجاج إلى عبد الملك بن مروان، وكتب به عبد الملك إلى ملك الروم، فلما قرأه قال: ما خرج هذا إلا من كلام النبوة.

أنى لك هذا؟

ودخل رجل على عبد الملك بن مروان، وكان لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده منه علماً، فقال له: أنى لك هذا؟ فقال: لم أمنع قط يا أمير المؤمنين علماً أفيدته، ولم أحتقر علماً أستفيدته، وكنت إذا لقيت الرجل أخذت منه وأعطيته.

ابن من أنت؟

وتكلم رجل عند عبد الملك بن مروان بكلام ذهب فيه كل مذهب، فأعجب عبد الملك ما سمع من كلامه، فقال له: ابن من أنت؟ قال: أنا ابن نفسي يا أمير المؤمنين التي بها توصلت إليك، قال: صدقت.

ما في إبليس شرٌّ من هذا

وقال عبد الملك بن مروان للحجاج: إنه ليس من أحدٍ إلا وهو يعرف عيب نفسه، فصِف لي عيوبك. قال: أعفني يا أمير المؤمنين؛ قال: لستُ أفعل؛ قال: أنا لجوج لدود حَفُود حَسُود؛ قال: ما في إبليس شرٌّ من هذا.

وأيُّ الملوك أكمل؟

دخل مُسلم بن يزيد بن وهب على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: أيُّ زمان أدركتَ أفضل، وأيُّ الملوك أكمل؟ قال: أما الملوك فلم أرَ إلا حامداً أو ذاماً، وأما الزمان فيرفع أقواماً، وكلهم يذم زمانه لأنه يُبلي جديدهم، ويُفرق عديدهم، ويهرم صغيرهم؛ ويهلك كبيرهم.

وقال الشاعر:

أيا دهرُ إن كنتَ عاديتنا ... فها قد صنعتَ بنا ما كفَاكَ
جعلتَ الشرارَ علينا خياراً ... ووليتنا بعد وجهٍ قفاكَ

وقال آخر:

إذا كان الزمانُ زمانَ تيمٍ ... وعكَلٍ فالسلامُ على الزمانِ
زمان صار فيه الصدرُ عَجْزاً ... وصار الرُّجُّ قُدَّامَ السَّتانِ
لعلَّ زماننا سيعود يوماً ... كما عاد الزمانُ على بَطانِ

أما وجدتَ لك أمك اسماً إلا عطاء؟

دخل عطاء المضحك على عبد الملك بن مروان، فقال له: أما وجدتَ لك أمك اسماً إلا عطاء؟ قال: لقد استكثرتُ من ذلك ما استكثرتَه يا أمير المؤمنين، ألا سمَّيتني باسم المُباركة، صلوات الله عليها، مريم. (222)

زُبيري!

دخل رجل من قيس على عبد الملك بن مروان فقال: زُبيري! والله لا يحبك قلبي أبداً؛ قال: يا أمير المؤمنين، إنما يجزع من فقد الحبِّ النساء، ولكنَّ عدلاً وإنصافاً. وقال عمر بن الخطَّاب لأبي مريم الحنفي، قاتل زيد بن الخطَّاب:

والله لا يُحبك قلبي أبداً حتى تُحبَّ الأرضُ الدم؛ قال: يا أمير المؤمنين، فهل تمنعني لذلك حقاً؟ قال: لا؛ قال: فحسبي. (223)

أتعرفني يا أمير المؤمنين؟!

وروت الرواة أن الحجاج لما أخذ رأس ابن الأشعث وجه به إلى عبد الملك بن مروان مع عرار بن عمرو بن شأس الأسدي وكان أسود دميماً فلما ورد به عليه جعل عبد الملك لا يسأل عن شيء من أمر الواقعة إلا أنبأه به عرار، في أصح لفظ، وأشبع قول، وأجزاء اختصار، فشفاه من الخبر، وملاً أذنه صواباً وعبد الملك لا يعرفه، وقد اقتحمته عينه حيث رآه فقال متمثلاً:

أرادت عراراً بالهوان ومن يرد ... لعمرى عراراً بالهوان فقد ظلم2
وإن عراراً إن يكن غير واضح ... فإني أحب الجون ذا المنكب العمم
فقال له عرار: أتعرفني يا أمير المؤمنين قال: لا، قال: فأنا والله عرار فزاده في سروره، وأضعف له الجائزة. (224)

لقلنا: صدقت!

ويروى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالداً، فقال: يا أخي، لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك فقال له خالد: بنس والله ما هممت به في ابن أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين فقال: إن خيلي مرت به فعبث بها وأصغرني، فقال له خالد: أنا أكفيك، فدخل خالد على عبد الملك والوليد عنده، فقال: يا أمير المؤمنين، الوليد ابن أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين، فقال: إن خيلي مرت به فعبث بها وأصغرني، فقال له خالد: أنا أكفيك، فدخل خالد على عبد الملك والوليد عنده، فقال يا أمير المؤمنين، الوليد ابن أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين، مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فعبث بها، وأصغره، وعبد الملك مطرق، فرفع رأسه، فقال: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} (النمل: 34) ، فقال خالد: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} (الإسراء 16) ، فقال عبد الملك: أفي عبد الله تكلمني والله لقد دخل علي فما أقام لسانه لحناً فقال له خالد: أفعلى الوليد تعول فقال عبد الملك: إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان،

²²³ (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 6 ، 10 ، 37 ، 23 ، 19 ، 12 ، 71 ، 90 ، 118 ،

136 ، 138 ، 274 ، 143 ، 144 ، 183 ، 161 ، 155 ، 194 ، 199 ، 240 ، 229 ، 241 ، 274 ،

248 ، 254 ، 271 ، 305 ، 336 ،

²²⁴ (الكامل في اللغة و الأدب ، 1 / 217 ،

فقال له خالد: وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد، فقال له الوليد: اسكت يا خالد، فوالله ما تعد في العير ولا في النفير، فقال خالد: اسمع يا أمير المؤمنين، ثم أقبل عليه وقال: ويحك فمن العير والنفير غيري؟ جدي أبو سفيان صاحب العير، وجدي عتبة بن ربيعة صاحب النفير، ولكن لو قلت: غنيمات، وحبيلات، والطائف ورحم الله عثمان لقلنا: صدقت! (225)

فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً!

ويروى أن الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان: "وبلغني أن أمير المؤمنين عطس عطسة فشمتة قوم، فقال: يغفر الله لنا ولكم، فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً!" (226)

كثير والأخطل عند عبد الملك بن مروان

وحدث أن كثيراً دخل على عبد الملك بن مروان وعنده الأخطل، فأنشده التفت عبد الملك إلى الأخطل، فقال: كيف ترى؟ فقال: حجازي مجوع مقرر (227)، دعني أضغمة يا أمير المؤمنين، فقال كثير: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال له: هذا الأخطل، فقال له كثير: مهلاً، فهلا ضغمت الذي يقول: لا تطلبين خوولة في تغلب... فالزنج أكرم منهم أخوالاً والتغلبى إذا تتحنح للقرى... حك استه وتمثل الأمثالا فسكت الأخطل فما أجابه بحرف. (228)

نصيب عند عبد الملك بن مروان

وحدثت أن نصيباً أتى عبد الملك فأنشده، فاستحسن عبد الملك شعره وسر به، فوصله، ثم دعا بالغداء فطعم معه، فقال له بعد الملك: يا نصيب، هل لك فيما يتنادم عليه؟ فقال: يا مير المؤمنين، تأملني، قال: قد أراك، فقال: يا أمير المؤمنين، جلدي أسود، وخلقي مشوه، ووجهي قبيح، ولست في منصب، وإنما بلغ بي مجالستك ومواكلتك عقلي وأنا أكره يا أمير المؤمنين أن أدخل عليه ما ينقص. فأعجبه كلامه فأعفاه. (229)

225 (الكامل في اللغة و الأدب ، 1 / 264)

226 (الكامل في اللغة و الأدب ، 2 / 83)

227 (مقرر: أصابه القر، وهو البرد .

228 (الكامل في اللغة و الأدب ، 2 / 117)

229 (الكامل في اللغة و الأدب ، 2 / 118)

شمعل التغلبي حين ضربه عبد الملك بن مروان

قال: كلم شمعل التغلبي عبد الملك كلاماً لم يرضه، فرماه عبد الملك بالجرز1 فخدش وهشم، فقال شمعل:

أمن جذبه بالرجل مني تباشرت ... عداتي، فلا عيب علي ولا سخر
فإن أمير المؤمنين وسيفه ... لكالدهر، لا عار بما فعل الدهر! (230)

عبد الملك بن مروان ورجل من الخوارج

وذكروا أن عبد الملك بن مروان أتى برجل منهم فبحثه فرأى منه ما شاء فهماً ثم بحثه، فرأى ما شاء إرباً ودهياً⁽²³¹⁾، فرغب فيه، فاستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه، فرآه مستبصراً محققاً، فزاده في الاستدعاء فقال له: لتغفك الأولى عن الثانية، وقد قلت فسمعت، فاسمع أقل، قال له: قل. فجعل يبسط له من قول الخوارج ويزين له مذهبهم بلسان طلق وألفاظ بينة ومعان قريبة، فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته: لقد كان يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم، وأنا أولى بالجهاد منهم. ثم رجعت إلى ما ثبت الله علي من الحجة وقرر في قلبي من الحق. فقلت له: لله الآخرة والدنيا، وقد سلطنا الله في الدنيا، ومكن لنا فيها، وأراك لست تجيب بالقبول، والله لأقتلنك إن لم تطع. فبينما في ذلك إذ دخل علي بابني مروان.

قال أبو العباس: كان مروان أخا يزيد لأمه، أمهما عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وكان أبيعاً عزيز النفس، فدخل به في هذا الوقت على عبد الملك باكياً لضرب المؤدب إياه، فشق ذلك على عبد الملك، فأقبل الخارجي، فقال له: دعه يبكي؛ فإنه أرحب لشدقه، وأصح لدماغه، وأذهب لصوته، وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة الله¹، فاستدعى عبرتها. فأعجب ذلك من قوله عبد الملك، فقال معجباً: أما يشغلك ما أنت فيه وبعرضه عن هذا! فقال ما ينبغي أن يشغل المؤمن عن قول الحق شيء، فأمر عبد الملك بحبسه، وصفح عن قتله، وقال بعد يعتذر إليه: لولا أن تفسد بألفاظك أكثر رعيتي ما حبستك. ثم قال عبد الملك: من شككني ووهمني حتى مالت بي عصمة الله فغير بعيد أن يستهوي من بعدي. وكان عبد الملك من الرأي والعلم بموضع. (232)

²³⁰ (الكامل في اللغة و الأدب ، 2 / 119)

²³¹ (الأرب: البصر بالأمور، والدهى، مصدر دهى، كرضي، إذ كان صاحبه عاقلاً مجرباً.

²³² (الكامل في اللغة و الأدب ، 3 / 170)

صديق عبد الملك بن مروان

عن حماد بن سلمة : أن عبد الملك كان له صديق، وكان من أهل الكتاب، يقال له يوسف، فأسلم، فقال له عبد الملك يوماً، وهو في عنقوان نسكه، وقد مضت جيوش يزيد بن معاوية مع مسلم بن عقبة المري، من مرة غطفان، تريد المدينة ألا ترى خيل عدو الله قاصدة لحرم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال له يوسف: جيشك والله إلى حرم رسول الله أعظم من جيشه، فنفض عبد الملك ثوبه ثم قال: معاذ الله! قال له يوسف: ما قلت شاكاً ولا مرتاباً، وإني لأجذك بجميع أوصافك. قال له عبد الملك: ثم ماذا؟ قال: ثم يتداولها رهطك. قال: إلى متى؟ قال: إلى أن تخرج الرايات السود من خراسان.⁽²³³⁾

هكذا العرب تقتتل بينها

قيل: ولما تشاغل عبد الملك بن مروان بمقاتلة مصعب بن الزبير اجتمع وجوه الروم إلى ملكهم وقالوا له: قد أمكنتك الفرصة من العرب فقد تشاغل بعضهم ببعض ووقع بأسهم بينهم فالرأي أن تغزوهم في بلادهم فإنك تذلهم وتنال حاجتك منهم، فنهاهم عن ذلك فأبوا عليه إلا أن يفعل، فلما رأى ذلك دعا بكلبين فأرّش بينهما فاقتتلا قتالاً شديداً ثم دعا بثعلب فخلّاه بينهما، فلما رأى الكلبان الثعلب تركا ما كانا فيه وأقبلوا على الثعلب حتى قتلاه، فقال ملك الروم: هكذا العرب تقتتل بينها فإذا رأونا وهم مجتمعون تركوا ذلك وأقبلوا علينا، فعرفوا صدقه ورجعوا عما كانوا عليه.

أرسول أمير المؤمنين أنت؟

قال: وكتب عبد الملك بن مروان إلى عمر بن محمد صاحب البلقاء أن اخطب عليّ الشقراء بنت شبيب بن عوانة الطائنية وهو يومئذ في بادية له ومعه عدة من أصحابه. فأرسل إليه عمر: إن أمير المؤمنين كتب إليّ أن أخطب عليه الشقراء ابنتك فاحضر فارسل إليه. فقال: ما لنا إليكم حاجة، فإن كانت لأمر المؤمنين إلينا حاجة فليأت أو يرسل رسولاً. فقال عمر: سيروا بنا إليه. فسار في جماعة من وجوه البلقاء. قال: فدفعنا إلى أعرابي بفناء خيمته فسلمنا فرد السلام، وتكلم عمر فقال الأعرابي: أرسول أمير المؤمنين أنت؟ قال: نعم، قال: فإننا قد زوجناه على صداق نساننا مائة من الإبل وما يتبعها من الثياب

²³³ (محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى : 285هـ) ، الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي - القاهرة ، الطبعة الثالثة 1417 هـ - 1997 م ، 1 /

والخدم. فقلت: نعم. ثم جاءنا بثلاث جفان من كسور خبز ولبن فأكلنا ثم انصرفنا، فكتبت إلى عبد الملك بن مروان فأرسل إليه بمائة من الإبل وعشرة آلاف درهم وما يتبع ذلك من الطيب والخدم والأثاث. فجهزها ثم حملها إلى عبد الملك وما معها من ذلك شيء إلا البعير الذي ركبته ومعها نسوة من بنات عمها. فلما وافت عبد الملك أمر فأدخلت إلى دار فأقامت أياماً ثم إن عبد الملك بنى بها فكان كثيراً ما يقول: ما رأيت مثل هذه الأعرابية ظرفاً وخلقاً ومنطقاً.

فاشتد ذلك على عاتكة بنت يزيد بن معاوية فأرسلت إلى روح بن زنباع، وكان من أخص الناس بعبد الملك، فقالت: يا أبا زرعة قد علمت رأي أمير المؤمنين معاوية كان فيك ورأي يزيد من بعده وأن أمير المؤمنين قد أعجبه أمر هذه الأعرابية وغلبت على قلبه فشأنك في إفساد ذلك عنده. قال: نعم ونعمة عين. ثم خلا بعبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين كيف ترى الأعرابية؟ قال: قد جمعت ما جمع النساء الحاضرة والبادية. قال: يا أمير المؤمنين إنك من الأعرابية كما قال الأول:

وإذا تسرك من تميم خلّة ... فلما يسوءك من تميم أكثر
فقال له: لا تقل ذلك، قال: كأنك بها قد حالت إلى غير ما هي عليه.
فكثر ذلك منه. ثم إن عبد الملك دخل عليها فقال: يا شقراء أعلمت أن روحاً قال لي كذا وكذا؟ قالت: ولم ذاك وحال عشيرتي وعشيرته كما تعلم؟ قال: هو علي ما قلت لك وإن أحببت أسمعك ذلك منه! فقالت: قد أحببت.
فأمرها أن تجلس خلف الستر وأرسل إلى روح، فلما دخل عليه قال: هيه يا أبا زرعة والله لقد وقع كلامك مني موقعاً! قال: نعم يا أمير المؤمنين إن الأعرابية تنتكث كانتكاث الحبل ثم لا تدري ما أنت عليه منها. فعجّلت ورفعت الستر وقالت: أنت فلا حياك الله ولا وصل رحمك قد كان يبلغني هذا عنك فما كنت أصدق! فوثب روح وقال: يا هذه إن هذا أرسل إليّ فأعلمني أنك خلف الستر وعزم عليّ أن أتكلم بهذا فلم أجد بداً من أبرّ عزمته، وأما أنت فلا يسوءك الله! قالت: صدق والله ابن عمي وأنت الذي حملته على ما قال. فقال عبد الملك: ويلك يا شقراء ألا تقبلي منه! قالت: هو عندي أصدق منك. وجعل روح يقول وهو مولٍ: هو والله الحق كما أقول. فخرج ووقع الكلام بينهما.⁽²³⁴⁾

وله علي ما يتمناه

ومن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء ما حكى أن عبد الملك بن مروان جلس يوما وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته فقال أيكم يأتياني بحروف المعجم في بدنه وله علي ما يتمناه فقام إليه سويد بن غفلة فقال أنا لها يا أمير المؤمنين قال هات فقال نعم يا أمير المؤمنين أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلق خد دماغ ذكر رقبة زند ساق شفة صدر ضلع طحال ظهر عين غيب فم قفا كف لسان منخر نغوغ هامة وجه يد وهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين فضحك عبد الملك وقال لسويد أسمعت ما قال قال أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثا فقال هات ولك ما تتمناه فابتدأ يقول انف أسنان أذن بطن بنصر بزة ترقوة تمررة تينة ثغر ثنايا ثدي جمجمة جنب جبهة حلق حنك حاجب خد خنصر خاصرة دبر دماغ درادير ذقن ذكر ذراع رقبة رأس ركبة زند زردمة زب فهناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه ساق سررة سبابة شفة شفر شارب صدر صدع صلعة ضلع ضفيرة ضرس طحال طرة طرف ظهر ظفر ظلم عين عنق عاتق غيب غلصمة غنة فم فك فؤاد قلب قفا قدم كف كتف كعب لسان لحية لوح منخر مرفق منكب نغوغ ناب نن هامة هيئة هيف وجه وجنة ورك يمين يسار يافوخ ثم نهض مسرعا فقبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين قال فعندها ضحك عبد الملك وقال والله ما تزيدنا عليها شيئا أعطوه ما يتمناه ثم أجازته وأنعم عليه وبالع في الإحسان إليه .

أما والله لأودبنكم أدبا غير هذا الأدب

وحكى عن عبد الملك بن عمير أنه قال لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولي النجدة من جنده وقال أيها الناس إن العراق كدر ماؤها وكثر غوغاؤها وأملولح عذبتها وعظم خطبها وظهر ضرامها وعسر أحماد نيرانها فهل من ممهد لهم بسيف قاطع وذهن جامع وقلب ذكي وأنف حمي فيخمد نيرانها ويردع غيلانها وينصف مظلومها ويداوي الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد وتأمين العباد فسكت القوم ولم يتكلم أحد فقام الحجاج وقال يا أمير المؤمنين أنا للعراق قال ومن أنت لله أبوك قال أنا الليث الضمضام والهزبر الهشام أنا الحجاج بن يوسف قال ومن أين قال من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف قال أجلس لا أم لك فلست هناك ثم قال مالي أرى الرؤوس مطرقة والألسن معتقلة

فلم يجبه أحد فقام إليه الحجاج وقال أنا مجندل الفساق ومطفىء نار النفاق قال ومن انت قال أنا قاصم الظلمة ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة آفة الكفر والريبة قال إليك عني وذاك فلست هناك ثم قال من للعراق فسكت القوم وقام الحجاج وقال انا للعراق فقال إذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة فما آيتك وما علامتك قال العقوبة والعفو والاقتدار والبسط والازورار والادناء والابعاد والجفاء والبر والتأهب والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيبوب فمن جادلني قطعته ومن نازعني قصمته ومن خالفني نزعته ومن دنا مني أكرمته ومن طلب الأمان أعطيته ومن سارع إلى الطاعة بجلته فهذه آيتي وعلامتي وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني فان كنت للأعناق قطاعا وللأموال جماعا وللأرواح نزاعا ولك في الأشياء نفاعا وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين فان الناس كثير ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل فقال عبد الملك أنت لها فما الذي تحتاج إليه قال قليل من الجند والمال فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال هييء له من الجند شهوته وألزمهم طاعته وحذرهم مخالفته ثم دعا الخازن فأمره بمثل ذلك فخرج الحجاج قاصدا نحو العراق قال عبد الملك بن عمير فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذا أتانا آت فقال هذا الحجاج قدم أميرا على العراق فتناولت الأعناق نحوه وأفرجوا له عن صحن المسجد فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء متلثما بها ثم صعد المنبر فلم يتكلم كلمة واحدة ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة وهيئة جميلة فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخز والديباج قال وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابئ التميمي فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له أسبه لكم قال اكفف حتى نسمع ما يقول فأبى ابن صابئ وقال لعن الله بني أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق وضع الله العراق حيث يكون هذا أميرها فوالله لو دام هذا أميرا كما هو ما كان بشيء والحجاج ساكت ينظر يمينا وشمالا فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال هل اجتمعتم فلم يزد عليه أحد شيئا فقال إني لا أعرف قدر اجتماعكم فهل اجتمعتم فقال رجل من القوم قد اجتمعنا أصلح الله الأمير فكشف عن لثامه ونهض قائما فكان أول شيء نطق به أن قال والله إني لأرى رؤسا أئبعت وقد حان قطافها وإني لصاحبها واني لأرى الدماء تفرق بين العمائم واللحي والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نشر كنانة بين يديه فعجم

عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أثرتم الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأنكلن بكم في البلاد ولأجعلنكم مثلاً في كل واد ولأضربنكم ضرب غرائب الابل وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت ولا أعزم إلا أمضيت فايي وهذه الزرافات والجماعات وقيل وقال وكان ويكون يا أهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرى من ربها فاستوثقوا واستقيموا واعملوا ولا تميلوا وتابعوا وبايعوا واجتمعوا واستمعوا فليس مني الاهدار والاكثر إنما هو هذا السيف ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمر المؤمنين صعبكم ويقيم له أودكم ثم إني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة ووجدت الكذب مع الفجور ووجدت الفجور في النار وقد وجهني أمير المؤمنين إليكم وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب ابن أبي صفرة وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه يا غلام اقرأ كتاب أمير المؤمنين فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يرد أحد شيئاً فقال الحجاج اكفف يا غلام ثم أقبل على الناس فقال أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئاً عليه هذا أدبكم الذي تأدبتم به أما والله لأودبنكم أدبا غير هذا الأدب اقرأ يا غلام فقرأ حتى بلغ قوله سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال وعلى أمير المؤمنين السلام ثم نزل بعدما فرغ من خطبته وقراءته ووضع للناس عطاياهم فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش فقال أيها الأمير إني على الضعف كما ترى ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار أفقبله بديلاً مني فقال نقبله أيها الشيخ فلما ولي قال له قائل أتدري من هذا أيها الأمير قال لا قال هذا ابن صابئ الذي يقول (هممت ولم افعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلاله) ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضي الله عنه وهو مقتول فوطئ في بطنه فكسر ضلعين من أضلعه فقال الحجاج ردوه فلما ردوه قال له الحجاج أنت الفاعل بأمر المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار إن في قتلك أيها الشيخ إصلاحاً للمسلمين يا سياف اضرب عنقه فاضرب عنقه وكان من أمره بعد ذلك ما عرف و سطر . (235)

ومن حكايات الحجاج ما حكى أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق عليه وكتب إليه أما بعد فقد بلغني عنك أسراف في الدماء وتبذير في العطاء وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية وفي العمد بالقود وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها ثم تعمل فيها برأيي فإنما هو مال الله تعالى ونحن أمناءه فإن كنت أردت الناس لي فما أغناني عنهم وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم وسيأتيك عني أمران لين وشدة فلا يؤمننك إلا الطاعة ولا يوحشئك إلا المعصية وإذا أعطاك الله عز وجل الظفر فلا تقتلن جانحا ولا أسيرا وكتب في أسفل الكتاب

(إذا أنت لم تترك أمورا كرهتها ... وتطلب رضائي بالذي أنا طالبه)
(فإن ترمني غفلة قرشية ... فيا ربما قد غص بالماء شارب)
(وأن ترمني وثبة أموية ... فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه)
(فلا تأمنني والحوادث جمة ... فإنك تجزي بالذي أنت كاسبه)
(فلا تعد ما يأتيك مني وإن تعد ... يقمن به يوما عليك نوادبه)
(فلا تمنعن الناس حقا علمته ... ولا تعطين ما ليس للناس واجبه)
(فإنك أن تعطي الحقوق فإنما ... النوافل شيء لا يثيبك واهبه)
فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين أما بعد فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافي وتبذيري في الأموال ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ولا قضيت حقوق أهل الطاعة فإن كان قتلي العصاة إسرافا وإعطائي المطيعين تبذيرا فليمض لي أمير المؤمنين ما سلف والله ما أصبت القوم خطأ فأوديهم ولا ظلمتهم عمدا فأقاديهم ولا قتلت إلا لك ولا أعطيت إلا فيك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وكتب في أسفل الكتاب
(إذا أنا لا أبغي رضاك وأتقي ... أذاك فليلي لا توارى كواكبه)
(وما لامرئ بعد الخليفة جنة ... تقيه من الأمر الذي هو راكبه)
(إذا قارف الحجاج فيك خطيئة ... لقامت عليه بالصباح نوادبه)
(إذا أنا لم أدن الشفيق لنصح ... واقص الذي تسري إلي عقاربه)
(وأعط المواسي في البلاء عطية ... لرد الذي ضاقت علي مذاهبه)
(فمن يتقي بؤسي ويرجو مودتي ... ويخشى غدا والدهر جم نوائبه)
(وأمرني إليك اليوم ما قلت قلته ... وما لم تقله لم أقل ما يقاربه)
(ومهما أردت اليوم مني أردته ... وما لم ترده اليوم إني مجانبه)
(وقف بي على حد الرضا لا أجوزه ... مدى الدهر حتى يرجع الدرحالبه)

(وإلا فدعني والأمور فإنني ... شفيق رفيق أحكمته تجاربه) (236)
صف لي الفتنة حتى كأني أراها رأي العين.

- كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج: صف لي الفتنة حتى كأني أراها رأي العين. فكتب إليه: لو كنت شاعراً لوصفتها لك في شعري، ولكني أصفها لك بمبلغ رأيي وعلمي، الفتنة تلقح بالنجوى، وتنتج بالشكوى، فلما قرأ كتابه، قال: إن ذلك لكما وصفت، فخذ من قبلك بالجماعة، وأعطهم عطايا الفرقة، واستعن عليهم بالفاقة، فإنها نعم العون على الطاعة، فأخبر بذلك أبو جعفر المنصور فلم يزل عليه حتى مضى لسبيله.

- قال عبد الملك بن مروان: لقد كنت أمشي في الزرع فأتقي الجندب أن أقتله، وإن الحجاج اليوم ليكتب إليّ بقتل فئام من الناس فما أحفل بذلك.
فما صنعت يا شعبي؟

دخل الشعبي على عبد الملك بن مروان، فقال له: يا شعبي! بلغني أنه اختصم إليك رجل وامرأته، فقضيت للمرأة على زوجها، فقال فيك شعراً، فأخبرني بقصتيهما وأنشدني الشعر إن كنت سمعته. فقال: يا أمير المؤمنين! لا تسألني عن ذلك. فقال: عزمت عليك لتخبرني. قال: نعم، اختصمت إلى امرأة وبعلها، فقضيت للمرأة إذ توجه لها القضاء، فقام الرجل وهو يقول:

فُتِنَ الشَّعْبِيُّ لَمَّا ... رَفَعَ الطَّرْفَ إِلَيْهَا

بِفَتَاةٍ حِينَ قَامَتْ ... رَفَعَتْ مَأْكَمَتَيْهَا

وَمَشَتْ مَشْيًا رَوِيدًا ... ثُمَّ هَزَّتْ مِنْكِبَيْهَا

فَتَنَّتْهُ بِقَوَامٍ ... وَبَخَطَى حَاجِبَيْهَا

وَبَنَانٍ كَالْمَدَارِيِّ ... وَاسْوَدَّادِ مُقْلَتَيْهَا

قَالَ لِلْجُلُوزِ قَرَّبَ ... هَاوَأْخَضَرَ شَاهِدِيهَا

فَقَضَى جَوْرًا عَلَيْنَا ... ثُمَّ لَمْ يَقْضِ عَلَيْهَا

كَيْفَ لَوْ أَبْصَرَ مِنْهَا ... نَحْرَهَا أَوْ سَاعِدِيهَا

لَصَبَا حَتَّى تَرَاهُ ... سَاجِدًا بَيْنَ يَدَيْهَا

بِنْتُ عَيْسَى بْنِ حَرَادٍ ... ظَلَمَ الْخَصْمُ لَدَيْهَا

قال عبد الملك: فما صنعت يا شعبي؟ قال: أوجعت ظهره حين جورني في شعره.

وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَحْكُمَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ

ضرب عبد الملك بن مروان بعثاً إلى اليمن، فأقاموا سنين، جنى إذا كان ذات ليلة وهو بدمشق، قال: والله لأعسن الليلة مدينة دمشق، ولأسمعن ما يقول الناس في البعث الذي غربت فيه رجالهم، وغرمت فيه أموالهم. فبينما هو في بعض أزقتها إذا هو بصوت امرأة قائمة تصلي، فتسمع إليها، فلما انصرفت إلى مضجعها قالت: اللهم يا غليظ الحجب، ويا منزل الكتب، ويا معطي الرغب، ويا مؤدي الغرب. أسألك أن ترد غائبتي، فتكشف به همي، وتصفني به لذتي، وتقر به عيني، وأسألك أن تحكم بيني وبين عبد الملك بن مروان الذي فعل بي هذا، فقد صير الرجل نازحاً عن وطنه، والمرأة مقلقة على فراشها، ثم أنشأت تقول:

تطاول هذا الليلُ فالعينُ تدمعُ ... وأرقني حُزني وقلبي مَوْجَعُ
فبتَ أقاسي الليلَ أرعى نجومَه ... وبات فؤادي هامداً يتفزعُ
إذا غابَ منها كوكبٌ في مغيبه ... لمحتُ بعيني آخراً حين يطلعُ
إذا ما تذكرتُ الذي كان بيننا ... وجدتُ فؤادي للهوى يتقطعُ
وكلُّ حبيبٍ ذاكرٌ لحبيبه ... يرجي لقاءه كلَّ يومٍ ويطمعُ
فذا العرشُ فرج ما ترى من صبابتي ... فانت الذي ترعى أموري وتسمعُ
دعوتك في السراءِ والضُرِّ دعوةً ... على غلة بين الشراشيف تلدعُ
فقال عبد الملك لحاجبه: تعرف لمن هذا المنزل؟ قال: نعم، هذا منزل زيد بن سنان. قال: فما المرأة منه؟ قال: زوجته. فلما أصبح سأل كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالوا: ستة أشهر. فأمر ألا يمكث العسكر أكثر من ثلاثة أشهر. (237).

بي فضل

دعا عبد الملك بن مروان رجلاً إلى غدائه، فقال له قد تغديت. قال عبد الملك: ما أقبح بالرجل أن يأكل حتى لا تكون فيه بقية للطعام! فقال: يا أمير المؤمنين! بي فضل، ولكني كرهت أن أكل فأصير إلى ما استقبح أمير المؤمنين. (238)

237 (ابن عبد البر ، بهجة المجالس وأنس المجالس ، 1 / 6 ، 72 ، 73 ، 97 ، 178 ، 183 ، 189 ، 212 ، 228)

238 (ابن عبد البر ، بهجة المجالس وأنس المجالس ، 1 / 6 ، 72 ، 73 ، 97 ، 178 ، 183 ، 189 ، 212 ، 228)

أَشْبَهُ بِهِ مِنَ التَّمْرَةِ بِالتَّمْرَةِ

في هذا حديث وذلك أن عبيد الله ابن زياد بن ظبيان أحد بني تميم اللات بن ثعلبة دخل على عبد الملك بن مروان وكان أحد فُتَّاك العرب في الإسلام وهو الذي احتزَّ رأس مُصْعَب بن الزبير فدخل به على عبد الملك بن مروان وألقاه بين يديه فسجد عبد الملك وكان عبيد الله هذا يقول بعد ذلك : ما رأيت أعجز مني أن لا أكون قتلتُ عبد الملك فأكون قد جمعتُ بين قتلي ملك العراق وملك الشام في يوم واحد وكان يجلس مع عبد الملك على سريره بعد قتله مُصْعَب بن الزبير فبرم به . فجعل له كرسيًا يجلس عليه فدخل يوماً وسويد بن منجوف السدوسي جالس على السرير مع عبد الملك فجلس على الكرسي مُغضبًا فقال له عبد الملك : يا عبيد الله بلغني أنك لا تشبه أباك فقال : لأنَّ أشبه بأبي من التمرة بالتمرّة والبيضة بالبيضة والماء بالماء ولكني أخبرك يا أمير المؤمنين عمّن لم تنضجه الأرحام ولا وُلِدَ لتَمَام ولا أشبه الأخوال والأعمام قال : ومن ذلك ؟ قال : سويد بن منجوف فقال عبد الملك : سويدُ أكذلك أنت ؟ فقال : إنه ليقال ذلك وإنما عرّض بعبد الملك لأنه وُلِدَ لسبعة أشهر فلما خرجا قال له عبيد الله : والله يا ابن عمي ما يسُرُّني بحلمك عليّ حمر النعم فقال له سويد : وأنا والله ما يسرني بجوابك إياه سوّد النعم . (239)

وَأَصْبَرُ مِنْ ذِي ضَاغِطٍ مُعَرِّكٍ

قال محمد بن حبيب : كان من حديث هذين المثليين أن كلباً أوقعَ ببني فزارة يوم . العاه قبل اجتماع الناس على عبد الملك بن مروان فبلغ ذلك عبد العزيز بن مروان فأظهر الشماتة وكانت أمه كلبية وهي ليلي بنت الأصبع بن زبان . وأم بشر بن مروان قطبة بنت بشر بن عامر بن مالك بن جعفر فقال عبد العزيز لبشر أخيه : أما علمت ما فعل أخوالي بأخوالك ؟ قال بشر : وما فعلوا ؟ فأخبره الخبر فقال : أخوالك أضيقُ أسْتَاهَاً من ذلك فجاء وفدُ بني فزارة إلى عبد الملك يخبرونه بما صنّع بهم وأن حريث بن بجدل الكلبى أتاهم بعهد من عبد الملك أنه مصدق فسمعوا له وأطاعوا فاعْتَرَّهم فقتل منهم نيفًا وخمسين رجلاً فأعطاهم عبد الملك نصف الحَمَالَات وضمّن لهم النصف الباقي في العام المقبل فخرجوا ودس إليهم بشر ابن مروان مالا فاشتروا السلاح والكراع ثم اغتروا كلبا ببني فزارة فلَقَوْهم ببَنَات قَيْن فتعدّوا عليهم في القتل فخرج بشر حتى أتى عبد الملك وعنده عبد العزيز بن مروان فقال : أما بلغك ما فعل

أخوالي بأخوالك ؟ فأخبره الخبر فغضب عبد الملك لإخفارهم ذمته وأخذهم ماله وكتب إلى الحجاج يأمره إذا فرغ من أمر ابن الزبير أن يوقع ببني فزارة إن امتنعوا ويأخذ من أصاب منهم فلما فرغ الحجاج من أمر ابن الزبير نزل ببني فزارة فأتاهم حلحلة ابن قيس بن أشيم وسعيد بن أبان بن عيينة ابن حصن بن حذيفة بن بدر وكانا رئيسي القوم فأخبرا الحجاج أنهما صاحبا الأمر ولا ذنب لغيرهما فأوثقهما وبعث بهما إلى عبد الملك فلما أدخل عليه قال : الحمد لله الذي أقاد منكما قال حلحلة : أما والله ما أقادمني ولقد نقضت وثرى وشفيت صدري وبردت وحرى قال عبد الملك : من كان له عند هذين وتر يطلبه فليقم إليهما فقام سفيان بن سويد الكلبى - وكان أبوه فيمنقتل يوم بنات قين - فقال : يا حلحلة هل حسنت لي سويدا قال : عهدي به يوم بنات قين وقد انقطع خروؤه في بطنه قال : أما والله لأقتلك قال : كذبت والله ما أنت تقتلني وإنما يقتلني ابن الزرقاء والزرقاء إحدى أمهات مروان بن الحكم وكانت لها راية وكانوا يسبون بالزرقاء فقال بشر : صبرا حلحل فقال : إي والله

أصبر من عود بجنبه جلب ... قد أثر البطان فيه والحقب
ثم التفت إلى ابن سويد فقال : يا ابن استها أجد الضربة فقد وقعت مني بأبيك ضربة أسلحتة فضرب عنقه ثم قيل لسعيد نحو ما قيل لحلحلة فردّ مثل جواب حلحلة فقام إليه رجل من بني عليم ليقتله فقال له بشر : اصبر فقال :
أصبر من ذي ضاغط معرك ... ألقى بواني زوره للمبرك
ويروى " من ذي ضاغط عركك " وهو البعير الغليظ القوي والضاغط :
الورم في إبط البعير شبه الكيس يضغظه أي يضيقه ويقال " فلان جيد البواني " إذا كان جيد القوائم والأكتاف . (240)

عبد الملك والغلام العاشق

عن أبي ريحانة أحد حجاب عبد الملك بن مروان قال : كان عبد الملك يجلس في كل أسبوع يومين جلوساً عاماً، فبينما هو جالس في مستشرف له، وقد أدخلت عليه القصص، إذ وقعت في يده قصة غير مترجمة، فيها : إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر جاريته فلانة تغني ثلثة أصوات ثم ينفذ في ما شاء من حكمه. فاستشاط من ذلك غضباً، وقال : يا رباح علي بصاحب هذه القصة.

(240) أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، 1 / 119 ،

فخرج الناس جميعاً، وأدخل عليه غلام من أجمل الفتيان وأحسنهم، فقال له عبد الملك: يا غلام! أهذه قصتك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! قال: وما الذي غرك مني؟ والله لأمثلن بك، ولأردعن بك نظراءك من أهل الخسارة. علي بالجارية! فجيء بها كأنها فلقة قمر، وببيدها عود، فطرح لها الكرسي، فجلست، فقال عبد الملك: مرها يا غلام! فقال لها: غنيني يا جارية بشعر قيس بن ذريح:

لَقَدْ كُنْتُ حَسْبَ النَّفْسِ لَوْ دَامَ وَدُنَا، ... وَلَكِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاعٌ غُرُورٍ
وَكُنَّا جَمِيعاً قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ الْهَوَى ... بِأَنْعَمِ حَالِي غِبْطَةً وَسُرُورٍ
فَمَا بَرَحَ الْوَاشُونَ حَتَّى بَدَتْ لَنَا ... بَطُونُ الْهَوَى مَقْلُوبَةً لَظْهُورٍ
فغنت، فخرج الغلام بجميع ما كان عليه من الثياب تخريقاً، ثم قال له عبد الملك: مرها تغنك الصوت الثاني! فقال: غنيني بشعر جميل:
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً ... بِوَادِي الْقَرْيِ إِنِّي إِذَا لَسَعِيدُ
إِذَا قُلْتُ مَا بِي يَا بُثَيْنَةَ قَاتِلِي ... مِنَ الْحُبِّ قَالَتْ: ثَابِتٌ وَيَزِيدُ
وَإِنْ قُلْتُ رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعْشَ بِهِ ... مَعَ النَّاسِ قَالَتْ: ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ
فَلَا أَنَا مَرْدُودٌ بِمَا جِئْتُ طَالِباً، ... وَلَا حُبُّهَا فِيمَا يَبِيدُ يَبِيدُ
يَمُوتُ الْهَوَى مِنِّي إِذَا مَا لَقَيْتُهَا، ... وَيَحْيَا إِذَا فَارَقْتُهَا، فَيَعُودُ
قال: فغنته الجارية، فسقط الغلام مغشياً عليه ساعة، ثم أفاق، فقال له عبد الملك: مرها فلتغنك الصوت الثالث! فقال: يا جارية غنيني بشعر قيس بن الملوح المجنون:

وَفِي الْجَبْرِ الْغَادِينَ مِنْ بَطْنِ وَجْرَةٍ ... غَزَالٌ غَضِيضُ الْمُقْلَتَيْنِ رَبِيبُ
فَلَا تَحْسَبِي أَنَّ الْغَرِيبَ الَّذِي نَأَى ... وَلَكِنَّ مَنْ تَنَأَيْنَ عَنْهُ غَرِيبُ
فغنته الجارية، فطرح الغلام نفسه من المستشرف فلم يصل إلى الأرض حتى تقطع، فقال عبد الملك: ويحه لقد عجل على نفسه، ولقد كان تقديري فيه غير الذي فعل، وأمر، فأخرجت الجارية من قصره، ثم سأل عن الغلام، فقالوا: غريب لا يعرف إلا أنه منذ ثلاث ينادي في الأسواق ويده على رأسه: غداً يكثرُ الباكون منَّا ومنكم، ... وَتَزْدَادُ دَارِي مِنْ دِيَارِكُمْ بُعْدًا (241)
وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون

خطب عبد الملك بن مروان، فلما انتهى إلى موضع العظة من خطبته قام إليه رجل من آل صوحان فقال: مهلاً مهلاً، إنكم تأمرون ولا تأتمرون، وتنهون ولا تنتهون، وتعظون ولا تتعظون، أفنقتدي بسيركم في أنفسكم، أم نطيع

أمركم بالسنتكم؟ فإن قلتم: اقتدوا بسيرتنا فأني وكيف، وما الحجة، وأين النصر من الله عز وجل في الاقتداء بسيرة الظلمة الخونة الذين اتخذوا مال الله دولا، وعباده خولا؟ وإن قلتم: أطيعوا أمرنا، واقبلوا نصيحتنا، فكيف ينصح غيره من يغش نفسه؟ وكيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عدالته؟ وإن قلتم: خذوا الحكمة حيث وجدتموها، واقبلوا العظة ممن سمعتموها، فعلام قلدناكم أزمة أمورنا، وحكمناكم في دماننا وأموالنا وأدياننا؟ وما تعلمون أن فينا من هو أفصح بصنوف اللغات، وأعرف بوجوه الكلام منكم، فتحلحلو لهم عنها، وإلا فأطلقوا عقالها، وخلّوا سبيلها، يبتدر إليها من شردتموهم في البلاد، وقتلتموهم في كل واد؛ وأما لئن ثبتت في أيديكم لاستيفاء المدة، وبلوغ الغاية، وعظم المحنة، إن لكل قائم يوما لا يعدوه، وكتاباً يتلوه " لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها " " وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " .

لا يتكلم أحدٌ بأعراب؟

قال محمد بن شهاب الزهري: كنت عند عبد الملك بن مروان فدخل عليه رجل حسن الفصاحة، فقال له عبد الملك: كم عطاؤك؟ قال: مائتا دينار، قال: في كم ديونك؟ قال: في مائتي دينار، قال: أما علمت أنني أمرت أن لا يتكلم أحدٌ بأعراب؟ قال: ما علمت ذلك، قال: أمن العرب أنت أم من الموالي؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن تكن العربية أبا فلست منها، وإن تكن لساناً فأني منها، قال: صدقت، قال الله تعالى: " بيلسان عربي مبين " .

حقيق بأن لا يقرّ على عمل.

استوفد عبد الملك بن مروان عاملاً بلغه أنّه قبل هديّة فقال له: أقبلت هديّة؟ قال: يا أمير المؤمنين، بلادك عامرة، ورعيّتك راضية، فقال: أجب عما تسأل عنه، قال: نعم، فقال عبد الملك: أما والله لئن كنت قبلت هديّة كافأت صاحبها بأن وليّته من عملنا ما لم تكن لتوليّه لولا هديّته إنك للنّيم، وإن كنت قبلتها ولم تعوّضه منها إنك لخائنٌ حسود، وإن كنت أعطيته مثل ما أخذت وأطعمت في نفسك رعيّتك وعرضتها لخليفتك إنك لأحمق، ومن أتى شيئاً لا يخلو فيه من حمقٍ أو لوْمٍ أو خيانةٍ حقيقٌ بأن لا يقرّ على عمل.

حسنة بين سيئتين

قال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز وهو صبي: كيف نفقتك على عيالك؟ فقال: حسنة بين سيئتين، فقال لمن حوله: أخذه من قول الله تعالى " والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً " الفرقان: 67.

أراك يا أمير المؤمنين ذاكرًا ما قلت؟

قال مالك بن عماره: كنت ربما جالست عبد الملك بن مروان وقبيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير في ظل الكعبة أيام الموسم، فنخوض مرة في الفقه ومرة في المذاكرة ومرة في أخبار الناس وأشعار العرب، فكنت لا أجد عند أحد ما أجد عند عبد الملك، من اتساعه في المعرفة، وتصرفه في فنون العلم، وحسن استماعه إذا حدث، وحلاوته إذا حدث؛ قال: فتفرق أصحابنا ذات ليلة وبقيت أنا وهو، فقلت: والله إني بك لمسرور لما أرى من كثرة تصرفك، وحسن حديثك، وإقبالك على جليسك، فقال لي: إنك إن تعش قليلاً فسوف ترى العيون إلي طامحة، والأعناق إلي قاصره، فإذا كان ذلك فلا عليك أن تعمل إلى فلا ملآن يديك فلما أفضت الخلافة إليه أتيته فكان أول ما وقعت عينه علي وهو على المنبر، كشر في وجهي وبسر، فقلت: لم يثبتني معرفة، أو عرفني فأظهر لي نكره، لكني لم أبرح من مكاني حتى قضى الصلاة ودخل المقصورة، فلم يلبث إلا ريثما دخل إذ خرج آذانه فقال: أين مالك بن عماره قلت ها أنا ذا فأخذنا بيدي فادخلني إليه فلما رأيته مد يده إلي ثم قال: تراءيت في موضع لم يجز فيه إلا ما رأيته من الإعراض والانقباض، فأما الآن فحي هلا بك، كيف كنت بعدي وكيف كان مسيرك؟ قلت: خير، وعلى ما يحب أمير المؤمنين، فقال: أتذكر ما كنت قلت لك؟ قلت: أجل، هو أعملني إليك يا أمير المؤمنين، قال: والله ما هو ميراث ادعيناه، ولكني أخبرك عن نفسي بشيء سميت بي إلى موضعي هذا: ما داهنت ذا ود ولا قرابة قط، ولا شمت بمصيبة عدو، ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهي، ولا قصدت لكبيرة من محارم الله تلذذاً بها ولا واثباً عليها، وكنت من عبد مناف في بيتها، ومن بيتها في واسطة قلاذتها، وكنت أرجو بهذه أن يرفع الله تعالى مني وقد فعل، ثم قال: يا غلام بونه منزلاً في منزلي، فأخذ الغلام بيدي وقال: انطلق، فكنت في أخفض حال وألين بال، حيث يسمع كلامي وأسمع كلامه، فإذا حضر طعامه أو قعد لأصحابه أتاني الغلام فقال: إن شئت صرت إلى أمير المؤمنين فإنه قاعد لبطانتته، فأمشي بلا حذاء ولا رداء، فيرفع من مجلسي، ويقبل علي ويحادثني ويسألني عن الحجاز مرة وعن العراق مرة، حتى إذا مضت عشرون ليلة، تعشيت في آخرها معه وقام من حضر، ونهضت لأقوم فقال: على رسلك أيها الرجل، فقعدت، فقال: أي الأمرين أحب إليك؟ المقام قبلنا، فلك النصفة في المحافظة والمخالطة والمعشرة، أم الشخوص فلك الحباء والكرامة؟ فقلت: خرجت من أهلي على أني زائر لأمر المؤمنين - أكرمه الله - وعائد إليهم،

فإن أمرني بالمقام اخترت فناءه على المال والأهل والولد، قال: بل أرى لك الرجوع إلى أهلك فإنهم متطلعون إلى قدومك، فتحدث بهم عهداً ويحدثون بك مثله، والخيار في زيارتنا والمقام فيهم إليك، وقد أمرت لك بعشرين ألف دينار وحملتك وكسوتك، أتراني ملأت يديك؟ فقلت: أراك يا أمير المؤمنين ذاكراً ما قلت؟ قال: أجل، ولا خير فيمن لا يذكر إذا وعد، ولا ينسى إذا أوعد، ودع إذا شئت صحبتك السلامة؛ قال: فودعته وقبضت المال وانصرفت، فكان آخر العهد به.⁽²⁴²⁾

أُتُعرف عبد الملك؟

انقطع عبد الملك بن مروان عن أصحابه فانتهى إلى أعرابي فقال له: أتعرف عبد الملك؟ قال: نعم جائر بائر، قال: ويحك، أنا عبد الملك بن مروان، قال: لا حياك الله ولا بياك ولا قربك، أكلت مال الله وضيعت حرمة، قال: ويلك أنا أضر وانفع، قال: لا رزقي الله نفعا، ولا دفع عني ضرر. فلما وصلت خيله قال: يا أمير المؤمنين، اكتم ما جرى فالمجالس بالأمانة.

ما يمنعني وأنا نجي أمير المؤمنين؟

دخل العجاج على عبد الملك بن مروان فقال له: يا عجاج، بلغني أنك لا تقدر على الهجاء، فقال: يا أمير المؤمنين، من قدر على تشييد الأبنية أمكنه تقويض الأخبية. قال: فما يمنعك منه؟ قال: إن لنا عزاً يمنعنا من أن نظلم، وإن لنا حلماص يردعنا عن أن نهضم، فعلام الهجاء؟ قال: لكلامك أشعر من شعرك، فأبي عز لك يمنعك من أن تظلم؟ قال: الأدب البارع والفهم الناصع. قال: فما الحلم الذي يردعك أن تظلم؟ قال: الأدب المستطرف والطبع التالد. قال: يا عجاج، قال: ما يمنعني وأنا نجي أمير المؤمنين؟ قال الحكم بن عبدل:

وإني لأستغني فما أبطر الغنى ... وأعرض ميسوري لمن يبتغي قرضي
وأعسر أحيانا فتشتد عسرتي ... فأدرك ميسور الغنى ومعني عرضي
ولست بذئ وجهين في من عرفته ... ولا البخل فاعلم من سمائي ولا أرضي
وفي ما يروى للوليد بن عبد الملك على أنه كان مشهوراً بالحن: من الكامل
ولقد قضيت وإن تجلل لمتي ... شيب على رغم العدا لذاتي
من كاعبات كالدمى ومناصف ... ومراكب للصيد والنشوات
في فتية تابى الهوان وجوهمهم ... شم الأنوف ججاج سادات
إن يطلبوا بتراتهم يعطوا بها ... أو يطلبوا لا يدركوا بترات

وقال أبو النجم العجلي:
والخيل تسبح بالكماة كأنها ... طير تمطر في ظلال عماء
يخرجن في رهج دوين ظلاله ... مثل الجنادب من حصى المعزاء
يلفظن من عجم الشكيم وعضه ... زبداً خلطن بياضه بدماء
كم من كريمة معشر أيمنها ... وتركن صاحبها بدار ثواء
إن الأعادي لن تنال قديمنا ... حتى تنال كواكب الجوزاء
كم في لجيم من أغر كأنه ... صبح يشق طيالس الظلماء
بحر يكلل بالسديف جفانه ... حتى يموت شمال كل شتاء
ومحرب خضل البنان إذا التقى ... زحف محاترة الصدور ظماء
إنا وجدك لا يكون سلاحنا ... حجر الأكام ولا عصا الطرفاء
نأوي إلى حلق الحديد وقرح ... قب تشوف نحو كل دعاء
تلکم مراكبنا وفوق كماتنا ... بيض الغضون سوابغ الأثناء
قدرن من حلق كأن شعاعها ... ثلج يطيش على متون نهاء
تحمي الرماح لنا حمانا كله ... ونبيح بعد مسارح الأحياء
إن السيوف تجيرنا ونجيرها ... كل يجير بعزة ووفاء

لسميت نفسي زينب

قال عبد الملك بن مروان لثابت بن الزبير: ما ثابت من الأسماء؟ لا باسم رجل ولا بامرأة، قال: يا أمير المؤمنين، لا ذنب لي، لو كان اسمي إلى لسميت نفسي زينب، يعرض بأبيه كان يعشق زينب بنت عبد الرحمن بن هشام، وخطبها فقالت: لا أوسخ نفسي بأبي الذبان.

حسبك ما فعلت

لئن بالمدينة رجل من أهل الكتاب يقال له يوسف، موصوف بقراءة الكتب. فلقي عبد الملك بن مروان، فقال له: إن بشرتك بشارة تسرك، ما تجعل لي؟ قال: وما مقدارها من السرور حتى يعلم مقدارها من الجعل؟ قال: أن تملك الأرض، قال: ما لي من مال، ولكن رأيت إن تكلفت لك جعلاً أتأتينني بذلك قبل وقته؟ قال: لا، قال: فإن حرمتك، أتؤخره عن وقته؟ قال: لا، قال: حسبك ما فعلت.

وخرج عن البهو وأمر بهدمه

قال عبد الملك بن عمير الليثي: دخلت على عبد الملك بن مروان وهو جالس في بهو على سرير وقد وضع بين يديه رأس مصعب بن الزبير. فلما رأيته

قلت متعجباً: لا إله إلا الله! لقد رأيت اليوم عجباً تذكرت به عجائب. قال: وما ذاك؟ قلت: رأيت عبيد الله بن زياد في هذا البهو جالسا على هذا السرير وبين يديه رأس الحسين بن علي عليه السلام، ثم دخلت بعد ذلك على المختار في هذا البهو فوجدته جالسا على هذا السرير وبين يديه رأس عبيد الله بن زياد، ثم دخلت على مصعب في هذا البهو وهو على هذا السرير وبين يديه رأس المختار، وقد دخلت عليك يا أمير المؤمنين في هذا البهو وأنت على هذا السرير وبين يديك رأس مصعب. فبادر عبد الملك ونزل عن السرير وخرج عن البهو وأمر بهدمه.⁽²⁴³⁾

ليتني كنت غالاً أعيش بما أكتسب يوماً بيوم

وقال سعيد بن بشر: إن عبد الملك بن مروان ليلة قبض قلق فسمع صوت قصار فقال: ما هذا؟ فأخبر، فقال حين ثقل: ليتني كنت غالاً أعيش بما أكتسب يوماً بيوم. فقيل لأبي حازم: إن عبد الملك قال كذا وكذا. فقال: الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه، ولا نتمنى ما هم فيه.⁽²⁴⁴⁾

والعود أحمد

و يحكى أن عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى قال يوماً لحاجبه: هات بدرة! فأتى بها، فوضعها بين يديه وقال لمن حضر من وجوه العرب: أيكم أنشدني صدر هذا البيت: والعود أحمد، فله هذه البدرة! فلم يكن فيهم من يعرفه. فقال للحاجب: اخرج وانظر من بالباب من العرب، وقل: من ينشدني صدر البيت: والعود أحمد، فله جائزة! فخرج الحاجب وقال ذلك. فقام فتى من القوم فقال: أنا. قال الحاجب: فأنشدني! قال: لا! إلا أن أشافه أمير المؤمنين. فدخل الحاجب فأخبره فقال عبد الملك: هذا رجل طال مقامه بالباب وله حاجة. والله لئن دخل عليّ ولم ينشدني لأعاقبه. أدخله! فلما دخل وسلم قال له عبد الملك أنشدنا صدر بيتنا! فقال: يا أمير المؤمنين، حاجتي! قال: وما هي؟ قال: بنو عم لي باعوا ضيعتهم بالسواد فأدخلوا ضيعتي في ضيعتهم فقال عبد الملك: فإن أمير المؤمنين قد رد عليك ضيعتك فأنشدنا صدر بيتنا! قال: نعم يا أمير المؤمنين! قالت تميم إنه بيتها. قال أوس بن حجر: جزينا بني شيبان صاعاً بصاعهم ... وعدنا بمثل البدء والعود أحمد

²⁴³ (ابن حمدون ،التذكرة الحمدونية ، 1 / 65 ، 787 ، 125 ، 142 ، 151 ، 330 ، 416 ، 2 /

498 ، 31/3 ، 111 ، 141 ،

²⁴⁴ (المبرد ، التعازي والمراثي ، ص 31 ، 57

قال: أخطأت! قال: يا أمير المؤمنين، أبلغني ريقي! قال: قد أبلغتك قال: قالت اليمن أنه بيتها. قال امرؤ القيس:

فإن كنت قد ساءتكم مني خليفة ... فعودي كما نهواك والعود أحمد
قال: أخطأت! قال: يا أمير المؤمنين، قالت ربيعة إنه بيتها. قال المرقش:
وأحسن فيما كان بيني وبينها ... و إن عاد بالإحسان فالعود أحمد
قال: أصبت، وإنك لطريف. فمن أنت؟ قال أنا زيد بن عمرو. قال: ممن؟ قال
من حي جانب عجرية قيس، وعننة تميم، وكسكة ربيعة وصأصة اليمن
وتأنيث كنانة: أنا امرؤ من عذرة. فأمر له بالبذرة.

أ كنت عرفته قبل اليوم؟

و يروى إن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال لعبد الملك بن مروان: أريد
إن تعطيني سيف أخي عبد الله بن الزبير. فقال له: هو بين السيوف ولا
أميزه. فقال: إذا أحضرت ميزته أنا. فأمر عبد الملك بن مروان بإحضاره. فلما
أحضره اخذ عروة سيفاً مفلول الحد وقال: هذا سيف أخي. فقال عبد الملك: أ
كنت عرفته قبل اليوم؟ قال: لا قال: فكيف عرفته؟ قال: عرفته بقول النابغة:
ولا عيب فيهم غير إن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

أذكي من إياس.

ولذكاء إياس وفراسته وفطنته أخبار عجيبة وحكايات غريبة. ومن أول ما
كان يعرف به من ذكائه إنه دخل الشام وهو صغير ونازع رجلاً في أمر
وقدمه إلى القاضي عبد الملك بن مروان، وكان القاضي يعرف الرجل فقال
لإياس: أما تستحي إن تقود شيخاً كبيراً؟ فقال: الحق أكبر منه! قال القاضي:
اسكت! قال إياس: فمن يتكلم بحجتي إذا سكت؟ فقال له القاضي ما أظنك تتكلم
بحق حتى تقوم. قال إياس: أشهد أن لا إله إلا الله وإن محمد رسول الله!
فوثب القاضي قائماً ودخل على عبد الملك فأخبره خبره. فقال له عبد الملك
أقض حاجته! وأصرفه عن الشام لا يفسد علينا الناس!

حتى قُتل عبد الرحمن

حكى أبو العباس المبرد في الكامل أن صاحب اليمن بعث إلى عبد الملك بن
مروان بجارية وكتب معها: إني وجهت إلى أمير المؤمنين بجارية اشتريتها
بمال عظيم ولم ير مثلاً. وكان ذلك وقت محاربتهم لابن الأشعث. فلما دخل
بالجارية على عبد الملك رأى وجهها جميلاً وخلقاً نبيلاً. فألقى إليها قضيباً كان
في يده فنكست لتأخذه فرأى من جسمها ما بهره. فلما هم بها أعلمه الآن أن

رسول الحجاج بالباب. فأذن له ونحى الجارية فأعطاه كتاباً من عبد الرحمن بن الأشعث فيه سطور أربعة:

سائل مجاور هل جنيت لهم ... حرباً تزيل بين الجيرة الخلط؟
وهل سموت بجرار له لجبٌ ... جم الصواهل بين الحم والفرط؟
وهل تركت نساء الحي ضاحيةً ... في ساحة الدار يستوفدن بالقنطِ
وتحته:

قتل الملوك وسار تحت لوائه ... شجر العرى وعراعر الأقوام
فكتب إليه عبد الملك كتاباً وجعل في طيه جواباً لابن الأشعث:
ما بال من أسعى لأجبر كسره ... حفاظاً وينوي من سفاهته كسري؟
أظن خطوب الدهر بيني وبينهم ... ستحملهم مني على مركبٍ وعِري
وإني وإياهم كمن نبة القطا ... و لو لم تنبه باتت الطير لا تسري
أناة وحلما وانتظاراً بهم غداً ... و ما أنا بالواني ولا الضارع الغمر
قال: ثم بات يقلب كف الجارية ويقول: ما أفدت فائدة أحب إلي منك! فتقول:
ما بالك يا أمير المؤمنين وما يمنعك؟ فقال: ما قاله الأخطل لأنني إن خرجت
منه كنت الأم العرب:

قومٌ إذا حاربوا . . " البيت " فما إليك سبيل أو يحكم الله بيني وبين عدو
الرحمن بن الأشعث. فلم يقربها حتى قُتل عبد الرحمن.⁽²⁴⁵⁾

لأن يخلو بن ملك الموت أحب إليّ من أن يخلو بك الحجاج

قال زهير بن حسن مولى الربيع بن يونس قدم الحجاج على الوليد بن عبد
الملك فصلى عنده ركعتين وركب الوليد فمشى الحجاج بين يديه فقال له
الوليد اركب يا أبا محمد فقال يا أمير المؤمنين دعني أستكثر من الجهاد فإن ابن
الزبير وابن الأشعث شغلاني عن الجهاد زمناً طويلاً فعزم عليه الوليد أن
يركب ودخل فركب مع الوليد فبينما هو يتحدث ويقول ما فعلت بأهل العراق
وفعلت أقبلت جارية فنادت الوليد ثم انصرفت فقال الوليد يا أبا محمد أتدري ما
قالت الجارية قال لا قال قالت أرسلتني إليك أم البنين بنت عبد العزيز بن
مروان أن مجالستك هذا الأعرابي وهو في سلاحه وأنت في غلاله غرر
فأرسلت إليها أنه الحجاج بن يوسف فراعها ذلك وقالت والله لأن يخلو بن
ملك الموت أحب إليّ من أن يخلو بك الحجاج وقد قتل أحباء الله له وأهل
طاعته ظلماً وعدواناً فقال الحجاج يا أمير المؤمنين إنما المرأة ريحانة

وليست بقهرمانة لا تطلعهن على شرك ولا تستعملهن بأكثر من وثبهن ولا تكثرن مجالستهن صغاراً وذلائم ثم نهض فخرج ودخل الوليد على أم البنين فأخبرها بمقالته فقالت إني أحب أن تأمره بالتسليم علي فسيبلغك بالذي يكون بيني وبينه فغدا الحجاج على الوليد فقال الوليد أنت أم البنين فقال اعفني يا أمير المؤمنين قال فلتفعلن فأتاها فحجبته طويلاً ثم أذنت له ثم قالت له يا حجاج أنت تفتخر على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث أما والله لولا أن الله علم أنك أهون خلقه عليه ما ابتلاك بقتل ابن ذات النطاقين ابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الأشعث فلعمري لقد استعلى عليك حتى عجعت ووالى عليك الهزار حتى عويت فلولاً أن أمير المؤمنين نادى في أهل اليمن وأنت في أضيق من القرن فأظلتك رماحهم وعلاك كفاحهم لكنت مأسوراً قد أخذ الذي فيه عيناك وعلى هذا فإن نساء أمير المؤمنين قد نفضن العطر عن غداثرهن وبعنه في أعطية أوليائه وإماماً أشرت على أمير المؤمنين من قطع لذاته وبلوغ أوطاره من نسائه فإن يكن إنما ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فغير مجيبك إلى ذلك وإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به أمك البظراء عنك من ضعف الغريزية وقبح المنظر في الخلق والخلق يالكع فما أحقه أن يقتدي بقولك قاتل الله الذي يقول:

أسد علي وفي الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغا ... أو قد كان قلبك في جناحي طائر
ثم أمرت جارية لها فأخرجته فلما دخل على الوليد قال ما كنت فيه يا أبا محمد فقال والله يا أمير المؤمنين ما سكنت حتى كان بطن الأرض أحب إلى من ظهرها قال إنها بنت عبد العزيز.⁽²⁴⁶⁾

الوليد بن عبد الملك يسأل عمر عن سبب الأثر الذي في منكبه

عن السعدي قال قدم الوليد بن عبد الملك مكة فأراد أن يأتي الطائف فقال هل لي في رجل علم بأموال الطائف فيخبرني عنها فقالوا عمر بن أبي ربيعة قال لا حاجة لي به ثم عاد فسأل فذكروه له فردّه ثم عاد فسأل فذكروه له ثم رده ثم عاد فسأل فذكروه له فقال هاتوه فركب معه يحدثه ثم حرك عمر رداءه ليصلحه على كتفه فرأى على منكبه أثراً فقال ما هذا الأثر فقال كنت عند جارية إذ جاءتني جارية برسالة من عند جارية أخرى فجعلت تسارني فغارت التي كنت أحدثها فعضت منكبي فما وجدت ألم عضها من لذة ما كانت تلك تنفت في أذني حتى بلغت ما ترى والوليد يضحك فلما رجع عمر قيل له ما

الذي كنت تضحك أمير المؤمنين به فقال ما زلنا في حديث الزنا حتى رجعنا⁽²⁴⁷⁾.

أعرج من أهل الجنة

قال أبو الحسن: رأى الوليد بن عبد الملك في المنام أن رجلاً من أهل الأندلس أعرج يكنى أبا عبد الرحمن من أهل الجنة يفتح الله على يديه المغرب، فكتب إليه موسى بن نصير: أنام الله عينك يا أمير المؤمنين، أنا أبو عبد الرحمن وأنا موسى بن نصير وأنا أعرج وأنا بالأندلس، فكتب إليه الوليد: أنت موسى بن نصير من أهل كفر هندا ولست به، فاطلب إلى الرجل الغربي الذي وصفت لك ثم احمله إلي، فسأل عنه بعد ذلك فإذا كما وصف، وإذا هو عبد الله فحملة إليه⁽²⁴⁸⁾.

فخاف المريب صولة العقاب

كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه بسيرته. فكتب إليه: إني أيقظت رأيي وأنمت هواي، فأدنييت السيد المطاع في قومه، ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموفر لأمانته. وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً، أعطيه حظاً من لطيف عنايتي ونظري. وصرفت السيف إلى النطف المسيء، والثواب إلى المحسن البريء، فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب.

يا أبت ما السياسة؟

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه: يا أبت ما السياسة؟ قال: هيبة الخاصة مع صدق مودتها، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصنائع.

إن الوقت لا ينتظرك، وإن الرب لا يعذرك

قال المدائني: جلس الوليد بن عبد الملك على المنبر يوم الجمعة حتى اصفرت الشمس، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إن الوقت لا ينتظرك، وإن الرب لا يعذرك. قال صدقت: ومن قال مثل مقالتك، فلا ينبغي له أن يقوم مثل مقامك. من ها هنا من أقرب الحرس يقوم إليه فيضرب عنقه؟

²⁴⁷ (أبي الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، الطبعة الثانية، دار الفكر -

بيروت، 1 / 121

²⁴⁸ (الجاحظ، البرصان والعرجان، ص25

إن الناس ليغفوننا عن ديننا

دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك، فقال له: ما حديث يحدثنا به أهل الشام؟ قال: يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات. قال: باطل يا أمير المؤمنين، أنبي خليفة أكرم على الله أم خليفة غير نبي؟ قل: بل نبي خليفة. قال: فإن الله تعالى يقول لنبيه داود عليه السلام: " يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله. إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ". فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة، فما ظنك بخليفة غير نبي؟ قال: إن الناس ليغفوننا عن ديننا.

أو كذبت؟

عن عطاء بن يسار، قال: قلت للوليد بن عبد الملك: قال عمر بن الخطاب: وددت أني خرجت من هذا الأمر كفافاً لا علي ولا لي. فقال: كذبت. فقلت: أو كذبت؟ فما أفلت بجريعة الذقن.

للامير عندي نصيحة؟

ودخل رجل على الوليد بن عبد الملك، وهو والي دمشق لأبيه، فقال: للامير عندي نصيحة؟ فقال: إن كانت لنا فاذكرها، وإن كانت لغيرنا فلا حاجة لنا فيها؟ قال: جار لي عصي وفر من بعثه؛ قال: أما أنت فتخبر أنك جار سوء، وإن شئت أرسلنا معك، فإن كنت صادقاً أقصيناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت تاركناك، قال: تاركني.

يا شيخ، تحب الموت؟

ودخل الوليد بن عبد الملك المسجد، فخرج كل من كان فيه إلا شيخاً قد حناه الكبر، فأرادوا أن يخرجوه، فأشار إليهم أن دعوا الشيخ؟ ثم مضى حتى وقف عليه، فقال له: يا شيخ، تحب الموت؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، ذهب الشباب وشره، وأتى الكبر وخيره، فإذا قمت حمدت الله، وإذا قعدت ذكرته، فأنا أحب أن تدوم لي هاتان الخلتان.

لأجمعن المال جمع من يعيش أبداً

كتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك لا بلاغه أنه خرق فيما خلف له عبد الملك، ينكر ذلك عليه ويعرفه أنه على، غير صواب، فوقع في كتابه: لأجمعن المال جمع من يعيش أبداً، ولا فرقته تفريق من يموت غداً. ووقع إلى عمر بن عبد العزيز: قد رآب الله بك الداء، وأوذم بك السقاء.

أولست تعلم ذلك؟

قال الهيثم بن عديّ: دخل رجل من أصحاب الوليد بن عبد الملك عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، لقد رأيتُ ببابك جماعةً من الشعراء لا أحسبُهم اجتمعوا بباب أحد من الخلفاء، فلو أذنتَ لهم حتى يُنشدوك؟ فأذن لهم فأنشدوه وكان فيهم الفرزدق، وجريز، والأخطل، والأشهب بن رُميلة. وترك البعيث فلم يأذن له. فقال الرجل المُستأذن لهم: لو أذنتَ للبعيث يا أمير المؤمنين، إنه لشاعر. فقال: إنه ليس كهؤلاء إنما قال من الشعر يسيراً. قال: والله يا أمير المؤمنين إنه لشاعر. فأذن له فلما مثّل بين يديه، قال: يا أمير المؤمنين، إن هؤلاء ومن ببابك قد ظنّوا أنك إنما أذنتَ لهم دوني لفضل لهم عليّ. قال: أولست تعلم ذلك؟ قال: لا والله، ولا علّمه الله لي. قال: فأنشدني من شعرك. قال: أما والله حتى أنشدك من شعر كل رجل منهم ما يفضحه فأقبل على الفرزدق، فقال: قال هذا للشيخ الأحمق لعبد بني كليب:

بأيّ رشاءٍ يا جريز وماتح ... تدلّيت في حومات تلك القماقم
فجعله يتدلّى عليه وعلى قومه من علّ، وإنما يأتيه من تحته لو كان يعقل.
وقد قال هذا، كلبُ بني كليب:

لقوميّ أحمى للحقيقة منكم ... وأضربُ للجبار والنقع ساطع
وأوثقُ عند المردفات عشيّة ... لحاقاً إذا ما جرّد السيف لامع
فجعل نساءه لا يثقنَ بلحاقه إلا عشيّة، وقد نُكحن وفُضحن.

وقال هذا النصراني، ومدح رجلاً يسمى قيناً فهجاه، ولم يشعر، فقال:

قد كُنت أحسبه قيناً وأنبؤه ... فالآن طير عن أثوابه الشررُ

وقال ابن رُميلة ودفع أخاه إلى مالك بن ربيعيّ بن سلميّ فقتل، فقال:

مددنا وكان ضلّة من حلومنا ... بثديّ إلى أولاد ضمرة أقطعا

فمن يرجو خيرَه وقد فعل بأخيه ما فعل. فجعل الوليد يُعجب من حفظه لمثالب القوم وفؤة قلبه، وقال له: قد كشفت عن مساوئ القوم، فأنشدني من شعرك. فأنشده فاستحسن قوله ووصله وأجزل له.

الله أعلم حيث يجعل رسالته

كان عند الوليد بن عبد الملك أربع عقائل (249): لبابة بنت عبد الله بن عباس، وفاطمة بنت يزيد بن معاوية، وزينب بنت سعيد بن العاص، وأم جحش بنت عبد الرحمن بن الحارث، فكن يجتمعن على مائدته ويفترقن فيفخرن. فاجتمعن يوماً، فقالت لبابة: أما والله إنك لتسويني بهن، وإنك تعرف فضلي عليهن. وقالت بنت سعيد: ما كنت أرى أن للفخر علي مجازاً، وأنا ابنة ذي العمامة إذ لا عمامة غيرها. وقالت بنت عبد الرحمن بن الحارث: ما أحب بأبي بدلاً، ولو شئت لقلت فصدقت وصدقت. وكانت بنت يزيد بن معاوية جارية حديثة السن فلم تتكلم. فتكلم عنها الوليد، فقال: نطق من احتاج إلى نفسه وسكت من اكتفى بغيره. أما والله لو شأئت لقلت: أنا ابنة قادتكم في الجاهلية، وخلفائكم في الإسلام. فظهر الحديث حتى تحدث به في مجلس ابن عباس، فقال: الله أعلم حيث يجعل رسالته.⁽²⁵⁰⁾

لا أصلي بالناس حتى أتعلمه.

وكان الوليد بن عبد الملك لحانة فدخل عليه أعرابي فقال: من ختنك؟ قال: رجل من الحي لا أعرف اسمه. فقال عمر بن عبد العزيز: إن أمير المؤمنين يقول: من ختنك؟ فقال: ها هوذا بالباب. فقال الوليد لعمر: ما هذا؟ فقال: النحو الذي كنت أخبرك عنه. فقال: لا جرم لا أصلي بالناس حتى أتعلمه.

محاسن المكاتبات

وقال كعب العبسي لعروة بن الزبير: قد أذنبت ذنباً إلى الوليد بن عبد الملك وليس يزيل غضبه شيء فاكذب إليه. فكتب: لو لم يكن لكعب من قديم حرمة ما يغفر له عظيم جريرته لوجب أن لا تحرمه التفيؤ بظل عفوك الذي تأمله القلوب، ولا تعلق به الذنوب وقد استشفع بي إليك فوثقت له منك بعفو لا يخلطه سخط، فحقق أمله في وصدق ثقتي بك مغتتماً للشكر مبتدئاً بالنعمة. فكتب إليه الوليد: قد شكرت رغبته إليك وعفوت عنه لمعوله عليك، وله عندي الذي تحب إن لم تقطع كتبك عني في أمثاله وفي سائر أمورك.

249 (جمع عَقِيلَة وهي في الأصل : المرأة الكريمة النفيسة. إنما سميت عَقِيلَةً لأنها عَقَلَتْ صواحِبَها عن أن يبلُغْنَها. وقال الخليل: بل معناه عَقَلْتُ في خدرها. قال امرؤ القيس: عَقِيلَة أَخْدانٍ لها لا دَمِيمَة *** ولا ذات خُلُقٍ أن تَأْمَلَتْ جَانِبَ

²⁵⁰ (ابن عبد ربه الأندلسي ،العقد الفريد ، 1 / 5 ، 6 ، 197، 18، 15 ، 325 ، 5/2 ، 217، 55،

وأنت شرّ الثلاثة

وحدث إسماعيل بن أبي خالد قال: أتى الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج وعنده عمر بن عبد العزيز وخالد بن الريان فقال له الوليد: ما تقول في أبي بكر؟ قال: صاحب نبي الله في الغار وثاني اثنين رحمه الله وغفر له. قال: فما تقول: في عمر؟ قال: هو الفاروق رحمه الله وغفر له. قال: فما تقول في عثمان؟ قال: كان سنّياتٍ من خلافته ملازماً للعدل. قال: فما تقول في مروان بن الحكم؟ قال: لعن الله ذاك. قال: فما تقول في عبد الملك؟ قال: ذلك ابن ذاك لعن الله ذاك. قال: فما تقول في؟ قال: بني دينك وأنت شرّ الثلاثة. فقال: يا عمر ما تقول فيما تسمع؟ قال: يا أمير المؤمنين ما أحد أعلم بهذا منك وأنت أعلى به عيناً. فألحّ عليه والله لتقولنّ، فقال: أما إذا أبیت يا أمير المؤمنين إلا أن أقول فسبّ إياه كما سبّ إياك وأن تعفو أقرب للتقوى. قال: ليس إلا هذا. قال: لا يا أمير المؤمنين إلا أن تدخلك جبرية، فأما الحق فليس إلا هذا.

فالتفت إلى خالد بن الريان وهو قائم على رأسه ثم قام وهو غضبان. فقال خالد: والله يا عمر لقد نظر إليّ أمير المؤمنين نظرة ظننت أنه سيأمرني بضرب عنقك. قال: ولو أمرك كنت تفعل؟ قال: إي والله. قال: أما إنه كان يكون شراً لكما وخيراً لي.

ثم سكت عنه وبقي ذلك في قلبه، فلما قام الوليد من مجلسه دخل على امرأته أم البنين بنت عبد العزيز وهي أخت عمر فقال: أخوك الحروري والله لأقتلنه. فمكث أياماً وعمر في منزله لا يحضر الباب ولا يلتمس المعذرة، فأتاه رسول الوليد وقت القائلة فدعاه، فلما دخل من باب القصر عدل به إلى بيت فادخل فيه وطيّن عليه الباب. فرجع صاحب دابته إلى أهله فأخبرهم فأخبروا أخته بذلك فبحثت عن خبره فلم تجد أحداً يخبرها بخبره وذلك يوم الثالث. فقيل لها: إن فلاناً الخصي يعلم علمه. فأرسلت إليه فأعلمها بموضعه. فدخلت على الوليد فناشدته الله والرحم وقبّلت يده. فقال: قد وهبته لك إن أدركته حياً قال. ففتحوا عنه الباب فوجدوه قد انتنى عنقه فحملوه إلى منزله وعالجوه. فلما توفي الوليد وكان سليمان بعده فهلك وتولى عمر الخلافة جاء خالد بن الريان في اليوم الذي استخلف فيه عمر، رحمه الله، متقلداً سيفه، فقال له عمر: يا خالد انطلق بسيفك هذا فضعه في بيتك واقعد فيه فإنه لا حاجة لنا فيك، أنت رجل إذا أمرت بشيء فعلته لا تنظر لدينك. فلما ولى خالد نظر عمر

في قفاه فقال: اللهم يا رب إني قد وضعتك لك فلا ترفعه أبداً. فما لبث إلا جمعة حتى ضربه الفالج فقتله. (251)

لكنك أنت لا مرحبا بك ولا أهلا

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفي ألف في السر وخمسائة ألف في العلانية فأجابه إلى ذلك وحملها إلى العراق فأقامت عنده ثمانية أشهر فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان وافدا نزل بدمشق فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة ومعه الناس فاستقبله ابن جعفر بالترحيب فقال له الوليد لكنك أنت لا مرحبا بك ولا أهلا قال مهلا يا ابن أخي فلست أهلا لهذه المقالة منك قال بلى والله وبشر منها قال وفيه ذلك؟ قال لأنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب وسيدة نساء بني عبد مناف فعرضتها عبد ثقيف يتفخذها بتفخذ قال وفي هذا عتبت علي يا ابن أخي؟ قال نعم فقال عبد الله والله ما أحق الناس أن لا يلومني في هذا إلا أنت وأبوك لأن من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحمي ويعرفون حقي وإنك وأباك منعماني رفقكمما حتى ركبني الدين أما والله لو أن عبدا حبشيا مجدعا أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه إنما فديت بها رقبتني فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ومضى حتى دخل على عبد الملك فقال ما لك يا أبا عباس؟ قال إنك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني عبد مناف فأدركت عبد الملك غيرة فكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل قال ولم يكن يقطع الحجاج عنها رزقا ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا وما زال واصلا لعبد الله بن جعفر حتى مات وما كان يأتي عليه حول إلا وعنده غير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف. (252)

ما أردت إلى عجوزنا هذه؟!

وقال المدائني لما أهديت بنت عقيل بن غلفة إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان بعث مولاه له لتأتيه بخبرها قبل أن يدخل بها فأتتها فلم تأذن لها أو كلمتها فأحفظتها فهشمت انفها فرجعت إليه فأخبرته فغضب من ذلك فلما دخل عليها قال ما أردت إلى عجوزنا هذه؟! قالت أردت والله ان كان خيراً أن تكون أول من لقي بهجته وان كان شراً أن تكون أول من ستره.

251 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 184/1 ، 220، 190

252 (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبيشي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق : د. مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الثانية ، 1986 ، 157/2 ، 482

انا اشترطنا على الحمالين الرجعة فما رأيك

قال المدائني : تزوج الوليد بن عبد الملك في خلافته تسع سنين ثلاثاً وستين امرأة يطلق ويتزوج حتى تزوج عاتكة بنت عبد الله بن مطيع فلما دخل بها وأراد أن يقوم أخذت بثوبه فقال لها ما تريدين قالت انا اشترطنا على الحمالين الرجعة فما رأيك قال تقيمين وأمسكها أربعة أشهر ثم طلقها. (253)
تصحيف أفضى إلى مضرة:

كتب الوليد بن عبد الملك إلى والي المدينة: أحص من قبلك من المخنثين، فوضعت نقطة على الحاء فقرأ الكاتب أخص، فقال العامل: لعله أحص، فقال الكاتب: على الحاء نقطة كسهيل فخصى جماعة منهم، ولكل واحدة نادرة.
غلبتني لعنك الله!

قال الوليد بن عبد الملك لبديع المغني: خذ بنا في الأمانى فلا غلبتك. فقال: والله لا تغلبني فيها أبداً إني أتمنى كفلين من العذاب، وإن يلعني الله لعناً يشن على من خلفي ومن قدامي أتمنى مثله؟ فقال: غلبتني لعنك الله!
لو ركبت الأشهب لم يعثر بك.

وكان البراء بن قبيصة صاحب شراب، فدخل على الوليد بن عبد الملك وبوجهه أثر فقال: ما هذا؟ قال: ركبت فرساً أشقر فكبا بي. فقال: لو ركبت الأشهب لم يعثر بك. فعرض بأنه شرب الخمر ولو شرب اللبن لما سقط.
الحقي بأهلك

كانت بنت سعيد بن العاص عند الوليد بن عبد الملك فلما مات عبد الملك لم تبكه، فقال لها الوليد: ما يمنعك من البكاء على أمير المؤمنين ولا مصيبة أجل من فقده؟ فقالت: ما أقول استزيد الله في سلطانه حتى يقتل لي أخاً آخر. فقال: أي والله لقد كسرنا ثنياه وقتلناه. قالت: لقد علمت من شقت استه بالملمول قال: الحقي بأهلك. قالت: أذ من الرفاه والبنين.

قد وصلت وأنت أحقق أحقق وأسلم

كتب معاوية بن مروان إلى الوليد بن عبد الملك: بعثت إليك بقطيفة خز أحمر أحمر . فكتب إليه: قد وصلت وأنت أحقق أحقق وأسلم. (254)

(253) ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص 59 ، 61 ، 66 ،

(254) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ، 44/1 ، 207 ، 141 ، 311 ، 147

مواقف بين خالد بن يزيد بن معاوية والوليد بن عبد الملك

خالد بن يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان. الأمير أبو هاشم الأموي: كان من رجالات قريش المتميزين بالفصاحة والسماحة وقوة المارضة، علامة خبيراً بالطب والكيمياء شاعراً. قال الزبير بن مصعب: كان خالد بن يزيد بن معاوية موصوفاً بالعلم حكيماً شاعراً. وقال ابن أبي حاتم: كان خالد من الطبقة الثانية من تابعي أهل الشام. وقيل عنه: قد علم علم العرب والعجم. روى خالد الحديث عن أبيه وعن دحية بن خليفة الكلبي - رضي الله عنه - وروى عنه الزهري وغيره. وأخرج البيهقي والخطيب البغدادي والعسكري والحافظ بن عساكر عنه عدة أحاديث. وكان إذا لم يجد أحداً يحدثه حدث جواريه، وكان من صالحى القوم، وكان يصوم الجمعة والسبت والأحد. وكان يقول: كنت معنياً بالكتب، وما أنا من العلماء ولا من الجمال. وكان خالد جواداً ممدحاً جاءه رجل فقال له: إني قد قلت فيك بيتين ولست أنشدكما إلا بحكمي، فقال له قل، فقال:

سألت الندى والجود حران أنتما؟ ... فقالا بلى عبدان بين عبيد

فقلت ومن مولاكما فتطاولا علي وقال خالد بن يزيد

فقال له تحكم. فقال: مائة ألف درهم، فأمر له بها. وكان خالد شجاعاً جريئاً

وكان بينه وبين عبد الملك ابن مروان مناظرات، تهدده عبد الملك مرة

بالسطوة والحرمان فقال له: أتهددني ويد الله فوقك مانعة، وعطاؤه دونك

مبذول؟ وأجرى أخوه عبد الله بن يزيد الخيل مع الوليد بن عبد الملك فسبقه

عبد الله، فدخل الوليد على خيل عبد الله فنقرها ولعب بها فجاء عبد الله إلى

أخيه خالد فقال: لقد هممت اليوم بقتل الوليد بن عبد الملك، فقال له خالد:

بئس ما هممت به في ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين، قال: إنه لقي

خيلي فنقرها وتلاعب بها، فقال له خالد: أنا أكفيكه فدخل خالد على عبد الملك

وعنده الوليد وقال له أمير المؤمنين: إن الوليد بن أمير المؤمنين لقي خيل

ابن عمه عبد الله فنقرها وتلاعب بها فشق ذلك على عبد الله. فقال عبد الملك:

إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوا وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون.

فقال له خالد: وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها

القول فدمرناها تدميراً. فقال له عبد الملك: أما والله لنعم المرء عبد الله على

لحن فيه. فقال له خالد: أفعلى الوليد تعول مع اللحن. فقال عبد الملك إن يكن

الوليد لحناً فأخوه سليمان. قال خالد: وإن يكن عبد الله لحناً فأخوه خالد.

فقال عبد الملك: مدحت والله نفسك يا خالد. قال: وقبلي والله مدحت نفسك يا

أمير المؤمنين، قال: ومتى؟ قال: حين قلت أنا قاتل عمرو بن سعيد، حق والله لمن قتل عمراً أن يفخر بقتله، قال: أما والله لمروان كان أطولنا باعاً، قال: أما إنني أرى ثأري في مروان صباح مساء، ولو أشاء أن أديله لأدلته؟ قال ما أجراك علي يا خالد خلني عنك. قال لا والله، قال الشاعر:
ويجر اللسان من أسلات ال ... حرب ما لا يجر منها البنان
فقال عبد الملك: يا وليد أكرم ابن عمك، فقد رأيت أباه يكرم أباك، وجده يكرم جدك.⁽²⁵⁵⁾

وكشفت لي عن عورة من عوراتك

كان الوليد بن عبد الملك يلعب بالحمام ؛ فخلا لذلك يوماً ، واستؤذن لنوفل بن مساحق ، فأذن له ، فلما دخل قال : خصصتك بالإذن دون الناس . فقال : ما خصصتني ولكن خسستني ، وكشفت لي عن عورة من عوراتك .

أتريد أن تقتص أوتارك من الناس بي ؟

جاء رجل إلي الوليد بن عبد الملك فقال : أن فلاناً نال منك . قال : أتريد أن تقتص أوتارك من الناس بي ؟ .

فما رأيك ؟

قال ابن عياش : تزوج الوليد بن عبد الملك ثلاثاً وستين امرأة ، وكان أكثر ما يقيم على المرأة ستة أشهر ، وكان فيمن تزوج ابنة عبد الله بن مطيع العدوي ، وكانت جميلة ظريفة ، فلما أهديت إليه قال لسماره الذين كانوا يسمرون عنده : لا تبرحوا - وإن أبطأت - حتى أخرج إليكم . ودخل بها وانتظروه حتى خرج إليهم في السحر وهو يضحك . فقالوا : سر ك الله يا أمير المؤمنين . فقال : ما رأيت مثل ابنة المنافق . يعني عبد الله بن مطيع - وكان ممن قتل مع ابن الزبير ، وكان بنو مروان يسمون شيعة ابن الزبير : المنافقين - لما أردت القيام أخذت بذيلي وقالت : يا هذا ؛ إنا قد اشترطنا على الجمالين الرجعة . فما رأيك ؟ فأعجب بها وأقام عليها ستة أشهر ثم بعث إليها بطلاقها .

يا ليتيه بقي حتى يقتل أخاً لي آخر كعمرو بن سعيد

كانت أمنة بنت سعيد بن العاص عند الوليد بن عبد الملك ، فلما مات عبد الملك سعت بها إحدى ضراتها إلى الوليد . وقالت : لم تبك على عبد الملك كما بكت نظائرها . فقال لها الوليد في ذلك فقالت : صدق القائل لك أكنت قائلة : يا ليتيه بقي حتى يقتل أخاً لي آخر كعمرو بن سعيد . (256)

ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه

قال المدائني: أتى الوليد بن عبد الملك برجل من عبس، فسأل عن حاله وذهاب عينه فقال: ما كان في الأرض يا أمير المؤمنين عبسي أكثر مالاً مني وولداً، فأتى السيل ليلاً فلم يبق لي مالاً ولا أهلاً ولا ولداً إلا بنياً صغيراً وبعيراً، فحملت الصبي، وند البعير فوضعت الصبي وتبعته فنفحني برجله ففقا عيني، فجرعت إلى ابني فإذا الذئب يلغ في دمه، فقال الوليد: اذهبوا به إلى عروة بن الزبير ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه. (257)

أتعرف هذا يا جرير؟

روى أن جريراً دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع العاملي - ولم يكن جرير رآه من قبل ذلك - فقال الوليد: أتعرف هذا يا جرير؟ فقال: لا يا أمير المؤمنين، فقال: هو ابن الرقاع، فقال جرير: شر الثياب الرقاع، فمن هو؟ قال: هو رجل من عاملة، فقال جرير: هو من الذين قال الله فيهم: " عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية " . قال: ويلك يا ملعون! فأنشأ جرير يقول: يقصر باع العاملي عن الندى ... ولكن أير العاملي طويل فابتدر عدي فقال:

أأمك يا ذا أخبرتك بطوله ... أم أنت امرؤ لم تدر كيف تقول!

فقال جرير: امرؤ لم أدر كيف أقول. فوثب عدي فأكب على رجل الوليد يقبلها ويقول: أجرني منه يا أمير المؤمنين. فالتفت الوليد إلى جرير وقال: وتربة عبد الملك لئن هجوته لأجمنك ولأسرحن عليك ولأطيفنك بدمشق. فيعيرك الشعراء بذلك، فخرج جرير فصنع قصيدته التي أولها: حي الهملة من ذات المواعيس ... فالحنو أصبح قفراً غير مأنوس

256 (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر ، تحقيق : خالد عبد الغني محفوظ ، الطبعة : الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1424 هـ - 2004 م ، 46/38، 4/3 ، 128/2 ،

افتخر فيها بنزار وعدد أيامهم، وهجا قحطان، وعرض بعدي ولم يسمه، فقال:

أقصر فإن نزاراً لا يفاخرهم ... فرع لئيم وأصل غير مغروس
وابن اللبون إذا مالز في قرنٍ ... لم يستطع صولة البزل القناعيس (258)
حاجتك؟

أصابته أهل البادية قحمة شديدة فخرج الفرزدق إلى الوليد بن عبد الملك وامتدحه بقصيدة فيها:

وكم من مناد والشريفان دونه ... إلى الله يشكو والوليد مفاقره
وقالوا أغثنا إن بلغت بدعوة ... لنا عند خير الناس إنك زائر
فقال له الوليد : حاجتك؟ قال: تملأ لي إبلا قمحا، وإبلا زيتا، وإبلا دراهم،
فأفرقها في أهل البوادي، من بابك إلى اليمامة، وتكتب إلى عمالك كلما نفذ
منها شيء أعيد لي؛ ففعل، فقسم الفرزدق ذلك حتى انتهى إلى اليمامة. (259)
وأناه الفرج من عند الله تعالى

روي أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبد الله عامله على المدينة المنورة أن أخرج الحسن بن الحسن بن علي من السجن وكان محبوسا واضربه في مسجد رسول الله خمسمائة سوط فأخرجه إلى المسجد واجتمع الناس وصعد صالح يقرأ عليهم الكتاب ثم نزل يأمر بضربه فبينما هو يقرأ الكتاب إذ جاء علي بن الحسين عليه السلام فأفرج له الناس حتى أتى إلى جنب الحسن فقال يا ابن العم مالك ادع الله تعالى بدعاء الكرب يفرج الله عنك قال ما هو يا ابن العم؟ فقال لا إله إلا الحليم الكريم لا إله إلا الله العلي العظيم سبحانه رب السموات ورب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين ثم أنصرف عنه وأقبل الحسن يكررها فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل قال أراه في سجنه مظلوما أخرجوه وأنا أراجع أمير المؤمنين في أمره فأطلق بعد أيام وأناه الفرج من عند الله تعالى.

غيرة سليمان بن عبد الملك

كان سليمان بن عبد الملك من أشد الناس غيرة. فحكى أبو زيد الأسدي قال: دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو على دكان مبلط بالرخام الأحمر، مفروش بالديباج الأصفر في وسط بستان قد أينعت ثماره، ورنّت أطيّاره، وأزهر نبت الربيع؛ وعلى رأسه وصائف كلّ واحدة أحسن من صاحبته،

258 (ابن ظافر الأزدي ، بدائع البداهة، ص2

259 (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 67/1

فقلت: السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. وكان سليمان مطرقاً فرفع رأسه فقال: أبا زيد، في مثل هذا اليوم يصلب أحدٌ حيّاً. فقلت: يا سيّدي، يا أمير المؤمنين، أو قد قامت القيامة؟ قال: نعم على رأس أهل الهوى سرّاً.

تستحييه في الحياة والممات

قال الأصمعي: خرج سليمان بن عبد الملك ومعه سليمان بن المهلب بن أبي صفرة من دمشق متنزّهين، فمرّاً بالجبانة، وإذا امرأةٌ جالسةٌ على قبرٍ تبكي، فهبت الرّيح، فرفعت البرقع عن وجهها، فكأنّها غمامةٌ جلت شمساً، فوقفنا متعجبين ننظر إليها، فقال لها ابن المهلب: يا أمة الله، هل لك في أمير المؤمنين بعلاً؟ فنظرت إليهما، ثمّ نظرت إلى القبر، وقالت: فإنّ تسألاني عن هواي، فإنّه ... بملحود هذا القبر، يا فتيان وإني لأتسحييه والتّرب بيننا، ... كما كنت أستحييه وهو يراني فانصرفنا ونحن متعجبون. (260)

نحن وفد الشكر

قدم وفد من العراق على سليمان بن عبد الملك فقام رجل منهم فقال: يا أمير المؤمنين ما أتيناك رغبة ولا رهبة قال: فلم جنّتم؟ قال نحن وفد الشكر، أما الرغبة فقد وصلت إلينا في رحالنا وأما الرهبة فقد أماناها بعدلك ولقد حببت إلينا الحياة وهونت علينا الموت فأما تحبيبك إلينا الحياة فلما انتشر من عدلك وأما تهوينك علينا الموت فلما نثق منك فيمن تخلف من أعقابنا عليك، فوصله وأحسن جائزته وجوائز أصحابه. (261)

يجيء يوم القيامة بين أبيك وأخيك

ودخل يزيد بن مسلم على سليمان بن عبد الملك، وكان مصفراً نحيفاً، فقال سليمان: على رجلٍ أجرك رسنك وسلطك على المسلمين لعنة الله. فقال: يا أمير المؤمنين إنك رأيتني والأمر عني مدبرٌ، فلو رأيتني وهو علي مقبلٌ لا ستعظمت مني يوماً ما استصغرت اليوم. قال: فأين الحجاج؟ قال: يجيء يوم القيامة بين أبيك وأخيك، فضعه حيث شئت. (262)

260 (ابن الجوزي ، أخبار النساء ، ص 29 ، 41 ،

261 (ابن الجوزي ، الأذكياء ، ص 68

262 (أبو حيان علي بن محمد ابن العباس التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق : محمد حسن محمد حسن إسماعيل ، الطبعة : الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1424 هـ 2003 م ، ص 488 ،

كأنه إعصار الريح

وفيما يحكى عن سليمان بن عبد الملك أنه خرج في حياة أبيه لمتنزهه، فبسط له في صحراء، فتغدى مع أصحابه، فلما حان انصرافه، تشاغل غلمانه بالترحال، وجاء أعرابي، فوجد منهم غفلةً، فأخذ دواج سليمان، فرمى به على عاتقه، وسليمان ينظر إليه. فبصر به بعض حشمه، فصاح به: ألق ما عليك! فقال الأعرابي: لا لعمرى! لا ألقيه ولا كرامة! هذا كسوة أمير المؤمنين وخلعته. فضحك سليمان، وقال: صدق، أنا كسوته. فمر كأنه إعصار الريح. (263)

قبل الحسرة والندامة

حدث أبو زكريا التيمي قال: بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور فطلب من يقرأه، فأتى بوهب بن منبه فقرأه فإذا فيه: ابن آدم، إنك لو أبصرت قليل ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصرت عن حرصك وحيلك، وإنما يلقاك غداً ندمك، لو قد زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، فبان منك الولد القريب، ورفضك الوالد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة، قبل الحسرة والندامة. قال: فبكى سليمان. (264)

فأهل ذلك أنا

غضب سليمان بن عبد الملك على خالد بن عبد الله القسري فلما دخل عليه قال: يا أمير المؤمنين! إن القدرة تذهب الحفيظة، وإنك تجل عن العقوبة فإن تعف فأهل ذلك أنت، وإن تعاقب فأهل ذلك أنا؛ فعفا عنه. (265)

ومن أنت؟

قال المدائني: كان يزيد بن راشد خطيباً، وكان فيمن دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك والبيعة لعبد العزيز بن الوليد، فنذر سليمان قطع لسانه. فلما أفضت الخلافة إليه دخل عليه يزيد بن راشد، فجلس على طرف البساط مفكراً، ثم قال: يا أمير المؤمنين، كن كنبي الله صلى الله عليه وسلم، ابتلي

263 (الجاحظ ،التاج في أخلاق الملوك ، ص22

264 (المعافى بن زكريا ،الجلس الصالح والأنيس الناصح ، 461/1،

265 (ابن الحداد ،الجوهر النفيس في سياسة الرئيس ، ص24

فصبر، وأعطي فشكر، وقدر فغفر؛ قال: ومن أنت؟ قال: يزيد بن راشد. فعفا عنه.

فضعه من النار حيث شئت

دخل يزيد بن أبي مسلم على سليمان بن عبد الملك، فقال له سليمان: على امرئ أمرك وجراك وسلطك على الأمة لعنة الله، أتظن الحجاج استقر في قعر جهنم أم هو يهوي فيها؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج يأتي يوم القيامة بين أخيك وأبيك، فضعه من النار حيث شئت.

ما هكذا

لما ولي سليمان بن عبد الملك كتب إلى عامله بالأردن: اجمع يدي عدي ابن الرقاع إلى عنقه وابعث به إلي على قتب بلا وطاء، ووكل به من ينخس به؛ ففعل ذلك؛ فلما انتهى إلى سليمان بن عبد الملك ألقى بين يديه وهو لقي لا حراك فيه ولا روح، فتركه حتى ارتد إليه روحه، ثم قال له: أنت أهل لما نزل بك، ألسنت القائل في الوليد:

معاذ ربي أن نبقي ونفقده ... وأن نكون لراع بعدهم تبعاً
وقال: لا والله يا أمير المؤمنين، ما هكذا قلت، وإنما قلت:
معاذ ربي أن نبقي ونفقدهم ... وأن نكون لراع بعدهم تبعاً
فنظر إليه سليمان واستضحك، ثم أمر له بصلة وخلي سبيله.

وما تعرفني يا أمير المؤمنين؟

ودخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك، فقال له: من أنت؟ وتجهم له كأنه لا يعرفه: فقال له الفرزدق: وما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا؛ قال: أنا من قوم منهم أوفى العرب، أسود العرب، وأجود العرب، وأحلم العرب، وأفرس العرب، وأشعر العرب: قال: والله لتبينن ما قلت أو لأوجعن ظهرك؛ ولأهدمن دارك، قال: نعم يا أمير المؤمنين، أما أوفى العرب، فحاجب بن زرارة، الذي رهن قوسه عن جميع العرب فوفى بها: وأما أسود العرب، فقيس بن عاصم، الذي وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبسط له رداءه، وقال: هذا سيد الوبر؛ وأما أحلم العرب، فعتاب بن ورقاء الرياحي؛ وأما أفرس العرب، فالحرش بن هلال السعدي؛ أما أشعر العرب فأنذا بين يديك يا أمير المؤمنين، فاغتم سليمان مما سمع من فخره ولم ينكره، وقال: ارجع على عقبك، فما لك عندنا شيء من خير. فرجع الفرزدق وقال: أتيناك لا من حاجة عرضت لنا ... إليك ولا من قلة في مجاشع

فضل العقل على المنطق حكمة

وقال محمد بن الغاز: دخل رجل على سُليمان بن عبد الملك، فتكلم عنده بكلام أعجب سُليمان، فأراد أن يختبره لينظر أ عقله على قدر كلامه أم لا، فوجده مضعوفاً فقال: فضل العقل على المنطق حكمة، وفضل المنطق على العقل هجنة، وخير الأمور ما صدقت بعضها بعضاً، وأنشد:

وما المرء إلا الأصغران لسانه ... ومَعقوله والجسم خلق مُصور
فإن تمر منه ما يروق فربما ... أمر مذاق العود والعود أخضر

مُحَبَّرَةٌ مَزَوَّرَةٌ يا أمير المؤمنين؟

ودخل أعرابي على سُليمان بن عبد الملك، فقال له: أصابتك سماءٌ في وجهك يا أعرابي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، غير أنها سَحَاءٌ طُخْيَاءٌ وَطَفَاءٌ، كأن هَوادِيها الدِّلاءُ، مُرَجَحَّةُ النِّوَاحِي، موصولة بالآكام، تَمَسُّ هَامَ الرِّجَالِ، كَثِيرَ رِجْلِها، قاصِفٌ رَعْدُها، خاطف بَرَقِها، حَثِيثٌ وَدَقِها، بطيء سيرها، مُتَفَجِّرٌ قَطَرِها، مُظْلِمٌ نَوْؤِها، قد أَلْجأت الوحشَ إلى أوطانها، تَبَحَثُ عن أصولها بأظلافها، مُتَجَمِّعةٌ بعد شتاتها، فلولا اعتصامنا يا أمير المؤمنين ببعضه الشجر، وتعلقنا بقتن الجبال، لَكُنَّا جُفَاءً في بَعْضِ الأودية وَلَقَمَ الطريق، فأطال الله لأمَّة بقاءك، ونسألها في أجلك، فهذا، ببركتك، وعادة الله بك على رعيتك، وصلى الله على سيدنا محمد. فقال سُليمان: لَعَمْرُ أبيك، لئن كانت بديهة لقد أحسنت، وإن كانت مُحَبَّرَةٌ لقد أجدت؛ قال: بل مُحَبَّرَةٌ مَزَوَّرَةٌ يا أمير المؤمنين؟ قال: يا غلام، أعطه، فوالله لصِدْقُهُ أعجب إلينا من وصفه.

لكن رأسك مثل رأس البغل

وحضر أعرابي سَفرة سُليمان بن عبد الملك، فلما أتى بالفالودج جعل يُسرِع فيه، فقال سُليمان: أتدري ما تأكل يا أعرابي؟ فقال: بلى يا أمير المؤمنين، إني لأجد ريقاً هنيئاً ومُزْدَرِداً ليناً، وأظنه الصراطُ المُستقيم الذي ذكره الله في كتابه. قال: فَضَحَكَ سُليمان، وقال: أزيدك منه يا أعرابي؟!، فإنهم يذكرون أنه يزيد في الدماغ؟ قال: كذبوك يا أمير المؤمنين، لو كان كذلك لكان رأسك مثل رأس البغل.

عجلنا على قتيبة

لما بلغ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ أَنَّ سُليمان بن عبد الملك عَزَلَهُ عن خراسان واستعمل يزيد بن المهلب، كتب إليه ثلاث صُحف، وقال للرسول: ادفع إليه هذه، فإن دَفَعها إلى يزيد فادفع إليه هذه، فإن شَتَمَني فادفع إليه هذه. فلما سار الرسول إليه دفع الكتاب إليه، وفيه: يا أمير المؤمنين، إن من بلائي في طاعة أبيك

وأخيك كَيْتَ وكَيْت. فدفع كتابه إلى يزيد. فأعطاه الرسولُ الكتابَ الثاني، وفيه: يا أمير المؤمنين، كيف تأمن ابن دَحْمَةَ على أسراركَ وأبوه لم يَأْمَنه على أمهات أولاده؟ فلما قرأ الكتاب شتمه وناولَه ليزيد. فأعطاه الثالثَ وفيه: من قُتَيْبَةَ بن مُسلم إلى سليمان بن عبد الملك. سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد. فوالله لأوثقنَّ له أخِيَّةٌ لا ينزعها المهر الأرن. فلما قرأها قال سليمان: عَجَّلْنَا على قُتَيْبَةَ، يا غلام، جدِّدْ له عهداً على خُراسان.

ولكن كيف أصنع بوصيَّة أمير المؤمنين

وأراد سليمان بن عبد الملك أن يحجر على يزيد بن عبد الملك، وذلك أنه تزوج سعدى بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان فأصدقها عشرين ألف دينار، واشترى جارية بأربعة آلاف دينار. فقال سليمان: لقد هممتُ أن أضربَ على يد هذا السفِيه، ولكن كيف أصنع بوصيَّة أمير المؤمنين بابني عاتكة: يزيد ومروان!

وأنا الحجاج

كان سليمان بن عبد الملك يكتب إلى الحجاج في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك كُتْباً فلا ينظر له فيها. فكتب إليه: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. من سليمان بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف: سلامٌ على أهل الطاعة من عباد الله. أما بعد. فإنك امرؤ مهتوك عنه حجابُ الحقِّ، مولعٌ بما عليك لا لك، مُنصرف عن مَنافعك، تاركٌ لحظَّك، مُستخفٌّ بحق الله وحق أوليائه. لا ما سلف إليك من خير يعطفك، ولا ما عليك لا لك يصرفك. في مُبهماة من أمرك مغمور منكوس مُعصوفر عن الحق اعصيصاراً، ولا تتنكب عن قبيح، ولا ترعوي عن إساءة، ولا ترجو الله وقاراً، حتى دُعيت فاحشاً سبَّاباً. فقسْ شبرك بفترك، واحذْ زمام نعلك بحذو مثله. فإيم الله لنن أمكنني الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك، ولأجعلنك شريداً في الجبال، تلوذ بأطراف الشمال، ولأعلقن الرومية الحمراء بئذيبيها. علم الله ذلك مني وقضى لي به عليّ، فقدماً غرتك العافية، وانتحيت أعراض الرجال، فإنك قدّرت فبذخت، وظفرت فتعدّيت. فرويدك حتى تنظر كيف يكون مصيرك إن كانت بي وبك مدة أتعلق بها، وإن تكن الأخرى فأرجو أن تؤول إلى مذلة ذليل، وخزية طويلة، ويجعل مصيرك في الآخرة شرَّ مصير. والسلام.

فكتب إليه الحجاج: بسم الله الرحمن الرحيم. من الحجاج بن يوسف إلى سليمان بن عبد الملك. سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد. فإنك كتبت إليّ تذكر أني امرؤ مهتوك عني حجابُ الحق، مولعٌ بما عليّ لا لي، مُنصرف عن

منافعي، تارك لحظي، مُستخف بحق الله وحق ولي الحق. وتذكر أنك ذو مُصاولة ولعمري إنك لصبي حديث السن تُعذر بقلّة عقلك وحادثة سنك ويُرقب فيك غيرك، فأما كتابك إليّ فلعمري لقد ضَعُف فيك عقلك، واستخفّ به حلمك، فلله أبوك. أفلا انتصرت بقضاء الله دون قضاءك، ورجاء الله دون رجائك، وأمت غيظك، وأمنت عدوك، وسترت عنه تدبيرك، ولم تُنبّهه فيلتمس من مُكايدتك ما تلتمس من مُكايدته، ولكنك لم تستشِف الأمور علماً، ولم تُرزق من أمرك حَزْماً. جمعت أموراً دلاّك فيها الشيطان على أسوأ أمرك، فكان الجفاء من خليقتك، والحمق من طبيعتك، وأقبل الشيطان بك وأدبر، وحدثك أنك لن تكون كاملاً حتى تتعاطى ما يعيبك. فتحدّلت حنجرتك لقوله، واتّسعت جوانبها لكذبه. وأما قولك لو ملكك الله لعلّقت زينب بنت يوسف بثدييها، فأرجو أن يكرمها الله بهوانك، وأن لا يوفّق ذلك لك إن كان ذلك من رأيك، مع أنني أعرف أنك كتبت إليّ والشيطان بين كتفيك، فشرّ مُمل على شرّ كاتب راض بالخسف، بالحمق أن لا يدلك على هدى، ولا يردك إلا إلى ردى. وتحلب فوق للخلافة، فأنت شامخ البصر، طامح النظر، تظن أنك حين تملكها لا تنقطع عنك مدتها. إنها اللقطة التي أسأل أن يلهمك فيها الشكر، مع أنني أرجو أن ترغب فيما رغب فيه أبوك وأخوك فأكون لك مثلي لهما. وإن نفخ الشيطان في منخريك فهو أمر أراد الله نزعك عنك وإخراجه إلى من هو أكمل به منك. ولعمري إنها لنصيحة، فإن تقبلها فمثّلها قبل، وإن تردّها عليّ اقتطعناها دونك؟ وأنا الحجاج. (266)

ويحك! جعلتني مشجوجاً

سمر الفرزدق والأخطل وجريز عند سليمان بن عبد الملك ليلة، فبينما هم حوله إذ خفق. فقالوا: نَعَس أمير المؤمنين، وهمّوا بالقيام. فقال لهم سليمان: لا تقوموا حتى تقولوا في هذا شعراً. فقال الأخطل: رماه الكرى في رأسه فكأنه ... صريع تروى بين أصحابه حمراً فقال له: ويحك! سكران جعلتني ثم قال جريز بن الخطفي: رماه الكرى في رأسه فكأنما ... يرى في سواد الليل قنبرة حمراً فقال له: ويحك! أجعلتني أعمى. ثم قال الفرزدق بعد هذا: رماه الكرى في رأسه فكأنما ... أميم جلاميد تركن به وقرا قال له: ويحك! جعلتني مشجوجاً. ثم أذن لهم فانقلبوا، فحيّاهم وأعطاهم.

من لي بدواء ما لا يشتكى؟ وعلاج ما لا يسمى؟

قال أبو زيد الأسدي : دخلت على سليمان بن عبد الملك بن مروان، وهو جالس على دكان مبلط بالرخام الأحمر، مفروش باليباج الأخضر، في وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع، وإذا بإزاء كل شق من البستان ميدان بنبت الربيع قد أزهر. وعلى رأسه وصائف، كل واحدة منهن أحسن من صاحبته. وقد غابت الشمس فنضرت الخضرة، وأضعفت في حسنها الزهرة، وغنت الأطيّار فتجاوبت، وسفت الرياح على الأشجار فتمايلت، بأنهار فيه قد شققت، ومياه قد تدفقت. فقلت: السلام عليك يا أيها الأمير ورحمة الله وبركاته. وكان مطرقاً، فرفع رأسه وقال: أبا زيد، في مثل هذا الحين يصاب أحد حيا؟ قلت: أصلح الله الأمير، أو قد قامت القيامة بعد. قال: نعم، على أهل المحبة سراً والمراسلة بينهم خفية. ثم أطرق ملياً، ثم رفع رأسه فقال: أبا زيد، ما يطيب في يومنا هذا؟ قلت: أعز الله الأمير، قهوة صفراء في زجاجة بيضاء، تناولها مقدودة هيفاء، مضمومة لفاء دعجاء. أشربها من كفها، وأمسخ فمي بفمها. فأطرق سليمان ملياً لا يحير جواباً، تنحدر من عينه عبرات بلا شهيق. فلما رأى الوصائف ذلك تنحين عنه. ثم رفع رأسه فقال: أبا زيد، حلت في يوم فيه انقضاء أجلك، ومنتهى مدتك، وتصرم عمرك، والله لأضربن عنقك أو لتخبرني ما أثار هذه الصفة من قلبك. قلت: نعم أصلح الله الأمير، كنت جالساً عند باب أخيك سعيد بن عبد الملك، فإذا أنا بجارية قد خرجت إلى باب القصر كالغزال انفلت من شبكة الصياد، عليها قميص سكب يتبين منه بياض بدنّها، وتدوير سرتها، ونقش تكتها، وفي رجليها نعلان صراران، قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها، مضمومة بفرد ذؤابة تضرب إلى حقويها، وتسيل كالعشاكيل على منكبيها، وطرة قد أسبلت على متني جبينها، وصدغان قد زينا كأنهما نونان على وجنتيها، وحاجبان قد قوسا على محجري عينيها، وعينان مملوءتان سحراً، وأنف كأنه قصبه در، وفم كأنه جرح يقطر دماً. وهي تقول: عباد الله، من لي بدواء ما لا يشتكى؟ وعلاج ما لا يسمى؟ طال الحجاب، وأبطأ الجواب، فالفؤاد؟ طائر، والقلب عازب، والنفس والهة، والفؤاد مختلس، والنوم محتبس، رحمة الله على قوم عاشوا تجلداً، وماتوا تبلداً، ولو كان إلى الصبر حيلة، وإلى العزاء سبيل، لكان أمراً جميلاً، ثم أطرقت طويلاً، ثم رفعت رأسها. فقلت: أيتها الجارية، إنسية أنت أم جنية؟ سمائية أم أرضية؟ فقد أعجبني ذكاء عقلك، وأذهلني حسن منطقك. فسترت وجهها بكمها كأنها لم ترني، ثم قالت: اعذر أيتها المتكلم الأريب، فما أوحش الساعة

بلا مساعد، والمقاساة لصب معاند، ثم انصرفت. فوالله، أصلح الله الأمير، ما أكلت طيباً إلا غصصت به لذكرها، ولا رأيت حسناً إلا سمج في عيني لحسنها. قال سليمان: أبا زيد، كاد الجهل أن يستفزني، والصبا أن يعاودني، والحلم أن يعزب عني؛ لحسن ما رأيت وشجو ما سمعت، تلك هي الذلفاء التي يقول فيها الشاعر:

إنما الذلفاء ياقوته ... أخرجت من كيس دهقان

شراؤها على أخير ألف ألف درهم. وهي عاشقة لمن باعها، والله إني من لا يموت إلا بحزنها، ولا يدخل القبر إلا بغصتها، وفي الصبر سلوة، وفي توقع الموت نهية، قم أبا زيد فاكتم المفاوضة. يا غلام ثقله ببدة. فأخذتها وانصرفت. قال أبو زيد: فلما أفضت الخلافة إلى سليمان صارت الذلفاء إليه، فأمر بفسطاط، فأخرج على دهناء الغوطة وضرب في روضة خضراء، مونة زهراء، ذات حدائق بهجة، تحتها أنواع الزهر الغض، من بين أصفر فاقع، واحمر ساطع، وأبيض ناصع، فهي كالثوب الحرمي. وحواشي البرد الأتحمي، يثير منها مر الرياح نسима يربى على رائحة العنبر، وفتيت المسك الأذفر. وكان له مغن ونديم وسمير يقال له سنان، به يأنس وإليه يسكن. فأمر أن يضرب فسطاسه بالقرب منه. وقد كانت الذلفاء خرجت مع سليمان إلى ذلك المنتزه، فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان في أكمل سرور، وأتم حبور، إلى أن انصرف مع الليل إلى فسطاسه. فنزل به جماعة من إخوانه فقالوا له: قرانا، أصلحك الله. قال: وما قراكم؟ قالوا: أكل وشرب وسماع. قال: أما الأكل والشرب فمباحان لكم، وأما السماع فقد عرفتكم شدة غيرة أمير المؤمنين ونهيه إياي عنه، إلا ما كان في مجلسه. قالوا: لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا. قال: فاختراروا صوتاً واحداً أغنيكموه. قالوا. غننا صوت كذا. قال: فرفع عقيره يتغنى بهذه الأبيات:

محجوبة سمعت صوتي فأرقها ... من آخر الليل لما ظلها السحر

تثنى على الخد منها من معصرة ... والحلي بادٍ على لباتها خصر

في ليلة لا يدري مضاجعها ... أوجهها عنده أبهى أم القمر

لم يحجب الصوت أحراس ولا غلق ... فدمعها لطروق الصوت منحدر

لو خلّيت لمشت نحوي على قدم ... تكاد من لينها للمشي تنفطر

فسمعت الذلفاء صوت سنان فخرجت إلى وسط الفسطاط تستمع، فجعلت لا تسمع شيئاً من حسن خلق ولطافة قد إلى الذي وافق المعنى، من وقت الليل واستماعها الصوت إلا رأت ذلك كله في نفسها وهيئتها فحرك ذلك ساكناً في

قلبها، فهملت عيناها وعلا نשיجها. فانتبه سليمان فلم يجدها معه، فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحال، فقال لها: ما هذا يا ذلفاء؟ فقالت: ألا رب صوت رائع من مشوه... قبيح المحيا واضع الأب والجد يروحك منه صوته ولعله... إلى أمة يعزى معاً وإلى عبد فقال سليمان: دعيني من هذا، فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر. يا غلام، علي بسنان. فدعت الذلفاء خادما لها فقالت: إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان فحذره ولك عشر آلاف درهم، وأنت حر لوجه الله. فخرج الرسول. فسبق رسول سليمان. فلما أتى به قال: يا سنان، ألم أنهك عن مثل هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين، حملني الثمل وأنا عبد أمير المؤمنين وغذي نعمته، فإن رأى أمير المؤمنين أن لا يضيع حظه من عبده فليفعل. قال: أما حظي منك فلن أضيعه، ولكن ويلك! أما علمت أن الرجل إذا تغنى أصغت المرأة إليه، وأن الحصان إذا سهل استودقت له الفرس، وأن الجمل إذا هدر ضبعت له الناقة، وأن التيس إذا نب استحرمت له الشاة؟ إياك والعود إلى ما كان منك فيطول غمك. (267)

كيف ترينني؟

وذكر عن سليمان بن عبد الملك أنه خرج من الحمام، وهو الخليفة، يريد الصلاة، ونظر في المرأة فأعجبه جماله، وكان حسن الوجه، فقال: أنا الملك الشاب، ويروى " الفتى " فتلقته إحدى حظاياها، فقال لها: كيف ترينني؟ فتمثلت في البيتين المتقدم ذكرهما، فتطير بهما ورجع، فحم فما بات إلا ميتاً تلك الليلة. (268)

لا والله لا أفعل أبداً

وحدث الرياشي أن سليمان بن عبد الملك لما حج ونزل الطائف هارباً من ومد مكة، قال له رجل من ثقيف: انزل عليّ، فقال: إنك لن تطيقني، فقال: إني لأطيقك. فنزل عنده أياماً، ثم ارتحل، فأمره بالخروج معه، فقالت له امرأته: اخرج معه إلى مستقره، فقال: أعمل معه ماذا؟ أقول له أعطني ثمن ما أكلته عندي! لا والله لا أفعل أبداً. (269)

267 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 1 / 141 ، 146 ، 147 ، 310 ، 167 ، 152 ، 311 ،

444 ، 454 ، 5/2 ، 156 ، 157 ، 345 ، 414

268 (ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ص 155

269 (المبرد ، الفاضل ، ص 10

خصلة من ثلاث

ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ، عندي نصيحة . قال : وما نصيحتك هذه ؟ قال : فلان كان عاملاً ليزيد بن معاوية وعبد الملك والوليد ، فخانهم فيما تولاه ثم اقتطع أموالاً كثيرة جليلة فمر باستخراجهما منه . قال : أنت شر منه وأخون حيث أطلعت على أمره وأظهرته ولولا أنني أنفر النصح لعاقبتك ، ولكن اختر مني خصلة من ثلاث . قال : أعرضهن يا أمير المؤمنين . قال : إن شئت فتشنا عما ذكرت ، فإن كنت صادقاً مقتناك ، وإن كنت كاذباً عاقبناك وإن استقلت أقلناك ، فاستقاله الرجل .

قاتلها الله هي والله أشعرهم

قال سليمان بن عبد الملك : أنشدوني أحسن ما سمعتم من شعر النساء ، فقال بعضهم : يا أمير المؤمنين سار رجل من الظرفاء في بعض طرقاته ، إذ أخذته السماء ، فوقف تحت مظلة ليستكن من المطر ، وجارية مشرفة عليه ، فلما رآته حذفته بحجر فرفع رأسه وقال :
لو بتفاحة رميت رجونا . . . ومن الرمي بالحصاة جفاء
فأجابته :
ما جهلنا الذي ذكرت من الشكل . . . ولا بالذي نراه خفاء
وداية معها ، فقالت :
قد بدأتيه ما ذكرت وجدي . . . ليت شعري فهل لهذا وفاء
وسائلة في الباب ، فقالت :
قد لعمرى دعوتها فاجابت . . . هي داءٌ وأنت منه شفاء
قال سليمان : قاتلها الله هي والله أشعرهم .

مساوى شدة الغيرة والعقوبة عليها

حكى عن سليمان بن عبد الملك أنه كان في بعض أسفاره ، فسمر معه قوم ، فلما تفرقوا عنه ، دعا بوضوء ، فجاءت به جارية ، فبينما هي تصب الماء على يده ، إذ استمدها ، وأشار إليها مرتين أو ثلاثاً فلم تصب عليه ، فأنكر ذلك ، ورفع رأسه ، فإذا هي مصغية بسمعها ، مائلة بجسدها إلى صوت غناء من ناحية العسكر ، فأمرها فتحت ، فسمع الصوت فإذا رجل يغني ، فأنصت له حتى فهم ما غنى ، فدعا بجارية غيرها فتوضأ ، فلما أصبح ، أذن للناس ، فأجرى ذكر الغناء ، فلم يزل يخوض فيه حتى ظن القوم أنه يشتهيهِ ؛ فأفاضوا فيه وذكروا ما جاء في الغناء ، والتسهيل لمن سمعه ، وذكروا من

كان يسمعه من سروات الناس ، فقال : هل بقي أحد يسمع منه ؟ فقال رجل من القوم : عندي رجلان من أهل الأبلّة محكمان ، قال : فأين منزلك من العسكر ؟ فأوماً إلى ناحية الغناء ، فقال سليمان : ابعث إليهما ، ففعل ، فوجد الرسول أحدهما وأقبل به ، وكان اسمه سمير ، فسأله عن الغناء ، وكيف هو فيه ، قال : محكم ، قال : متى عهدك به ؟ قال : البارحة ، قال : وفي أي النواحي كنت ؟ فذكر الناحية التي سمع منها الصوت قال : وما اسم صاحبك ؟ قال : سنان . قال : فأقبل سليمان على القوم فقال : هدر الفحل فضبعت الناقة ، ونبت التيس فشكرت الشاة ، وهذل الحمام فزافت الحمامة ، وغنى الرجل فطربت المرأة ، ثم أمر به فخصي ، وسأل عن الغناء أين أصله ؟ قالوا : بالمدينة وهم المخنثون ، فكتب إلى عامله أن أخص من قبلك من المخنثين (270).

محاسن النظر في المظالم

دخل رجل في جماعة من الناس على سليمان بن عبد الملك وهو جالس للعامة فقال: يا سليمان أذكرك يوم الأذان. قال: فارتاع لما دعاه باسمه وقال: ويحك وما يوم الأذان؟ قال: قول الله جل ذكره: " فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ " . فبكى سليمان وقال له: ما حاجتك؟ فقال: أنا جار في ضيعتك الفلانية وقد ظلمني وكيلك فأضّرّ ذلك بي وبعيالي. قال: قد وهبت لك الضيعة. وكتب إلى وكيله بتسليمها إليه.

كفّ عني فإني أنفك

وقدم وفد من العراق على سليمان بن عبد الملك فقصوا حوائجهم وانصرفوا. فقال رجل منهم: بلغني أن أمير المؤمنين يبرز للعامة فأنا أقيم بعدكم يوماً أو يومين فلعلي أن أراه وأسمع كلامه ثم أتبعكم. فلما كان في الغد برز سليمان للناس وجلس على سريرته وأذن للعامة فدخلوا وفيهم العراقي. فجلس في سماط سليمان إلى جنب رجل أحرق من أهل الشام. فقال له الأحمق: ممن الرجل؟ قال: أنا من أهل العراق. وقال: فعل الله بك وفعل، وجعل يشتمه ويذكر أباه وعرضه، وقال: مثلك يقعد في سماط أمير المؤمنين! والعراقي يناشده الله ويسأله أن يكفّ عنه فيأبى، إلى أن قال سليمان: أيكم يخبرني من الذي يقول:

أنخن القرون فعقلنّها ... كعطف العسيب عراجين ميلا

270 (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري ، المحاسن والأضداد ، الطبعة الثانية ، مكتبة الخانجي - القاهرة / مصر -1415هـ - 1994م ، ص 50 ، 128،192

ويفسّر لنا قوله فله جارية برحالتها؟ والشامي مقبل على العراقي لا يفتر عن شتمه ويقول: يا جاسوس. فقال له: كفّ عني فإني أنفَعك. قال: وهل معك خير؟ قال: نعم، قم فقل لأمير المؤمنين أنا أعرف من قال هذا وأفسره، فإذا قال: من قاله؟ فقل: امرؤ القيس، فإذا قال: ما عني به؟ فقل: البطيخ. فقال الشامي: يا أمير المؤمنين أنا أعرف من قال هذا وأفسره. فقال: هات. قال: امرؤ القيس. فتبسم سليمان وقال: فما عني به؟ قال: البطيخ. فضحك سليمان حتى استلقى على فراشه ثم قال: ويحك عمن أخذت هذا العلم؟ فقال: عن هذا العراقي. فأشار سليمان إلى العراقي فأقبل إليه، فقال له: من أنت؟ قال: رجل من أهل العراق كنت قدمت مع فلان وفلان فقضوا حوائجهم وانصرفوا فأقمت أرقب جلوس أمير المؤمنين فقعدت إلى هذا الشامي فلم يدع سباً ولا شتماً إلا استقبلني به. فقلت له كفّ عني فإني أنفَعك، قل لأمير المؤمنين كذا وكذا، فكان منه ما قد سمعته. فضحك وقال: أتعرف أنت من قاله؟ قلت: كثير عزة. قال: وما عني به؟ قلت: قرون الرأس، والعسيب الخادم، والعراجين قد اختلفوا فيه فقال بعضهم عناقيد الكرم وقال بعضهم عراجين النخل. فأمر له بجائزة سنّية وقال له: الحق بأصحابك. (271)

أنا ابن محي الموتى

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك فقال الفرزدق أنا ابن محي الموتى فأنكر سليمان قوله فقال يا أمير المؤمنين قال الله تعالى (ومن أحيّاها فكأنما أحيّا الناس جميعاً) وجدي فدى الموءودات فاستحيّاهن فقال سليمان إنك مع شعرك لفقيه وكان صعصعة جد الفرزدق أول من فدى الموءودات.

فقد قبلنا عذرك وعلما ظلم الحجاج

وقيل إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه واستأصل موجوده وسجنه فتوصل يزيد بحسن تلافه وأرغب السجن واستمالة وهرب هو والسجان وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك ابن مروان وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن إليه وأقامة عنده فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن وأنه عند سليمان بن عبد الملك أخي أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين وأن أمير المؤمنين أعلى رأياً فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك فكتب سليمان إلى أخيه يقول يا أمير المؤمنين أني ما أجرت

يزيد بن المهلب الا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديما وحديثا ولم أجر
عدوا لأمير المؤمنين وقد كان الحجاج قصده وعذبه وأغرمه أربعة آلاف ألف
درهم ظلما ثم طالبة بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم وقد صار إلى واستجار بي
فأجرتة وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم فإن رأى أمير المؤمنين أن
لا يختبرني في ضيفي فليفعل فإنه أهل الفضل والكرم فكتب إليه الوليد إنه لا
بد أن ترسل إلي يزيد مغلولاً مقيداً فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده
أيوب فقيدته ودعا يزيد بن المهلب فقيدته ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة
وغلها جميعاً بغلين وأرسلهما إلى أخيه الوليد وكتب إليه أما بعد يا أمير
المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان ولقد هممت أن
أكون ثالثهما فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك أبدا بأيوب
من قبله ثم اجعل يزيد ثانيا واجعلني إذا شئت ثالثا والسلام .

فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان في سلسلة واحدة أطرق الوليد
استيحاء وقال لقد أسأنا إلي أبي أيوب إذ بلغنا به هذا المبلغ فأخذ يزيد ليتكلم
ويحتج لنفسه فقال له الوليد ما يحتاج إلى الكلام فقد قبلنا عذرك وعلمنا ظلم
الحجاج ثم أنه أحضر حدادا وأزال عنهما الحديد وأحسن إليهما ووصل أيوب
ابن أخيه بثلاثين ألف درهم ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم
وردهما إلى سليمان وكتب كتابا إلى الحجاج يقول له لا سبيل لك على يزيد بن
المهلب فإياك أن تعاودني فيه بعد اليوم فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك
وأقام عنده في أعلى المراتب وأرفع المنازل.

جمرة لا يطفئها إلا عبرة

وقال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ورجاء ابن
حيوة : إن في كبدي جمرة لا يطفئها إلا عبرة فقال عمر اذكر الله يا أمير
المؤمنين وعليك بالصبر فنظر إلى رجاء كالمستريح بمشورته فقال رجاء
أفضها يا أمير المؤمنين فما بذلك من بأس لقد دمت عينا رسول الله على
ابنه إبراهيم وقال إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع ولانقول ما يسخط الرب
وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون فأرسل سليمان عينية حتى قضى أربه ثم أقبل
عليهم قال لولا نزفت هذه العبرة لا نصدع كبدي ثم إنه لم يبك بعدها . (272)

²⁷² (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبيشي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق
د. مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الثانية ، 1986 ، 1/ 290 ، 299-300 ،

إذا لم أشتهه تركته حتى أشتهيه

قال سليمان بن عبد الملك لسالم بن عبد الله، وقد رآه حسن السحنة: أي شيء تأكل؟ قال: الخبز والزيت، وإذا وجدت اللحم أكلته. قال له: وتشتهيه؟ قال: إذا لم أشتهه تركته حتى أشتهيه.

فإنها زلة ولا أعود لمثلها

وحضر سفرة سليمان أعرابي فنظر إلى شعرة في لقمة الأعرابي فقال أري شعرة في لقمتك يا أعرابي قال وإنك لتراعيني مراعاة من يبصر الشعرة في لقمتي والله لا واكلتك أبدا فقال استرها يا أعرابي فإنها زلة ولا أعود لمثلها (273).

اشتريته بدرهمين

عن مولى لعمر بن حريث قال : شخصت إلى سليمان بن عبد الملك ، فقيل لي : إنك تردُّ على أفصح العرب ، وسيسألك عن المطر ، فانظر ما تجيبه ، فقلت : ما عندي من الجواب إلا ما عند العامة ، فقيل لي : ما ذلك بمقنع عنده ، فلقيني أعرابي فقلت : هل لك في درهمين . فقال : إني والله محتاج إليهما ، حريص عليهما ، فما شأنك ؟ فقلت : لو سألك سائل عن هذا المطر بم كنت تجيبه ؟ قال : أو يعيا بهذا أحد ؟ قلت : نعم ، سألك قال : أتعيأ أن تقول : أصابتنا سماءٌ ، عمد لها الثرى ، واتصل بها العرى ، وقامت منها الغدر ، وأنتك في مثل وجار الضبع ؟ فكتب الكلام ، وأعطيته درهمين : فكان هجيراي على الراحلة ، فإذا نزلت أقبلت عليه وأمثل نفسي كأني واقف بين يديه ، وقد سلّمت عليه بالخلافة وهو يسألني عن المطر فلما انتهيت إليه سألني فاقتصصت الكلام ، فكسر إحدى عينيه ، وقال : إني لأسمع كلاماً ما أنت بأبي عذرتة . قلت : صدقت وحياتك يا أمير المؤمنين اشتريته بدرهمين فاستغرب ضحكاً ، ثم أحسن صلتني .

²⁷³ (أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة ، المكتبة العلمية -

هذه والله المعرفة بقدر النعمة

- وخطب سليمان بن عبد الملك فقال : أيها الناس ، مَنْ لم يعلم أَبَوَابَ مَدْخَلِهِ في الكرامة ، وَجَهْلَ طَرِيقَتِهِ التي وَقَعَتْ به على النعمة كان بَعْزُ رُجُوعٍ إلى دارِ هَوَانٍ ، وانقلابٍ بفادحِ خُسْرَانٍ .

فقام إليه أبو وائلة السدوسي ، وهو حاجبُه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، كُنَّا كما قال الله تعالى . ' هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ' ، ثم صرنا كما قال زهير : الوافر :

يَدُ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ تَنَاوَلَتْهُمْ . . . بِإِحْسَانٍ فَلَيْسَ لَهَا مُزِيلٌ

لَأَنَّ الْخَيْرَ أَجْمَعَ فِي يَدَيْهِ . . . وَرَبِّي بِالْجَزَاءِ لَهُ كَفِيلٌ

فقال سليمان : هذه والله المعرفة بقدر النعمة ، والعلم بما يجب للمنع .

فَالْعَنُوهُ ، لعنه الله

صعد خالد بن عبد الله القسري المنبر يوم جمعة ، فخطب وهو إذ ذاك أميراً على مكة ، فذكر الحجاج فأحمد طاعته ، وأثنى عليه خيراً ، فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك يأمره فيه بشتم الحجاج وذكر عيوبه ، وإظهار البراءة منه ، وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن إبليس كان ملكاً من الملائكة ، وكان يُظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له بذلك فضلاً ، وكان الله تعالى قد علم من غشّه ما خفي عن الملائكة ، فلما أراد الله فضيحتَه ابتلاه بالسجود لآدم ، فظهر لهم ما كان يُخفيه عنهم فلعنوه ؛ وإن الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنّا نرى له بذلك فضلاً ، وكان الله عزّ وجلّ ، أطلع أمير المؤمنين من غلّه وخُبثه على ما خفي عنّا ، فلما أراد الله فضيحتَه أجرى ذلك على يدي أمير المؤمنين ، فَالْعَنُوهُ ، لعنه الله . ثم نزل .

الصمتُ

وذكر الصمتُ في مجلس سليمان بن عبد الملك فقال : إن مَنْ تكلم فأحسن قَدَرَ أَنْ يَسْكُتَ فَيُحْسِنَ ، وليس مَنْ سَكَتَ فَأَحْسَنَ يَتَكَلَّمُ فَيُحْسِنَ .

لا تَقُلْ هذا في الحجاج

دخل يزيد بن أبي مُسلم ، كاتبُ الحجاج ، على سليمان بن عبد الملك ، فازدراه ونبت عينه عنه ، فقال : ما رأت عيني كاليوم قطّ ، لعن الله امرأً أَجَرَكَ رَسَنَهُ ، وحكّمك في أمره . فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تَقُلْ ذلك ؛ فإنك

رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرَ عَنِّي مُدَبِّر ، وَعَلَيْكَ مُقْبِل ، فَلَوْ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرَ عَلَيَّ مُقْبِل ،
وَعَنكَ مُدَبِّر ، لَاسْتَعْظَمْتَ مِنِّي مَا اسْتَصْغَرْتَ ، وَاسْتَكْبَرْتَ مَا اسْتَقْلَلْتَ .
قال : عَزَمْتُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ أَبِي مُسْلِمٍ لَتُخْبِرَنِي عَنِ الْحَجَّاجِ ، أَتَرَاهُ يَهْوِي فِي
جَهَنَّمَ أَمْ قَدْ قَرَّبَهَا ؟ فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا تَقُلْ هَذَا فِي الْحَجَّاجِ ، وَقَدْ
بَذَلَ لَكُمْ النُّصِيحَةَ ، وَأَمَّنْ دَوْلَتَكُمْ ، وَأَخَافُ عِدْوَكُمْ ، وَكَأَنِّي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَهُوَ عَنِ يَمِينِ أَبِيكَ ، وَيَسَارِ أَخِيكَ ، فَاجْعَلْهُ حَيْثُ شِئْتَ .
فقال له سليمان : أُعْزِبُ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ فَخْرَجَ ، فَالْتَفَتَ سُلَيْمَانُ إِلَى جُلَسَائِهِ
فقال : قَاتِلْهُ اللَّهُ مَا أَحْسَنَ بَدِيهَتَهُ ، وَتَرْفِيعَهُ لِنَفْسِهِ وَلصَاحِبِهِ وَقَدْ أَحْسَنَ
الْمُكَافَاةَ فِي الصَّنِيعَةِ ، خَلَّوْا عَنْهُ .

وقال سليمان بن عبد الملك : مَا سَأَلَنِي أَحَدٌ قَطَّ مَسْأَلَةً يَثْقُلُ عَلَيَّ قَضَاؤُهَا ،
وَلَا يَخْفُفُ عَلَيَّ أَدَاؤُهَا ، بَلْفَظٍ حَسَنٍ يَجْمَعُ لَهُ الْقَلْبَ فَهَمَّهُ إِلَّا قَضَيْتُهَا ، وَإِنْ
كَانَتِ الْعَزِيمَةُ نَفَذْتُ فِي مَنَعِهِ ، وَكَانَ الصَّوَابُ مُسْتَقْرَأً فِي دَفْعِهِ ، ضِنًّا
بِالصَّوَابِ أَنْ يَرُدَّ سَائِلُهُ ، أَوْ يَحْرِمَ نَائِلُهُ . (274)

وإلا محوتك!

ولما استخلف سليمان بن عبد الملك تهدد الحجاج بالعزل، فكتب إليه الحجاج:
يا سليمان إنما أنت نقطة من مداد، فإن رأيت في ما رأى أبوك وأخوك كنت
لك كما كنت لهما، وإلا فأنا الحجاج وأنت نقطة إن شئت أتيتك وإلا محوتك!
فأقره على عمله.

فيعمل بعمل الفراعنة!

وقال سليمان بن عبد الملك لبلال بن أبي بردة: صف لي الحجاج؛ فقال: كان
يتيزن بزينة المومسة، فإذا صعد المنبر تكلم بكلام القسيسين، وينزل فيعمل
بعمل الفراعنة! . (275)

حيلة أحد عمال سليمان بن عبد الملك

لما استخلف سليمان بن عبد الملك دفع عمال أخيه الوليد إلى يزيد بن المهلب
وأمره ببسط العذاب عليهم ، واستخراج المال منهم ، وكان فيهم رجل من
بني مرة فقال ليزيد : أما أنا فلست بذئ مال ، ولا تنتفع بتعذبي ولكن

²⁷⁴ (أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني ، زهر الأدب وثمر الألباب، تحقيق : أ. د
يوسف علي طویل ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1417 هـ - 1997م

، 1 / 245، 317، 298 ، 86/2 ، 415، 392

²⁷⁵ (الراغب الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ، 1 / 76، 2، 500/33

عشيرتي تفكني بأموالهم ، فأذن لي في أن أجول فيهم . فأذن له فقال لهم : إن أمير المؤمنين قد أخذني بمال ، والمال عندي ، ولكن أكره أن أقر بالخيانة ، فاضمنوا له هذا المال عني وأطلقوني من حبسه ، ولا غرم عليكم فإني مضطلع بأداء هذا المال . فنهض وجوه عشيرته في أمره ، وضمنوا المال عنه وأطلقوه ، فلما أخذوا بالمال قالوا للرجل : أد المال كما زعمت . فقال : يا حمقي أتظنون أنني اختنت مالا تعرضت فيه للمأثم وسخط الخليفة وعقوبته ، وأؤديه اليوم طائعا ، وقد صيرت ما أطالب به في أعناقكم ، لبئس ما ظننتم اغرموه من أعطياتكم وأنا فيه كأحدكم . ففعلوا ذلك وهو كأحدهم . (276)

فأشكو ربي

دخل محمد بن كعب القرظي على سليمان بن عبد الملك في ثياب رثة، فقال له سليمان: ما يحملك على لبس هذا؟ قال: أكره أن أقول الزهد فأطري نفسي، أو أقول الفقر فأشكو ربي.

والله لا أسأل في بيت الله غير الله

حج سليمان بن عبد الملك فدخل البيت فرأى سالم بن عبد الله فقال: ارفع حوائجك، فقال: والله لا أسأل في بيت الله غير الله.

فأين قوله يا ابن اللخناء؟

كان سليمان بن عبد الملك إذا حضر طعامه فتحت الأبواب ورفعت الستور ودخل الناس، فإذا انقضى ذلك نادى مناديه: إن أمير المؤمنين مرتفع من مجلسه، فهل لأحد منكم حاجة؟ فقام رجل ذات يوم فقال: يا أمير المؤمنين، إن لي في بيت مالك مائتي دينار، وأنا الآن مملك بابنة عم لي، وقد ضرب علي أجل إن جزته فرق بيني وبينها، فإن رأى أمير المؤمنين أسلفني هذه المائتين فأقضي عني، فقال: يا ابن اللخناء (277)، أقسطار أنا حتى أسلفك؟ بل أهب لك مائتي دينار ومائتي دينار، وجعل يكررها حتى انقطع نفسه على ثلاثة آلاف دينار، فقبضها الرجل، فأتاه الناس يهنئونه قال: فأين قوله يا ابن اللخناء؟ فبلغ ذلك سليمان فقال: صدق، وددت أني افتديتها بأضعاف ذلك ولم أقلها. (278)

(276) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر ، 92/4

(277) اللخناء: المنتنة الريح

(278) أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 75 / 1 ، 263 ، 265 ، 2 / 16

ألست صفوان بن سليم؟!

قدم سليمان بن عبد الملك المدينة وعمر بن عبد العزيز عامله عليها، قال: فصلى بالناس الظهر، ثم فتح باب المقصورة وقد استند إلى المحراب، واستقبل الناس بوجهه، فنظر إلى صفوان بن سليم الزهري عن غير معرفة، فقال: يا عمر من هذا؟ ما رأيت سمياً أحسن منه، قال: يا أمير المؤمنين هذا صفوان بن سليم، قال: يا غلام كيس فيه خمسمائة دينار، فأتي به فقال لخادمه: ترى هذا الرجل القائم يصلي؟ فوصفه للغلام حتى أثبتته، قال: فخرج الغلام بالكيس حتى جلس إلى صفوان، فلما نظر صفوان إليه ركع وسجد ثم سلم، فأقبل عليه وقال: ما حاجتك؟ قال: أمرني أمير المؤمنين، وهو ذا ينظر إليك وإلي، أن ادفع هذا الكيس، ويقول لك: استعن بهذه على زمانك وعلى عيالك، فقال صفوان للغلام: ليس أنا الذي أرسلت إليه، قال الغلام، ألست صفوان بن سليم؟! قال بلى أنا صفوان بن سليم قال إليك أرسلت؟ قال: اذهب فاستثبت فإذا أثبت فهلم، فقال الغلام: أمسك الكيس معك وأذهب أنا، قال: لا إذا أمسكت فقد أخذت، ولكن اذهب واستثبت وأنا هنا جالس، فولى الغلام، وأخذ صفوان نعليه وخرج، فلم ير بها حتى خرج سليمان من المدينة.

لكأنما معه ملكان

جاء عطاء بن أبي رباح إلى سدة سليمان بن عبد الملك فجعل يقعق الحلقة، فقال سليمان بن عبد الملك: افتحوا له، وتزحزح له عن مجلسه فقال: أصلحك الله، احفظ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم في أبناء المهاجرين والأنصار قال: أصنع بهم ماذا؟ قال: انظر في أرزاقهم، قال: ثم ماذا؟ قال: أهل البادية تفقد أمورهم فإنهم مادة العرب، قال: ثم ماذا؟ قال: ذمة المسلمين تفقد أمورهم وخفف عنهم من خراجهم فإنهم عون لك على عدو الله وعدوهم، قال: ثم ماذا؟ قال: أهل الثغور تفقدهم فإنه يدفع بهم عن هذه الأمة، قال: ثم ماذا؟ قال: يصلح الله أمير المؤمنين. فلما ولى قال: هذا والله الشرف لا شرفنا، وهذا والله السؤدد لا سؤددنا، والله لكأنما معه ملكان ما أقدر أن أراجعه في شيء سألني، ولو سألني أن أتزحزح عن هذا المجلس لفعلت.

هذا وأبيكم السؤدد

قدم سليمان بن عبد الملك المدينة فأهدى له خارجة بن زيد بن ثابت ألف عنق موز، وألف قرعة عسل أبيض، وألف شاة، وألف دجاجة، ومائة إوزة، ومائة جزور، فقال سليمان: أجحفت بنفسك يا خارجة، قال: يا أمير المؤمنين قدمت بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت في أهل بيتي مالك بن

النجار، وأنت ضيف، وإنما هذا قرى، فقال: هذا وأبيكم السؤدد. ثم سأل عن دينه فقيل خمسة وعشرون ألف دينار، فقضاها عنه وأعطاه عشرة آلاف دينار.

ما أعظم بركة المؤمن في كل شيء

قال محمد بن صفوان الضبي: كنت أقوم على رأس سليمان بن عبد الملك، فدخل عليه رجل من حضرموت من حكمائهم، فقال له سليمان: تكلم بحاجتك، فقال: من كان الغالب على كلامه النصيحة وحسن الإرادة أوفى به كلامه على السلامة، وإنني أعوذ بالذي أشخصني من أهلي حتى أوفدني عليك أن ينطقني بغير الحق، وأن يذل لساني بما فيه سخطه علي، وإن إقصار الخطبة أبلغ في أفئدة أولي الفهم من الإطالة والتشديق في البلاغة، إلا وإن من البلاغة يا أمير المؤمنين ما فهم وإن قل، وإنني مقتصر على الاقتصار مجتنب لكثير من الإكثار. أشخصني إليك والي عسوف ورعية ضائعة، وإنك إن تعجل تدرك ما فات، وإن تقصر تهلك رعيته هناك ضياعاً، وها فخذها إليك قصيرة موجزة. فقال سليمان: ادع لي رجلاً من الحرس فاحمله على البريد وقل له: إذا أتيت البلاد فلا تنزل من مركبك حتى تعزله، ومن كانت له ظلامة أخذت له بحقه. ثم أمر للحكيم بمال فأبى أن يقبل وقال: إني والله يا أمير المؤمنين أحاسب سفري على الله عز وجل، وإنني أكره أن آخذ عليه من غيره أجراً. قال: انطلق بارك الله عليك. فلما ولى قال سليمان: ما أعظم بركة المؤمن في كل شيء. (279)

ويلكم زيدوني

دخل سعيد بن خالد بن أسيد على سليمان بن عبد الملك، وكان جواداً، إن لم يجد شيئاً كتب على نفسه صكا حتى يوسر، فتمثل له سليمان: إني سمعت مع الصباح منادياً... يا من يعين على الفتى المعوان ثم قال حاجتك؟ قال: ديني؛ قال: كم هو؟ قال ثلاثون ألف دينار؛ قال: لك دينك ومثلاه وعشرة آلاف، فأمر له بمائة ألف دينار. فلما ولى هشام أتى بنو سعيد هشاماً فقالوا: أن أبانا قد تركنا وما في قريش أحوج منا، فحجر عليه وأجرى عليه في كل يوم شاة، فقال: ويلكم زيدوني أبلغكم أني بازي.

ما أعظمها من يد!

أوسع رجل لرجل في مجلس سليمان بن عبد الملك، وكان الناس مزدحمين، فقال سليمان: ما أعظمها من يد! وأحسنه من معروف! وما ضاعت يد أودعها رجل رجلاً.

فتغير وجه سليمان

حج سليمان بن عبد الملك فلقية طاووس، ف قيل حدث أمير المؤمنين، فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن من أعظم الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله في سلطانه فجار في حكمه ". فتغير وجه سليمان.

ولكن أريد التحفظ

كان سليمان بن عبد الملك يجمع جواريه ونسائه، ويحدثهن بضروب من العلم، ثم يقول: إني لأعلم أنكن لا تدرين ما أقول ولكن أريد التحفظ.

يحك رأسه حتى كاد يجرحه

استحضر سليمان بن عبد الملك طاووساً فسكت طويلاً ثم قال: هل تعلمون أول ما خلق؟ قالوا: لا، قال: القلم، ثم قال: فهل تعلمون آخر من يموت؟ قالوا: لا، قال: ملك الموت، قال: هل تعلمون أبغض خلق الله؟ قالوا: لا، قال: إن أبغض خلق الله إليه عبد أعطاه سلطاناً فعمل بمعصيته. فأخذ سليمان يحك رأسه حتى كاد يجرحه.⁽²⁸⁰⁾

اختبره ونفاه

وقدم الفرزدق على عمر بن عبد العزيز، وهو أمير المدينة، فأكرمه وأحسن ضيافته. فبلغه أنه زان أن يختبر ذلك، فقال لجارية له: انطلقي إلى الفرزدق، وعمر في حجرة له ينظر ما يصنع الفرزدق، فأنته الجارية بالغسل والدهن، وذهبت لتغسل رأسه، فوثب عليها فركضته وقالت: لعنك الله من شيخ. ثم خرجت فأتت عمر فأخبرته فنفاه من المدينة. وقال جرير: نفاك الأعز بن عبد العزيز ... وحقك تنفى من المسجد فقال الفرزدق:

فأوعني وأجلني ثلاثاً ... كما وعدت بمهلكها ثمود⁽²⁸¹⁾

²⁸⁰ (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 1 / 93 ، 197 ، 276 ، 442 ، 327 ،

²⁸¹ (ابن الجوزي ، أخبار النساء ، ص 53

خبثاً كله

قال الأصمعي : وفد فلان بن أبي بردة على عمر بن عبد العزيز وهو بحاضرة، فلزم سارية من المسجد يصلي إليها بحسن الركوع الخشوع وعمر بن عبد العزيز ينظر إليه فقال عمر للعلاء بن المغيرة وكان خصيصاً بعمر. فقال له العلاء بن المغيرة: أنا آتيك يا أمير المؤمنين بخبره فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء فقال له اشفع صلاتك فإن لي حاجة فلما سلم من صلاته قال له العلاء تعرف منزلتي وموضعي من أمير المؤمنين فإني أن أشرت عليك أني وليك العراق ما تجعل لي قال عمالتي سنة، وكان مبلغها عشرين ومائة ألف. قال فاكتب لي على ذلك خطأ فقام من وقته فكتب له خطأً بذلك فحمل ذلك الخط إلى عمر بن عبد العزيز فلما قرأه كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وكان والياً على الكوفة: أما بعد فان بلال غرنا بالله فكدنا نغتر به ثم سبكناه فوجدناه خبثاً كله. (282)

الشعراء على باب عمر بن عبد العزيز

عن عوانة بن الحك، قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد الشعراء إليه فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم، الرحيل، إذ مر بهم رجاء بن حيوة. وكان من خطباء أهل الشام فلما رآه جرير داخلاً على عمر أنشأ يقول:
يا أيها الرجل المرخي عمامته ... هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا
قال: فدخل ولم يذكر من أمرهم شيئاً، ثم مر بهم عدي بن أرطاة، فقال له جرير:

يا أيها الراكب المزجي مطيته ... هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه ... أني لدى الباب كالمصفود في قرن
لا تنس حاجتنا لقيت مغفرة ... قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

قال: فدخل عدي على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين! الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة، قال: ويحك يا عدي! ما لي وللشعر، قال: أعز الله أمير المؤمنين، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح فأعطى، ولك في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوت حسنة، فقال: كيف؟ قال: امتدحه العباس بن مرداس السلمي فأعطاه حلة قطع بها لسانه، قال: أو تروي من قوله شيئاً؟ قال: نعم، وأنشد:
رأيتك يا خير البرية كلها ... نشرت كتابا جاء بالحق معلما

شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا ... عن الحق لما أصبح الحق مظلماً
ونورت بالبرهان أمراً مدنساً ... وأطفأت بالبرهان ناراً تضرماً
فمن مبلغ عني النبي محمداً ... وكل امرئ يجرى بما كان قدماً
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه ... وكان قديماً ركنه قد تهدماً
تعالى علواً فوق عرش إلها ... وكان مكان الله أعلى وأعظماً
قال ويحك يا عدي! من بالباب منهم؟ قال: عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة،
قال: أليس هو الذي يقول:

ثم نبهتها فهبت كعاباً ... طفلة ما تبين رجع الكلام
ساعة ثم إنها بعد قالت ... ويلتا قد عجلت يا ابن الكرام
أعلى غير موعدٍ جئت تسري ... تتخطى إلي روس النيام
ما تجشمت ما يزين من الأم ... رولا جئت طارقاً لخصام
فلو كان عدو الله إذ فجر كتم نفسه، لا يدخل علي والله أبداً، فمن بالباب سواه؟
قال: همام بن غالب، يعني الفرزدق، قال: أليس هو الذي يقول:
هما دلتاني من ثمانين قامة ... كما انقض بازٍ أقتم الريش كاسرهُ
فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا ... أحي يرجى أم قتيل نحاذره
لا يطاء والله بساطي، فمن سواه بالباب منهم؟ قال: الأخطل، قال: أليس هو
الذي يقول:

ولست بصائم رمضان طوعاً ... ولسب بآكل لحم الأضاحي
ولست بزاجر عنساً بكور ... إلى بطحاء مكة للنجاح
ولست بقائم كالعير يدعو ... قبيل الصبح حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولاً ... وأسجد عند منبلج الصباح
والله لا يدخل علي وهو كافر أبداً، فهل بالباب سوى من ذكرت؟ قال: نعم
الأحوص، قال: أليس هو الذي يقول:
الله بيني وبين سيدها ... يفر مني بها وأتبعه
غرب عنه، فما هو بدون من ذكرت، فمن هاهنا أيضاً؟ قال: جميل بن معمر
قال: يا عدي هو الذي يقول:

ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن تمت ... يوافق في موتي ضريحي ضريحها
فما أنا في طول الحياة براغب ... إذا قيل قد سوي عليها صفيحها
فلو كان عدو الله تمنى لقائها في الدنيا ليعمل بعد ذلك صالحاً، والله لا يدخل
علي أبداً، هل سوى من ذكرت أحد؟ قال: جرير بن عطية، قال: أما إنه الذي
يقول:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... حين الزيارة فارجعي بسلام
فإن كان لا بد فهو، قال فأذن لجريز، فدخل وهو يقول:
إن الذي بعث النبي محمداً ... جعل الخلافة في الإمام العادل
وسع الخلق عدله ووفاءه ... حتى ارعوى وأقام ميل المائل
إني لأرجو منك خيراً عاجلاً ... والنفس مولعة بحب العاجل
فلما مثل بين يديه قال: ويحك يا جريز، اتق الله ولا تقولن إلا حقاً، فأنشأ
جريز يقول:

أذكر الجهد والبلوى التي نزلت ... أم قد كفاني ما بلغت من خبري
كم باليمامة من شعناء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
ممن يعدك تكفي فقد والده ... كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعة ملهوف كأن به ... خبلاً من الجن أو مساً من النشر
خليفة الله ماذا تأمرون بنا ... لسنا إليكم ولا في دار منتظر
ما زلت بعدك في هم يؤرقني ... قد طال في الحي إصعادي ومنحدري
لا ينفع الحاضر المجهود بادينا ... ولا يعود لنا بادٍ على حضر
إننا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قدراً ... كما أتى ربه موسى على قدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها ... فمن لحاجة هذا الأرملة الذكر
الخير ما دمت حياً لا يفارقنا ... بورك يا عمر الخيرات من عمر
فقال: يا جريز! ما أرى لك هاهنا حقاً، فقال: بلى يا أمير المؤمنين، أنا ابن
سبيل ومنقطع بي، فأعطاه من صلب ماله مائة درهم، وقد ذكر أنه قال له:
ويحك يا جريز! لقد ولينا هذا الأمر وما نملك إلا ثلثمائة درهم، فمائة أخذها
عبد الله ومائة أخذتها أم عبد الله، يا غلام أعطه المائة الباقية، قال: فأخذها
وقال: والله لهي أحب مما اكتسبته إلي، قال: ثم خرج فقال له الشعراء: ما
وراءك؟ قال: ما يسوءكم، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء،
ويمنع الشعراء، وإني لراض، وأنشأ يقول:

رأيت رقي الشيطان لا تستغفره ... وقد كان شيطاني من الجن راقيا
الفرزدق يؤجل ثلاثاً

قال عمرو بن خالد العماني: قدم الفرزدق المدينة في سنة جدبة حصباء،
فمشى أهل المدينة إلى عمر بن عبد العزيز، وهو يومئذ أميرها فقالوا له:
أصلح الله الأمير، إن الفرزدق قدم مدينتنا هذه في هذه السنة الجدبة التي قد
خلت أموالها، وليس عند أحدٍ منهم ما يعطيه، فلو أن الأمير بعث إليه فأرضاه

وتقدم إليه ألا يعرض لأحدٍ بمدح ولا هجاء، قال: فبعث إليه عمر بن عبد العزيز، فقال: يا فرزدق! إنك قدمت مدينتنا في هذه السنة الجذبة، وليس عند واحد منا ما يعطي شاعراً، وقد أمرت لك بأربعة آلاف درهم، فخذها ولا تعرض لأحدٍ بمدح ولا هجاء.

قال: فأخذها الفرزدق ومر بعبد الله بن عمرو بن عثمان وهو جالس في سقيفة داره وعليه مطرفٌ وعمامة خز حمراء وجبة خز حمراء، فقال:

أعبد الله أنت أحق ماشٍ ... وساع بالجماعير الكبار

فللفاروق أمك وابن أروى ... أبوك وأنت منصدع النهار

هما قمر السماء وأنت نجمٌ ... به في الليل يدلج كل سار

قال: فخلع عليه جبته والمطرف والعمامة ودعا له بعشرة آلاف درهم. قال:

فخرج رجلٌ كان عند عبد الله بن عمرو بن عثمان، وقد حضر الفرزدق عندما أعطاه عمر بن عبد العزيز وتقدم إليه فأخبر عمر بن عبد العزيز الخبر، فبعث إليه عمر: ألم أتقدم إليك يا فرزدق ألا تعرض لأحدٍ بمدح ولا هجاء، اخرج فقد أجلتك ثلاثاً، فإن وجدتكَ بعد ثلاث نكلت بك، قال: فخرج الفرزدق وهو يقول: أوعدني وأجلني ثلاثاً ... كما وعدت لمهلكها ثمود؟

يتخلص من الولاية ببیت شعر

قال العتبي: ولي عمر بن عبد العزيز رجلاً فكره الولاية، فكتب إلى عمر: بسم

الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين، أما بعد:

فاسقتي شربةً أذ عليها ... ثم عد مثل شربتي لهشام

فكتب إليه عمر: اعتزل عملي، فاعتزل ثم كتب إليه:

عسلاً سائلاً وماءً قراحاً ... إنني لا أحب شرب المدام

فكتب إليه عمر: عد إلى عملك، فكتب إليه: لا حاجة لي في عملكم.

عفة جرير، وفجور الفرزدق

حدث إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي: أن جريراً قدم على عمر بن عبد العزيز وهو يتولى المدينة، فأنزله في دارٍ وبعث إليه بجارية تخدمه، فقالت له: إني أراك شعثاً فهل لك في الغسل؟ فجاءته بغسل وماء، فقال: تنحي عني ثم اغتسل.

ثم قدم الفرزدق فأنزله داراً وبعث إليه بجارية فعرضت عليه مثل ذلك، فوثب عليها فخرجت إلى عمر، فنفاه عن المدينة وأجله ثلاثاً، ففي ذلك يقول:

توعدني وأجلني ثلاثاً ... كما لبثت لمهلكها ثمود

وبلغ ذلك جريراً، فقال:

نفاك الأغر ابن عبد العزيز ... بحقك تنفى عن المسجد
وشبهت نفسك أشقى ثمود ... فقالوا: ضللت ولم تهتد
وقد أخرجوا حين حل العذاب ... ثلاث ليالٍ إلى الموعد
بين بني هاشم وبني أمية

حدثنا محمد بن يحيى الصولي قال حدثنا محمد بن زكريا الغلابي قال حدثنا عبد الله بن عائشة عن جويرية قال، قال عمر بن عبد العزيز: ما زلنا نحن وبنو عمنا من بني هاشم مرة لنا ومرة علينا، نلجأ إليهم ويلجأون إلينا حتى طلعت شمس الرسالة فأكدت كل نافق وأخرست كل ناطق.

قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر

وروي في الخبر أنه قيل لا بن عمر بن عبد العزيز: ما رأيت رجلاً أكرم من أبيك، سمريت معه ذات ليلة فخفت المصباح، فقام إليه فأصلحه، فقلت له: يا أمير المؤمنين هلا أمرت بإصلاحه، فقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز.

حكاية غريبة عن توسط عمر بن عبد العزيز لدى يزيد بن المهلب

قال ابن الكوفي وكان بشر بن مروان قد ادخر وهو على العراق عن ابنه عبد الملك وعن عيينة بن أسماء من غلات أراضيهم مالا عظيماً، فلما ولي الحجاج أخرج تلك البقايا فوجد ما على عبد الملك وعيينة بن أسماء فقال: وما على بشر أن يهب من مال الله تعالى لابنه وختنه هذا وأكثر منه، والله لآخذنهما به أخذ الضب ولده، وطالبهما فريثاه حتى هلك فلحقا بالشام فنزلا على عمر بن عبد العزيز فقالا له: إن بشراً كان أطعمنا شيئاً كثيراً من غلاتنا فبسطنا فيه أيدينا، وإن الحجاج بسفهه وخرقه وظلمه أخرج علينا ثم أخذنا به، فلم نزل نخدعه عن أنفسنا حتى هلك، فكلم أمير المؤمنين في هبة ذلك لنا، فضحك عمر وقال: لست أثق لكما بكلامي، ولكن لكما عندي رأي فيه نجاح طلبتكما، قالوا: فادللنا عليه، قال: نمشي إلى يزيد بن المهلب فإما أن يحملها من ماله، وإما أن يعيننا على سليمان فيهبها لكما، ولا والله ما كنت لأمشي إلى عربي على الأرض غيره ليس من ولد مروان. ثم أتوا يزيد فقال له عمر: إن أتيناك زواراً وهذان من قد عرفت، فلا تنتظرن إلى جرم أبو يهما عند أبيك، فضحك يزيد وقال: عفا الله عنك يا أبا حفص، أرجع في ذنب قد غفره أبي قبلي؟! والله ما عجز عن مكافأتهما في حياته ولا أوصاني بالتأثر من بعده، فإنهما لأخوأي وصاحباي، هاتوا حاجتكم، فقال عمر: إن الحجاج أخرج عليهما مما كان بشر ترك لهما من غلاتهما ألف ألف وخمسمائة ألف

فما ترى؟ قال: رأيكم فاحتكموا، قال: تحمل منها ما شئت قال: علي نصفها، والمطلب إلى أمير المؤمنين في بقيتها، فإن حمله عني وإلا حملته، فقال عبد الملك بن بشر: والله ما ظلم الناس أن زعموا أنك سيدهم. ثم خرجوا وعمر يقول: ما رأينا مثل هذا العراقي في وطأته فعل قبلها مثلها، ثم حمل عن القيسيين وعن يزيد بن عاتكة، وهذه ألف ألف وخمسمائة ألف. ثم ركب يزيد إلى سليمان فدخل عليه وعنده جماعة من وجوه أهل اليمن فقام فقال: يا أمير المؤمنين، فقال له سليمان: أمسك، وأبيك إنك لقادر على خلواتي، اجلس، فقال يزيد: ما قمت لأجلس فأذن لي في الكلام، فقال: هات، فأخبره بمجيء عمر إليه وقال: قد حملت النصف وضمنت عليك الباقيين والله يا أمير المؤمنين إن مقامي بالشام لمن تمام نعمة الله علي بأمر المؤمنين، إنه لم يعمد إلي أحد في حاجة إلا قضاها الله بك يا أمير المؤمنين على يدي، فقال سليمان: قد وهبنا ذلك كله لك، فلك حمده وعلينا غرمه.

وفود كثير والأحوص على عمر بن العزيز رضي الله عنه

قال حماد الراوية: قال لي كثير عزة: ألا أخبرك عما دعاني إلى ترك الشعر؟ قلت: نعم؛ قال: شخصت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكل واحد منا يدل عليه بسابقة وإخاء قديم، ونحن لا نشك أنه سيشر كنا في خلافته، فلما رفعت لنا أعلام خناصرة، لقينا مسلمة بن عبد الملك، وهو يومئذ فتى العرب؛ فسلمنا، فرد، ثم قال: أما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر؟ قلنا ما توضح إلينا خبر حتى انتهينا إليك، ووجمنا وجمة عرف ذلك فينا؛ فقال: إن يك ذو دين بنى مروان قد ولي وخشيتم حرمانه، فإن ذا دنياها قد بقي ولكم عندي ما تحبون، وما ألبث حتى أرجع إليكم وأمنحكم ما أنتم أهله. فلما قدم كانت رحالنا عنده بأكرم منزل وأكرم منزل عليه؛ فأقمنا عنده أربعة أشهر يطلب لنا الإذن هو وغيره فلا يؤذن لنا، إلى أن قلت في جمعة من تلك الجمع: لو أنني دنوت من عمر فسمعت كلامه فحفظته كان ذلك رأيا، ففعلت. فكان مما حفظت من كلامه: لكل سفر زاد لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه أو عقابه، فترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم؛ في كلام كثير لا أحفظه. ثم قال: أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي، وتظهر عيشتي، وتبدو مسكنتي، في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق. ثم بكى حتى ظننت أنه قاض نحبه، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء فانصرفت إلى صاحبي فقلت لهما: خذا في شرح

من الشعر غير ما كنا نقول لعمر وآبائه، فإن الرجل آخري وليس بدنيوي.
إلى أن استأذن لنا مسلمة في يوم جمعة ما أذن للعامة، فلما دخلت سلمت ثم
قلت: يا أمير المؤمنين، طال الشتاء وقلت الفائدة وتحدثت بجفائك إيانا وفود
العرب؛ قال؛ يا كثير " إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها
والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل " أفي
واحد من هؤلاء أنت؟ قلت: بلى، ابن سبيل منقطع به، وأنا ضاحك؛ قال:
ألسـت ضيف أبي سعيد؟ قلت: بلى؛ قال: ما أرى ضيف أبي سعيد منقطعاً به؛
قلت: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في الإنشاء؟ قال: نعم، ولا تقل إلا حقاً،
فقلت:

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف ... برياً ولم تقبل إشارة مجرم
وصدقت بالفعل المقال مع الذي ... أتيت فأمسى راضياً كل مسلم
ألا إنما الفتى بعد زيجة ... من الأود البادي ثقاف المقوم
وقد لبست لبس الهلوك ثيابها ... تراءى لك الدنيا بكف ومعصم
وتومض أحياناً بعين مريضة ... وتبسم عن مثل الجمان المنظم
فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما ... سقتك مدوفاً من سمّام وعلقم
وقد كنت من أجبالها في ممنع ... ومن بحرها في مزبد الموج مفعم
وما زلت تواقاً إلى كل غاية ... بلغت بها أعلى البناء المقوم
فلما أتاك الملك عفواً ولم يكن ... لطالب دنيا بعده من تكلم
تركت الذي يفنى وإن كان مونقا ... وآثرت ما يبقى برأي مصمم
وأضررت بالفاني وشمرت للذي ... أمامك في يوم من الهول مظلم
ومالك إذ كنت الخليفة مانع ... سوى الله من مال رغب ولا دم
سما لك هم في الفؤاد مؤرق ... بلغت به أعلى المعالي بسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها ... مناد ينادي من فصيح وأعجم
يقول: أمير المؤمنين ظلمتني ... بأخذ للدينار ولا أخذ درهم
ولا بسط كف لأمري غير مجرم ... ولا السفك منه ظالماً ملء محجم
ولو يستطيع المسلمون لقسموا ... لك الشطر من أعمارهم غير ندم
فأربح بها من صفقة لمبايع ... وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم
قال: فأقبل علي وقال: إنك مسؤول عما قلت. ثم تقدم الأحوص فاستأذنه في
الإنشاد؛ فقال: قل ولا تقل إلا حقاً؛ فقال:

وما الشعر إلا حكمة من مؤلف ... بمنطق حق أو بمنطق باطل
فلا تقبلن إلا الذي وافق الرضا ... ولا ترجعنا كالنساء الأرامل

رأيناك تعدل عن الحق يمناً ... ولا شامة فعل الظلوم المخاتل
ولكن أخذت الحق جهدك كله ... وتقفو مثال الصالحين الأوائل
فقلنا ولم نكذب بما قد بدا لنا ... ومن ذا يرد الحق من قول قائل
ومن ذا يرد السهم بعد مضائه ... على فوقه إذ عار من نزع نابل
ولولا قد عودتنا خلائف ... غطاريف كانوا كاليوث البواسل
لما وخذت شهراً برحلى شملة ... تقدمتون البید بین الرواحل
ولكن رجونا منك مثل الذي به ... حبينا زماناً من ذويك الأوائل
فإن لم يكن للشعر عندك موضع ... وإن كان مثل الدر من نظم قائل
وكان مصيباً صادقاً لا يعيبه ... سوى أنه يبني بناء المنازل
فإن لنا قربى ومحض مودة ... وميراث آباء مشوا بالمناصل
فذاذوا عدو السلم عن عقر دارهم ... وأرسوا عمود الدين بعد التمايل
وقبلك ما أعطى الهنيذة جلة ... على الشعر كعباً من سديس وبازل
رسول الإله المستضاء بنوره ... عليه سلام الضحى والأصائل
فقال: إنك مسؤول عما قلت. قم تقدم نصيب فاستأذنه في الإنشاد، فلم يأذن
له، وأمره بالغزو إلى دابق، فخرج إليها وهو محموم. وأمر لي بثلاثمائة،
وللأحوص بمثلها، ولنصيب بمائة وخمسين.⁽²⁸³⁾

أعطى صاحبكم مقولاً ولم يعط معقولاً

ودخل خالد بن عبد الله القسري على عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة،
فقال: يا أمير المؤمنين، من تكون الخلافة قد زانته فأنت قد زنتها، ومن تكون
شرفته فأنت قد شرفتها، وأنت كما قال الشاعر:

وإذا الدر زان حسن وجوه ... كان للدر حسن وجهك زينا.
فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أعطى صاحبكم مقولاً ولم يعط معقولاً.

فألقي عمر رأسه على صدره

حدث العتبي عن سفيان بن عيينة قال: قدم على عمر بن عبد العزيز ناس من
أهل العراق، فنظر إلى شاب منهم يتحوش للكلام، فقال: أكبروا أكبروا؛ فقال:
يا أمير المؤمنين، إنه ليس بالسن، ولو كان الأمر كله بالسن لكان في
المسلمين من أهو أسن منك؛ فقال عمر: صدقت رحمك الله تكلم؛ فقال: يا أمير
المؤمنين، إنا لم نأتك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقد دخلت علينا منازلنا،
وقدمت علينا بلادنا، وأما الرهبة فقد أمننا الله بعدلك من جورك؛ قال: فما
أنتم؟ قال: وفد الشكر؛ قال: فنظر محمد بن كعب القرظي إلى وجه عمر يتهلل،

فقال: يا أمير المؤمنين، لا يغلبن جهل القوم بك معرفتك بنفسك، فإن ناساً خدعهم الثناء، وغرهم شكر الناس فهلكوا، وأنا أعيذك بالله أن تكون منهم، فألقى عمر رأسه على صدره.

أقبل من البادية ليست له حاجة إلا شتينا ثم انصرف؟

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل من بني أمية كان له أخوال في بني مرة: قبح الله شبعاً غلب عليك من بني مرة. فبلغ ذلك عقيل بن علفة، فأقبل إليه فقال له قبل أن يبتدئه بالسلام: بلغني يا أمير المؤمنين أنك غضبت على رجل من بني عمك له أخوال في بني مرة، فقلت: قبح الله شبعاً غلب عليك من بني مرة، وأنا أقول قبح الله الأم الطرفين، ثم انصرف. فقال عمر بن عبد العزيز: من رأى أعجب من هذا الشيخ الذي أقبل من البادية ليست له حاجة إلا شتينا ثم انصرف؟ فقال له رجل من بني مرة: والله يا أمير المؤمنين ما شتمك وما شتم إلا نفسه وقومه، نحن والله الأم الطرفين.

صدق

واستعمل عمر بن عبد العزيز رجلاً، ف قيل له: إنه حديث السن ولا نراه يضبط عملك؛ فأخذ العهد منه وقال: ما أراك تضبط عملك لحداثتك؛ فقال الفتى: وليس يزيد المرء جهلاً ولا عمى ... إذا كان ذا عقل حداثة سنه فقال عمر: صدق، ورد عليه عهده.

انصرف إذا شئت

وأسمع رجلاً عمر بن عبد العزيز بعض ما يكره، فقال: لا عليك، إنما أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان، فأنا لك اليوم ما تناله مني غداً، انصرف إذا شئت.

وقال الشاعر في هذا المعنى:

لَنْ يَذْرَكَ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا ... حَتَّى يَذِلُّوا وَإِنْ عَزُّوا لِأَقْوَامٍ
وَيُشْتَمُوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ كَاسِفَةً ... لَا ذِلَّ عَجَزٍ وَلَكِنْ ذِلُّ أَخْلَامٍ
وَلَا آخِرَ:

إِذَا قِيلَتِ الْعَوْرَاءُ أَغْضَى كَأَنَّهُ ... ذَلِيلٌ بِلَا ذِلٍّ وَلَوْ شَاءَ لَانْتَصَرَ
وَأَحْسَنَ بَيْتٍ فِي الْحِلْمِ قَوْلُ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِ وَالْخَنَى ... أَصَبْتَ حَلِيمًا أَوْ أَصَابَكَ جَاهِلٌ

أنا واحد وأنتم جماعة

وقال صاحبُ حرسِ عمر بن عبد العزيز: خرج علينا عمرُ في يومِ عيدٍ وعليه قميصُ كَتَّانٍ وعِمامةٌ؛ على قلنسوةٍ لاطئةٍ، ففُقمنا إليه وسلَّمنا عليه؛ فقال: مَهْ، أنا واحدٌ وأنتم جماعةٌ، السلامُ عليَّ والردُّ عليكم. ثم سلَّم ورددنا عليه ومشى، فمشينا معه إلى المسجد.

فلا تُعدُّ إلينا

ودخل رجلٌ على عمر بن عبد العزيز يعودُه في مرضه، فسأله عن علته، فلما أخبره قال: من هذه العلة مات فلان ومات فلان. فقال له عمر: إذا عُدت المَرَضَى فلا تنع إليهم الموتى، وإذا خرجت عَنَّا فلا تُعدُّ إلينا.

فكأنَّ آخرَ من كُتِبَ عليه الموت قد مات

وكتب الحسنُ إلى عُمَر بن عبد العزيز: أما بعد، فكأنك بالدنيا لم تكن، وبالأخرة لم تزل. والسلام. وكتب إليه عُمَر: أما بعد، فكأن آخرَ من كُتِبَ عليه الموت قد مات، والسلام.

اكتفى باليسير

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجاء بن حيوة: أما بعد، فإنه من أكثر من ذكر الموت اكتفى باليسير: ومن علِم أن الكلامَ عملٌ قلَّ كلامه إلا فيما ينفعه.

ما بلغ بك ما أرى؟

ودخل قوم على عُمَر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه، وفيهم شابُّ ذابل ناحِل. فقال له عُمَر: يا فتى، ما بلغ بك ما أرى؟ قال: يا أمير المؤمنين، أمراضٌ وأسقام. قال له عمر: لتصدَّقني. قال: بلى يا أمير المؤمنين، ذُقت يوماً حلاوة الدنيا فوجدتها مُرَّةً عواقبها، فاستوى عندي حَجَرُها وذَهَبُها، وكأني أنظر إلى عَرْشِ رَبِّنا بارزاً، وإلى الناس يُساقون إلى الجنة والنار، فأظلماتُ نَهاري، وأسَهَرْتُ ليلي، وقليلٌ كلُّ ما أنا فيه في جنبِ ثوابِ الله وخوفِ عقابه.

لأن يكون ما تُحب أحبَّ إليَّ من أن يكون ما أحب

وقال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك: كيف تجدك يا بُني؟ قال: أجدني في الموت فاحتبسني، فإن ثوابَ الله خيرٌ لك مِنِّي؛ قال: والله يا بُني لأن تكون في ميزاني أحبَّ لي أن أكون في ميزانك؛ قال: وأنا والله لأن يكون ما تُحب أحبَّ إليَّ من أن يكون ما أحب.

وجعلت لنا في الصالحين ذِكْراً

لما احتضر عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله استأذن عليه مَسْلَمَةُ بنُ عبد الملك، فأذن له وأمره أن يُخَفِّفَ الوَفْقَةَ، فلما دخل وقف عند رأسه فقال: جَزَاكَ اللهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنَّا خَيْرًا، فلقد أُنْتُ لَنَا قُلُوبًا كَانَتْ عَلَيْنَا قَاسِيَةً، وجعلت لَنَا فِي الصَّالِحِينَ ذِكْرًا.

لو دعوتك أجبتني

وَقَفَّ عمرُ بن عبد العزيز على قبر ابنه عبد الملك فقال: رَحِمَكَ اللهُ يَا بُنَيَّ، فلقد كنت سَارًّا مولودًا بَارًّا نَاشِئًا، وما أَحْسِبُ أَنِّي لو دعوتك أجبتني.

والله سائلك عن مقامي هذا

أتى أعرابيَّ عُمَرَ بن عبد العزيز فقال: رجلٌ من أهل البادية سَافَتُهُ إِلَيْكَ الْحَاجَةُ، وَبَلَغَتْ بِهِ الْغَايَةَ، وَالله سَائِلُكَ عَنْ مَقَامِي هَذَا. فقال عمر: مَا سَمَعْتُ أَبْلَغَ مِنْ قَائِلٍ، وَلَا أَوْعَظَ لِمَقُولٍ لَهُ مِنْ كَلَامِكَ هَذَا.

فإذا كتبت إليك فنقد ولا ترد علي

كَانَ عمرُ بن عبد العزيز يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن عامله على المدينة في المظالم فيُرَادُّه فِيهَا. فكتب إليه: إِنَّهُ يُخِيلُ لِي أَنِّي لو كتبتُ لَكَ أَنْ تُعْطِيَ رَجُلًا شَاةً لَكُتِبْتَ إِلَيَّ: أَذْكَرُ أَمْ أُنْثَى؟ وَلَوْ كُتِبْتُ إِلَيْكَ بِأَحَدِهِمَا لَكُتِبْتَ إِلَيَّ: أَصَغِيرَةٌ أَمْ كَبِيرَةٌ؟ وَلَوْ كُتِبْتُ بِأَحَدِهِمَا لَكُتِبْتَ: ضَائِنَةٌ أَمْ مَعَزٌ؟ فَإِذَا كُتِبْتَ إِلَيْكَ فَنَقَدْ وَلَا تَرُدَّ عَلَيَّ. وَالسَّلَامُ.

إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم

قَالَ الْعُتْبِيُّ: لَمَّا انصَرَفَ عمر بن عبد العزيز من دَفْنِ سُلَيْمَانَ بن عبد الملك تَبِعَهُ الْأُمَوِيُّونَ، فَمَا دَخَلُوا إِلَى مَنْزِلِهِ، قَالَ لَهُ الْحَاجِبُ: الْأُمَوِيُّونَ بِالْبَابِ. قَالَ وَمَا يَرِيدُونَ؟ قَالَ: مَا عَوَّدْتَهُمُ الْخُلَفَاءُ قَبْلَكَ. قَالَ ابْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ، وَهُوَ إِذْ ذَاكَ ابْنُ أَرْبَعٍ عَشْرَةَ سَنَةً: ائْذَنْ لِي فِي إِبْلَاغِهِمْ عَنْكَ. قَالَ: وَمَا تُبْلِغُهُمْ؟ قَالَ: أَقُولُ: أَبِي يُقَرِّئُكُمْ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكُمْ: إِنْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

واقذفوا بهم في النار جميعاً

قَالَ الْعُتْبِيُّ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَشْرًا يَقُولُ: كَانَ فِي زَمَنِ الْمُهَدِيِّ رَجُلٌ صُوفِيٌّ، وَكَانَ عَاقِلًا عَالِمًا وَرِعًا، فَتَحَقَّقَ لِيَجِدَ السَّبِيلَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَكَانَ يَرْكَبُ قَصْبَةً فِي كُلِّ جُمُعَةٍ يَوْمَيْنِ: الْإِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ، فَإِذَا رَكِبَ فِي هَذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ فَلَيْسَ لِمُعَلِّمٍ عَلَى صَبْيَانِهِ حُكْمٌ وَلَا طَاعَةٌ. فَيُخْرِجُ وَيُخْرِجُ مَعَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ وَالصَّبْيَانُ، فَيَصْعَدُ تَلًّا وَيُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ: مَا فَعَلَ النَّبِيُّونَ وَالْمُرْسَلُونَ، أَلَيْسُوا فِي أَعْلَى عَلِيَيْنِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. قَالَ: هَاتُوا أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ. فَأَخَذَ غُلَامٌ فَاجْلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَقُولُ: جَزَاكَ

الله خيراً أبا بكر عن الرعية. فقد عدلت وقمت بالقسط وخلفت محمداً عليه الصلاة والسلام فأحسننت الخلافة، ووصلت حبل الدين بعد حل وتنازع، ونزعت فيه إلى أوثق عروة وأحسن ثقة، اذهبوا به إلى أعلى عليين. ثم ينادي: هاتوا عمر. فأجلس بين يديه غلام. فقال: جزاك الله خيراً أبا حفص عن الإسلام، قد فتحت الفتوح، ووسعت الفيء، وسلكت سبيل الصالحين، وعدلت في الرعية وقسمت بالسوية، اذهبوا به إلى أعلى عليين بحذاء أبي بكر. ثم يقول: هاتوا عثمان. فأتى بغلام فأجلس بين يديه. فيقول له: خلطت في تلك الست السنين، ولكن الله تعالى يقول: " خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ". وعسى من الله موجبة. ثم يقول: اذهبوا به إلى صاحبيه في أعلى عليين. ثم يقول: هاتوا علي بن أبي طالب. فأجلس غلام بين يديه. فيقول: جزاك الله عن الأمة خيراً أبا الحسن، فأنت الوصي وولي النبي، بسطت العدل، وزهدت في الدنيا، واعتزلت الفيء، فلم تخمش فيه بناب ولا ظفر وأنت أبو الذرية المباركة، وزوج الزكية الطاهرة، اذهبوا به إلى أعلى عليين من الفردوس، ثم يقول: هاتوا معاوية. فأجلس بين يديه صبي. فقال له: أنت القاتل عمار بن ياسر، وخزيمة بن ثابت ذا الشهادتين، وحجر بن الأدبر الكندي الذي أخلقت وجهه العبادة، وأنت الذي جعل الخلافة ملكاً، واستأثر بالفيء، وحكم بالهوى، واستنصر بالظلمة، وأنت أول من غير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونقض أحكامه، وقام بالبغي. اذهبوا به فأوقفوه مع الظلمة، ثم قال: هاتوا يزيد. فأجلس بين يديه غلام. فقال له: يا قواد، أنت الذي قتلت أهل الحرة، وأبحت المدينة ثلاثة أيام، وانتهكت حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآويت الملحدين، وبؤت باللعة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتمثلت بشعر الجاهلية: ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل وقتلت حسينا، وحملت بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا على حقائب الإبل، اذهبوا به إلى الدرك الأسفل من النار. ولا يزال يذكر والياً بعد وال حتى بلغ إلى عمر بن عبد العزيز فقال: هاتوا عمر. فأتى بغلام، فأجلس بين يديه، فقال: جزاك الله يا عمر خيراً عن الإسلام، فقد أحييت العدل بعد موته، وأنت القلوب القاسية، وقام بك عمود الدين على ساق، بعد شقاق ونفاق. اذهبوا به فألحقوه بالصدقين. ثم ذكر من كان بعده من الخلفاء إلى أن بلغ دولة بني العباس، فسكت فقليل له: هذا أبو العباس أمير المؤمنين.

قال: بلغ أمرنا إلى بني هاشم، ارفعوا حساب هؤلاء جملة واقذفوا بهم في النار جميعاً.

أتنام وأصحاب الحوائج راكدون ببابك؟

ودخل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز على أبيه عمر، وهو ينام نومة الضحى، فقال: يا أبت، أتنام وأصحاب الحوائج راكدون ببابك؟ قال: يا بني، إن نفسي مطيتي، فإن أنضيتها قطعتها، ومن قطع المطي لم يبلغ الغاية.⁽²⁸⁴⁾
فلعل الساعة قريبة

دخل أبو حازم على عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: عطني فقال: اضطجع، ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك في تلك الساعة، فخذ به الآن: وما تكره أن يكون فيك في تلك الساعة فدعه الآن، فلعل الساعة قريبة.

هذا صوت رحمته

كان عمر بن عبد العزيز واقفاً مع سليمان بن عبد الملك أيام خلافته، فسمع صوت رعد ففرغ منه ووضع صدره على مقدم رحل، فقال له عمر: هذا صوت رحمته، فكيف صوت عذابه.⁽²⁸⁵⁾

ولا تخرجه من حسن رأيك

وسخط مسلمة بن عبد الملك على العريان بن الهيثم، فعزله عن شرطة الكوفة، فشكا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز، فكتب إليه: إن من حفظ أنعم الله، رعاية ذوي الإحسان؛ ومن إظهار شكر الموهوب، صفح القادر عن الذنب، ومن تمام السؤدد حفظ الودائع، واستتمام الصنائع. وقد كنت أودعت العريان نعمة من أنعمك، فسلبتها عجلة سخطك، وأنصفتة عصبته، على أن وليته ثم عزلته وخليته، وأنا شفيعه؛ فأحب أن تجعل له من قلبك نصيبه، ولا تخرجه من حسن رأيك، فتضيع ما أودعته وتتوى ما أفسدته. فغفا عنه، ورده إلى عمله.

مصيبتي فيك زادتني إلى مصيبتني مصيبة

قيل: لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، جزع أبوه عليه جزعاً شديداً، فقال ذات يوم لمن حضره: هل من منشد شعراً يعزيني به أو واعظ

²⁸⁴ ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 1 / 5، 8، 9، 11، 24، 36، 79، 133، 135، 151، 170، 179، 233، 238، 303، 304، 317، 340، 346، 374، 429، 5/2، 6/2، 7، 161، 449، 32/3

²⁸⁵ (الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1418هـ - 1998م، 1 / 194، 49/2، 162،

يخفف عني فأتسلى به ؟ فقال رجل من أهل الشام : يا أمير المؤمنين كل خليل مفارق خليله بأن يموت أو يذهب إلى مكان ، فتبسم عمر بن عبد العزيز وقال : مصيبتى فيك زادتنى إلى مصيبتى مصيبة . (286)

فلا أغمس فيها لساني

وقيل إنه حضر مجلس عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، جماعة من أهل العلم فذكروا علياً، رضي الله عنه، وعثمان وطلحة والزبير، رضي الله عنهم أجمعين، وما كان بينهم فأكثرُوا وعمر ساكت، قال القوم: ألا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا أقول شيئاً، تلك دماء طهر الله منها كفى فلا أغمس فيها لساني.

أين عمر بن عبد العزيز؟

وعن مزاحم مولى فاطمة قالت: كنت مع عمر بن عبد العزيز وهو نائم فانتبه وقال: يا فاطمة لقد رأيت رؤيا ما رأيت أحسن منها. قلت: حدثني بها يا أمير المؤمنين. قال: حتى أصبح. قال: فجاء المنادي فناده بالصلاة فقام فصلّى بالناس الفجر ثم رجع إلى مجلسه. فأتيته فقلت: يا أمير المؤمنين حدثني بالرؤيا. فقال: رأيت كأنى في أرض خضراء لم أر أرضاً أحسن منها، ورأيت في تلك الأرض قصور زبرجد ورأيت جميع الخلائق حول ذلك القصر، فبينما أنا كذلك إذ نادى مناد من القصر: أين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟ فقام النبي، صلى الله عليه وسلم، فدخل القصر، فقلت: سبحان الله! إنا في ملا فيهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولم أسلم عليه! فلم ألبث إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين أبو بكر الصديق؟ فقام أبو بكر، رحمه الله، فدخل، فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين عمر بن الخطاب؟ فقام عمر فدخل، فقلت: سبحان الله! إنا في جمع فيهم أبي ولم أسلم عليه! فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين عثمان بن عفان؟ فقام عثمان، رحمه الله، فدخل، فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين علي بن أبي طالب؟ فقام علي فدخل، فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج المنادي فنادى: أين عمر بن عبد العزيز؟ فقامت فدخلت فرأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، قاعداً ورأيت أبا بكر عن يمينه وعمر عن يساره وعثمان وعلياً بين يديه، فقلت: أين أقعد؟ لا أقعد إلا إلى جنب أبي، قال: فقعدت عند عمر بن الخطاب، فرأيت فيما بين النبي، صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر شاباً حسن الوجه، فقلت: يا أبة من هذا؟ قال: هذا عيسى بن مريم، عليه السلام. قال: فما لبثت إلا قليلاً حتى

سمعت منادياً ينادي: يا عمر بن عبد العزيز اثبت على ما أنت عليه. قال: ثم قمت فخرجت فلم ألبث إلا قليلاً حتى خرج عليّ عثمان وهو يقول: الحمد لله الذي نصرني. ثم لم ألبث إلا قليلاً حتى خرج عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: الحمد لله الذي غفر لي!

وهل القضاء إلا هذا؟

قيل: وقدم رجل من حلوان مصر على عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، فقال: يا أمير المؤمنين إن والدك ولي بلادنا فكتب إلى عبد الملك يخبره أن حلوان صافية وهي أرض خراج فأقطعها إياه فورثتها أنت وإخوتك فاتفق الله ولا تظلمنا كما ظلمنا أبوك فإنه كان شيخاً ضعيف الخرج وأنت رجل مخرج. فقال عمر: إن كان أبي كما ذكرت فهو أبي لا أبوك، نازعني منازعة جميلة ولا تشتم عرضي فإن لي فيها شركاء إخوة وأخوات لا يرضون أن أقضي فيها بغير قضاء قاضٍ، أقوم معك إلى القاضي فإن قضى لي اصطبرت وإن قضى لك سلّمت. قال: إن قمت معي إلى القاضي فقد أنصفتني. فقاما جميعاً إلى القاضي فقعدا بين يديه، فتكلم عمر بحجته وتكلم الرجل، فقضى القاضي للرجل. فقال عمر: إن عبد العزيز قد أنفق عليها ألف ألف درهم. فقال القاضي: قد أكلتم من غلتها بقدر ذلك. فقال عمر: وهل القضاء إلا هذا؟ لو قضيت لي وما وليت لي عملاً أبداً. فخرج إلى الرجل من حقه.

محاسن بر الآباء

حكى عن ميمون بن مهران أنه قال: كنت عند عمر بن عبد العزيز فوجدته يكتب إلى ابنه عبد الملك: أما بعد فإن أحق من وعى عني وفهم قلبي أنت، وإن الله، وله الحمد، قد أحسن إلينا في لطيف أمرنا وجليله، وعلى الله جل وعز تمام النعمة، فاذكر يا بني فضل الله عليك وعلى أبيك فإنك إن استطعت أن تصدق ذلك كله بعمل تعلمه وصلاة أو صوم أو صدقة قبل ذلك منك، وإياك والعزة والعظمة والكبرياء فإنه من عمل الشيطان وهو عدوّ مضلّ مبين، وإن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي لغفور رحيم. واعلم أن الشباب إلا ما وقى الله ودفع عوناً على أمور كثيرة من السوء، وفيه لعمرى معونة كثيرة على الخير لمن رزقه الله، فاحذر شبابك وإياك أن تعلم في قلبك زهواً أو كبراً فإنه ما لم يكن من ذلك كان خيراً، واحفظ لسانك ونفسك حفظاً ترجو فيه رحمة الله جل وعز ومغفرته، واذكر صغر أمرك وحقارة شأنك ولا تبغ في ما أعجبك من نفسك وفيما عسيت أن تفرط فيه مما ليس معه غير

الفكرة في أمرك وأمره، وليس كتابي هذا لأن يكون بلغني عنك إلا خيراً، غير أنه قد بلغني عنك شيء من بعض إعجابك بنفسك، ولو بلغني أن ذلك خرج عنك إلى أمر كرهته لبلغك عني أمر يشتد عليك كراهته وعرفت مع ذلك أن الشباب والحرص والنعمة يحمل ذلك كله على أمر شديد إلا ما وقى الله ودفع، فكن يا بني على حذر، فإن الشيطان قلّ ما يصيب فرصته بمن احترس منه بدعاء الله جل اسمه والتواضع له، وأكثر تحريك لسانك في ليالك ونهارك بذكر الله فإن أحسن ما وصلت به حديثاً حسناً ذكر الله جل اسمه، وأحسن ما قطعت به حديثاً سيئاً ذكر الله تبارك وتعالى، وأعن على نفسك بخير. نسأل الله لنا ولك حسن التوفيق والسلام.

قال ميمون: ثم قال لي عمر: إن ابني عبد الملك قد زين في عيني وأنا متهم لنفسي فيه وأخاف أن يكون هواي فيه قد غلب على علمي به وأدركني ما يدرك الوالد من الإشفاق على ولده فأتته واسبره ثم ائنتي بعلمه ثم انظر هل ترى منه ما يشاكل النخوة فإنه غلام حدث ولا آمن عليه الشيطان.

قال ميمون: فخرجت إلى عبد الملك حتى قدمت عليه فاستأذنت ودخلت، فإذا غلام ابن ست عشرة سنة جالس على حشية بيضاء أحسن الناس تواضعاً وإذا مرافق بيض وبساط شعر. فرحب بي ثم قال: قد سمعت أبي يذكر منك ما أنت أهله وإنني أرجو أن ينفع الله بك وقد حسبت أن يكون قد غرني من نفسي حسن رأي والدي في وما بلغت من الفضل كل ما يذكر، وقد حذرت أن يكون الهوى قد غلبه على علمه فأكون أحد آفاته. قال ميمون: فعجبت من اتفاقهما فقلت له: أعلمني من أين معيشتك؟ قال: من عطايا ومن غلة زراعةٍ اشتريت عن ظهر يدٍ ممن ورثها عن أبيه فوهبها لي فأغناني بها عن فيء المسلمين.

قال: فقلت: فما طعامك؟ فقال: ليلة لحم وليلة عدس وزيت وليلة خل وزيت وفي هذا بلاغ. قال فقلت له: أفما تعجبك نفسك؟ فقال: قد كان في بعض ما كان فلما وعظني أبي في كتابه بصّرني نفسي وما صغر من شأني وحقّر من قدرني فنفعني الله جل وعز بذلك فجراه الله من والدٍ خيراً. فقعدت ساعة أحدثه وأتسمع من منطقته فلم أر فتى كان أجمل وجهاً ولا أكمل عقلاً ولا أحسن أدباً على صغر سنه وقلة تجربته منه.

قال ميمون: فلما كان آخر ذلك أتاه غلام فقال: أصلحك الله قد فرغنا. قال: فسكت. فقلت: ما هذا الذي فرغ منه؟ قال: الحمام أخلاه لي. قال فقلت: لقد كنت وقعت مني كل موقع حتى سمعت هذا. قال: فاسترجع وذعر وقال: وما ذاك يا عم، يرحمك الله؟ قلت: الحمام لك؟ قال: لا. قلت: فما دعاك إلى أن

تطرد عنه غاشيته كأنك تريد بذلك الكبر فتكسر على صاحب الحمام غلته ويرجع من أتاه خائباً؟ قال: أما صاحب الحمام فإني أرضيه وأعطيه غلة يومه. قال قلت: هذه نفقة سرف خالطها الكبر، وما يمنعك أن تدخل الحمام مع الناس وإنما أنت كأحدهم؟ قال: يمنعني من ذاك أن أرى عورة مسلم ورعاع من الناس يدخلون بغير أزر فأكره رؤيته عوراتهم وأكره أن أجبرهم على أزر فيضعون ذلك مني على حد هذا السلطان الذي خلصنا الله منه كفافاً، فعظني رحمك الله عظة أنتفع بها واجعل لي مخرجاً من هذا الأمر. فقلت له: ادخله ليلاً فإذا رجع الناس إلى رحالهم خلا لك الحمام. قال: لا جرم لا أدخله نهراً أبداً ولولا شدة برد بلادنا هذه ما دخلته أبداً، فأقسمت عليك لتطوين هذا الخبر عن أبي فإني أكره أن يظل عليّ ساخطاً ولعل الأجل يحول دون الرضى منه. قال: فأردت أن أسبر عقله فقلت: إن سألتني هل رأيت منه شيئاً تأمرني أن أكذبه؟ قال: لا معاذ الله ولكن قل رأيت شيئاً ففطمته عنه وسارع إلى ما أردت من الرجوع، فإنه لا يسألك عن التفسير لأن الله جل وعز قد أعاده من بحث ما ستر. قال ميمون: فلم أر والداً قط ولا ولداً قط، رحمة الله وبركاته عليهم، مثلهما.⁽²⁸⁷⁾

لم يمزح بعد الخلافة إلا مرتين

وقيل إن عمر بن عبد العزيز لم يمزح بعد الخلافة إلا مرتين: إحداهما أن عدي بن أرطاة كتب إليه يستأذنه في أن يتزوج ابنة أسماء ابن خارجة فكتب إليه عمر: أمّا بعد فقد أتاني كتابك تستأذن في هند: فإن تك قوة فأهلك الأولون أحقّ بك وبها، وإن يك بك ضعف، فأهلك الأولون أعذر لك ولكن الفزاري والسلام.⁽²⁸⁸⁾

قل لي في وجهي ما أكره

- وقال ميمون بن مهران قال لي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قل لي في وجهي ما أكره فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره

²⁸⁷ (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص 21 ، 145 ، 210 ، 231

²⁸⁸ (أبو البركات بدر الدين محمد بن محمد الغزي ، المراح في المزاح ، تحقيق بسام عبد الوهاب

الجابي ، دار ابن حزم - بيروت - الطبعة : الأولى 1418 هـ 1977 م ، ص 37 ، 84

فأطعني كما كنت أطيعك

وقال عمر بن عبد العزيز لمؤدبه كيف كانت طاعتي لك قال أحسن طاعة قال فأطعني كما كنت أطيعك خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك ومن ثوبك حتى تبدو عقباك .

إلزم بيتك

وقال ميمون بن مهران كنت عند عمر بن عبد العزيز فقال لحاجبه من بالباب فقال رجل أناخ ناقته الآن يزعم أنه بلال مؤذن رسول الله فأذن له أن يدخل فلما دخل قال حدثني أبي أنه سمع رسول الله يقول من ولي شيئا من أمور المسلمين ثم حجب عنه حجه الله عنه يوم القيامة فقال عمر لحاجبه إلزم بيتك فما روي على بابه بعد ذلك حاجب.

فجاءت ملء قدح

وقيل لما ولي عمر بن عبد العزيز أخذ في رد المظالم فابتدأ بأهل بيته فاجتمعوا إلى عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه فقال لها إن رسول الله سلك طريقا فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله فلما قضى الأمر إلى معاوية جره يمينا وشمالا وأيم الله لئن مد في عمري لأردنه إلى ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله وأصحابه فقالت له يا ابن أخي إني أخاف عليك منهم يوما عصيبا فقال كل يوم أخافة دون يوم القيامة فلا أمنيه الله وقال وهب بن منبه إذا هم الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته في الأسواق والزرور والضروع وكل شيء وإذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك قال الوليد بن هشام إن الرعية لتصلح بصلاح الوالي وتفسد بفسادة وقال ابن عباس رضي الله عنهما إن ملكا من الملوك خرج يسير في مملكته متنكرا فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات فتعجب الملك من ذلك وحدثته نفسه بأخذها فلما كان من الغد حلبت له النصف مما حلبت بالأمس فقال له الملك ما بال حلبها نقص أرعت في غير مرعاها بالأمس فقال لا ولكن أظن أن ملكنا رآها أو وصله خبرها فهم بأخذها فنقص لبنها فإن الملك إذا ظلم أو هم بالظلم ذهبت البركة فتاب الملك وعاهد ربه في نفسه أن لا يأخذها ولا يحسد احدا من الرعية فلما كان من الغد حلبت عاداتها ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو أن كل قصبة منها تعصر قدحا فعزم الملك على أخذها منها ثم أتاها وسألها عن ذلك فقالت نعم ثم إنها عصرت قصبة فلم يخرج منها نصف قدح فقال لها أين الذي كان يقال فقالت

هو الذي بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها مني فارتفعت البركة منها فتاب الملك وأخلص لله النية وعاهد الله أن لا يأخذها منها أبدا ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح .

فأجدر أن لا يكون في غيرهم

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه إلى عماله أن لا تولوا على أعمالنا إلا أهل القرآن فكتبوا إليه إنا قد وجدنا فيهم خيانة فكتب إليهم إن لم يكن في أهل القرآن خير فأجدر أن لا يكون في غيرهم.

فإني لأستحي من الله أن يراك ببابي

وعن عبد الله بن الحسن بن الحسين رضي الله تعالى عنهم قال أتيت باب عمر بن عبد العزيز في حاجة فقال إذا كانت لك حاجة إلي فأرسل إلي رسولا أو أكتب لي كتابا فإني لأستحي من الله أن يراك ببابي .

فعاقبه على قدر ذنبه

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عامل من عماله أن لا تعاقب عند غضبك وإذا غضبت على رجل فاحبسه فإذا سكن غضبك فاخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ولا تجاوز به خمسة عشر سوطا.

رحم الله امرأ عرف قدر نفسه

وبلغ عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه أن ابنه اشترى فص خاتم بألف دينار فكتب إليه عزمته عليك إلا ما بعث خاتمك بألف دينار وجعلتها في بطن جائع واستعمل خاتما من ورق وانقش عليه رحم الله امرأ عرف قدر نفسه.

فعل هذا بالتقي الطاهر

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال تضرعت إلى ربي سنة أن يرين أبي في النوم حتى رأيته وهو يمسح العرق عن جبينه فسألته فقال لولا رحمة الله لهلك أبوك إنه سألني عن عقل بغير للصدقة فسمع بذلك عمر بن عبد العزيز فصاح وضرب بيده على رأسه وقال فعل هذا بالتقي الطاهر فكيف بالمقترف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم أجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله صحبه وسلم .

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لرجاء بن حيوة يا رجاء إذا وضعت في لحدي فاكشف الثوب عن وجهي فإن رأيت خيرا فاحمد الله وإن غير ذلك فاعلم أن عمر قد هلك قال رجاء فلما دفناه كشفت عن وجهه فرأيت نورا

ساطعا فحمدت الله تعالى أن قد صار إلى خير وقال أيضا دخلت على عمر ابن عبد العزيز وهو محتضر فقال يا رجاء إني أرى وجوها كراما ليست بوجوه إنس ولا جان وهو يقلب طرفه يمينا وشمالا ثم رفع يده فقال اللهم أنت ربي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت فإن غفرت فقد مننت وإن عاقبت فما ظلمت ألا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك المصطفى ونبيك المرتضى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة فعليه السلام والرحمة ثم قضى نحبه رحمه الله. (289)

فأيقظي أو دعي

عن عطا قال قلت لفاطمة بنت عبد الملك أخبريني عن عمر بن عبد العزيز قالت أفعل ولو كان حيا ما فعلت إن عمر رحمه الله كان قد فرغ للمسلمين نفسه ولأموارهم ذهنه فكان إذا أمسى مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه دعا بسراج الذي كان يسرج له من ماله ثم صلى ركعتين ثم أقعى واضعاً رأسه على يديه تسيل دموعه على خديه يشهق الشهقة يكاد ينصدع لها قلبه أو تخرج لها نفسه حتى يرى الصبح وقد أصبح صائماً فدنوت منه فقلت له يا أمير المؤمنين أليس كان منك ما كان قال أجل فعليك بشأنك وخلني بشأني فقلت إني أرجو أن أيقظ قال إذن أخبرك أني نظرت فوجدتني قد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها ثم ذكرت الفقير الجائع والغريب الضائع والأسير المقهور وذا المال القليل والعيال الكثير وأشياء من ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض فعلمت أن الله عز وجل سائلي عنهم وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حجيجي لا يقبل الله مني فيهم معذرة ولا تقوم لي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة فرحمت والله يا فاطمة نفسي رحمة دمعت لها عيني ووجع لها قلبي فأننا كلما ازددت ذكراً ازددت خوفاً فأيقظي أو دعي. (290)

لم عزلتني؟!

قال بعض قضاة عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - وقد عزله: لم عزلتني؟! قال: بلغني أن كلامك مع الخصمين أكثر من كلام الخصمين.

289 (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبيشي ، المستطرف في كل فن مستظرف ،

174/1 ، 201 ، 204 ، 209 ، 231 ، 249 ، 255 ، 415 ، 444 ، 62/2 ، 577 ، 197

290 (ابن طيفور ، بلاغات النساء ، ص34

وما كلُّ الناس يشبه أباه

قال مالك بن أنس: قدم على عمر بن عبد العزيز فتیان، فقالا: إن أبانا توفي فترك مالا عند عمنا حميد، فأمر عمر بإحضاره، فلما دخل عليه، قال له عمر: يا حميد أنت القائل:

حميد الذي أمجّ داره ... أخو الخمر ذو الشّيبة الأصلع

أتاني المشيب على شربها ... وكان كريماً فما ينزع

فقال: نعم. قال: أما إذ أقررت، فأني سأجلدك؟ قال: ولم؟ قال: لأنك أقررت بشرب الخمر، وزعمت أنك تنزع عنها. فقال: هيهات، أين تذهب بك؟ ألم تسمع قول الله يقول: " والشّعراء يتّبعهم الغاوون، ألم تر أنّهم في كلّ وادٍ يهيمون وأنّهم يقولون مالا يفعلون " ؟ قال عمر: أولى لك يا حميد، لقد أفلت. ثم قال: ويحك يا حميد، كان أبوك صالحاً، وأنت رجل سوء. قال: أصلحك الله، وأنت رجل صالح، وكان أبوك رجل سوء، وما كلُّ الناس يشبه أباه، فقال: إذن هؤلاء يزعمون أن أباهم توفي، وترك عندك مالا. قال: صدقوا، وأنا أحضره الآن. فأحضره بخواتيم أبيهم، ثم قال: إن هؤلاء توفي أبوهم منذ كذا وكذا، وأنا أنفق عليهم من مالي وهذا مالهم. فقال عمر: ما أحدٌ أحقّ أن يكون عنده منك. قال: ما كان ليعود إليّ وقد خرج من عندي.

صف لي العدل

قال محمد بن كعب القرظي: قال لي عمر بن عبد العزيز: صف لي العدل يا ابن كعب. قلت: بخ بخ، سألت عن أمر عظيم. كن لصغير الناس أباً، ولكبيرهم ابناً، وللمثل منهم أخاً، وللنساء كذلك، وعاقب الناس بقدر ذنوبهم على قدر احتمالهم، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتكون من العادين.

تكتفوا من القراطيس بالقليل

لثب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: إذا كتبتم فأرّقوا الأقلام، وأقلّوا الكلام واقتصروا على المعاني، وقاربوا بين الحروف، تكتفوا من القراطيس بالقليل.

امتأّت الأرض ظلماً وجوراً

خرج عمر بن عبد العزيز يوماً، فقال: ما شاء الله! كان الوليد بن عتبة بالشام، والحجاج بالعراق وقرّة بن شريك بمصر، وعثمان بن حيّان بالحجاز، ومحمّد بن يوسف باليمن، امتأّت الأرض ظلماً وجوراً.

لو كنته لم تقله

قال: قال عمر بن عبد العزيز لرجل: من سيد قومك؟ قال: أنا. قال: لو كنته لم تقله. (291)

الهدية في عمل السلطان رشوة

هدي إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه هدية، فردها، فقيل له: إن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يقبل الهدية. فقال: قد كانت الهدية له هدية، وهي لنا رشوة، وقد لعن الله الراشي والمرتشي. وقال بعض السلف: الهدية في عمل السلطان رشوة. (292)

ما أمل أهلك فيك؟

عن أبي اسحاق قال: حدثني ابن الكلبية قال: ولأني عمر بن عبد العزيز عملاً فلما ودعته قال: يا ابن الكلبية، ما أمل أهلك فيك؟ قلت: السلامة والعافية. قال: لا، ولكن أملهم فيك أن ترد لهم على ظهرك، وأن تحمل لهم على كاهلك، يا ابن الكلبية إني لأعلم أن لك ولداً تحب لهم الغنى، وتكره لهم الفقر، وأن الله عز وجل قد كتب عليهم فقراً، أو كتب لهم غنى، وأن أهل السموات والأرض لو جاهدوا أن يغنوا من كتب الله عليه الفقر أو يفقروا من كتب الله له الغنى، لم يقدروا على ذلك. انظر لنفسك، ولا تنظر لغيرك، وقد أحببتك، فلا أبغضك وأستودعك الله.

الله أبوك

عن العتبي، قال: وقال: رجل من جلساء عمر بن عبد العزيز لرجل سمعه يتكلم بكلام أعجبه: الله أبوك، أني أوتيت هذا العلم؟ فقال الرجل: إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تركنا العمل بما علمنا، ولو انا عملنا بما علمنا لأوتينا علماً لا تقوم له أبداننا.

كأنك لك جنة من عذاب الله

عن الهيثم بن عدي، قال: كتب عدي بن ارطاة إلى عمر بن عبد العزيز: اما بعد، فأن قبلي ناساً من العمال قد اقتطعوا من مال الله مالا عظيماً لست أقدر على استخراجهم من أيديهم، إلا أن يمسه شيء من العذاب، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذلك فعل، فكتب إليه عمر: اما بعد، فالعجب كل

291 (ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس ، 1/ 12، 7، 18، 21، 20، 43، 61، 66 ،

77، 74، 80، 93، 117، 119، 132، 200، 171، 134، 236

292 (عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي ، تحسين القبيح وتقبيح الحسن ،

تحقيق : نبيل عبد الرحمن حياوي ، دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت / لبنان - ، ص 71

العجب من استئذائك اياي في عذاب بشر، كأي لك جنة من عذاب الله، وكأن رضائي ينجيك من سخط الله. فانظر فمن قامت عليه البينة فخذ به بما قامت به عليه، ومن اقر لك بشئ فخذ بما اقر به، ومن انكر فاستحلفه بالله وخل سبيله. فو الله لان يلقوا الله بجناياتهم احب الي من ان القى الله بدمائهم.⁽²⁹³⁾
لولا أني غضبان لضربتك
عن عمر بن عبد العزيز أنه أتى برجل كان واجداً عليه فأمر بضربه ثم قال :
لولا أني غضبان لضربتك وخلص سبيله . (294)

فعلام التهافت في النار !

حبس عمر بن عبد العزيز الغداء عن مسلمة ، حتى برح به الجوع ، ثم دعا بسويق فسقاه ، فلما فرغ منه لم يقدر على الاكل ، فقال : يا مسلمة ، إذا كفأك من الدنيا ما رأيت ، فعلام التهافت في النار !
ألا تجيبوني ؟

وروى إسماعيل بن أبي حكيم ، قال : قال عمر بن عبد العزيز يوماً لحاجبه : لا تدخلن على اليوم إلا مروانيا .
فلما اجتمعوا قال : يا بني مروان ، إنكم قد أعطيتم حظاً وشرفاً وأموالاً ، إني لأحسب شطر أموال هذه الامة أو ثلثيها في أيديكم ، فسكتوا ، فقال : ألا تجيبوني ؟ فقال رجل منهم : فما بالك ؟ قال : إني أريد أن أنتزعها منكم ، فأردها إلى بيت مال المسلمين .
فقال رجل منهم : والله لا يكون ذلك حتى يحال بين رؤوسنا وأجسادنا ، والله لا نكفر أسلافنا ، ولا نفقر أولادنا ، فقال عمر : والله لو لا أن تستعينوا على بمن أطلب هذا الحق له لاضرعت خدودكم ! قوموا عني .

وأى عيب أعيب مما عابه القرآن !

وروى مالك بن أنس قال : ذكر عمر بن عبد العزيز من كان قبله من المروانية فعابهم ، وعنده هشام بن عبد الملك ، فقال يا أمير المؤمنين ، إنا والله نكره أن تعيب آبائنا ، وتضع شرفنا ، فقال عمر : وأى عيب أعيب مما عابه القرآن ! وروى نوفل بن الفرات ، قال : شكى بنو مروان إلى عاتكة بنت مروان بن الحكم عمر ، فقالوا : إنه يعيب أسلافنا ، ويأخذ أموالنا .

²⁹³ (ابن دريد ، تعليق من أمالي ابن دريد ، 1 / 2 ، 20 ، 21)

²⁹⁴ (أبو عبيد البكري ، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، تحقيق : د. إحسان عباس و

د. عبد المجيد عابدين ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1983 ، 1 / 229 ، 274

فذكرت ذلك له - وكانت عزيمة عند بنى مروان - فقال لها : يا عمة ، إن رسول الله صلى الله عليه وآله قبض وترك الناس على نهر مورود ، فولى ذلك النهر بعده رجلان لم يستخضا أنفسهما وأهلهما منه بشئ ثم وليه ثالث فكرى منه ساقية ، ثم لم تزل الناس يكرون منه السواقي حتى تركوه يابسا لا قطرة فيه ، وايم الله لئن أبقاني الله لاسكرن تلك السواقي حتى أعيد النهر إلى مجراه الاول ، قالت فلا يسبون إذا عندك ! قال : ومن يسبهم ! إنما يرفع الرجل مظلمته فأردها عليه .

وأيّن كتاب الله !

دخل عمر بن عبد العزيز على سليمان بن عبد الملك وعنده أيوب ابنه - وهو يومئذ ولى عهده - قد عقد له من بعده ، فجاء إنسان يطلب ميراثا من بعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان : ما إخال النساء يرثن في العقار شيئا ، فقال عمر بن عبد العزيز : سبحان الله ! وأيّن كتاب الله ! فقال سليمان : يا غلام ، اذهب فأنتي بسجل عبد الملك الذى كتب في ذلك ، فقال له عمر : لكانك أرسلت إلى المصحف ! فقال أيوب بن سليمان : والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين .

فلا يشعر حتى يفارقه رأسه فقال عمر : إذا أفضى الامر إليك وإلى أمثالك كان ما يدخل على الاسلام أشد مما يخشى عليكم من هذا القول ، ثم قام فخرج .

وأمر بضرب عنق الحروري

وروى إبراهيم بن هشام بن يحيى ، قال حدثني أبى ، عن جدى ، قال كان عمر بن عبد العزيز ينهى سليمان بن عبد الملك عن قتل الحرورية ، ويقول : ضمنهم الحبوس حتى يحدثوا توبة ، فأتى سليمان بحرورى مستقتل ، وعنده عمر بن عبد العزيز ، فقال سليمان للحروري : ماذا تقول ؟ قال : ما أقول يا فاسق يا بن الفاسق ! فقال سليمان لعمر : ما ترى يا أبا حفص ؟ فسكت ، فقال : أقسمت عليك لتخبرنى ماذا ترى عليه ! فقال : أرى أن تشتمه كما شتمك ، وتشتم أباه كما شتم أباك ، فقال سليمان : ليس إلا ! قال : ليس إلا ، فلم يرجع سليمان إلى قوله ، وأمر بضرب عنق الحروري .

أحمق الناس ؟

قال عمر بن عبد العزيز يوما لجلسائه : أخبروني من أحمق الناس ؟ قالوا : رجل باع آخرته بدنياه ، فقال ألا أنبئكم بأحمق منه ؟ قالوا : بلى ، قال : رجل باع آخرته بدنياه غيره .

إذا ما المشكلات وردن يوما

عن ابن الكلبي ، قال : بينما عمر بن عبد العزيز جالسا في مجلسه ، دخل حاجبه ومعه امرأة أدماء طويلة حسنة الجسم والقامة ، ورجلان متعلقان بها ، ومعهم كتاب من ميمون بن مهران إلى عمر ، فدفعوا إليه الكتاب ، ففضه فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، من ميمون بن مهران ، سلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد ، فإنه ورد علينا امر ضاقت به الصدور ، وعجزت عنه الاوساع (295) ، وهربنا بأنفسنا عنه ، ووكلناه إلى عالمه ، لقول الله عز وجل : (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) (سورة النساء 83) ، وهذه المرأة والرجلان أحدهما زوجها والآخر أبوها ، وإن أباهما يا أمير المؤمنين زعم إن زوجها حلف بطلاقها إن على بن أبي طالب عليه السلام خير هذه الامة وأولاهها برسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنه يزعم أن ابنته طلقت منه ، وإنه لا يجوز له في دينه أن يتخذها صهرا ، وهو يعلم إنها حرام عليه كأمه . وإن الزوج يقول له : كذبت وأثمت ، لقد بر قسمي ، وصدقت مقالتي ، وإنها امرأتي على رغم أنفك ، وغيظ قلبك ، فاجتمعوا إلى يختصمون في ذلك ، فسألت الرجل عن يمينه ، فقال : نعم ، قد كان ذلك ، وقد حلفت بطلاقها إن عليا خير هذه الامة وأولاهها برسول الله صلى الله عليه وآله ، عرفه من عرفه ، وأنكره من أنكره ، فليغضب من غضب ، وليرض من رضى ، وتسامع الناس بذلك ، فاجتمعوا له ، وإن كانت اللسن مجتمعة فالقلوب شتى ، وقد علمت يا أمير المؤمنين اختلاف الناس في أهوائهم ، وتسرعهم إلى ما فيه الفتنة ، فأحجمنا عن الحكم لتحكم بما أراك الله ، وإنهما تعلقا بها ، وأقسم أبوها ألا يدعها معه ، وأقسم زوجها ألا يفارقها ولو ضربت عنقها إلا أن يحكم عليه بذلك حاكم لا يستطيع مخالفته والامتناع منه ، فرفعناهم إليك يا أمير المؤمنين ، احسن الله توفيقك وأرشدك ! وكتب في أسفل الكتاب :

إذا ما المشكلات وردن يوما فحارت في تأملها العيون
وضاق القوم ذرعا عن نبأها فأنت لها أبا حفص أمين
لأنك قد حويت العلم طرا وأحكمك التجارب والشئون
وخلفك الاله على الرعايا فحظك فيهم الحظ الثمين .

قال : فجمع عمر بن عبد العزيز بنى هاشم وبنى أمية وأفخاذ قريش ، ثم قال لابي المرأة : ما تقول أيها الشيخ ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، هذا الرجل زوجته ابنتي ، وجهزتها إليه بأحسن ما يجهز به مثلها ، حتى إذا أملت خيره ، ورجوت صلاحه ، حلف بطلاقها كاذبا ، ثم أراد الإقامة معها ، فقال له عمر : يا شيخ ، لعله لم يطلق امرأته ، فكيف حلف ؟ قال الشيخ : سبحان الله ، الذى حلف عليه لابين حنثا وأوضح كذبا من أن يختلج في صدري منه شك ، مع سنى وعلمي ، لانه زعم أن عليا خير هذه الامة وإلا فامرأته طالق ثلاثا ، فقال للزوج : ما تقول ؟ أهكذا حلفت ؟ قال : نعم ، فقيل : إنه لما قال نعم ، كاد المجلس يرتج بأهله ، وبنى أمية ينظرون إليه شزرا ، إلا إنهم لم ينطقوا بشئ ، كل ينظر إلى وجه عمر .

فأكب عمر مليا ينكت الارض بيده والقوم صامتون ينظرون ما يقوله ، ثم رفع رأسه وقال : إذا ولى الحكومة بين قوم أصاب الحق والتمس السدادا وما خير الامام إذا تعدى خلاف الحق واجتنب الرشادا . ثم قال للقوم : ما تقولون في يمين هذا الرجل ؟ فسكتوا ، فقال : سبحان الله ! قولوا .

فقال رجل من بنى أمية : هذا حكم في فرج ، ولسنا نجترئ على القول فيه ، وأنت عالم بالقول ، مؤتمن لهم وعليهم ، قل ما عندك ، فإن القول ما لم يكن يحق باطلا ويبطل حقا جائز على في مجلسي .

قال : لا أقول شيئا ، فالتفت إلى رجل من بنى هاشم من ولد عقيل بن أبى طالب ، فقال له : ما تقول فيما حلف به هذا الرجل يا عقيلي ؟ فاغتمها ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن جعلت قولى حكما ، أو حكمي جائزا قلت ، وإن لم يكن ذلك فالسكوت أوسع لى ، وأبقى للمودة ، قال : قل وقولك حكم ، وحكمك ماض .

فلما سمع ذلك بنو أمية قالوا : ما أنصفتنا يا أمير المؤمنين إذ جعلت الحكم إلى غيرنا ، ونحن من لحمك وأولى رحمك ، فقال عمر : اسكتوا ، إعجزا ولؤما ! عرضت ذلك عليكم آنفا فما انتدبتم له .

قالوا : لانك لم تعطنا ما أعطيت العقيلي ، ولا حكمتنا كما حكمته ، فقال عمر : إن كان أصاب وأخطأتم ، وحزم وعجزتم ، وأبصر وعميتم ، فما ذنب عمر ، لا أبا لكم ! أتدرون ما مثلكم ؟ قالوا : لا ندري ، قال : لكن العقيلي يدري ، ثم قال : ما تقول يا رجل ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، كما قال الاول : دعيتم إلى أمر فلما عجزتم تناوله من لا يداخله عجز فلما رأيتم ذاك ابدت نفوسكم

نداما وهل يغنى من القدر الحذر ! فقال عمر : أحسنت وأصبت ، فقل ما سألتك عنه .

قال : يا أمير المؤمنين ، بر قسمه ، ولم تطلق امرأته ، قال : وإنى علمت ذاك ؟ قال : نشدتك الله يا أمير المؤمنين ، ألم تعلم إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لفاطمة عليها السلام وهو عندها في بيتها عائد لها : يا بنية ، ما علتك قالت : الوعك يا أبتاه - وكان على غائبا في بعض حوائج النبي صلى الله عليه وآله - فقال لها : أتشتهين شيئا ؟ قالت : نعم أشتهى عنبا ، وأنا اعلم إنه عزيز ، وليس وقت عنب ، فقال صلى الله عليه وآله : ان الله قادر على أن يجيئنا به ، ثم قال : اللهم ائتنا به مع أفضل أمتى عندك منزلة ، فطرق على الباب ، ودخل ومعه مكتل قد ألقى عليه طرف ردائه ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله : ما هذا يا على ؟ قال : عنب التمسته لفاطمة ، فقال : الله أكبر الله أكبر ، اللهم كما سررتني بأن خصصت عليا بدعوتي فاجعل فيه شفاء بنيتي ، ثم قال : كلى على اسم الله يا بنية ، فأكلت ، وما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله حتى استقلت وبرأت ، فقال عمر : صدقت وبررت ، أشهد لقد سمعته ووعيته ، يا رجل ، خذ بيد امرأتك فإن عرض لك أبوها فاهشم أنفه .

ثم قال : يا بنى عبد مناف ، والله ما نجهل ما يعلم غيرنا ، ولا بنا عمى في ديننا ، ولكننا كما قال الاول : تصيدت الدنيا رجالا بفخها فلم يدركوا خيرا بل استقبحوا الشرا وأعماهم حب الغنى واصمهم فلم يدركوا إلا الخسارة والوزرا قيل : فكأنما القم بنى أمية حجرا ، ومضى الرجل بامرأته .

وكتب عمر إلى ميمون بن مهران : عليك سلام فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنى قد فهمت كتابك ، وورد الرجلان والمرأة ، وقد صدق الله يمين الزوج ، وأبر قسمه ، وأثبتته على نكاحه ، فاستيقن ذلك ، واعمل عليه ، والسلام عليك ورحمه الله وبركاته .⁽²⁹⁶⁾

²⁹⁶ عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد، أبو حامد، عز الدين (المتوفى : 656هـ) ، شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، 156/3 ، 104/17 ، 144/18 ، 329/18 ، 295/335 ، 19 ،

الحَسَنَةُ بَيْنَ السَّيِّئَتَيْنِ

ودخل عمر بن عبد العزيز رحمه الله على عبد الملك بن مروان وكان خَتَنَهُ على ابنته فاطمة فسأله عن معيشتة كيف هي فقال عمر : حَسَنَةُ بَيْنَ السَّيِّئَتَيْنِ ومنزلة بين المنزلتين فقال عبد الملك : خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا .⁽²⁹⁷⁾

أنا أُوخِر نفسي

عرضت جارية على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فأحب شراءها ولم يكن عنده تمام ثمنها فقال البائع: أنا أُوخِرُكَ إلى العطاء. فقال: لا أريد لذة عاجلة بذلة آجلة. وعرض على رجل شيء ليشتريه فقال: ما عندي ثمنه، فقال البائع: أنا أُوخِرُكَ. فقال: أنا أُوخِرُ نفسي. ⁽²⁹⁸⁾

الْق حِصَاكَ وَاخْلَصِ الدَّعَاءَ

- وتمر عمر بن عبد العزيز برجل يسبح الحصى، فإذا بلغ المائة عزل حصاة فقال له: الْق حِصَاكَ وَاخْلَصِ الدَّعَاءَ. ⁽²⁹⁹⁾

وأوجز الإملاء

- كتب إليه أبو بكر بن حزم - وهو والي المدينة من جهته ؛ إن الأمير يقطع لي من الشمع والقراطيس ما كان يقطع لعمال المدينة ، فكتب إليه : جاءني كتابك وإن عهدي بك تخرج من بيتك في الليلة الظلماء بغير سراج . وأما القراطيس فأدق القلم ، وأوجز الإملاء ، واجمع الحوائج في صحيفة

شر الخلق ؟

وذكر له سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم بالعفة عن الدرهم والدينار ، وهم بأن يستكفيه مهماً من أمره . فقال له عمر : أفلا أدلك على من هو أزهد في الدرهم والدينار منه وهو شر الخلق ؟ قال : بلى . قال : إبليس لعنه الله .

²⁹⁷ (أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري ، مجمع الأمثال ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة - بيروت ، 1 / 314 ،

²⁹⁸ (الراغب الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ، 1 / 9 ، 129، 130، 215، 249، 486، 489، 31/2

²⁹⁹ (الراغب الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ، 1 / 9 ، 129، 130، 215، 249، 486، 489، 31/2

قميصي هذا كان يرقع

- خرج يوم الجمعة إلى الصلاة وقد أبطأ ، فقال : أيها الناس ؛ إنما بطأني عنكم أن قميصي هذا كان يرقع - أو كان يغسل - ولا والله ما أملك غيره .

أشرف الناس بعد رسول الله ﷺ

- وقال عمر يوماً وقد قام من عنده علي بن الحسين رضي الله عنهما : من أشرف الناس بعد رسول الله (ﷺ) ؟ فقالوا : أنتم . فقال : كلا أشرف الناس هذا القائم من عندي آنفاً ، من أحب الناس أن يكونوا منه ، ولم يحب أن يكون من أحد . وقال : لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لزدنا عليهم .

فليكن الله أجلّ في صدرك

وقال لجارية في صباحه بحضرة مؤدبه : أعضّك الله بكذا ؟ . فقال له المؤدب : قل أعضّك عبد العزيز . فقال : إن الأمير أجلّ من ذلك . قال : فليكن الله أجلّ في صدرك . فما عاود بعدها كلمة حياء .

أنت أولى بمكاني مني

ودخل عليه ميمون بن مهران فقال له - وقد قعد في أخريات الناس - : عظني . فقال ميمون : إنك لمن خير أهلك إن وقيت ثلاثة . قال : ما هنّ ؟ قال : إن وقيت السلطان وقدرته ، والشباب وغرته ، والمال وفتنته . قال : أنت أولى بمكاني مني . ارتفع إليّ ، فأجلسه معه على سريره .

لم لا تنام ؟

- وقيل له : لم لا تنام ؟ قال : إن نمت بالليل ضيعت نفسي ، وإن نمت بالنهار ضيعت الرعية .

قد فعل الله ما تحب

أمر عمر بعقوبة رجل قد كان نذر لئن أمكنه الله منه ليفعلن وليفعلن ، فقال له رجاء بن حيوة : قد فعل الله ما تحب من الظفر ، فافعل ما يحب الله من العفو .

وبئس والله أهل البيت

ولما استخلف عمر بعث بأهل بيت الحجاج إلى الحارث بن عمرو الطائي ، وكان على اللقاء ، وكتب إليه : أما بعد ، فإني بعثت إليك بآل أبي عقيل ، وبئس والله أهل البيت في دين الله وأخلاق المسلمين ، فأنزلهم بقدر هوانهم على الله وعلى أمير المؤمنين .

- وقال : كفى بالمرء غيا أن تكون فيه خلة من ثلاث : أن يعيب شيئاً ثم يأتي مثله ، أو يبدو له من الحية ما يخفى عليه من نفسه ، أو يؤدي جلسه فيما لا يعنيه .

- وقيل له : أي الجهاد أفضل ؟ فقال : جهادك هواك . وقال : ثلاث من كن فيه كمل : من لم يخرج غضبه عن طاعة الله ، ولم يستنزل رضاه إلى معصية الله ، وإذا قدر عفا وكف .

وهل الحجاج إلا خطيئة من خطاياك ؟ وشررة من نارك ؟

قيل : أتى الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج ، فقال له : أما تقولت في الحجاج ؟ قال : ما عسيت أن أقول في الحجاج ؟ وهل الحجاج إلا خطيئة من خطاياك ؟ وشررة من نارك ؟ فلعنك الله ، ولعن الحجاج معك . وأقبل يشتمهما ، فالتفت الوليد إلى عمر بن عبد العزيز ، فقال : ما تقول في هذا ؟ قال عمر : وما أقول فيه ؟ هذا رجل يشتمكم ، فإما أن تشتموه كما شتمكم أو تغفوا عنه . فغضب الوليد وقال لعمر : ما أظنك إلا خارجياً . فغضب عمر وقال : ما أظنك إلا مجنوناً . وقام وخرج مغضباً . ولحقه خالد بن الريان ، فقال له : ما دعاك إلى ما كلمت به أمير المؤمنين ؟ والله لقد ضربت بيدي إلى قائم سيفي أنتظره متى يأمرني بضرب عنقك . فقال له عمر : وكنت فاعلاً لو أمرك قال : نعم . فلما استخلف عمر جاء خالد بن الريان ، فقام على رأسه كما كان يقوم على رأس من كان قبله من الخلفاء . قال : وكان رجل من الكتاب يضر وينفع بقلمه ، فجاء حتى جلس مجلسه الذي كان يجلس فيه الخلفاء . قال : فنظر عمر إلى خالد بن الريان ، وقال : يا خالد ضع سيفك ؛ فإنك تطيعنا في كل أمر نأمرك به ، وضع أنت يا هذا قلمك ، فقد كنت تضر به وتنفع . ثم قال : اللهم إني قد وضعتهما لك فلا ترفعهما . قال : فوالله ما زالا وضيعين مهينين بشر حتى ماتا .

أخي في الله

يروى أن عمر بن عبد العزيز كان يدخل عليه سالم مولى بني مخزوم ، وقالوا : بل زياد ، وكان عمر أراد شراءه وعتقه ، فأعتقه مواليه ، وكان عمر يسميه أخي في الله ، فكان إذا دخل وعمر في صدر بيته تنحى عن القبلة ، فيقال له في ذلك ، فيقول : إذا دخل عليك من لا يهولك فلا تأخذ عليه شرف المجلس .

أتقوم يا أمير المؤمنين ؟

وهم السراج ليلة أن يخمد ، فوثب رجاء بن حيوة ليصلحه ، فأقسم عليه عمر فجلس ، ثم قام عمر فأصلحه ، فقال له رجاء بن حيوة : أتقوم يا أمير المؤمنين ؟ قال : قمت وأنا عمر ، وتعلت وأنا عمر .

امتألت الأرض والله جوراً

ويروى أن عمر خرج يوماً فقال : الوليد بالشام ، والحجاج بالعراق ، وقرة بن شريك بمصر ، وعثمان بن حيان بالحجاز ، ومحمد بن يوسف باليمن . امتألت الأرض والله جوراً .

إن نفسي مطيتي

وقال عبد الملك ابنه له يوماً : يا أبت إنك تنام نوم القائلة ، وذو الحاجة على بابك غير نائم . فقال : يا بني إن نفسي مطيتي ، وإن حملت عليها في التعب خسرتها .

وقد رضي الله بها شكراً من جنته

وكتب إليه عدي بن أرطاة لما حفر نهر عدي بالبصرة : إني حفرت لأهل البصرة نهراً ، أعذبت به مشربهم ، وجادت عليه أموالهم ، فلم أر لهم على ذلك شكراً ، فإن أذنت لي قسمت عليهم ما أنفقته عليه . فكتب إليه عمر : إني لا أحسب أهل البصرة عند حفرك لهم هذا النهر خلوا من رجل قال : الحمد لله . وقد رضي الله بها شكراً من جنته ، فارض بها شكراً من نهرك . (300)

أتعبت خيل المسلمين في شهوتك

وحكى أن عمر بن عبد العزيز قالت زوجته : اشتهى عمر عسلاً فلما قدمته له وأكل منه قال من أين لكم هذا قلت أرسلت غلامي على خيل البريد بدينارين فاشتراه لك فباعه وأعطاني رأس مالي ورد الباقي أي بيت المال ثم قال لنفسه يا عمر أتعبت خيل المسلمين في شهوتك . (301)

إن القراء ضربان

وقال عمر بن عبد العزيز لإياس بن معاوية: دلني على قوم من القراء أولهم، فقال له: إن القراء ضربان: ضرب يعلمون للآخرة، وأولئك لا يعملون لك، وضرب يعملون للدنيا فما ظنك بهم إذا مكنتهم منها، فقال: ما أصنع؟ قال: عليك بأهل البيوتات الذين يستحيون لأنسابهم ويرجعون إلى أعراقهم فولهم.

300 (نشر الدر ، 2 / 87 - 94)

301 (الصفوري ، نزهة المجالس ومنتخب النفائس ، 206/1)

نهارك يا مغرور سهو وغفلة

كان عمر بن عبد العزيز إذا جلس للقضاء قرأ " أفرايت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون " الشعراء: 205 - 206، وينشد :

يغر بما يبلى ويشغل بالمني ... كما غر بالذات في النوم حالم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليك نوم والردى لك لازم
وسعيك فيما سوف تكره غبه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم
ميت يكتب إلى ميت يعزيه عن ميت

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عون بن عبد الله يعزيه بابنه: أما بعد، فإننا ناس من أهل الآخرة أسكننا الدنيا أموات أبناء أموات، فالعجب لميت يكتب إلى ميت يعزيه عن ميت والسلام.

لا عليك

ضبط كاتب عمر بن عبد العزيز بين يديه، فرمى بقلمه وقام خجلاً، فقال له عمر: لا عليك، خذ قلمك واضمم إليك جناحك، وأفرخ روعك، فما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي.

وأمرت بدخول الجنة لما فعلت

قال عمر بن عبد العزيز: لو كنت في قتلة الحسين وأمرت بدخول الجنة لما فعلت، حياءً من أن تقع عيني على عين محمد صلى الله عليه وسلم.

مقاماً لا يشغل الله عنك فيه كثرة من يختصم إليه

قام رجل إلى عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين، اذكر بمقامي هذا مقاماً لا يشغل الله عنك فيه كثرة من يختصم إليه حين تلقاه بلا ثقة من عمل، ولا براءة من ذنب؛ فبكى حتى غشي عليه، ثم قضى حاجته.

بمثل هذا فليمت إلينا المتوسلون

قام رجل إلى عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين، أنا فلان بن فلان، شهد أبي بدرًا وأحدًا والخندق وحنيناً - وجعل يعدد المشاهد - ولم ألبس الخز ولم أركب ولم أتزوج، فقال عمر: مشاهد والله ما تشبه مرج راهط ولا دير الجماجم، والله لأكسونك ولأزوجنك ولأحملنك، فكساه وزوجه وحمله وأثبت اسمه في شرف العطاء، وقال: بمثل هذا فليمت إلينا المتوسلون. (302)

³⁰² (أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، 1/ 6 ، 26، 14 ، 151 ، 234 ، 279 ، 348 ، 356، 361)

أكان ناقصاً من شرفك؟

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز وعليه ربطة (303) من رباط مصر فقال: بكم أخذت هذه يا أبا سعيد؟ قال: بكذا وكذا. قال: فلو نقصت من ثمنها شيئاً أكان ناقصاً من شرفك؟ قال: لا، قال: فلو زدت في ثمنها شيئاً أكان زائداً في شرفك؟ قال: لا، قال: فاعلم يا مسلمة أن أفضل الاقتصاد ما كان بعد الجدة، وأفضل العفو ما كان بعد القدرة، وأفضل اللين ما كان بعد الولاية.

إن القول فتنة فعليك بالعمل

أراد عمر بن عبد العزيز أن يذكر بني أمية وجورهم وإفسادهم ويلعن الظالمين منهم، فشاور في ذلك جماعة من أهل العلم، منهم ميمون بن مهران، فقال له ميمون: يا أمير المؤمنين إن القول فتنة فعليك بالعمل. (304)

إذا طابت العين عذبت الأنهار

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لرجل من أهل الشام: كيف عمالنا قبلكم؟ قال: يا أمير المؤمنين إذا طابت العين عذبت الأنهار (305).

إذا استأثر الله بشيء فآله عنه

لما دفن عمر بن عبد العزيز ابنه عبد الملك رأى رجلاً يتكلم ويشير بشماله، فصاح به: إذا تكلمت فاشر بيمينك. فقال الرجل: ما رأيت كاليوم رجلاً دفن أعز الناس عليه ثم هو يهمله يميني من شمالي. فقال عمر: إذا استأثر الله بشيء فآله عنه (306).

اقضني ثمن الغنم التي ابتعتها مني

أكثر الأحوص من التشبيب بأم جعفر، وهي امرأة من الأنصار، ولم يكن بينهما معرفة، فنهاه عنها أخوها أيمن فلم ينته. فاستعدى عليه عمر بن عبد العزيز، فربطهما في حبل ودفع إليهما سوطين وقال لهما: تجالدا، فلم أعيا أم جعفر أمر الأحوص جاءت إليه وهي منتقبة فوقفت عليه في مجلس قومه ولا يعرفها، فقالت: اقضني ثمن الغنم التي ابتعتها مني، قال: ما ابتعت منك شيئاً. فأظهرت كتاباً قد وضعته عليه وبكت وشكت حاجة وضراً وقالت: يا قوم كلموه، فلامه قومه وقالوا له: أوصل إلى المرأة حقها. فجعل يحلف وما يعرفها ولا رآها قط. فكشف وجهها وقالت: ويلك، وما تعرفني؟! فجعل يحلف

303 (ربطة: ، وهي نوع من الثياب عبارة عن ملاءة عريضة مكونة من قطعتين قد خيطةت إحداهما بالأخرى.

304 (الحمدوني ، التذكرة الحمدونية ، 378/1

305 (الحمدوني ، التذكرة الحمدونية ، 451/1

306 (الحمدوني ، التذكرة الحمدونية ، 26/2

مجتهداً أنه ما رآها قط ولا يعرفها، حتى استفاض قولها وقوله، واجتمع الناس وكثروا وسمعوا ما دار بينهما، وكثر لغطهم. ثم قامت وقالت: يا عدو الله، صدقت، والله ما لي عليك حق ولا تعرفني، وقد حلفت على ذلك وأنت صادق، وأنا أم جعفر وأنت تقول: قلت لأم جعفر، وقالت لي أم جعفر في شعرك. فحجل الأحوص وانكسر عند ذلك، وبرئت عندهم. (307)

وبم أوصيه ؟

قال ابن دأب: لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة قيل له: يا أمير المؤمنين، اكتب إلى يزيد بن عبد الملك فأوصه بالأمة خيراً فقال: وبم أوصيه ؟ إني لأعلم أنه من بني مروان. ثم أمر بالكتاب إليه: أما بعد. فاتق، يا يزيد، الصرعة بعد الغفلة فلا تقال العثرة، ولا تقدر على الرجعة. تترك ما تترك لمن لا يحمذك، وتقدم على من لا يعذرك والسلام. (308)

وله ذنوب يستغفر الله منها

قال أبو الحسن عن علي بن سليمان: دخل عمر بن عبد العزيز على رجل وهو يجود بنفسه، فقال له: استغفر الله، فقل له: يا أبا حفص، لو لقنته شهادة أن لا إله إلا الله، فقال عمر: إن لا إله إلا الله من ذنبه، وله ذنوب يستغفر الله منها، فإذا استغفر الله فقد وحده، وإن المستغفر الخائف بعرض خير. (309)

فعظني وأوجز

عن العُتبيّ، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن: أمّا بعد: فإذا أتاك كتابي فعظني وأوجز. فكتب إليه الحسن: أمّا بعد. فأعص هواك، والسلام. (310)

ولكني أنهي النفس عن الهوى

وحكى أن عمر بن عبد العزيز عشق جارية لزوجته فاطمة بنت عبد الملك وزاد فيها غرامه فطلبها منها فأبت عليه، فلما أفضت إليه الخلافة زينتها بأنواع الزينة، ثم قالت يا أمير المؤمنين قد كنت أمسكت هذه عنك والآن فقد وهبتا لك فسر بها سروراً بالغاً. ثم قال اخلي ثيابك فحين همت أجلسها، ثم قال لها من أين جيء بك في الأصل قالت اغتصب الحجاج مال عامل

307 (الحمدوني ، التذكرة الحمدونية ، 9/3)

308 (المبرد ، التعازي والمراثي، 33/1)

309 (المبرد ، التعازي والمراثي، 58/1)

310 (ابن دريد ، الفوائد والأخبار ، 1/1)

فاصطفاني منه وأرسلني لعبد الملك فوهبني لأبنته فقال أحي هو ؟ قالت لا .
قال هل له ورثة ؟ قالت ولد ، فأحضره وأمره أن يذكر ما أغرم الحجاج أباه
وأعطاه عمر رضي الله عنه ذلك الجارية وقال له احذر أن يكون أبوك نالها .
فقال هي لك يا أمير المؤمنين فأبى فقال أتبيعها ؟ فأبى ، فقالت الجارية أين
وجدك بي ؟ قال قد زاد ولكني أنهى النفس عن الهوى .⁽³¹¹⁾

لا تحزن يا أمير المؤمنين واجعل الأربعين سلفاً عندك

وشدد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في النهي عن المعاصي كشرب
الخمير فقال لصاحبي عسسه وخبره إذا رأيتما سكران فأتيتاني به فطافا إلى
آخر الليل فإذا هما بشيخ حسن الهيئه بهي المنظر قد أخذ منه السكر وهو
يقول:

سقوني وقالوا ألا تغني ولو سقوا ... جبال حنين ما سقوني لغنت
فقالا له أما تستحي وأنت بهذه الحالة فقال ارفقا بي فقد شربت مع أخوان
أحداث فحين أخذ الشراب مني أخرجوني فقال لصاحب الخبر اكنم علي وأنا
أطلقه قال قد فعلت فقال له أذهب يا شيخ ولا تعد قال نعم وأنا نائب فلما كان
في الليلة الآتية رأياه كما ذكر وهو يغني .

إنما هيج البلى ... حين عض السفرجلا

فرماني وقال لي ... كن بعيني مبتلى

ولقد قام لحظه ... لي على القلب بالقلبي

فقال له أين التوبة فقال إن أخواني الذين ذكرتهم لكما البارحة عدوا علي
وحلفوا أن لا يخرجوني إذا عمل بي الشراب فغلب علي وعليهم فخرجت
فأطلقاه فلما كان الثالثة رأياه على تلك الحالة وهو يغني .

أرض عني فطالما قد سخطت ... أنت ما زلت جافياً مذ عرفت

أنت ما زلت قاطعاً لا وصولاً ... بل بهذا فدتك نفسي ألفت

ما كذا تفعل الكرام بنو الننا ... س بأحبابهم فلم كنت أنت

فقالا له هذه الثالثة ولا عفو فقال أخطأتما قالا ولم ذلك قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين ليلة فإن تاب تاب الله
عليه فإن شربها الثانية لم تقبل له صلاة أربعين ليلة فإن تاب تاب الله عليه
فإن شربها الثالثة لم تقبل له صلاة أربعين ليلة فإن تاب تاب الله عليه فإن
شربها الرابعة لم تقبل صلاة أربعين ليلة فإن تاب لم يتب الله عليه وكان حقاً

على الله أن يسقيه من طينة الخبال وهي عصارة أهل النار فقالا له اذهب فلما كانت الرابعة رأياه على الحكم وهو ينشد:

قد كنت أبكي وما حنت لهم أبلى ... فما أقول إذا ما حمل النقل
كأنني بك نضو الأحراك به ... تدعي وأنت عن الداعين مشغل
فقلوبك بأيديهم هناك وقد ... سارت بأحمالك المهربة الذلل
حتى إذا استيأسوا من أن تجيبهم ... عضوا عليك وقالوا قد قضى الرجل
فقال له لم يبق عفو فقال افعل ما بدا لكما فحملاه إلى عمر فاستنكهه فوجد
الرائحة فحبسه حتى أفاق وجلده ثمانين ثم قال له لا تعد فقال قد ظلمتني يا
أمير المؤمنين لأنني عبد وقد جلدتني حد الأحرار فقال أخطأت إذ لم تعرفني
وغم عمر فقال له الشيخ لا تحزن يا أمير المؤمنين واجعل الأربعين سلفاً
عندك فضحك حتى استلقى على ظهره ثم قال لصاحب العسس إذا رأيت مثل
هذا فارفعه إلي . (312)

أو ما تغار؟

زوج عمر بن عبد العزيز بنتاً له، فقال لامراته فاطمة بنت عبد الملك: علمي
هذه الصبية ما كنت تعلمين، أي ما كنت أعجب به منك، قالت: أو ما تغار؟
قال: إنما الغيرة في الحرام، فأما الحلال فلا، أبعد قول رسول الله صلى الله
عليه وسلم لعلي وفاطمة لا تعجلا حتى أدخل عليكما. (313)

فاضربه ضرب الرجل المستطيل في عرض أخيه

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله: بلغني أن قبلك قوما يشتمون أبا بكر
وعمر، فمن قامت عليه بينة فاضربه ضرب الرجل المستطيل في عرض أخيه
وهو عنه ساكت (314).

أو ما تغضب يا عبد الملك؟

غضب عمر بن عبد العزيز فلما سكت غضبه فقال له ابنه عبد الملك: وأنت
في الوضع الذي وضعك الله فيه، وولاك من أمر أمة محمد ما ولاك يبلغ بك
الغضب ما أرى! قال: أو ما تغضب يا عبد الملك؟ قال: بلى، ولكن ما تنفع
سعة بطني إذا لم أرد فيه غضبي حتى يسكن (315).

312 (داود الأنطاكي ، تزيين الأسواق في أخبار العشاق ، 198-197/1

313 (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 66/1

314 (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 115/1

315 (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 145/1

بنس الخاطب أنت

سمع عمر بن عبد العزيز رجلاً يقول: اللهم زوجني الحور العين، وفي كفه حصي يقلبها، فقال: بنس الخاطب أنت، ألا ألقىيت الحصى وأخلصت لربك الدعاء(316).

وهل ينتفع إلا بريحه؟

كان يوزن بين يدي عمر بن عبد العزيز مسك المسلمين، فأخذ بأنفه لئلا يصيب الرائحة ويقول: وهل ينتفع إلا بريحه؟(317)

فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً

سمع سعيد بن المسيب ذات ليلة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبد العزيز يجهر القراءة في صلاته، وكان حسن الصوت، وهو إذ ذاك أمير المدينة، فرفع سعيد صوته وقال: يا أيها المصلي إن كنت تريد الله بصلاتك فاخفض صوتك، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، فسكت وخفف ركعتيه ثم أخذ نعليه وخرج. (318)

ونظر عمر بن عبد العزيز إلى علوي يمشي مشية منكراً، فقال: يا هذا، إن الذي شرفت به لم تكن هذه مشيته (319).

عليك وأراحنا منك

وكان الوليد بن عبد الملك لحنة خطب الناس يوم عيد فقراً في خطبته يا ليتها كانت القاضية وضم التاء فقال عمر بن عبد العزيز عليك وأراحنا منك(320)

مننت

ودخل إليه أعرابي وعنده عمر بن عبد العزيز فقال له من أنت ووصل الهمزة فظن الأعرابي أنه يقول مننت فقال المنة لله ولأمير المؤمنين فقال عمر للأعرابي إن أمير المؤمنين يقول لك من أنت قال فلان بن فلان قال ما شأنك وفتح النون قال جدري في وجهي وفحج بساقي قال عمر ويحك إن أمير المؤمنين يقول لك ما شأنك وضم النون قال ظلمني ختني قال ومن ختتك

316 (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 178/1

317 (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 189/1

318 (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 233/1

319 (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 345/1

320 (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 470/1

وفتح النون قال وما سؤالك عن ذلك يا أمير المؤمنين حجام عندنا بالبادية قال عمر إن أمير المؤمنين يقول لك من ختنك وضم النون قال فلان.(321)

انطلق صَحْبِكَ الله

كان عمر بن عبد العزيز وهو أمير على الحجاز أتي بالصلت ابن أبي العاصي المخزومي سكران فجلده الحدَّ فغضب وأحقَّ بالروم فتنصر، وبعث عمر رجلاً إلى ملك الروم في فداء من عندهم من الأسرى، قال: بينما أنا أجول في أزقة القسطنطينية إذ سمعت غناءً بلسانٍ فصيحٍ عربيٍّ وصوت شجيٍّ في هذا الصوت:

وكم بين الفرات إلى المصلَّى ... إلى أحدٍ إلى ميقات ريم
إلى الجماء من ثغرٍ نقيٍّ ... عوارضه ومن دلٍ رхим
ومن عين مكحلة المآقي ... بلا كلٍ ومن كشح هضيم
فلم أسمع قط أطيّب منه، ولم أدر، أهو كذلك حسن، أم لغربة العربية في ذلك الموضع، ودنوت من الصوت فلما قربت منه إذا هو في غرفة، فنزلت عن دابتي وصعدت إليه فسلمت فردَّ السلام وهو يبكي فقلت له: أبشر، فقد فك الله أسرك؛ بعثني أمير المؤمنين في فداء من بهذا البلد من المسلمين فما قصتك، قال: هربت إلى هذا البلد غصباً لما جرى عليّ من عمر بن عبد العزيز، فمررت يوماً بهذا المكان وأشرفت على جارية من أحسن الناس وجهاً فعشقتها وكلمتها فقالت: إن دخلت في ديني لم أخالفك، فدعني شدة الوجد بها إلى أن تنصرت. فقلت له، أكنت قارئاً للقرآن، قال نعم، قلت فما بقي معك منه، قال لا شيء إلا هذه الكلمة: [ربّما يؤدُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين] قلت يا هذا، أتق الله وعاولد الإسلام فإن الله يقول، [إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان] قال: وكيف، بعد عبادة الصليب وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير، انطلق صَحْبِكَ الله.(322)

كأنك لم تسمع بالعفو

وقيل: إن عبد الصمد عمه قال: يا أمير المؤمنين، لقد هجمت بالعقوبة، حتى كأنك لم تسمع بالعفو. قال: لأن بني أمية لم تبل رممهم، وآل علي لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة، ولا تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو.

³²¹ (الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، 91/1)

³²² (الرقيق القيرواني، قطب السرور في اوصاف الخمر، ص33)

ليس عندك قضاؤها ! ؟

وقيل : دخل عليه هشام بن عروة فقال : اقض ديني . قال : وكم هو ؟ . قال :
مائة ألف ، قال : وأنت في فقهمك وفضلك تأخذ مائة ألف ، ليس عندك
قضاؤها ! ؟ قال : شب فتیان لي ، فأحببت أن أبوئهم ، وخشيت أن ينتشر
علي أمرهم ، واتخذت لهم منازل ، وأولمت عليهم ، ثقة بالله وبأمر
المؤمنين

قال : فردد عليه : مائة ألف ، استكثرها لها ، ثم قال : قد أمرنا لك بعشرة
آلاف . قال : فأعطني ما تعطي وأنت طيب النفس ، فقد سمعت أبي يحدث عن
النبي - ﷺ - قال : " من أعطى عطية وهو بها طيب النفس ، بورك للمعطي
والمعطي " .

قال : فإني طيب النفس بها . فأهوى ليقبل يده ، فمنعه ، وقال : إنا نكرمك
عنها ، ونكرمها عن غيرك .

يدرك الشرف الفتى ورداؤه خلق

وقيل رأت جارية للمنصور قميصه مرقوعا ، فكلمته فقال :
قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خلق ، وجيب قميصه مرقوع

أتؤمن بالله ؟

قال عباد بن كثير لسفيان : قلت لأبي جعفر : أتؤمن بالله ؟ قال : نعم . قلت :
حدثني عن الأموال التي اصطفتيموها من بني أمية ، فلئن صارت إليكم ظلما
وغصبا ، فما رددتموها إلى أهلها الذين ظلموا ، ولئن كانت لبني أمية ، لقد
أخذتم ما لا يحل لكم ، إذا دعيت غدا بنو أمية بالعدل ، جاءوا بعمر بن عبد
العزيز ، وإذا دعيتم أنتم ، لم تجيئوا بأحد ، فكن أنت ذاك الأحد ، فقد مضت
من خلافتك ست عشرة سنة . قال : ما أجد أعوانا . قلت : عونك علي بلا
مرزئة ، أنت تعلم أن أبا أيوب المورياني يريد منك كل عام بيت مال ، وأنا
أجيبك بمن يعمل بغير رزق ، آتيك بالأوزاعي ، وآتيك بالثوري ، وأنا أبلغك
عن العامة . فقال : حتى أستكمل بناء بغداد ، وأوجه خلفك . فقال له سفيان :
ولم ذكرتني له ؟ . قال : والله ما أردت إلا النصح . قال سفيان : ويل لمن دخل
عليهم ، إذا لم يكن كبير العقل ، كثير الفهم ، كيف يكون فتنة عليهم وعلى
الأمة .

فاجلده ثمانين، واجلد الذي جاء به مائة

ودخل ابن هرمة على المنصور وامتدحه، فقال له المنصور: سل حاجتك؟

قال: تكتب إلى عاملك بالمدينة إذا وجدني سكران لا يحدني.

فقال له المنصور: هذا حد لا سبيل إلى تركه.

فقال: ما لي حاجة غيرها.

فقال لكتابه: اكتب إلى عاملنا بالمدينة من أتك بابل هرمة وهو سكران

فاجلده ثمانين، واجلد الذي جاء به مائة.

فكان الشرطة يمرون عليه وهو سكران ويقولون: من يشتري ثمانين بمائة،

فيمرون عليه ويتركونه، انتهى. (323)

الرجل الثبت الجنان

وحدث أحمد بن موسى قال: ما رأيت رجلاً أثبت جناناً ولا أحسن معرفة ولا

أظهر حجة من رجل رفع فيه عند المنصور بأن عنده أموالاً لبني أمية، فأمر

المنصور حاجبه الربيع أن يحضره، فلما حضر بين يديه. قال المنصور: رفع

إلينا أن عندك ودائع وأموالاً وسلاحاً لبني أمية فأخرجها لنا لنجمع ذلك إلى

بيت المال.

فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، أنت وارث لبني أمية؟ قال: لا.

قال: فلم تسأل إذن عما في يدي من أموال بني أمية ولست بوارث لهم ولا

وصي.

فأطرق المنصور ساعة، ثم قال: إن بني أمية ظلموا الناس وغصبوا أموال

المسلمين.

فقال الرجل: يحتاج أمير المؤمنين إلى بينة يقبلها الحاكم تشهد أن المال الذي

لبني أمية هو الذي في يدي وأنه هو الذي غصبوه من الناس. وأن أمير

المؤمنين يعلم أن بني أمية كانت لهم أموال لأنفسهم غير أموال المسلمين

التي اغتصبوها على ما يتهم أمير المؤمنين؟ قال: فسكت المنصور ساعة، ثم

قال: يا ربيع، صدق الرجل ما يجب لنا على الرجل شيء، ثم قال للرجل: ألك

حاجة؟ قال: نعم.

قال: ما هي؟ قال: أن تجمع بيني وبين من سعى في إليك فوالله يا أمير

المؤمنين ما لبني أمية عندي مال ولا سلاح. وإنما أحضرت بين يديك وعلمت

ما أنت فيه من العدل والإنصاف واتباع الحق واجتناب المظالم، فأيقنت أن

الكلام الذي صدر مني هو أنجح وأصلح لما سألتني عنه.

فقال المنصور: يا ربيع، اجمع بينه وبين الذي سعى به فجمع بينهما. فقال: يا أمير المؤمنين، هذا أخذ لي خمسمائة دينار وهرب، ولي عليه مسطور شرعي.

فسأل المنصور الرجل فأقر بالمال. قال: فما حملك على السعي كاذباً؟ قال: أردت قتله ليخلص لي المال.

فقال الرجل: قد وهبتها له يا أمير المؤمنين، لأجل وقوفي بين يديك وحضوري مجلسك وهبته خمسمائة دينار أخرى لكلامك لي. فاستحسن المنصور فعله وأكرمه ورده إلى بلده مكرماً. وكان المنصور كل وقت يقول: ما رأيت مثل هذا الشيخ قط، ولا أثبت من جنانه ولا من حجلي مثله ولا رأيت مثل حمله ومروءته، انتهى.⁽³²⁴⁾

كتاب المنصور

ذكر أبو الحسن الماوردي: أن أبا جعفر المنصور بلغه عن جماعة من كتاب دواوينه أنهم زوروا فيها وغيروا، فأمر بإحضارهم، وتقدم بتأديبهم، فقال حدث منهم وهو يضرب:

أطال الله عمرك في صلاح ... وعز يا أمير المؤمنين
بعفوك نستجير فإن تجرنا ... فإنك عصمة للعالمينا
ونحن الكاتبون وقد أسأنا ... فهبنا للكرام الكاتبينا
فأمر بتخليتهم، ووصل الفتى وأحسن إليه.⁽³²⁵⁾

يا ربيع لا ينصرف من مقامه إلا بمائة ألف درهم

قال خزيمة بن يحيى: قدم رجل من أهل الشام من بني مرة على أبي جعفر المنصور فتكلم معه كلاماً حسناً فقال له أبو جعفر حاجتك فقال يبقيك الله يا أمير المؤمنين قال حاجتك فإنه ليس كل ساعة يمكنك هذا ولا تؤمر به فقال والله ما أستقصر عمرك ولا أخاف بخلك ولا أغتتم مالك وإن سؤالك لشرف وإن عطاءك لزين وما بامرئ بذل وجهه إليك نقص ولا شين فقال أبو جعفر يا ربيع لا ينصرف من مقامه إلا بمائة ألف درهم فحملت معه. (326)

³²⁴ (إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص 37-38)

³²⁵ (ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص 6)

³²⁶ (أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الأمالي في لغة العرب، نشر دار الكتب العلمية، 1398هـ 1978م، 228/3)

فلا نكافىء الا بالتى هي احسن

ولما مدح ابن هرمة أبا جعفر المنصور أمر له بألفي درهم فاستقلها وبلغ ذلك أبا جعفر فقال أما يرضى أنى حقنت دمه وقد استوجب إراقته ووفرت ماله وقد استحق تلفه وأقررتة وقد استأهل الطرد وقربته وقد استحق البعد أليس هو القائل في بني أمية

إذا قيل من عند ريب الزمان ... لمعتز فهز ومحتاجها
ومن يعجل الخيل يوم الوغى ... بالجامها قبل إسراجها
أشارت نساء بني مالك ... اليك به قبل أزواجها
قال ابن هرمة فأنى قد قلت فيك أحسن من هذا قال هاته قال قلت
إذا قلت أي فتى تعلمون ... أهش الى الطعن بالذابل
واضرب للقرن يوم الوغى ... وأطعم في الزمن الماحل
أشارت اليك أكف الورى ... إشارة غرقى الى ساحل
قال المنصور أما هذا الشعر فمسترق وأما نحن فلا نكافىء الا بالتى هي احسن (327)

سياسة المنصور في العفو عن المسيء

لما احتال ابو الازهر بالمهلب بن عبيثر المهري لعبد الحميد بن رباعي بن خالد ابن مغدق وأسلمه إلى حميد بن قحطبة وأسلمه حميد الى المنصور قال لا عذر فأعذر وقد احاط بي الذنب وانت أولى بما ترى قال لست أقتل أحدا من ال قحطبة بل أهب مسيئهم بالمحسنهم وغادرهم لوفيههم قال ان لم يكن في مصطنع فلا حاجة لي في الحياة ولست أرضى أن أكون طليق شفيع وعتيق ابن عم قال اسكت مقبوحا مشقوحا اخرج فانك أنوك جاهل أنت عتيقهم وطليقهم ما حييت . (328)

اخرج إلى لعنة الله وأليم عذابه.

وحدث صباح بن خاقان، قال: حدثني أبي أن أبا جعفر المنصور لما أتى برأس إبراهيم بن عبد الله، فوضع بين يديه، جاء بعض أولئك الرويدية، فضرب الرأس بعمودٍ كان في يده. فقال المنصور للمسيب: دق وجهه! فدق المسيب أنفه. ثم قال المنصور له: يا ابن اللخناء! تجيء إلى رأس ابن عمي

327 (أبي عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، تحقيق المحامي فوزي عطوي ، دار

صعب - بيروت، الطبعة الأولى ، 1968 ، 556/1

328 (الجاحظ ، البيان والتبيين ، 557/1

وقد صار إلى حال لا يدفع ولا ينفع تضر به بعمودك، كأنك رأيته وهو يريد نفسي، فدفعته عني. اخرج إلى لعنة الله وأليم عذابه.

تطأ بساطي، وتترحم على عدوي؟

ويقال أن أبا جعفر وجه إلى شيخ من أهل الشام، وكان من بطانة هشام، فسأله عن تدبير هشام في بعض حروبه الخوارج، فوصف له الشيخ ما دبر، فقال: فعل، رحمه الله، كذا، وضع، رحمه الله، كذا.

فقال المنصور: قم، عليك لعنة الله! تطأ بساطي، وتترحم على عدوي؟ فقام الرجل، فقال وهو مول: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي، لا ينزعها غلا غاسلي. فقال له المنصور: ارجع، يا شيخ! فرجع. فقال له: أشهد أنك نهيض حرة وغراس شريف! عد إلى حديثك! فعاد الشيخ إلى حديثه، حتى إذا فرغ، دعا له بمال ليأخذه، فقال: والله يا أمير المؤمنين، ما بي من حاجة إليه؟ ولقد مات عني من كنت في ذكره آنفاً، فما أحوجني إلى وقوف على باب أحد بعده. ولولا جلالة عز أمير المؤمنين، وإيثار طاعته، ما لبست لأحد بعده نعمة. فقال المنصور: مت إذا شئت، فله أنت! فلو لم يكن لقومك غيرك، لكنت قد أبقيت لهم مجداً مخلداً. (329)

هذا الذي أراد أن يكون غداً فصار بعد غد

قال أبو عبد الله بن عرفة: لما هم أبو جعفر المنصور بالبيعة للمهدي، دخل عليه الحسن بن قحطبة فقال: يا أمير المؤمنين! ما تنتظر بالفتى المقبل المبارك، جدد له البيعة فما أحد ممتنع وراء هذا الستر، ومن أبي فهذا سيفي، وبلغ الخبر عيسى بن موسى (ولي العهد)، فقال: والله لئن ظفرت به لأشرب البارد، وبلغ الحسن بن قحطبة الخبر والمنصور فدخل الحسن ابن قحطبة على المنصور وعنده عيسى بن موسى، فتمثل المنصور بقول جرير: زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً ... أبشر بطول سلامة يا مربع (330) فلما خلع المنصور عيسى بن موسى من ولاية العهد مر في موكب، فقال إنسان: من هذا؟ فسمعه مخنث، فقال: هذا الذي أراد أن يكون غداً فصار بعد غد. (331)

329 (الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك ، 24/1

330 (مربع رجل من بني جعفر بن كلاب، كان يروي شعر جرير فنذر الفرزدق دمه، فقال جرير:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً ... أبشر بطول سلامة يا مربع
إن الفرزدق قد تبين لؤمه ... حيث التقى حششاؤه والأخدغ

331 (المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح ، 59/1

ذاك قاتل حبيبي

قال أبو الفضل العباس بن الفضل الربعي : كان أبو جعفر المنصور في بعض أسفاره في أيام بني أمية تزوج امرأة من الأزدي بالموصل عن ضر شديد أصابه حتى أكرى نفسه مع الملاحين يمد في الحبل، حتى انتهى إلى الموصل أو فعل ذلك لأمر خافه على نفسه، فتتكر وأكرى نفسه في مدادي السفن، فخطب هذه المرأة ورغبها في نفسه، ووعداها ومناها وأخبرنا أنه نابه القدر، وأنه من أهل بيت شرف، وأنها إن تزوجته سعدت به، فلم يزل يمنيها بهذا وشبهه حتى أجابته وأقام معها، وكان يختلف في أسبابه ويجعل طريقه عليها بما رزقه الله عز وجل، ثم اشتملت على حمل، فقال لها: أيتها المرأة! هذه رقعة مختومة عندك لا تفتحيها حتى تضعي ما في بطنك، فإن ولدت ابناً فسميه جعفرأ وكنيه أبا عبد الله، وإن ولدت بنتاً فسميها فلانة، وأنا عبد الله بن محمد ابن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، فاستري أمري فإننا قوم مطلوبون، والسلطان إلينا سريع، ووعداها وخرج، فقضي أنها ولدت ذكراً وأخرجت الرقعة وقرأت النسب فسمته جعفرأ وضرب الدهر على ذلك ما تسمع له خبرأ، ونشأ الصبي مع أخواله وأهل بيت أمه، وكان كيسأ ذهنأ لقنأ واستخلف أبو العباس فقل للمرأة: إن كنت صادقة في رقعتك وكان من كتبها صادقأ فإن زوجك الخليفة أمير المؤمنين، قالت: ما أدري صفوا لي صفة هذا الخليفة، قالوا: غلام حين اتصل وجهه، قالت: ليس هو هو، قيل: فاستري إذاً أمرك، ولم يلبث أبو العباس أن مات واستحق عندها اليأس، وأقبل ابنها على الأدب فتأدب وظرف وكتب ونزعت به همته إلى بغداد، فدخل ديوان أبي أيوب كاتب المنصور، وانقطع إلى بعض أهله فأتى عليه زمان يتقوت الكتب ويتزيد في أدبه وفهمه وخطه، حتى بلغ أن صار يكتب بين يدي أبي أيوب، إلى أن تهيأ أن خرج خادم يوماً إلى الديوان يطلب كاتبأ يكتب بين يدي المنصور، فقال أبو أيوب للغلام: خذ دواتك وقم واكتب بين يدي أمير المؤمنين، فدخل الغلام فكتب وكانت تنهيأ من أبي جعفر إليه النظرة بعد النظرة يتأمله، وألقيت عليه محبته واستجاد خطه واسترشق فهمه، فلبث زمانأ لا يزال الخادم قد خرج فيقول: يا غلام خذ دواتك وقم واكتب بين يدي أمير المؤمنين، واستراح أبو أيوب إلى مكانه، ورأى أنه قد حمل عنه ثقلأ، وبر الغلام ووصله وكساه كسوة تصلح أن يدخل بها إلى أمير المؤمنين، ثم إن أبا جعفر قال للغلام يوماً: ما اسمك؟ قال: جعفر، قال: ابن من؟ فسكت متحيراً، قال: ابن من ويحك؟ قال: ابن عبد الله قال: فأين أبوك؟ قال: لم أره ولم أعرفه، ولكن أُمي أخبرتني

أن أبي شريف، وأن عندها رقعة بخطه فيها نسبه، عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، فساعة ذكر الرقعة تغير وجه المنصور، فقال: وأين أمك؟ قال: بالموصل، قال: وأين تنزلون؟ قال: في موضع كذا، قال: فتعرف فلاناً؟ قال: نعم هو إمام مسجد محلثنا، قال: أفتعرف فلاناً؟ قال: نعم بقال في سكتنا، فلما رأى الغلام أبا جعفر ينزع بأسماء قوم يعرفهم أدركته هيبة له، وجزع وتدمع، فأدركت أبا جعفر الرقة عليه فلم يتمالك أن قال: فلانة بنت فلان من هي منك؟ قال: أمي، قال: ففلانة؟ قال: خالتي، قال: ففلان؟ قال: خالي، فضمه إليه وبكى، وقال: يا غلام! لا يعلمن أبو أيوب ولا أحد من خلق الله تعالى ما دار بيني وبينك، انظر انظر احذر احذر، فنهض الغلام فخرج، فقال له أبو أيوب لقد احتبست عند أمير المؤمنين، قال: كتبت كتباً كثيرة وأملها علي، قال: فأين هي؟ قال: جعلها نسخاً يتردد فيها حتى يحكمها ثم تخرج إلى الديوان ثم إن أبا جعفر جعل يقول في بعض الأيام لأبي أيوب: هذا الغلام الذي يكتب بين يدي كيس فاستوص به، قال: فاتهم أبو أيوب الغلام أنه يلقي إلى أبي جعفر الشيء بعد الشيء من خبره، ثم لم يلبث أن سألته عنه مرة بعد مرة فقذف في قلب أبي أيوب بغض الغلام، وأنه يقوم مقامه إن فقده أبو جعفر، وقذف في قلبه أنه يسعى عليه وأنه يخرج أخباره، فجعل إذا خرج الخادم يطلب كاتباً بعث معه غيره وأبو جعفر يزداد ولهاً إلى الغلام ويجن جنوناً وليس يمنعه من إدناؤه وإظهار أمره إلا لأمر يريده، فلما رأى أن أبا أيوب يحبسه عنه عناداً، قال للخادم: اخرج إلى الديوان فجئني بفلان الغلام الذي كان يكتب بين يدي، فإن بعث معك أبو أيوب بغيره فقل:

لا، أمرني أمير المؤمنين ألا يدخل عليه غيره، ففعل الخادم ذلك فاستحق في قلب أبي أيوب ما حذره وحدثته به نفسه، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين - جعلني الله فداك - قد تعرفت من أبي أيوب البغض والاستئثار بمكاني، وله غوائل لا يحيط بها علمي وأنا أخافه على نفسي، فقال له أبو جعفر: بارك الله عليك، فما أخطأت الذي في نفسي وهذا كله يا بني قد جال في صدري، فإذا كان غد فتعرض لأن يغلف لك، فإذا أغلف فقم فانصرف كأنك مغضب، ولا تعد إلى الديوان واجعل وجهك إلى أمك، وأوصل إليها هذا العقد وهذا الكيس وكتابي هذا، واحمل أمك ومن اتبعها من قرابتك وأقبل فانزل موضع كذا، فإني منفذ إليك خادماً يتفقد أمورك ويعرف خبرك، ولا تطلعن أحداً من الخلق طلع ما معك، وامض بهذا المال وبهذا العقد وأحرزه أولاً قبل رجوعك إلى

الديوان، ثم قال للخادم: أخرجه من باب كذا وكذا، فخرج الغلام فأحرز ما كان معه ثم رجع إلى الديوان، وأبو أيوب في فكره من احتباسه عند المنصور، ورجع الغلام بوجه بهج مسرور لا يخفي ذلك عليه وظهور الفرح في وجهه وشمائله، فقال أبو أيوب: أحلف بالله لقد رجع هذا الغلام بغير الوجه الذي مضى به، ولقد دار بينه وبين أمير المؤمنين من ذكرى ما سره، واستشعر الوحشة منه وصرف أكثر عمله عنه، ثم لم يلبث أن أغلظ له، فقال الغلام: أنا إنسان غريب أطلب الرزق وأنت تستخف بي، فكأنني قد ثقلت عليك فأنتحي عنك قبل أن تطردني، ثم قام فانصرف وافتقده أبو أيوب أياماً، ورأى أن أبا جعفر لا يسأل عنه ولا يذكره، ثم إن نفس أبي أيوب نازعته إلى علم حقيقة خبره، فأرسل من يسأل عنه في الموضع الذي كان نازلاً فيه، ف قيل له: إنه قد تهيأ للسفر وتجهز جهازاً حسناً وشخص إلى أهله بالموصل، فقال أبو أيوب في نفسه: ومن أين له ما يتجهز به، وكم مبلغ ما ارتزق معي وارتفق به؟ لهذا الأمر نبأ، وجعلت نفسه تزداد وحشة منه ومن خبره إلى أن قيل له: قد كان أبو جعفر وصله بمال ووهب له شيئاً، فقال في نفسه: هذا الذي ظننت وقد ربصه لمكاني وينبغي أن يكون استأذنه في أن يخرج إلى أهله فيلم بهم ثم يرجع إليه فيقلده مكاني، فقال لرجل من أصحابه: اخرج إلى طريق الموصل قرية قرية براً وبحراً، فإذا عرفت موضعه فاقتله وجئني بما معه، فشخص وتهيأ، ثم إن الغلام لما خرج عن بغداد رأى أنه قد أمن فقصر في مسيره، وكان يقيم في الموضع فيستطيبه اليوم واليومين والأكثر والأقل، فلحقه رسول أبي أيوب وعرفه، فباتا بقرية فقام إليه الرسول فخنقه وطرحه في البئر وأخذ خرجة وخرائط كانت معه، وركب دابة له ورجع إلى أبي أيوب وسلم ذلك إليه وشرح الخبر له، ففتش متاعه أبو أيوب فإذا المال والعقد فعرفه، وإذا كتاب المنصور بخطه إلى أمه فوجم أبو أيوب وندم وعلم أنه قد عجل وأخطأ، وأن الخبر لم يكن كما ظن، وعزم على الحلف والمكابرة إن عثر على شيء من أمره، وأبطأ خبر الغلام على أبي جعفر، واستبطأه في الوقت الذي ضرب له، فدعا خادماً من ثقاته ورجلاً من خاصته، فقال لهما: استقرنا المنازل إلى الموصل منزلاً منزلاً وقرية قرية، وأعطينا صفة الغلام حتى تدخلوا الموصل، ثم اقصدوا موضع كذا من الموصل فسلا عن فلانة، ووصف لهما كل ما أراد ففعلا، فلما انتهيا إلى الموضع الذي أصيب فيه الغلام أعلمنا خبره، وذكروا الوقت الذي أصيب فيه فإذا التاريخ بعينه، ثم مضيا إلى الموصل فسألا عن أمه فوجداها أشد خلق الله تعالى ولهاً إلى ابنها، وحاجة

إلى علم خبره، فأطلعها طلع حاله، وأمرها أن تستر أمرها، ثم رجعا إلى أبي جعفر بجملة خبره، فكادت أمه أن تقتل نفسها ولم ترد الدنيا بعده، وكان المنصور يذكره فيكاد ذكره يصدع قلبه، وأجمع أبو جعفر على الإيقاع بأبي أيوب عند ذلك، فاستصفى ماله ومال أهل بيته، ثم قتلهم جميعاً وأباد عصراءهم، وكان إذا ذكر أبا أيوب لعنه وسبه، وقال: ذاك قاتل حبيبي، أمرني أمير المؤمنين ألا يدخل عليه غيره، ففعل الخادم ذلك فاستحق في قلب أبي أيوب ما حذره وحدثه به نفسه، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين - جعلني الله فداك - قد تعرفت من أبي أيوب البغض والاستئثار بمكاني، وله غوائل لا يحيط بها علمي وأنا أخافه على نفسي، فقال له أبو جعفر: بارك الله عليك، فما أخطأت الذي في نفسي وهذا كله يا بني قد جال في صدري، فإذا كان غد فتعرض لأن يغظ لك، فإذا أغلظ فقم فانصرف كأنك مغضب، ولا تعد إلى الديوان واجعل وجهك إلى أمك، وأوصل إليها هذا العقد وهذا الكيس وكتابي هذا، واحمل أمك ومن اتبعها من قرابتك وأقبل فانزل موضع كذا، فإني منفذ إليك خادماً يتفقد أمورك ويعرف خبرك، ولا تطلعن أحداً من الخلق طلع ما معك، وامض بهذا المال وبهذا العقد وأحرزه أولاً قبل رجوعك إلى الديوان، ثم قال للخادم: أخرجه من باب كذا وكذا، فخرج الغلام فأحرز ما كان معه ثم رجع إلى الديوان، وأبو أيوب في فكره من احتباسه عند المنصور، ورجع الغلام بوجه بهج مسرور لا يخفي ذلك عليه وظهور الفرح في وجهه وشمائله، فقال أبو أيوب: أحلف بالله لقد رجع هذا الغلام بغير الوجه الذي مضى به، ولقد دار بينه وبين أمير المؤمنين من ذكرى ما سره، واستشعر الوحشة منه وصرف أكثر عمله عنه، ثم لم يلبث أن أغلظ له، فقال الغلام: أنا إنسان غريب أطلب الرزق وأنت تستخف بي، فكأنني قد ثقلت عليك فأنتحي عنك قبل أن تطردني، ثم قام فانصرف وافتقده أبو أيوب أياماً، ورأى أن أبا جعفر لا يسأل عنه ولا يذكره، ثم إن نفس أبي أيوب نازعته إلى علم حقيقة خبره، فأرسل من يسأل عنه في الموضع الذي كان نازلاً فيه، ف قيل له: إنه قد تهيأ للسفر وتجهز جهازاً حسناً وشخص إلى أهله بالموصل، فقال أبو أيوب في نفسه: ومن أين له ما يتجهز به، وكم مبلغ ما ارتزق معي وارتفق به؟ لهذا الأمر نبأ، وجعلت نفسه تزداد وحشة منه ومن خبره إلى أن قيل له: قد كان أبو جعفر وصله بمال ووهب له شيئاً، فقال في نفسه: هذا الذي ظننت وقد ربصه لمكاني وينبغي أن يكون استأذنه في أن يخرج إلى أهله فيلم بهم ثم يرجع إليه فيقلده مكاني، فقال لرجل من أصحابه: اخرج إلى طريق

الموصل قرية قرية براً وبحراً، فإذا عرفت موضعه فاقتله وجئني بما معه، فشخص وتهياً، ثم إن الغلام لما خرج عن بغداد رأى أنه قد أمن فقصر في مسيره، وكان يقيم في الموضع فيستطيبه اليوم واليومين والأكثر والأقل، فلحقه رسول أبي أيوب وعرفه، فباتا بقرية فقام إليه الرسول فخنقه وطرحه في البئر وأخذ خرجه وخرائط كانت معه، وركب دابة له ورجع إلى أبي أيوب وسلم ذلك إليه وشرح الخبر له، ففتش متاعه أبو أيوب فإذا المال والعقد فعرفه، وإذا كتاب المنصور بخطه إلى أمه فوجم أبو أيوب وندم وعلم أنه قد عجل وأخطأ، وأن الخبر لم يكن كما ظن، وعزم على الحلف والمكابرة إن عثر على شيء من أمره، وأبطأ خبر الغلام على أبي جعفر، واستبطأه في الوقت الذي ضرب له، فدعا خادماً من ثقاته ورجلاً من خاصته، فقال لهما: استقرئنا المنازل إلى الموصل منزلاً منزلاً وقرية قرية، وأعطينا صفة الغلام حتى تدخلوا الموصل، ثم اقصدوا موضع كذا من الموصل فسلا عن فلانة، ووصف لهما كل ما أراد ففعلا، فلما انتهيا إلى الموضع الذي أصيب فيه الغلام أعلمنا خبره، وذكروا الوقت الذي أصيب فيه فإذا التاريخ بعينه، ثم مضيا إلى الموصل فسألا عن أمه فوجداهما أشد خلق الله تعالى ولهاً إلى ابنها، وحاجة إلى علم خبره، فأطلعاهما طلع حاله، وأمرأها أن تستر أمرها، ثم رجعا إلى أبي جعفر بجملة خبره، فكادت أمه أن تقتل نفسها ولم ترد الدنيا بعده، وكان المنصور يذكره فيكاد ذكره يصدع قلبه، وأجمع أبو جعفر على الإيقاع بأبي أيوب عند ذلك، فاستصفى ماله ومال أهل بيته، ثم قتلهم جميعاً وأباد عصراءهم، وكان إذا ذكر أبا أيوب لعنه وسبه، وقال: ذاك قاتل حبيبي. (332)

المتفضل جاوز حد المنصف

حدث الأصمعي: أن أبا جعفر المنصور حين عفا عن أهل الشام، قال له رجل، يا أمير المؤمنين! الانتقام عدلٌ والتجاوز فضل، والمتفضل قد جاوز حد المنصف، فنحن نعيذ أمير المؤمنين بالله عز وجل من أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين، وألا يرتفع إلى أعلى الدرجتين. (333)

332 (الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص 106

333 (المعافى بن زكريا ،الجليس الصالح والأنيس الناصح ، 142/1

ولد لأبي دلامة ابنة

قال حدثني محمد بن حفص المعجلي: ولد لأبي دلامة ابنة فغدا على أبي جعفر المنصور فقال له: يا أمير المؤمنين إنه ولد لي الليلة ابنة، قال: فما سميتها؟ قال: أم دلام. قال: وأي شيء تريد؟ قال: أريد أن يعينني عليها أمير المؤمنين، ثم أنشده:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم لقليل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلكم ... إلى السماء فأنتم أكرم الناس
قال: فهل قلت فيها شيئاً؟ قال: نعم، قلت:

فما ولدتك مريم أم عيسى ... ولم يكفلك لقمان الحكيم
ولكن قد تضمك أم سوء ... إلى لباتها وأب لنيم
قال: فضحك أبو جعفر، ثم أخرج أبو دلامة خريطة من خرق فقال: ما هذه؟
قال: يا أمير المؤمنين أجعل فيها ما تحبوني به، فقال: املئوها له دراهم
فوسعت ألفي درهم. (334)

والله لتلين الخليفة أو أكون جاهلاً أو كذاباً

يزعمون أن أبا جعفر المنصور نزل في بعض القرى فقرض الفأر مسحاً له
كان يجلس عليه فبعث به ليُرفأ فقال لهم الرفاء: إن هنا أهل بيت يعرفون
بقرض الفأر ما ينال صاحب المتاع من خير أو شر فلا عليكم أن تعرضوه
عليهم قبل أن تصلحوه فبعث المنصور إلى شيخهم فلما وقعت عينه على
موضع القرض وثب وقام قائماً ثم قال: من صاحب هذا المسح فقال المنصور
: أنا فقام ثم قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته والله
لتلين الخليفة أو أكون جاهلاً أو كذاباً. (335)

ثم رجع إلى موضعه من الخطبة

ومن حديث زياد عن مالك بن أنس قال: خطب أبو جعفر المنصور، فحمد الله
تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس اتقوا الله. فقام إليه رجل من عرض
الناس، فقال: أذكرك الله الذي ذكرتنا به يا أمير المؤمنين. فأجابه أبو جعفر
بلا فكرة ولا روية: سمعاً وطاعة لمن ذكر بالله، وأعوذ بالله أن أذكر به
وأنساه فتأخذني العزة بالإثم، فقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين وأما أنت،
فوالله ما الله أردت بها، ولكن ليقال: قال فعوقب فصبر، وأهون بها لو كانت،

334 (المعافى بن زكريا ، المجلس الصالح والأنيس الناصح ، 297/1

335 (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ،

وأنا أحذركم أيها الناس أختها، فإن الموعظة علينا نزلت، ومنا أخذت. ثم رجع إلى موضعه من الخطبة. (336)

أخشى أن تكتب بها معصية الله فأكون شريكك فيها

عن مالك بن أنس قال: بعث أبو جعفر المنصور إلي وإلى ابن طاوس، فأتيناه فدخلنا عليه، فإذا هو جالس على فرش قد نضدت، وبين يديه أنطاع قد بسطت، وجلالوزة بأيديهم السيوف يضربون الأعناق. فأموا إلينا: أن اجلسا. فجلسنا. فأترق عنا طويلاً، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس، فقال له: حدثني عن أبيك. قال: نعم، سمعت أبي يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله. فأمسك ساعة. قال مالك: فضمت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه. ثم التفت إليه أبو جعفر فقال: عظمي يا ابن طاوس. قال: نعم يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى يقول: " ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وشمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد ". قال مالك: فضمت ثيابي مخافة أن يملأ ثيابي من دمه. فأمسك ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه. ثم قال: يا ابن طاوس، ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه، ثم قال: ناولني هذه الدواة: فأمسك عنه. فقال: ما يمنعك أن تتناولنيها؟ قال: أخشى أن تكتب بها معصية الله فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قوماً عني قال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي منذ اليوم.

قال مالك: فما زلت أعرف لا بن طاوس فضله. (337)

فقد أعتني فيك الحيلة

قال إبراهيم بن أحمد عن الشيباني: كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل مستتراً، فكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدث. فلما أفضت الخلافة إليه، قدم عليه أزهر، فرحب به وقربه، وقال له ما حاجتك يا أزهر؟ قال: داري متهدمة، وعلي أربعة آلاف درهم، وأريد أن يبني محمد ابني بعياله، فوصله باثني عشر ألفاً، وقال. قد قضينا حاجتك يا أزهر، فلا تأتنا طالباً: فأخذها وارتحل. فلما كان بعد سنة أتاه. فلما رآه أبو جعفر، قال: ما جاء بك يا أزهر؟ قال جئتك مسلماً. قال: إنه يقع في خلد أمير المؤمنين أنك

336 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 15/1

337 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 16/1

جئت طالباً. قال: ما جئت إلا مسلماً. قال: قد أمرنا لك باثني عشر ألفاً، واذهب فلا تأتينا طالباً ولا مسلماً. فأخذها ومضى. فلما كان بعد سنة أتاه، فقال: ما جاء بك يا أزهري؟ قال: أتيت عائداً. قال: إنه يقع في خلد أمير المؤمنين أنك جئت طالباً. قال: ما جئت إلا عائداً قال أمرنا لك باثني عشر ألفاً فاذهب ولا تأتينا لا طالباً ولا مسلماً ولا عائداً، فأخذها وانصرف. فلما مضت السنة أقبل، فقال له: ما جاء بك يا أزهري؟ قال: دعاء كنت أسمعك تدعو به يا أمير المؤمنين، جئت لأكتبه. فضحك أبو جعفر وقال: إنه دعاء غير مستجاب، وذلك أني قد دعوت الله تعالى به أن لا أراك، فلم يستجب لي، وقد أمرنا لك باثني عشر ألفاً، فاذهب وتعال متى شئت، فقد أعيتني فيك الحيلة. (338)

كيف ذلك؟ ويلك!

ودخل أبو دلامة على أبي جعفر المنصور يوماً وعليه قلنسوة طويلة - وكان قد أخذ أصحابه بلبسها وأخذهم بلبس دراريع عليها مكتوب بين كتفي الرجل: " فسيكفيكم الله وهو السميع العليم " وأمرهم بتعليق السيوف على أوساطهم - فدخل عليه أبو دلامة في ذلك الزي، فقال له: كيف أصبحت أبا دلامة؟ قال: بشر حال يا أمير المؤمنين. قال: كيف ذلك؟ ويلك! قال: وما ظنك يا أمير المؤمنين بمن أصبح وجهه في وسطه، وسيفه في أسفه، وقد نبذ كتاب الله عز وجل وراء ظهره. قال: فضحك أبو جعفر، وأمر بتغيير ذلك، وأمر لأبي دلامة بصلة. (339)

لكن والله لأترك في مرضاتك الدنيا والآخرة

محمد بن يزيد قال: أكل قائد لأبي جعفر المنصور معه يوماً، وكان على المائدة محمد المهدى وصالح ابنه، فبينا الرجل يأكل من ثريدة بين أيديهم إذ سقط بعض الطعام من فيه في الغضارة، وكأن المهدى وأخاه عافاً الأكل معه، فأخذ أبو جعفر الطعام الذي سقط من فم الرجل فأكله. فالتفت إليه الرجل، فقال: يا أمير المؤمنين أما الدنيا فهي أقل وأيسر من أن أتركها لك، لكن والله لأترك في مرضاتك الدنيا والآخرة. (340)

338 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 72/1)

339 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 74/1)

340 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 241/1)

فَأَحِبْ مِنْكَ أَنْ تُعَلِّمَنِيهِ

قال أبو الحسن المدائني: لما حجَّ أبو جعفر المنصور مرَّ بالمدينة فقال للربيع: عليَّ بجعفر بن محمد، قتلني الله إن لم أقتله. فمطَّل به، ثم أَلَحَّ فيه، فحضر. فلما كُشِفَ السِّتْرُ بينه وبينه ومَثَلُ بين يديه، هَمَسَ جعفر بشفتيه، ثم تَقَرَّبَ وسَلَّمَ؛ فقال: لا سَلَّمَ الله عليك يا عدو الله، تُعْمَلُ على الغوائل في مُلْكِي، قَتَلَنِي الله إن لم أَقْتُلْكَ. فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، إن سُلَيْمانَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم أُعْطِيَ فشكر، وإن أيوبَ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ، وإن يوسفَ ظَلِمَ فَغَفَرَ، وأنت على إرثٍ منهم وأحقُّ من تأسى بهم، فنكس أبو جعفر رأسه مَلِيًّا ثم رفع إليه رأسه وقال: إلي يا أبا عبد الله، فأنت القريبُ القرابة، وإنك ذو الرَّحْمِ الواشِجة، السَّليمُ الناحية، القليلُ الغائلة، ثم صافحه بيمينه وعانقه بيساره وأجلسه معه على فراشه وانحرف له عن بَعْضِهِ وأقبل عليه بوجْهِه يُسَائِلُهُ ويُحَادِثُهُ، ثم قال: عجلوا لأبي عبد الله إذنه وكُسُوتَه وجائزته. قال الربيع: فلما خرج وأسْدَلَ السِّتْرَ أَمْسَكَتْ بِثَوْبِهِ فارتاع، وقال: ما أَرَانَا يا ربيع إلا قد حُبْسْنَا؟ قلتُ: هذه مِنِّي لا مِنْهُ؛ قال: فَذَلِكَ أَيْسَرُ، قُلْ حاجتك؟ قلتُ: إِنِّي منذ ثلاثٍ أَدَافَعُ عَنْكَ وَأَدَارِي عَلَيْكَ، ورَأَيْتُكَ إِذْ دَخَلْتَ هَمَسْتَ بِشَفَتَيْكَ، ثم رأيتُ الأَمْرَ انْجَلِي عَنْكَ، وأنا خادِمُ سُلْطَانٍ ولا غِنَى بي عنه، فَأَحِبْ مِنْكَ أَنْ تُعَلِّمَنِيهِ؛ قال: نعم، قُلْ: اللهم احرسني بعَيْنِكَ التي لا تَنَامُ، واكْنُفْنِي بِكَفِّكَ الذي لا يُرَامُ، ولا أَهْلِكَ وأنت رجائي، فكم من نِعْمَةٍ أَنْعَمْتَها عَلَيَّ قَلَّ عِنْدَهَا شُكْرِي فلم تَحْرِمْنِي، وكم من بَلِيَّةٍ ابْتَلَيْتَنِي بِهَا قَلَّ عِنْدَهَا صَبْرِي فلم تَخْذَلْنِي، اللهم بك أدْرَأْ في نَحْرِهِ، وأعوذُ بخيرِكَ من شَرِّهِ. (341)

بيت يلعب به الصبيان

سأل أبو جعفر المنصور أبا دلامة فقال: أي بيت قالتَه العرب أشعر؟ قال: بيت يلعب به الصبيان، قال: وما هو ذلك؟ قال: قول الشاعر:
ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا ... وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل (342)

إحتيال المنصور

قال أبو بديل بن حبيب: كنا إذا خرجنا من عند أبي جعفر المنصور صرنا إلى المهدي وهو يومئذٍ ولي عهد، ففعلنا ذلك يوماً فأبرز لي المنصور يده فانكببت عليها فقبلتها، فضرب يدي بيده، فعلمت أنه لم يفعل ذلك إلا لشيء في يده، فوضع في يدي كتاباً صغيراً تستره الكف، فلما خرجت قرأت الكتاب

341 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 338/1

342 (ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، 115/1

فإذا فيه: إذا قرأت كتابي هذا فاستأذن إلى ضياعك بالري، فرجعت فاستأذنت فقلت: يا أمير المؤمنين ضياعي بالري قد اختلت ولي حاجة إلى مطالعتها. فقال: لا ولا كرامة، فخرجت ثم عدت إليه اليوم الثاني فكلمته، فرد عليّ مثل الجواب الأول، فقلت: يا أمير المؤمنين إنما أردت صلاحها لأقوى بها على خدمتك، فقال: إذا شئت، فقلت: يا أمير المؤمنين فلي حاجة أذكرها. قال: قلت: أحتاج إلى خلوة، فنهض القوم وبقي الربيع، فقلت أحلني، قال: ومن الربيع؟ قلت نعم، ففتح الربيع فقال: إن جدت لي بدمك ومالك، فقلت: يا أمير المؤمنين وهل أنا ومالي إلا من نعمتك؟ حققت دمي ورددت علي مالي وآثرتني بصحبتك، فقال: إنه يهجم في نفسي أن المرار بن جهور على خلعي وليس لي غيرك لما أعرف بينكما فإظهار إذا صرت إليه الواقعة في والتنقص لي حتى تعرف ما عنده فإذا رأيته يهجم بخلعي فاكتب إلي ولا تكتبني على بريد ولا مع رسول ولا يفوتني خبرك في كل يوم فقد نصبت لك فلاناً القطن في دار القطن فهو يوصل كتبك، قال: فمضيت حتى أتيت الري فدخلت على مزار فقال: أفلت؟ قلت: نعم والحمد لله، ثم أقبلت أونسه بالواقعة في المنصور حتى أظهر ما كان المنصور ظن به، فكتبت إليه بذلك، فلما وصلت منه إلى ما أردت أتيت ضياعي ثم رجعت إليه بعد أيام، فقال: نجاك الله من الفاجر؟ قلت: نعم، وأرجو أن تقع عينه عليّ أبداً، فكنت أعرض به فيزيدي مما عنده، ثم قال لي: هل لك أن تخرج إلى متنزه طيب؟ قلت: نعم، فخرجت أنا وهو نتساير حتى صرنا إلى موضع مشرف قد بنيت له عليه قبة، فأحدّ النظر إلى ما هناك ثم قال: يا أبا بديل أترى الفاجر يظن أنني أعطيه طاعة أبداً ما عشت؟ أشهد أنني قد خلعت كما خلعت خفي هذا من رجلي! قال: فرجعت إلى منزلي وأنا في كل يوم أكتب بخبره، قال: وقد كنت أعددت تسعة فرسان من بني يربوع ورجلاً من بني أسد فواطأهم أن نبطش به وكتبت إلى المصمغان أن يأتيه في جنده إلى الموضع الذي اتفقنا عليه، قال: وأخذ المزار الدواء في ذلك اليوم، وسبق إليه الأسدي بالخبر وقال: احذر فقد اتخذ لك كيت وكيت، قال: فدخلت عليه فإذا هو على كرسي، فعرفت الشر في وجهه والمنكر في نظره، فقال: هيه يا أبا بديل مع إكرامي لك أردت أن تقتلني؟ قال فتضاحكت وقلت: بلغ من مكره أن دس إليك هذا الأسدي، لقد علمت فيك حيلته! ثم حرّكه بطنه فقام إلى الخلاء وقال: لا ترم، فلما ولى وثبت وخرجت مسرعاً، فقال الحاجب: أسرع. قلت: نعم في حاجة للأمير، وركبت فرسي فرأيت القوم قد وافوا كلهم إلا الأسدي، فعلمت أنه صاحبي، فلما خرج سأل

عني فأخبر بمضيي، فوجّه خيلاً في طلبي، فمال اليربوعيون فدفعهم، ومضيت حتى صرت إلى المصمغان وكتبت إلى أبي جعفر المنصور كتاباً مكشوفاً، فكتب: إني قد عرفت ما وصفته وقد صح الأمر، ثم كتب إلى خازم بن خزيمة فصار إليه حتى أخذه.⁽³⁴³⁾

ما تصنعين بهذا؟

قال علي بن بريهة الهاشمي: قال صاحب عذاب أبي جعفر: دعاني أبو جعفر المنصور ذات يوم وإذا بين يديه جارية صفراء وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها: ويلك اصدقيني فوالله ما أريد إلا الألفة ولئن صدقتني لأصلن الرحم ولأتابعن البرّ إليه، وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله⁽³⁴⁴⁾ وهي تقول: ما أعرف مكانه، ودعا بالدّهق⁽³⁴⁵⁾ وأمر به فوضع عليها فلما كادت نفسها أن تتلف قال: امسكوا عنها، وكره ما رأى وقال لأصحاب العذاب: ما دواء مثلها إذا صار إلى مثل حالها؟ قالوا: الطيب تشمه والماء البارد يصب على وجهها وتسقى السويق، فأمر لها بذلك وعالج بعضه بيده وقال لأصحاب العذاب: ألا أعلمتموني بما ينالها فأكف عنها؟ قالوا: قد علمنا أنها لا تقوى على هذا ولكننا هبناك، فما زالوا يردون عليها نفسها حتى أفاق، وأعاد عليها المسألة فأبت إلا الجحود، فقال لها: أتعرفين فلانة الحجامة؟ فاسود وجهها وتغيرت، فقالت: نعم يا أمير المؤمنين تلك في بني سليم، قال: صدقت، هي والله أمتي ابتعتها بمالي ورزقي يجري عليها في كل شهر وكسوة شتائها وصيفها، أمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرف أخباركم، ثم قال: أوتعرفين فلاناً البقال؟ قالت: نعم هو في بني فلان، قال: هو والله مضاربي بخمسة دنانير أمرته أن يبتاع بها كل ما يحتاج إليه من البيوع فأخبرني أن أمة لكم يوم كذا وكذا من شهر كذا صلاة المغرب جاءت تسأله حناء وورقاً، فقال لها: ما تصنعين بهذا؟ فقالت: كان محمد بن عبد الله في بعض ضياعه بناحية البقيع وهو يدخل الليلة فأردنا هذا لتتخذ منه النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب، فأسقط في يدها وأذعنت بكل ما أراد.

فالحمد لله الذي جعل منايانا جهاداً ولم يجعلها مهاداً

قيل: وإن أبا جعفر كتب في حمل عبد الله بن الحسن وأهل بيته من المدينة إلى حضرته، فلما أخرجوا كثر عليهم البكاء، فقال عبد الله: أفيقوا من البكاء

343 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص 71

344 (وكان قد خرج عليه

345 (من أدوات التعذيب في السجون العباسية

وأوغلوا في الدعاء، فإني أشهد الله على ما أردت من إحياء الحق وإماتة الباطل، فجرى القدر بما جرى، فجدي الحسن والحسين قتلا بسم وسيف، فالحمد لله الذي جعل مناينا جهاذاً ولم يجعلها مهاداً. (346)

إني شهدت تسعة عساكر كلها هزمت

حدثني أبو مالك عبد الله بن محمد قال: لما توفي أبو العباس السفاح دخل أبو دلالة على أبي جعفر المنصور والناس عنده يعزونه فقال: يا أمير المؤمنين كان أبو العباس أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً وهو مريض فلم أقبضها. فقال المنصور للخازن: ادفعها إليه وسيره إلى هذا الطاغية، يعني عبد الله بن عليّ. فقال أبو دلالة: يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن أخرج معهم فإني والله مشؤوم! فقال: لعله يغلب شؤمك فأخرج مع العسكر. فقال: والله ما أحب لك يا أمير المؤمنين أن تجرب ذلك فإني لا أدري على أي الفريقين يكون.

فقال أبو جعفر: دعني من هذا ما نريد غير المسير. فقال: يا أمير المؤمنين والله لأصدقنك، إني شهدت تسعة عساكر كلها هزمت فأنا أعيذك بالله أن تكون العاشر. فاستفرغ أبو جعفر ضحكاً وأمره أن يتخلف. (347)

هكذا ينبغي أن تكون نساؤهم

حدثنا الزبير بن بكار قال حدثني عثمان بن عبد الرحمن قال عرضت عاتكة بنت عبد الملك بن الحارث المخزومية أم أدريس وسليمان وعيسى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام لأبي جعفر المنصور وقد وافى حاجاً فصاحت يا أمير المؤمنين أحمل عني كلك أو أعني على حمله لك معي بنو عبد الله بن الحسن صبية صغار لا مال لهم وأنا امرأة لست بذات مال فأناشدك الله أن نفارق احتمال ما يلزمك احتماله منهم عوناً لهم إلى أطراحهم فإني خائفة عليهم إن فعلت أن يضيعوا فقال يا ربيع من هذه فنسبها له فقال هكذا ينبغي أن تكون نساؤهم وأمر برد ضياع أبيهم وأمر لها بألف دينار. (348)

346 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص 72

347 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 209/1

348 (ابن طيفور ، بلاغات النساء ، 65/1

لا تغضب لله بما يغضب الله

شهد سوار القاضي مجلس أبي جعفر المنصور يوماً فرآه قد غضب على أهل البصرة، فقال له: يا أمير المؤمنين! لا تغضب لله بما يغضب الله. (349)

عظني وأجز

قال شبيب بن شيبه: قال لي أبو جعفر المنصور - وكنت من سماره - عظني وأجز. قال: فقلت يا أمير المؤمنين! إن الله لم يجعل فوقك أحداً من خلقه؛ فلا ترض من نفسك بأن يكون عبد هو أشكر منك. قال: والله لقد أوجزت وما قصرت. قلت: والله لئن كنت قصرت فما بلغت كنه النعمة فيك. (350)

أبو جعفر المنصور والربيع

وقال سعيد بن مسلم بن قتيبة: دعا المنصور بالربيع فقال سلني ما تريد فقد سكت حتى نطقت وخففت حتى ثقلت وقللت حتى أكثرت فقال والله يا أمير المؤمنين ما أرهب بخلك ولا أستقصر عمرك ولا أستصغر فضلك ولا أغتم مالك وإن يومي بفضلك على أحسن من أمسى وغدك في تأميلي أحسن من يومي ولو جاز أن يشكرك مثلي بغير الخدمة والمناصحة لما سبقني لذلك أحد قال صدقت علمي بهذا منك أحلك هذا المحل فسلني ما شئت قال أسألك أن تقرب عبدك الفضل وتؤثره وتحبه قال يا ربيع إن الحب ليس بمال يوهب ولا رتبة تبذل وإنما تؤكده الأسباب قال فاجعل لي طريقاً إليه بالتفضل عليه قال صدقت وقد وصلته بألف درهم ولم أصل بها أحداً غير عمومتي لتعلم ماله عندي فيكون منه ما يستدعي به محبتي قال فكيف سألت له المحبة يا ربيع قال لأنها مفتاح كل خير ومغلاق كل شر تستر بها عندك عيوبه وتصير حسنات ذنوبه قال صدقت (351).

إذا سقط البيت على عمي فما ذنبي

ولما خرج أبو جعفر المنصور يريد الحج بالناس قال لعيسى بن موسى الهادي: أنت تعلم أن الخلافة صائرة إليك وأريد أن أسلم لك عمي وعمك عبد الله بن علي فخذ وأقتله وإياك أن تجبن في أمره ثم مضى المنصور إلى الحج وكتب إليه من الطريق يستحثه على ذلك فكتب إليه قد أنفذت أمر أمير المؤمنين وكان الأمر بخلاف ذلك فلم يشك أبو جعفر أنه قتله ودعا عيسى بن موسى كاتبه يونس فقال له إن المنصور دفع إلي عمه وأمرني بقتله فقال له

349 (ابن عبد البر ، بهجة المجالس وأنس المجالس ، 81/1)

350 (ابن عبد البر ، بهجة المجالس وأنس المجالس ، 227/1)

351 (أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ، 37/ 3)

يريد أن يقتلك به فإنه أمرك بذلك سراً ويدعي به عليك علانية والرأي أن تستره في منزلك ولا تطلع عليه أحداً فإن طلبه منك علانية دفعته إليه علانية ولا تدفعه إليه سراً أبداً ففعل ذلك وقدم المنصور فدى على عمومته من يحركهم أن يسألوا المنصور أن يهب لهم أخاهم عبد الله ففعلوا ذلك وكلموه فأجاب وقال نعم علي بعيسى بن موسى فأتاه فقال : يا عيسى كنت دفعت إليك عمي وعمك عبد الله قبل خروجي إلى الحج وأمرت أن يكون في منزلك مكرما قال قد فعلت ذلك قال قد كلمني فيه عمومته فرأيت الصبح عنه فأتني به قال يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله قال لا بل أمرتك بحبسه عندك ثم قال المنصور لعمومته إن هذا قد أقر لكم بقتل أخيكم وأدعى أنني أمرته بذلك وقد كذب قالوا فدعه إليه نقتله قال شأنك فأخرجوه إلى صحن الدار واجتمع الناس واشتهر الأمر فقام أحدهم وشهر سيفه وتقدم إلى عيسى ليضربه فقال عيسى لا تعجلوا فإن عمي حي ردوني إلى أمير المؤمنين فردوه إليه فقال يا أمير المؤمنين إنما أردت بقتله قتلي هذا عمك حيا إن أمرتني بدفعه إليهم دفعته قال ائتنا به فأتى به فجعله في بيت فسقط عليه فمات وكان المنصور قد وضع في أساس البيت ملحا لما شرع في عمارته وأعد له هذا المعنى ولما جلس فيه عمه أجرى الماء في أساس البيت سرا بحيث لا يشعر به أحد فذاب المليح وسقط البيت وركب المنصور بعد موت عمه وفي خدمته عباس ابن المتوفي وكان يباسطه في كل وقت فقال له المنصور وهو يحادثه هل تعرف ثلاثة في أول أسمائهم عين قال لا أعرف إلا ما تقول العامة يا أمير المؤمنين إن عليا قتل عثمان وكذبوا والله وعبد الملك بن مروان قتل عبد الله بن الزبير وسقط البيت على عم أمير المؤمنين قال فضحك المنصور وقال إذا سقط البيت على عمي فما ذنبي قال قلت ما لك ذنب يا أمير المؤمنين وقتل عبد الله كان بسبب البيعة التي تقدمت له مع السفاح (352)

وحدث عن أبي ثوبة عن عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه، قال: تكلم أبو جعفر المنصور في مجلس فيه أعرابي فلحن فصر الأعرابي أذنيه، فلحن مرة أخرى أعظم من الأولى، فقال الأعرابي: أف لهذا، ما هذا؟. ثم تكلم فلحن الثالثة، فقال الأعرابي: أشهد لقد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر. (353)

352 (تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله التقي الحموي المعروف بابن حجة ، طيب المذاق من ثمرات الأوراق ، تحقيق : أبو عمار السخاوي ، دار الفتاح - الشارقة - 1997م ، ص 54-55

353 (طيب المذاق من ثمرات الأوراق ، ص 54-55

ما كان أهون هذا القرشي على أهله

وحدث بإسناد رفعه إلى الواقدي قال: صلى رجل من آل الزبير، خلف أبي جعفر المنصور وقرأ، " ألهاكم التكاثر " . فلحن في موضعين قال: فلما سلم التفت الزبيري إلى رجل كان إلى جانبه فقال: ما كان أهون هذا القرشي على أهله. (354)

أترغب عما نحن فيه ؟

دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة إلى القضاء . فأبى ، فحبسه ، ثم دعا به ، فقال له : أترغب عما نحن فيه ؟ فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، لا أصلح للقضاء . فقال : كذبت . فقال أبو حنيفة : قد حكم عليّ أمير المؤمنين أنني لا أصلح للقضاء ، لأنه نسبني إلى الكذب ، فإن كنت كاذباً فأنا لا أصلح ، وإن كنت صادقاً ، فإنني قد صدقت عن نفسي أنني لا أصلح . فرده إلى الحبس (355).

ولكن الشياطين كفروا

لما ولي أبو جعفر المنصور سليمان بن راشد الموصل ، ضم إليه ألف رجل من أهل خراسان وقال : قد ضمنت إليك ألف شيطان . فلما دخل الموصل عاثوا ، وبلغ الخبر المنصور فكتب إليه : يا سليمان ، كفرت بالنعمة . فكتب في جوابه : ' وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ' . (356)

تقطعتي لحيتي أعمل بها ما أريد

قال المنصور يوماً لعبد الله بن عياش المنتوف : قد بغضت إليّ صورتك عشرتكَ ، وحلفت بالله لئن نتفت شعرة من لحيتك لأقطعن يدك . فأعفاها حتى اتصلت ، فكان عنده يوماً وحدثه بأحاديث استحسناها ، فقال له : سل حاجتك . فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، تقطعتي لحيتي أعمل بها ما أريد . فضحك المنصور وقال له : قد فعلت . (357)

لأنك لم تعرف حلاوة الآباء

دخل شاب من بني هاشم على المنصور ، فسأله عن وفاة أبيه ، فقال : مرض رضي الله عنه يوم كذا ، ومات رحمه الله يوم كذا ، وترك رضي الله عنه من المال كذا ؛ فانتهره الربيع وقال : بين يدي أمير المؤمنين توالى الدعاء لأبيك

354 (ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، 4/1)

355 (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نثر الدر ، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ ، دار الكتب

العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة : الأولى 1424 هـ - 2004 م ، 121/2

356 (الآبي ، نثر الدر ، 136/2

357 (الآبي ، نثر الدر ، 109/2

فقال الشاب له : لا ألومك ؛ لأنك لم تعرف حلاوة الآباء . قال : فما علمنا أن المنصور ضحك في مجلسه قط ضحكاً افتّر عن نواجذه إلا يومئذ (358).
ما مالك ؟

قال المنصور لرجل : ما مالك ؟ قال : ما يكف وجهي ، ويعجز عن الصديق .
قال له : لطفت في المسألة .
إن غضب العربي في رأسه

قال المدائني : ورد على المنصور كتاب من مولى له بالبصرة أن سالماً ضربه بالسياط ، فاستشاط غضباً وقال : أعليّ يجترئ سالم ؟ والله لأجعلنه نكالاّ يتعظ به غيره . فأطرق جلساؤه جميعاً ، فرفع ابن عياش رأسه ، وكان أجراًهم عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد رأينا من غضبك على سالم ما شغل قلوبنا ، وإن سالماً لم يضرب مولاك بقوته ولا قوة أبيه ، ولكنك قلدته سيفك ، وأصعدته منبرك ، فأراد مولاك أن يطامن منه ما رفعت ، ويفسد ما صنعت ، فلم يحتمل له ذلك . يا أمير المؤمنين ، إن غضب العربي في رأسه ، فإذا غضب لم يهدأ حتى يخرج به لسان أو يد ، وإن غضب النبطي في استه ، فإذا خري ذهب عنه غضبه . فضحك المنصور ، وكف عن سالم .

فتفسد علي مكيدتي

قيل : خلا المنصور مع يزيد بن أسيد ، فقال : يا يزيد ما ترى في قتل أبي مسلم ؟ قال : أرى يا أمير المؤمنين أن تقتله ، وتتقرب إلى الله بدمه ، فوالله لا يصفو ملكك ، ولا تهناً بعيش ما بقي بك عدوك . قال يزيد : فنفر مني نفرة ظننت أنه سيأتي علي ، ثم قال : قطع الله لسانك وأشمت بك عدوك ، أتشير علي بقتل أنصح الناس لنا ، وأثقلهم على عدونا ؟ أما والله لولا حظي ما سلف منك ، وأني أعدها هفوة من رأيك لضربت عنقك ، قم لا أقام الله رجلك قال يزيد : فقامت وقد أظلم بصري ، وتمنيت أن تسيخ الأرض بي . فلما كان بعد قتله بدهر قال لي : يا يزيد ، أتذكر يوم شاورتك في أمر العبد ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، وما رأيته قط ادنى إلى الموت مني يومئذ قال : فوالله لكان ذلك رأيي وما لا أشك فيه ، ولكني خشيت أن يظهر ذلك منك ، فتفسد علي مكيدتي .

أبأهل البصرة تهددني ؟

استأذن سوار قاضي البصرة على المنصور ، فأذن له ، فدخل وسلم ، فقال المنصور : وعليك السلام . أدن أبا عبد الله ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أدنوا على ما مضى عليه الناس أم على ما أحدثوا ؟ فقال : بل على ما مضى عليه الناس ، فدنا فصافحه ثم جلس ، فقال المنصور : يا أبا عبد الله ، قد عزمت على أن أدعو أهل البصرة بسجلاتهم ، وأشريتهم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نشدتك الله ألا تعرض لأهل البصرة . فقال : يا سوار ، أبأهل البصرة تهددني ؟ والله لهممت أن أوجه إليهم من يأخذ بأفواه سككهم وطرقهم ، ويضع السيف فيهم فلا يرفعه عنهم حتى يفنيهم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ذهبت إلى غير ما ذهبت إليه ، إنما كرهت لك أن تتعرض لدعاء الأرملة واليتيم ، والشيخ الكبير الفاني ، والحدث الضعيف . فقال : يا أبا عبد الله ، أنا للأرملة بعلى ، ولليتيم أب ، وللشيخ أخ ، وللحدث الضعيف عم ، وإنما أريد أن أنظر في سجلاتهم وأشريتهم لأستخرج ما في أيدي الأغنياء ، مما أخذوه بقوتهم وجاههم من حقوق الضعفاء والفقراء . فقال : وفقك الله للخير ، وأرشدك لما يحب ويرضى . (359)

لا أكثر الله في عشيرتك مثلك

قال السري بن عبد الله : إني لبمكة مع أبي جعفر المنصور والناس يذكرون معاً ، وإراقتة الدماء باليمن ، فقلت : يا أمير المؤمنين غلام من غلمان بني شيبان ، ماله عندك يد تأصرك عليه ، ولا رحم يعطفك عليه ، قال : فبسر في وهي بسرة تمنيت أن الأرض انشقت لي فدخلت فيها . قال : فمكثت أياماً ثم أتيته ، فسألني عن تخلفي ، فاعتذرت إليه ، فقال لي : أتعرف رجلاً كان يصلي عن يمين منبر رسول الله (ﷺ) ؟ فأخبرته به ، ونسبته إلى عثمان ، فقال : ما فعل ؟ قلت : قتل بقديد . قال : فأخبرني كان يصلي قريباً منه ؟ قلت : نعم ، ذاك ابن أخيه . قال : فما فعل ؟ قلت : قتل يوم قديد . قال : فأخبرني كان يصلي في موضع كذا ؟ قلت : نعم . ونسبته إلى الزبير . قال : فما فعل ؟ قلت : قتل يوم قديد ، فما زال يقترح المجالس يذكر فيها رجلاً قريباً ، ويسألني عنه ، فأقول : قتل يوم قديد ، فقال لي : لا أكثر الله في عشيرتك مثلك . عجزت عن تأرك أن تطلب به ، حتى إذا قام هذا الغلام الشيباني ، فإذا بك تنفس عليه الرفعة . (360)

أنت أيسر العرب

قال المنصور للوضين بن عطاء : ما عيالك ؟ . قال : ثلاث بنات والمرأة . قال ؛ فقال : أربع في بيتك . قال : فردد ذلك حتى ظننت أنه سيصلني . قال : ثم رفع رأسه ؛ فقال أنت أيسر العرب ، أربعة مغازل تدور في بيتك . (361)

لا تنفق هذا المال واحتفظ به

أعطى المنصور بعضهم شيئاً ثم ندم ؛ فقال له : لا تنفق هذا المال واحتفظ به ؛ وجعل يكرر عليه ذلك ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت فاختمه حتى ألقاك به يوم القيامة ؛ فضحك وخلاه (362).

أعطه نصف درهم

قال أبو سهل الرازي القاضي : دخلت على يحيى بن أكثم يوماً ، والمائدة بين يديه ، والغلام واقف ؛ فقال لي : يا محمد ، هذا غلامي ، يأتي علي وقت لا أدري ما اسمه ؛ وهذا حدا سلم الحادي بالمنصور في طريقه إلى الحج ؛ فحدا يوماً بقول الشاعر : أغر بين حاجبيه نوره . . . يزينه حياؤه وخيره ومسكه يشوبه كافوره . فطرب المنصور حتى ضرب برجله المحمل ، ثم قال : يا ربيع ؛ أعطه نصف درهم ؛ فقال سلم : نصف درهم يا أمير المؤمنين ؟ والله لقد حدوت لهشام فأمر لي بثلاثين ألف درهم ؛ فقال له المنصور : ما كان له أن يعطيك ثلاثين ألف درهم من بيت مال المسلمين . يا ربيع ، وكل به من يستخرج منه هذا المال . قال الربيع : فما زلت أسفر بينهما حتى شرط عليه ألا يلزمه مئونة في خروجه وقفوله ، ويحدو له (363).

هل يستقيم أمر خراسان بلا وال

استعمل المنصور رجلاً على خراسان فأتته امرأة في حاجة فلم تر عنده غناء . فقالت : أتدري لم ولاك أمير المؤمنين ؟ قال : لا . قالت : لينظر هل يستقيم أمر خراسان بلا وال (364) .

أفقه أهل الكوفة

ومن نوادر الأعمش أن أبا جعفر المنصور وجه ببصرة ، وأمر بأن تدفع إلى أفقه أهل الكوفة ، فأتى بها أبو حنيفة وابن أبي ليلى فلم يعرضا لها وأتى الأعمش فقال للرسول : هاتها . فقال : حجتك . قال : تسأل أبا حنيفة وابن

361 (نشر الدر ، 197/3)

362 (نشر الدر ، 159/ 3)

363 (نشر الدر ، 200/3)

364 (نشر الدر ، 44/4)

أبي ليلى عن أفعه أهل الكوفة بعدهما فإنهما يدلانك علي ، فتجيز شهادتهما لي وتبطلها لأنفسهما فأتى الرجل المنصور فأخبره فقال : صدق⁽³⁶⁵⁾ .

قد عفوت

خرج رجل من بني سليم على المنصور فظفر به فأمر أن يضرب بالسياط . فلما أقيم بين العاقبين . قال : يا أمير المؤمنين إن عقوبتي تجل عن السياط ، وعفوك يجل عن التثريب . فإما عاقبتني عقوبة مثلى وإما عفوت عفو مثلك . قال : قد عفوت . وخلاه (366).

المنصور وابن المقفع

لما كتب المنصور أمان عبد الله بن علي واستقصى ابن المقفع وكان كاتب أخيه سليمان بن علي - وأكد سليمان وأخوته الإيمان والعهود على المنصور في أمانه . قال لهم المنصور : هذا لازم لي إذا وقعت عيني عليه . فلما أدخل داره تقدم حتى عدل به ، ولم يره المنصور فحبس . فكتب من الحبس إلى إخوته : هذه حيلة جرت علي بكم ومنكم فاحتالوا لي فيها . ولما كتب المنصور إلى عامله بالبصرة بحبس ابن المقفع وقتله جاء عمومته وأحضروا الشهود بأن ابن المقفع دخل إلى دار الوالي ولم يخرج منها وطالبوه بالقود منه . قال المنصور : إن أنا أقدت من عاملي وقتلته ثم خرج عليكم ابن المقفع من هذا الباب ، من الذي يرضى بأن أقتله بعاملي قوداً منه ؟ فسكت القوم وأهدر دم ابن المقفع (367).

كيف رأيت حدسي ؟

دعا المنصور ابن أبي ليلى ، فأرادَه على القضاء ، فأبى ، فتوعده إن لم يفعل ، فأبى أن يفعل ، ثم إنَّ غداء المنصور حضر ، فأتى فيما أتى بصحفة فيها مثال رأس . فقال لابن أبي ليلى : خذ أيها الرجل من هذا . قال ابن أبي ليلى : فجعلت أضرب بيدي إلى الشيء ، فإذا وضعته في فمي سال ، لا أحتاج إلى أن أمضغه . فلما فرغ الرجل جعل يلحس الصحيفة . فقال لي : يا محمد . أتدري ما كنت تأكل ؟ قلت : لا - والله - يا أمير المؤمنين . قال : هذا مخ النِّينان معقودٌ بالسَّكَّر الطَّبرَزْد . وتدري بكم تقوم هذه الصَّحفة علينا ؟ قلت : لا ، يا أمير المؤمنين . فقال : تقوم بثلاث مائة وبضعة عشر . أتدري : لمَّ ألحسها ؟ هذه صفحة رسول الله (ﷺ) . وأنا أطلبُ البركةَ بذلك . فلما خرج ابنُ ليلى

365 (نشر الدر ، 4/94)

366 (نشر الدر ، 4/100)

367 (نشر الدر ، 4/103)

من عنده رفع رأسه إلى الربيع . فقال : لقد أكل الشيخ عندك أكلة لا يفلح بعدها أبداً . فلما كان عشي ذلك اليوم راح ابن أبي ليلى إلى المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين ، فكرت فيما عرضت علي ، فرأيت أنه لا يسعني خلافك . فولاه القضاء . ثم قال للربيع : كيف رأيت حدسي ؟ (368)

ألا مرة على المؤمنين ؟ ؟

ودخل سوار بن عبد الله علي المنصور - والمصحف من حجره ، وعيناه تهملان - فقال السلام عليكم . يا أمير المؤمنين فقال يا سوار ، ألا مرة على المؤمنين ؟ ؟ هدمت ديني ، وذهبت بأخرتي ، وأفسدت ما كان من صالح عملي . قال سوار : فانتهازتها فرصة ، وطلبت ثواب الله في عظته فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنك جدير بالبكاء ، حقيق بطول الحزن ما أقمت في الدنيا . وقد استرعاك الله أمر المسلمين ، واستحفظك أموالهم ، يسألك عما عملت فيما استرعاك في اليوم الذي أعلمت في كتابه ، فقال ' يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ' . فازداد بكاءً ، وقال : ' يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ' . ثم قال يا سوار إني أعالج نفسي ، وأعاتبها منذ وليت أمور المسلمين على حمل الذرة على عنقي ، والمشى في الأسواق على قدمي ، وأن أسد بالجريش من الطعام جوعتي ، وأوارى بأخشن الثياب عورتي ، وأضع قدر من أراد الدنيا ، وأرفع قدر من أراد الآخرة ، وسعى لها ، فلم تطعني ، وعصتني ، ونفرت نفوراً شديداً .

قال سوار لا تجشهمها يا أمير المؤمنين صعب الأمور ، ولا تحملها ما لا تطيق ، وألزمها أربع خصال تسلم لك دنياك وأخرتك : أقم الحدود واحكم بالعدل ، واجب الأموال من وجوهها ، واقسمها على أهلها بالحق . (369)

فاستحسن كلامه

علم المنصور ابنه صالحاً خطبة فقام بها في الناس في مجلسه فلم يشيع كلامه أحد خوفاً من المهدي ، فبدأ شبة بن عقال المجاشعي من الصف فقال : والله ما رأيتك اليوم خطيباً أبل ريقاً ولا أنبض عروفاً ولا أثبت جناباً ولا أعذب لساناً ، وقليل ذلك لمن كان أمير المؤمنين أباه والمهدي أخاه ، هو كما قال الشاعر :

هو الجواد فإن يلحق بشاوهما . . . على تكاليفه فمثله لحقا

أو يسبقاه على ما كان من مهل . . . فمثل ما قدما من صالح سبقا
فاستحسن كلامه وعلقه المنصور بيده (370).

صوت صفير البلبل :

قيل: إنه كان يحفظ الشعر من مرة، وله مملوك يحفظه من مرتين، وكان له
جارية تحفظه من ثلاث مرات، وكان بخيلاً جداً حتى إنه كان يلعب بالدوانيقي
لأنه كان يحاسب على الدوانيقي، فكان إذا جاء شاعر بقصيدة قال له: إن كانت
مطوقة بأن يكون أحد يحفظها أو أحد أنشأها: أي بأن كان أتى بها أحد قبلك،
فلا نعطيك لها جائزة، وإن لم يكن أحد يحفظها نعطيك زنة ما هي مكتوبة فيه،
فيقرأ الشاعر القصيدة فيحفظها الخليفة من أول مرة، ولو كانت ألف بيت،
ويقول للشاعر اسمعها مني وينشدها بكمالها، ثم يقول له: هذا المملوك
يحفظها، وقد سمعها المملوك مرتين، مرة من الشاعر ومرة من الخليفة
فيقرأها، ثم يقول الخليفة: وهذه الجارية التي خلف الستارة تحفظها أيضاً
وقد سمعتها الجارية ثلاث مرات فتقرأها بحروفها فيذهب الشاعر بغير
شيء.

قال الراوي: وكان الأصمعي من جلسائه وندمائيه فنظم أبياتاً صعبة وكتبها
على قطعة عمود من رخام ولفها في عباءة وجعلها على ظهر بعير وغير
حليته في صفة أعرابي غريب وضرب له لثاماً ولم يبين منه غير عينيه،
وجاء إلى الخليفة وقال: إني امتدحت أمير المؤمنين بقصيدة. فقال: يا أبا
العرب إن كانت لغيرك لا نعطيك عليها جائزة وإلا نعطيك زنة ما هي مكتوبة
عليه. فأنشد الأصمعي هذه القصيدة:

صوت صفير البلبل هيج قلبي الثمل
الماء والزهر معا مع زهر لحظ المقل

وأنت يا سيدلي وسيدي وموللي

وكم وكم تيمني غزيل عقيقي قطفت من وجنته
باللثم ورد الخجل وقلت بس بسببني فلم يجد بالقبل
وقال لا لا لللا وقد غدا مهرولي والخود مالت طربا
من فعل هذا الرجل وولولت ولولة ولي ولي يا ويللي
فقلت لا تولولي وبينني اللؤلؤلي لما رآته أشمطا
يريد غير القبل وبعده ما يكتفي إلا بطيب الوصللي
قالت له حين كذا انهض وجد بالنقلي وفتية سقونني

قهيوه كالعسللي شممتها في أنفي أزكى من القرنفل
 في وسط بستان حلي بالزهر والسروولي والعود دندن دنلي
 والطبل طبططبلي والرقص قد طبطلي والسقف قد سقسقلي
 شووا شووا وشاهشوا على ورق سفرجلي وغرد القمري يصيح
 من ملل في مللي فلو تراني راكباً على حمار أهزلي
 يمشي على ثلاثة كمشية العرنجل والناس ترجمجملي
 في السوق بالقلقلي والكل كعكع كعكع خلفي ومن حولي
 لكن مشيت هارباً من خشية العقنقلي إلى لقاء ملك
 معظم مبجلي أمر لي بخلعة حمراء كالدمدملي
 أجر فيها ماشياً مبغداً للذيل أنا الأديب الألمعي
 من حي أرض الموصل نظمت قطعاً زخرفت تعجز الادبلي
 أقول في مطلعها صوت صفير البلبل
 قال الراوي: فلم يحفظها الملك لصعوبتها، ونظر إلى المملوك وإلى الجارية
 فلم يحفظها أحد منهما فقال: يا أبا العرب هات الذي هي مكتوبة فيه نعطك
 زنته.

فقال: يا مولاي إني لم أجد ورقاً أكتب فيه وكان عندي قطعة عمود رخام من
 عهد أبي، وهي ملقاة ليس لي بها حاجة، فنقشتها فيها.
 فلم يسع الخليفة إلا أنه أعطاه وزنها ذهباً فنقد ما في خزينته من المال،
 فأخذه وانصرف، فلما ولى قال الخليفة: يغلب على ظني أن هذا الأصمعي،
 فأحضره وكشف عن وجهه. فإذا هو الأصمعي فتعجب منه ومن صنيعه
 وأجازه على عادته، قال: يا أمير المؤمنين، إن الشعراء فقراء وأصحاب عيال
 وأنت تمنعهم العطاء بشدة حفظك وحفظ هذا المملوك وهذه الجارية. فإذا
 أعطيتهم ما تيسر ليستعينوا به على عيالهم لم يضرك، انتهى.⁽³⁷¹⁾

أي نهاية لم يبلغها في الفساد والهلاك؟!

كان مطيع بن إياس الكناني يخدم جعفر بن أبي جعفر المنصور ويناديه، فكره
 ذلك أبو جعفر لما شهر به مطيع في الناس، وخشي أن يفسده، فدعا بمطيع
 وقال له، قد عزمت على أن تفسد ابني علي وتعلمه زندقته؟! قال: أعينك
 بالله يا أمير المؤمنين من أن تظن بي هذا فأهلك، والله ما يسمع مني إلا ما إذا
 وعاه جملة وزينه ونبله. قال: ما أرى ذلك ولا يسمع منك إلا ما يضره ويعره.
 فلما رأى مطيع لجاجة في أمره قال له: أتؤمنني من غضبك حتى أصدقك؟

قال: أنت آمن قال: وأي مستصلح فيه، أو أي نهاية لم يبلغها في الفساد والهلاك؟! قال: ويلك بأي شيء؟ قال: يزعم أنه يتعشق امرأة من الجن، وهو مجتهد في خطبتها، وقد جمع أصحاب العزائم عليها، وهم يغرونه ويعدون به ويمنونه، فوالله ما فيه فضل لغير ذلك من جد ولا هزل، ولا كفر ولا إيمان. فقال له المنصور: ويلك أتدري ما تقول؟ قال: الحق والله أقول، فسل عن ذلك. فقال: له: عد إلى صحبتته واجتهد أن تزيله عن هذا الأمر، ولا تعلمه أني علمت بذلك حتى اجتهد في إزالته عنه.

والله لأننا أشبه بك منك بأبيك

ودخل المنصور دار جعفر ابنه هذا، وخرج جعفر من دار حرمة، فقال لأبيه: ما حملك على أن دخلت علي بغير إذن؟ فقال له أبو جعفر: لعنك الله، ولعن من أشبهته، قال: والله لأننا أشبه بك منك بأبيك.⁽³⁷²⁾

لا أقالني الله إن أقلتك

حدث عقبة بن سلم قال: دعاني أبو جعفر المنصور فسألني عن اسمي ونسبي، فقلت أنا عقبة بن سلم بن نافع الأزدي، قال: إني لأرى لك هيئة وموضعاً، وإني لأريدك لأمر أنا معني به، قلت: أرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين، قال: فأخف شخصك وأتني يوم كذا وكذا، فأتيته فقال: إن بني عمنا قد أبوا إلا كيداً لملكننا، ولهم شيعة بخراسان بقرية يقال لها كذا وكذا، يكتبونهم ويرسلون إليهم بالطاف وصدقات، فاخرج بكسي وأطاف حتى تأتيهم متنكراً بكتاب أكتبه عن أهل تلك القرية، ثم تسير ناحيتهم، فإن كانوا نزعوا عن رأيهم علمت ذلك وكنت على حذر منهم حتى تلقى عبد الله بن حسن متخشعاً، فإن جبهك وهو فاعل فاصبر وعاوله أبداً حتى يأنس بك، فإذا ظهر لك ما في قلبه فاعجل إلي. ففعل ذلك حتى أنس عبد الله بناحيته، وقال له عقبة: الجواب، فقال: أما الكتاب فلا أكتب، ولكن أنت كتابي إليهم، فأقرئهم السلام، وأخبرهم أنني خارج لوقت كذا وكذا. فشخص عقبة حتى قدم على أبي جعفر وأخبره الخبر. قال صالح صاحب المصلى: إني لواقف على رأس أبي جعفر وهو يتغذى بأوطاس وهو متوجه إلى مكة، ومعه على مائدته عبد الله بن الحسن، وأبو الكرام الجعفري وجماعة من بني العباس، فأقبل على عبد الله بن الحسن فقال: يا أبا محمد، محمد وإبراهيم قد استوحشا من ناحيتي، وأناي أحب أن يأنسا بي ويأتياي، فأصلهما وأزوجهما وأخلطهما بنفسي. قال: وعبد الله يطرق طويلاً ويقول: وحقك يا أمير المؤمنين ما لي بهما ولا

بموضعهما من البلاد علم، ولقد خرجا عن يدي؛ فيقول: لا تفعل يا أبا محمد، واكتب إليهما وإلى من يوصل كتابك إليهما، قال: فامتنع أبو جعفر من غدائه ذلك اليوم إقبالا على عبد الله، وعبد الله يحلف أنه لا يعرف موضعهما، وأبو جعفر يكرر عليه: لا تفعل يا أبا محمد، لا تفعل يا أبا محمد. وقال أبو جعفر لعقبة بن مسلم: إذا فرغنا من الطعام فلحظتك، فامثل بين يدي عبد الله، فإنه سيصرف بصره عنك، فدر حتى تغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينيه منك، ثم حسبك، وإياك أن يراك ما دام يأكل. ففعل عقبة ذلك، فلما رآه عبد الله وثب حتى جثا بين يدي أبي جعفر وقال: يا أمير المؤمنين أ قلني أقالك الله، قال: لا أقالني الله إن أقلتك، ثم أمر بحبسه. (373)

لا ينجيني منه إلا هذا الأعرابي

حدث ابن أبي الخير العبسي قال: كنا مع أبي جعفر المنصور أيام خرج عليه عمه عبد الله بن علي وهو يحاربه، فخرج علينا أبو الخصيب - وهو إذ ذاك حاجب المنصور - فأدخل جماعة من أصحابه وأنا فيهم، وفيما ابن عطية الثعلبي، وكان معروفاً بالشجاعة، فتقدم إلى المنصور، فقال له: يا ابن عطية، قد عرفت بلاء أمير المؤمنين عندك وإحسانه إليك. ثم جفاك أمير المؤمنين جفوة، وأراد أن يعرض عن تلك الجفوة ويستقبل بك الكرامة، فسر في هذا الوجه، فرأي أمير المؤمنين فيك جميل، وادع من أطاعك من قومك، وخذل عن الفاسق من قبل منك، وليأت أمير المؤمنين عنك غناء يأتك منه جزاء. فقال ابن عطية في نفسه: هذا يوم شرفي وهذه مرتبتي، وقد عرفت أنه لا يستغني عن مثلي، فقال: حوائجي يا أمير المؤمنين، قال: هات حوائجك؛ قال: تبلغ بعطائي الشرف، قال: اكتب يا سليمان، يعني أبا أيوب المرياني، فكتب؛ قال: ويفرض لولدي في شرف العطاء، قال: وماذا؟ قال: ويقضى ديني، قال: وماذا؟ قال: وقطية عيالي، قال: نعم، فلما ولى قال: يا سليمان أنفذ لهذا الأعرابي جميع ما سأل، ولا يكون ممن يستعان به في هذا الوجه، فو الذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لو أن عبد الله بن علي قائم على رأسي بالسيف لا ينجيني منه إلا هذا الأعرابي، ما استعنت به بعد هذا التسحب في حوائجه (374).

373 (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 12/3)

374 (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 162/3)

كيف اتصل نوبخت المنجم بأبي جعفر المنصور

قال أبو سهل بن علي بن نوبخت: كان جدنا نوبخت على دين المجوسية، و كان في علم النجوم نهاية، و كان محبوساً في سجن الأهواز. قال: رأيت أبا جعفر المنصور قد دخل السجن ، فرأيت من هيئته، و جلالته، و سيماه، و حسن وجهه، و شأنه، ما لم أره لأحد قط، فصرت من موضعي إليه، فقلت: يا سيدي، ليس وجهك من وجوه أهل هذه البلاد. فقال: أجل يا مجوسي.

قلت: من أي بلاد أنت؟ قال: من المدينة. قلت: أي مدينة؟ قال: مدينة الرسول صلوات الله عليه وسلامه . فقلت: و حق الشمس و القمر، من أولاد صاحب المدينة؟ قال: لا، و لكن من عرب المدينة. فلم أزل أتقرب إليه و أحدثه، حتى سألته عن كنيته. فقال: أبو جعفر.

فقلت: أبشر، وجدتك في الأحكام النجومية، تملكني، و جميع ما في هذا البلد، حتى تملك فارس، و خراسان، و الجبال. فقال لي: و ما يدريك يا مجوسي؟ قلت: هو كما أقول، و اذكر لي هذا. قال: إن قضى الله، فسوف يكون. قلت: قد قضى الله من السماء، فطب نفساً. و طلبت دواة، فوجدتها، فقلت: اكتب، فكتب. بسم الله الرحمن الرحيم. إذا فتح الله على المسلمين، و كفاهم معرة الظالمين، و رد الحق إلى أهله، فلا نغفلك. فقلت: اكتب لي في خدمتك خطأ، و أماناً. فكتب لي.

قال نوبخت: و لما ولي الخلافة، صرت إليه، فأخرجت الكتاب، فقال: أنا له ذاكر مع الأمان، و الحمد لله الذي صدق وعده، و رد الحق إلى أهله. قال: فأسلم نوبخت، و كان منجماً لأبي جعفر، و مولى له. (375)

الرؤيا الصالحة

قال داود بن رشيد: قلت للهيثم بن علي بأي شيء استحق سعيد بن عبد الرحمن أن ولاه المهدي القضاء وأنزله منه تلك المنزلة الرفيعة؟ فقال: إن خبره باتصاله بالمهدي ظريف، فإن أحببت شرحته لك. قلت والله قد أحببت. قال: اعلم أنه وافى الربيع الحاجب حين أفضت الخلافة إلى المهدي وقال له: استأذن لي على أمير المؤمنين، فقال له: من أنت وما حاجتك؟ قال: أنا رجل

قد رأيت لأمير المؤمنين أعزه الله رؤيا سالحة، وقد أحببت أن تذكرني له، فقال الربيع: يا هذا، إن القوم لا يصدقون فيما يرونه لأنفسهم فكيف بما يراه لهم غيرهم، فاحتل بحيلة غير هذه، فقال: إن لم تخبره بمكاني سألت من يوصلني إليه وأخبره ني سألتك الإذن لي عليه فلم تفعل؟ فدخل الربيع على المهدي، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنكم قد أطمعتم الناس في أنفسكم فقد احتالوا عليكم بكل ضرب.

فقال له المهدي: هكذا تصنع الملوك فماذا؟ قال: رجل بالباب يزعم أنه رأى لأمير المؤمنين أيده الله رؤيا حسنة، وقد أحب أن يقصها عليك. فقال المهدي: يا ربيع، إني والله أرى الرؤيا لنفسي فلا تصح لي فكيف يمكن ادعائها ممن لعله قد افتعلها؟ قال: والله قلت له مثل هذا فلم يقبل. قال: هات الرجل.

قال: فأدخل عليه سعيد وكان له رؤية وجمال ومروة ظاهرة ولحية عظيمة ولسان طلق، فقال له: ما رأيت بار الله فيك؟ قال: رأيت يا أمير المؤمنين آتياً أتاني في منامي فقال: أخبر أمير المؤمنين أنه يعيش ثلاثين سنة في الخلافة، وآية ذلك أنه يرى في ليلته الآتية في منامه كأنه يقلب يواقيت ثم يعدها فيجد ثلاثين ياقوتة كأنها قد وهبت له.

فقال المهدي: ما أحسن ما رأيت، ونحن نمتحن رؤياك في ليلتنا المقبلة على ما أخبرتنا: فإن كان الأمر على ما ذكرت أعطيناك فوق ما تريد، وإن كان الأمر بخلاف ذلك لم نعاقبك لعلمنا أن الرؤيا الصالحة ربما صدقت وربما اختلفت.

قال: يا أمير المؤمنين، فما أصنع أنا الساعة إذا صرت إلى منزلي وعيالي وأخبرتهم أنني كنت عند أمير المؤمنين أكرمه الله، ثم رجعت صفر اليد؟ فقال له المهدي: فكيف نعمل؟ فقال: يعجل لي أمير المؤمنين أعزه الله تعالى ما أحب وما أحلف له بالطلاق إني قد صدقت.

فأمر له بعشرة آلاف درهم وأمر بأن يؤخذ له كفيل ليحضر من غد ذلك اليوم فقبض المال وقال له: من يكفلك؟ فمد عينه إلى خادم حسن الوجه والزي وقال: هذا يكفلني.

فقال له المهدي: أكفله يا غلام؟

فاحمر وخجل، وقال: نعم يا أمير المؤمنين، فكفله وانصرف سعيد بن عبد الرحمن بالعشرة آلاف درهم. فلما كانت تلك الليلة رأى المهدي ما ذكره له سعيد حرفاً بحرف وأصبح سعيد فوافى الباب واستأذن، فأذن له. فلما وقعت

عين المهدي عليه قال له: أين مصداق ما قلت لنا عليه؟ فقلت له: وما رأى أمير المؤمنين. فضحك في جوابه، فقال له: امرأتي طالق إن لم تكن رأيت شيئاً؟ فقال: لأنني أحلف على صدق.

قال له المهدي: فقد والله رأيت ذلك مبيناً.
فقال سعيد: الله أبر، فأنجز لي يا أمير المؤمنين ما وعدتني.
قال: حباً وكرامة.

ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار وعشر تخوت ثياب من كل صنف وثلاثة مراكب من أنفس دوابه محلاة، فأخذ ذلك وانصرف فلحق به الخادم الذي كان كفله.
وقال: سألتك بالله هل لهذه الرؤيا من أصل؟ فقال سعيد: لا والله.

فقال الخادم: كيف وقد رأى أمير المؤمنين ما ذكرته؟ قال: هذا من المخاريق التي لا أب لها، وذلك أني لما ألقيت هذا الكلام خطر بباله وحدث به نفسه وأسرى به قلبه واشتغل به فكره ففي ساعة نام خيل له ما حل في قلبه واشتغل به فكره فنام فراه.

فقال له الخادم: قد حلفت بالطلاق.

قال: طلبة واحدة وبقيت معي على اثنتين وأزيد مهرها عشرة دراهم.
وأحصل على عشرة آلاف درهم وثلاثة آلاف دينار وعشرة تخوت من أصناف الثياب، وثلاثة مراكب فارهة.

فبهت الخادم وتعجب من ذلك. فقال له سعيد: قد صدقتك وجعلت ذلك مكافأتك على كفالتك فاستر علي.

ثم طلبه المهدي لمنادمته فنادمه وحظي عنده وقلده القضاء على العسكر. فلم يزل كذلك حتى مات.

لو شربت الرابع لادعيت أنك رسول الله

يحكى أن المهدي خرج يتصيد، فسار به فرسه حتى دخل إلى خباء أعرابي، فقال: يا أعرابي. هل من قرى؟ قال: نعم، فأخرج له قرص شعير فأكله، ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه، ثم أتاه بنبيذ في ركوة فسقاه قعباً. فلما شرب قال: يا أبا العرب أتدري من أنا؟ قال: لا والله.

قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة.

قال: بارك الله في موضعك.

ثم سقاه قعباً آخر فشربه فقال: يا أعرابي، أتدري من أنا؟ قال: زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة.

قال: لا، بل أنا من قواد أمير المؤمنين.

قال: رحبت بلادك وطاب مرادك.
ثم سقاه ثالثاً فلما فرغ منه قال: يا أعرابي، أتدري من أنا؟ قال: زعمت أنك
من قواد أمير المؤمنين.
قال: لا، ولكني أمير المؤمنين.
فأخذ الأعرابي الركوة وأوكأها وقال: والله لو شربت الرابع لادعيت أنك
رسول الله.

فضحك المهدي حتى غشي عليه وأحاطت به الخيل ونزلت إليه الملوك
والأشراف فطار قلب الأعرابي فقال له: لا بأس عليك ولا خوف ثم أمر له
بكسوة ومال.⁽³⁷⁶⁾

لم يخف علي مخاطبة الحائك والكاتب

قال أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد: بلغني أن المهدي لما فرغ من عيسا باذ
ركب في جماعة يسيرة لينظر فدخل مفاجأة فأخرج كل من كان هناك من
الناس وبقي رجлан خفيا عن أبصار الاعوان فرأى المهدي أحدهما وهو
دهش لا يعقل فقال من أنت قال أنا أنا قال ويحك من أنت قال لا أدري قال
ألك حاجة قال لا لا قال أخرجوه أخرج الله نفسه فدفق في قفاه فلما خرج قال
لغلامه اتبعه من حيث لا يعلم فسل عن أمره ومهنته فاني أخاله حائكا فخرج
الغلام يقفوه ثم رأى الآخر فاستنطقه فأجابه بقلب قوي ولسان جرى فقال
من أنت فقال رجل من أبناء رجال دعوتك قال فما جاء بك الى هنا قال جئت
لأنظر هذا البناء الحسن وأتمتع بالنظر وأكثر من الدعاء لأمر المؤمنين بطول
المدة وتمام النعمة ونماء العز والسلامة قال ألك حاجة قال نعم خطبت ابنة
عم لي فردني أبوها وقال لا مال لك والناس يرغبون في المال وأنا بها
مشغوف قال قد أمرت لك بخمسين ألف درهم قال جعلني الله فداك يا أمير
المؤمنين قد وصلت فأجزلت الصلة ومننت فأعظمت المنة فجعل الله باقي
عمرك أكثر من ماضيه وآخر أيامك خيرا من أولها ومتعك بما أنعم به وأمتع
رعيك بك فأمر أن يعجل صلتته ووجه بعض خاصته معه وقال سل عن مهنته
فاني أخاله كاتباً فجاء الرسول الاول فقال وجدته حائكا وأخبر الآخر قال
وجدته كاتباً فقال المهدي لم يخف علي مخاطبة الحائك والكاتب. ⁽³⁷⁷⁾

³⁷⁶ (إعلام الناس بما وقع للبرامكة ، ص 39)

³⁷⁷ (أخبار الحمقى والمغفلين ، ص 31)

كيف تأمر من السواك ؟

وعن سلمة قال كان عند المهدي مؤدب يؤدب الرشيد فدعاه يوماً المهدي وهو يستاك فقال كيف تأمر من السواك ؟ قال استك يا أمير المؤمنين فقال المهدي إنا لله ثم قال التمسوا من هو أفهم من هذا قالوا رجل يقال له علي بن حمزة الكسائي من أهل الكوفة قدم من البادية قريباً فلما قدم على الرشيد قال له يا علي قال لبيك يا أمير المؤمنين قال كيف تأمر من السواك ؟ قال سك يا أمير المؤمنين قال أحسنت وأصبت وأمر له بعشرة آلاف درهم . (378)

وما تعرفها يا أمير المؤمنين ؟!

دخل رجل على المهدي فأنشده شعراً فقال فيه وجوار زفرات فقال المهدي أي شيء زفرات قال وما تعرفها يا أمير المؤمنين ؟! قال لا والله قال فأنت أمير المؤمنين وسيد المرسلين ما تعرفها أعرفها أنا كلا والله ذكر . (379)

المهدي وحديث العشاق

وحكى الأصمعي قال: خرج المهدي حاجاً، حتى إذا كنّا ببعض الطريق، إذا أعرابي يقول: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك، أنا عاشقٌ - وكان المهدي يحبّ العشاق وحديثهم - موكلٌ به بعض الغلمان. فلما نزل أمر بإحضاره، قال: أنت المنادي؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين. قال له: ما اسمك؟ قال: أبو مياس. قال أمير المؤمنين: من عشيقتك؟ قال له: ابنة عمي، وقد أبى عليّ أبوها أن يزوّجنيها. قال: لعلّه أكثر منك مالاً؟ قال: أنا أكثر منه مالاً! قال له: فما قصّتك؟ قال له: ادن رأسك منّي. فجعل المهدي يضحك، وأصغى إليه برأسه. قال له: إني هجينٌ. قال له: ليس يضرّك ذلك أخو أمير المؤمنين وأكثر أولاده هجناء! ثم قال له وأين عمّك؟ قال له: على ثلاثة أميال. قال: فأرسل أمير المؤمنين في طلبه فجاء به فقال له: ما لك لا تزوّج أبا مياس، فإنّي أرى عليه نعمة؟ قال: متاع سوء، وليس مثلي يزوّج مثله. قال: فإنّ الذي كرهت ليس ممّا يعاب به عندنا، وأنا معطٍ صداق ابنتك عشرة آلاف درهم، ومعوضك ممّا ذكرت عشرة آلاف درهم! قال: فذلك لك! قال فخرج أبو مياس وهو يقول:

واتّبعْتَ ظبيّةً بالغلاء وإنّما ... يعطي الغلاء لمثلها أمثالي
وتركت أسواق القباح لأهلها ... إنّ القباح وإن رخصن غوالي. (380)

378 (أخبار الحمقى والمغفلين ، ص 121

379 (أخبار الحمقى والمغفلين ، ص 165

380 (ابن الجوزي، أخبار النساء ، ص 64

إذا استغثت عن شيء فدعه

وذكر أبو الفرج الأصبهاني قال: دخل أبو عبيد الله على المهدي، وكان قد وجد عليه في أمر بلغه عنه، وأبو العتاهية حاضر المجلس، فجعل المهدي يشتم أبا عبيد الله ويتغيظ عليه، ثم أمر به فجروا برجله وحبس، ثم أطرق المهدي طويلاً، فلما سكن أنشده أبو العتاهية:

أرى الدنيا لمن هي في يديه ... عذاباً كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر ... وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغثت عن شيء فدعه ... وخذ ما أنت محتاج إليه

فتبسم المهدي، وقال لأبي العتاهية: أحسنت! فقام أبو العتاهية ثم قال: والله يا أمير المؤمنين، ما رأيت أحداً أشد إكراماً للدنيا، ولا أصون لها، ولا أشح عليها، من هذا الذي جر برجله الساعة، ولقد دخلت على أمير المؤمنين، ودخل هو، وهو أعز الناس، فما برحت حتى رأيته أذل الناس، ولو رضي من الدنيا بما يكفيه، لأستوت أحواله، ولم تتفاوت! فتبسم المهدي ودعا بأبي عبيد الله فرضي عنه، فكان أبو عبيد الله يشكر ذلك لأبي العتاهية.⁽³⁸¹⁾

أضمن ما تلف بقضيته

ومن المنقول عن المهدي عن القاسم بن محمد بن خلاد عن علي بن صالح قال كنت عند المهدي ودخل عليه شريك بن عبد الله القاضي فأراد أن يبخره فقال الخادم بالعود الذي يلهى به فوضعه في حجر شريك فقال شريك ما هذا يا أمير المؤمنين قال هذا أخذه صاحب العسس البارحة فأحببت أن يكون كسره على يد القاضي فقال جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين فكسره ثم أفاضوا في حديث حتى نسي الأمر ثم قال المهدي لشريك ما تقول في رجل أمر وكيلاً له أن يأتي بشيء بعينه فأتى بغيره فتلّف ذلك الشيء فقال يضمن يا أمير المؤمنين فقال للخادم أضمن ما تلف بقضيته.

نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومن المنقول عن محمد بن الفضل قال أخبرنا بعض أهل الأدب عن حسن الوصيف قال قعد المهدي قعوداً عاماً للناس فدخل رجل وفي يده نعل ملفوفة في منديل فقال يا أمير المؤمنين هذه نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أهديتها لك فقال هاتها فدفعها إليه فقبل باطنها ووضعها على عينيه وأمر للرجل بعشرة آلاف درهم فلما أخذها وانصرف قال لجلسائه أترون أنني لم أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرها فضلاً عن أن يكون لبسها

ولو كذبناه قال للناس أتيت أمير المؤمنين بنعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فردها على وكان من يصدقه أكثر ممن يدفع خبره إذا كان من شأن العامة ميلها إلى أشكالها والنصرة للضعيف على القوى وإن كان ظالماً اشترينا لسانه وقبلنا هديته وصدقنا قوله ورأينا الذي فعلنا انجح وارجح.⁽³⁸²⁾

منع الملوك أن يكون فيهم مثلك

وقف المهدي على عجوز من العرب فقال لها ممن أنت فقالت من طيء فقال ما منع طياً أن يكون فيهم آخر مثل حاتم فقالت مسرعة الذي منع الملوك أن يكون فيهم مثلك فعجب من سرعة جوابها وأمر لها بصلة.⁽³⁸³⁾

سلني حاجتك

وبلغنا عن أبي دلالة أنه دخل على المهدي فأنشده قصيدة فقال له سلني حاجتك فقال يا أمير المؤمنين تهب لي كلباً فغضب وقال أقول لك سلني حاجتك فتقول تهب لي كلباً فقال يا أمير المؤمنين الحاجة لي أم لك قال لا بل لك قال فإني أسألك أن تهب لي كلب صيد فأمر له بكلب فقال يا أمير المؤمنين هبني خرجت إلى الصيد أعدو على رجلي فأمر له بدابة فقال يا أمير المؤمنين فمن يقوم عليها فأمر له بغلام فقال يا أمير المؤمنين فهبني قصدت صيدا وأتيت به المنزل فمن يطبخه فأمر له بجارية فقال يا أمير المؤمنين هؤلاء أين يبيتون فأمر لهم بدار فقال يا أمير المؤمنين قد صيرت في عنقي كفاً أي جمعاً من عيال فمن أين ما يتقوت به هؤلاء قال فإن أمير المؤمنين قد أقطعك ألف جريب عامر وألف جريب غامراً قال أما العامر فقد عرفته فما الغامر قال الخراب الذي لا شيء فيه قال من ألقى جريب واحداً عامراً قال من أين قال من بيت المال فقال المهدي حولوا المال وأعطوه جريباً فقال يا أمير المؤمنين إذا حولوا منه المال صار عامر فضحك منه وأرضاه.⁽³⁸⁴⁾

فقلبها عليه

قال الجاحظ قال المهدي لشريك القاضي وعيسى بن موسى عنده لو شهد عندك عيسى كنت تقبله وأراد أن يضرب بينهما فقال شريك من سألت عنه لا يسأل عن عيسى غير أمير المؤمنين فإن زكيتته قبلته فقلبها عليه.⁽³⁸⁵⁾

382 (ابن الجوزي ، الأذكياء ، ص 18)

383 (ابن الجوزي ، الأذكياء ، ص 43)

384 (ابن الجوزي ، الأذكياء ، ص 49)

385 (ابن الجوزي ، الأذكياء ، ص 64)

أخاف أن يملني ويدعني فأموت

وحكى أبو بكر الصولي أن المهدي اشترى جارية فاشتد شغفه بها وكانت به أشغف وكانت تتجافاه كثير ففس إليها من عرف ما في نفسها فقالت أخاف أن يملني ويدعني فأموت فأنا أمنع نفسي بعض لذتها منه لأعيش فقال المهدي: ظفرت بالقلب مني ... عادة مثل الهلال كلما صح لها ود ... ي جاءت باعتلال لا تحب الهجر مني ... والتنائي عن وصالي بل لمأمنها على ... حبي لها خوف الملل (386)

ما اسمك؟

وسأل المهدي السيد الحميري: ما اسمك؟ فقال: أنت السيد يا أمير المؤمنين. وهذا من الأدب إذا كان اسم المسؤول من صفات السائل. (387)

ليس هذا في الكتاب

قال ابو الحسن قال ابن جابان قال المهدي كان شبيب بن شيبه يسايرني في طريق خراسان فيتقدمني بصدر دابته فقال لي يوما ينبغي لمن ساير خليفة ان يكون بالموضع الذي اذا اراد الخليفة ان يسأله عن شيء لا يلتفت اليه ويكون من ناحية ان التفت لم تستقبله الشمس قال فبينما نحن كذلك اذ انتهينا الى مخاضة فأقحمت دابتي ولم يقف واتبعني فملاً ثيابي ماء وطينا فقلت يا ابا معمر ليس هذا في الكتاب. (388)

واعظ بين يدي المهدي

قال ودخل على المهدي صالح بن عبد الجليل فسأله ان يأذن له في الكلام فقال تكلم فقال انا لما سهل علينا ما توعد على غيرنا من الوصول اليك قمنا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله باظهار ما في أعناقنا فريضة الأمر والنهي عند انقطاع عذر الكتمان في التقية ولا سيما حين اتسمت بميسم التواضع ووعدت الله وحملة كتابه ايثار الحق على ما سواه فجمعنا وإياك مشهد من مشاهد التمحيص لينم مؤدبنا على موعود الأداء عنهم وقابلنا على موعد القبول اوإردنا تمحيص الله إيانا في اختلاف السر والعلانية ويحلينا بحلية الكاذبين فقد كان أصحاب رسول الله يقولون من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل وأشد منه عذابا من أقبل اليه العلم وأدبر عنه ومن اهدى الله اليه

386 (ابن الجوزي ، الأذكياء ، ص103

387 (أسامة بن منقذ ، البديع في نقد الشعر ، ص67

388 (أبي عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، 381/1

علما فلم يعمل به فقد رغب عن هدية الله وقصر بها فاقبل ما اهدى الله اليك
من السنننا قبول تحقيق وعمل لا قبولا فيه سمعة ورياء فانه لا يخلقك منا
إعلام لما تجهل او مواطأة على ما تعلم او تذكير لك من غفلة فقد وطن الله
تبارك وتعالى نبيه على نزولها تعزية عما فات وتحصينا من التماذي ودلالة
على المخرج فقال (وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو
السميع العليم) فاطلع الله على قلبك بما ينور الله به القلوب من ايثار الحق
ومناذرة الأهواء فانك ان لم تفعل ذلك يرى أثرك وأثر الله عليك فيه ولا حول
ولا قوة الا بالله . (389)

أنت يا جوهر عندي جوهره

وكان المهدي يحب القيان وسماع الغناء وكان معجبا بجارية يقال لها جوهر
وكان اشتراها من مروان الشامي فدخل عليه ذات يوم مروان الشامي
وجوهر تغنيه فقال مروان

أنت يا جوهر عندي جوهره ... في بياض الدرة المشتهرة
فاذا غنت فنار ضرمت ... قذفت في كل قلب شرره
فاتهمه المهدي وأمر به فدع في عنقه الى ان خرج ثم قال لجوهر أطربيني
فأنشأت تقول

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني ... وأشمت بي من كان فيك يلوم
وأبرزتني للناس ثم تركتني ... لهم غرضا أرمى وأنت سليم)
فلو أن قولا يكلم الجسم قد بدا ... بجسمي من قول الوشاة كلوم)
فقال المهدي

(ألا يا جوهر القلب لقد زدت على الجوهر ...)
(وقد أكملك الله بحسن الدل والمنظر ...)
(اذا ما صلت ما أحسن خلق الله بالمزهر ...)
(وغنيت ففاح البيت من ريقك بالغبر ...)
(فلا والله ما المهدي أولى منك بالمنبر ...)
(فان شئت ففي كفك خلع ابن أبي جعفر ...) (390)

إليك عني، يا جاهل!

وكان المهدي في أول أمره يحتجب عن الندماء، متشبهاً بالمنصور نحواً من
سنة، ثم ظهر لهم. فأشار عليه أبو عون بأن يحتجب عنهم، فقال: إني عني،

389 (أبي عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، 556-555/1)

390 (أبي عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، 340/1)

يا جاهل! إنما اللذة في مشاهدة السرور وفي لدنو من سرني. فأما من وراء وراء، فما خيرها ولذتها؟ ولو لم يكن في الظهور للندماء والإخوان إلا أنني أعطيهم من السرور بمشاهدتي مثل الذي يعطونني من فوائدهم، لجعلت لهم في ذلك حظاً موفراً.

وكان كثير العطايا، وافرها، قل من حضره إلا أغناه. وكان لين العريكة، سهل الشريعة، لذيق المنادمة، قصير المناومة، ما يمل نديماً ولا يتركه إلا عن ضرورة، قطيع الخنا، صبوراً على الجلوس، ضاحك السن، قليل الأذى والبذاء. (391)

من سخاء المهدي

حدث عبد الملك بن عبد العزيز، عن أبيه، قال: سألتني المهدي أمير المؤمنين، فقال: يا ماجشون! ما قلت حين فقد أصحابك، يعني الفقهاء، قال: قلت:

يا من لباك على أصحابه جزعا ... قد كنت أحذر ذا من قبل أن يقعا
إن الزمان رأى إلف السرور بنا ... فدب بالهجر فيما بيننا وسعى
فليصنع الدهر بي ما شاء مجتهداً ... فلا زيادة شيء فوق ما صنعا
فقال: والله لأغنيك، فأجازه بعشرة آلاف دينار فقدم بها المدينة فأكلها في السخاء والكرم. (392)

فكيف أخرج عنهم وهم أصلي في ديني؟

وكان شريكاً قد دخل على المهدي، فقال له: ما ينبغي لك تقلد الحكم بين المسلمين، قال: ولم؟! قال: لخلافك على الجماعة، وقولك بالإمامة.
قال: أما قولك: لخلافك على الجماعة، فعن الجماعة أخذت ديني، فكيف أخرج عنهم وهم أصلي في ديني؟ وأما قولك: بالإمامة، فما أعرف إماماً إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأما قولك: مثلك لا ينبغي له الحكم بين المسلمين، فهذا شيء أنتم فعلتموه فإن كان خطأ فاستغفروا الله منه، وإن كان صواباً فأمسكوا عليه.

قال: ما تقول في علي بن أبي طالب؟ قال: ما قال عنه جداك العباس وعبد الله قال: وما قالاه عنه؟

قال: أما العباس فمات وعلي عنده أفضل الصحابة، وقد كان يرى كبار المهاجرين يسألونه عما ينزل من النوازل، وما احتاج هو إلى أحد حتى لحق

391 (الجاحظ ، التاج في أخلاق الملوك ، ص6

392 (المعافى بن زكريا ، الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص137

بالله تعالى، وأما عبد الله فإنه كان يضرب بين يديه بسيفين، وكان في حروبه رأساً متبعاً وقائداً مطاعاً، فإن كانت إمامة علي جوراً لكان أول من يقعد عنها أبوك لعلمه بدين الله تعالى وفقهه في أحكام الله. فسكت المهدي وأطرق، ولم يمض بعد هذا المجلس إلا قليلاً حتى عزل شريك. (393)

الخلفاء يغارون من أبيات جيدة قيلت في غيرهم

حدثنا أحمد بن العباس العسكري، قال: حدثنا عبد الله بن أبي سعد، قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن موسى بن حمزة، مولى بني هاشم، قال: حدثني أحمد بن موسى بن حمزة، قال: الفضل بن يزيغ، قال: رأيت مروان بن أبي حفصة قد دخل على المهدي بعد موت معن بن زائدة في جماعة من الشعراء وفيهم سلم الخاسر وغيره، فأنشده مديحاً، فقال: من؟ قال: شاعرك مروان بن أبي حفصة، فقال له المهدي: ألسنت القائل:

أقمنا باليمامة بعد معن ... مقاماً لا نريد به زيالا

وقلنا أين نرحل بعد معن ... وقد ذهب النوال فلا نوالا

قد جئت تطلب نوالنا وقد ذهب النوال، لا شيء لك عندنا، جروا برجله. قال:

فجروا برجله حتى أخرج، فلما كان في العام المقبل تلتف حتى دخل مع

الشعراء - وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء في ذلك الحين في كل عام

مرة - قال: فمثل بين يديه وأنشده قصيدته التي يقول فيها:

طرقتك زائرة فحي خيالها ... بيضاء تخط بالحياء دلالتها

قادت فؤادك فاستقاد وقبلها ... قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

قال: فأنصت لها حتى إذا بلغ إلى قوله:

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفكم أو تسترون هلالها

أو تدفعون مقالة عن ربكم ... جبريل بلغها النبي فقالها

شهدت من الأنفال آخر آية ... بترائهم فأردتم إبطالها

يعني بني علي وبني العباس، قال: فرأيت المهدي وقد زحف من صدر مصلاه

حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع، ثم قال له: فإنها لأول مائة ألف

أعطيها شاعر في خلافة بني العباس.

قال: فلم تلبث الأيام أن أفضت الخلافة إلى هارون الرشيد، قال: فرأيت مروان

بن أبي حفصة ماثلاً مع الشعراء، بين يدي الرشيد وقد أنشده شعراً، فقال له:

من؟ قال: شاعرك مروان بن أبي حفصة، فقال له: ألسنت القائل البيتين اللذين

له في معن اللذين أنشدتهما المهدي: خذوا بيده فأخرجوه، فإنه لا شيء له عندنا، فأخرج.

فلما كان بعد ذلك بيومين تلتف حتى دخل عليه فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

لعمرك لا أنسى غداة المحصب ... إشارة سلمى بالبنان المخضب

وقد صدر الحجاج إلا أقلهم ... مصادر شتى موكباً بعد موكب

قال: فأعجبته، قال له: كم قصيدتك بيتاً؟ قال له: ستون أو سبعون بيتاً، فأمر له بعدد أبياتها ألوفاً، فكان ذلك رسم مروان حتى مات. (394)

كيف تولى أبو الأحوص ولاية مصر

عن الهيثم بن عدي، قال: وجه المهدي أمير المؤمنين إلى أبي الأحوص فأقدم عليه ليوليه مصر وأعمالها، قال: فلما حضر عرض عليه ذلك فامتنع منه امتناعاً شديداً، فاغتاظ من ذلك المهدي فهم بضرب عنقه، وكان بحضرة المهدي محمد بن داود جليس خير، فقال له: يا أمير المؤمنين! تمهل عليه ثلاثة أيام، ففعل وأمره بالانصراف، فلما خرج من عنده اشتد غيظه وقال: أما ترى إلى هذا الشيخ، قد لبس خفاً أحمر وخفاً أسود ليوهم أنه مضطرب العقل! فقال له محمد بن داود الجليس الصالح: لا تقل ذلك، لعل الشيخ أخرج إليه ما يلبسه في الظلمة فلم يعلم، فسكن.

ومضى محمد بن داود إلى الشيخ أبي الأحوص فألفاه متشكياً يبكي، فقال له: ما شأنك؟ فقال: إنه خرج لي من الظلمة خف أحمر وخف أسود، فلبستها ولم أعلم، فلما خرجت من عند أمير المؤمنين جعل الصبيان يصيحون ويضحكون، فلما تبينت ذلك نزع الخفين ومشيت حافياً فلحقني وجع عظيم في رجلي، فقال له محمد بن داود: إن أمير المؤمنين وقع له غير هذا فثنيته عما كان وقع له، فإذا حضرت عنده فإياك أن تأبى أو تمتنع، فمضى إلى المهدي فعرفه ذلك فسكن غضبه، واشتد حرصه على تقليد أبي الأحوص. فلما حضر بين يديه في اليوم الرابع دعا بسفط فأخرج منه كتاباً فيه عهده على مصر وأعمالها، ثم دفع إليه كتاباً ثانياً إلى صاحب الشرطة يأمره بالحضور مجلسه وألا يخليه، ثم دفع إليه كتاباً ثالثاً، فقال: هذا تبين ُ برزقك على العامل، وهو ألف دينار في كل شهر، ومائتا دينار للمائدة، ثم دعا بسفط آخر فأخرج منه ثياباً وطيباً فدفعه إليه، وأمر له بثلاثمائة دينار للنفقة، ثم قال له: الرزق تأخذه معجلاً هنياً تستعين به، وللمائدة مائتا دينار وكل

الطيب لتقوي به نفسك، ولا تمل إلى شيءٍ بته، لأن نفسك غنية بالرزق، وهذه الثلثمائة دينار تستعين بها على نفقة الطريق، فلا تعترضن من أحد شيئاً فتستحش منه، وهذه الثياب والطيب تكون معك، فإن - وعائذ بالله تعالى - حدث حادث عليك كان هذا معداً، فانظر لنفسك وأعزها فقد أعزناك وامدناك، وفقك الله تعالى للصواب.

فخرج أبو الأحوص إلى مصر فحكم بها سنين كثيرة فحسن أثره وحمد أمره. (395)

لا آمن أن يكون معه حديدة

قال محمد بن القاسم : دخل الربيع على المهدي وأبو عبيد الله جالس يعرض كتباً، فقال له أبو عبيد الله: يا أمير المؤمنين يتنحى هذا، يعني الربيع، فقال له المهدي: تنح، قال: لا أفعل، قال: كأنك تراني بالعين الأولى، قال: بل أراك بالعين التي أنت بها، قال: فلم لا تتنحى إذ أمرتك؟ قال: لا آمن أن يكون معه حديدة ينالك بها وأنت سعة المسلمين وقد قتلت ابنه، فقام المهدي مذعوراً وأمر بتفتيشه، فوجدوا بين جوربه وخفه سكيناً، فردت الأشياء إلى الربيع، فجعل كاتبه يعقوب بن داود مكانه، فقال فيه الشاعر:

أدخلته فعلا علي ... ك كذاك شؤم الناصية

يعقوب يحكم في الأمو ... ر وأنت تنظر ناحيه (396)

منازعات اللغويين في مجلس المهدي

وقد كانت تجري بين الكسائي واليزيدي منازعة وهفوات، وممارسة وخصومات، عند الملاحاة في اللغة، والمجادلة في مقاييس النحو وأبواب العربية، وما منهما إلا متقدم وعلمٌ مبرز في معرفته، ذو حظٍ عظيم من علم القرآن وإعرابه، وجملة النحو وأبوابه، رحمة الله علينا وعليهما وبركاته. فمما دار بينهما من الخصومة واللحاء، والمنازعة والمراء، ما حدثني عبيد الله بن أحمد الكاتب أحد إخواننا قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي قال، حدثني عمي عبيد الله بن محمد قال: أخبرني أبي محمد بن أبي محمد قال: أخبرني أبو محمد أبي قال: كنا مع المهدي ببغداد في شهر رمضان قبل أن يستخلف بأربعة أشهر، وكان الكسائي معنا، فذكر المهدي العربية وعنده شيبه بن الوليد العبسي عمٌ دفاة، فقال المهدي: يبعث إلى اليزيدي وإلى الكسائي، وأنا يومئذ مع يزيد بن منصور خال المهدي، والكسائي مع الحسن

395 (المعافى بن زكريا ، الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص 212

396 (المعافى بن زكريا ، الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص 255

الحاجب، قال: فجاءنا الرسول فجئت، وإذا الكسائي على الباب، فقال لي: يا أبا محمد أعوذ بالله من شرك، قال فقلت له: والله لا تؤتى من قبلي حتى أوتى من قبلك، قال: فلما دخلنا عليه أقبل عليّ فقال: كيف نسبوا إلى البحرين بحراني ونسبوا إلى الحصنين فقالوا: حصني ولم يقولوا حصناني كما قالوا بحراني؟ قال، قلت: أصلح الله الأمير، إنهم لو نسبوا إلى البحرين فقالوا بحراني لم يعرف إلى البحرين نسبوه أم إلى البحر، ولما جاءوا إلى الحصنين لم يكن موضع آخر يقال له الحصن ينسب إليه غير الحصنين فقالوا: حصني. قال أبو محمد: فسمعت الكسائي يقول لعمر بن بزيع، وكان حاضراً: لو سألتني الأمير لأخبرته بعلّة هي أحسن من هذه. قال أبو محمد فقلت: أصلح الله الأمير إن هذا يزعم أنّك لو سألته لأجاب بأحسن ممّا أجبت به. قال: فقد سألته، فقال الكسائي: إنهم لما نسبوا إلى الحصنين كانت فيه نونان، فقالوا حصني فاجتزءوا بإحدى النونين عن الأخرى، ولم يكن في البحرين إلا نون واحدة فقيل بحراني، فقلت: أصلح الله الأمير كيف ينسب رجلاً من بني جنان؟ يلزمه أن يقول جني لأن في جنّان نونين، فإن قال ذلك فقد سوى بينه وبين المنسوب إلى الجنّ. قال المهدي: فتناظرا في غير هذا، قال: فتناظرنا في مسائل حفظ قولي وقوله فيها قال: إلى أن قلت: كيف تقول إن من خير القوم أو خيرهم بته فقلت: أعزّ الله الأمير لأن يجيب فيخطئ فيتعلم أحسن من هذه الإطالة، قال فقال: إن من خير القوم أو خيرهم نية زيدا، قال: فقلت: أصلح الله الأمير ما رضي أن يلحن حتى لحن وأحال، قال: كيف؟ قال قلت: لرفعه قبل أن يأتي بالاسم ونصبه بعد رفعه، قال: فقال شيبة بن الوليد: أراد بأوبل، قال: فقلت: هذا تعني، فقال الكسائي: ما أردت غير ذلك، قال فقلت: قد أخطأ جميعاً أيها الأمير، لو أراد بأوبل لرفع زيدا لأنّه لا يكون بل خيرهم زيدا. قال فقال له المهدي: يا كسائي لقد دخلت إليّ مع سلمة النحوي وغيره فما رأيت كما أصابك اليوم. ثمّ قال المهدي: هذان عالمان ولا يقضي بينهما إلا أعرابيّ فصيح تلقى عليه المسائل التي اختلفا فيها فيجيب.

قال: فبعث إلى فصيح من فصحاء الأعراب. قال أبو محمد: فإلى أن يأتي الأعرابي أطرفت، وكان المهديّ محبّاً لأخواله، ومنصور بن يزيد بن منصور خاله حاضراً. قال فقلت: أصلح الله الأمير كيف ينشد هذا البيت من هذه القصيدة:

يا أيّها السائلي لأخبر ... عمن بصنعاء من ذوي الحسب
حمير سادتها تقرّ لها ... بالفضل طراً ججاج العرب

وإن من خيرهم وأكرمهم ... أو خيرهم بته أبو كرب
فقال المهدي: كيف تنشُد أنت؟ قال فقلت: أو خيرهم بته أبو كرب على معنى
إعادة " إن " . قال فقال الكسائي: هو قالها الساعة أصلح اله الأمير.
قال: فتبسّم المهدي وقال إنك لتجيد له وما تدري. قال: ثم طلع الأعرابي الذي
بعث إليه فألقى المسائل عليه، وكانت ست مسائل، فأجاب عنها كلها بقولي.
قال: فاستفزني السرور حتّى ضربت بقلنسوتي الأرض وقلت: أنا أبو محمد.
قال فقال شيبه بن الوليد: تكنّى باسمك أيها الأمير!! فقال المهدي: والله ما
أراد مكروهاً ولكنه فعل ما فعل للظفر، ولعمري لقد ظفر. قال فقلت: إن الله
عز وجل أنطقك أيها الأمير بما أنت أهله، وأنطق غيرك بما هو أهله.
قال: فلما خرجنا قال لي شيبه: تخطّني بين يدي الأمير؟! أما لتعلمن. قال
فقلت: قد سمعت ما قلت وأرجو أن تجد غبها. قال: ثم لم أصبح حتّى كتبت
رقاعاً عدّة، فلم أدع ديواناً حتّى دسست إليه رقعة فيها أبيات قلتها، فأصبح
الناس ينشدونها وهي:

عش بجدّ ولا يضرك نوّ ... إنّما من ترى بالجدود
عش بجدّ وكن هبنّة القيسي نوّاً أو شيبه بن الوليد
شيب يا شيب يا جدّي بني القعقاع ما أنت بالحليم الرشيد
لا ولا فيك خلّة من خلال ال ... خير أحرزتها بحزم وجود
غير ما أنّك المجيد لتقطع غناء أو ضرب دفّ وعود
فعلى ذا وذاك يحتمل الدهر مجيداً له وغير مجيد

قال أبو عبد الله، وحدثني عمّي عبيد الله قال، حدثني أبو جعفر أخي قال،
حدثني أبو محمد قال: كانت تحتبس أرزاق الكسائي فيصير إليّ فيقول لي:
اكتب لي رقعة إلى جعفر بن يحيى فأكتب له.

قال القاضي: وقد أحسن اليزيدي فيما أجاب به، وأطف في نظره وقياسه،
وأتى فيما بينه وبين الكسائي من الجفاء بما كان الأولى به خلفه، وما كان
عليه لو حابى الكسائي وأغضى له، فقد كان يعرف فضله وتمكّنه من العلم
ونبله. والمسألة التّي سأله عنها بحضرة المهدي لطيفة، وتعرض كثيراً في
أمثالها الشبهة، وقد سأله عنها واستبطأه في جوابها وأنّبه على تأخير
الجواب عنها، وما أرى اليزيدي حصل جوابها عند ابتداء وقوعها إليه على
البدار والبدية حتّى أنعم فيها نظره وأعمل فيها فكره. وقد كنت أملت في

هذه المسألة كلاماً، وشرحت ما استدللّ به اليزيدي فيها والوجه الذي تعلّق به الكسائي في إجابته عنها، كرهت إعادته والإطالة هاهنا بذكره. (397)

فم الحوت وعلي بن يقطين

قال العتبي: قدم فم الحوت من المدينة بغداد فنزل على علي بن يقطين، وكان لاعباً بالشطرنج، فقال له علي: لا عني، قال: إنّ عليّ يميناً ألاّ ألعب أبداً إلاّ في إمرة مطاعة، قال: فها هنالك، فلاعبه ففقره فم الحوت، وكان مشوّه الوجه أهذل الشفة السفلى مقلّص العليا مائل الشدق قبيح الأسنان، فقال له: احتكم، قال: تقبلني قبلة، قال: أو الفدية قال ذاك لك قال ألف درهم قال: لا والله قال ألفين: قال لا والله، قال: ثلاثة آلاف، قال: لا والله، قال: أربعة آلاف، قال: هاتها. فدفعها إليه وركب عليّ بن يقطين إلى المهدي فأخبره فاستضحك وقال: ويحك أرنيه من حيث لا يراني، فأدخلته عليه من موضع يراه المهدي: وهو لا يراه فلما نظر إليه وإلى تشويه خلقه وقبح فمه قال له المهدي: ويحك يا علي قد والله ربحت ستة وثلاثين ألفاً. قال: وكيف؟ قال: من لا يفتدي قبلة من هذا بأربعين ألفاً؟! قد ربحت ستة وثلاثين ألفاً (398).

المهدي يستدعي مولى فائد ليغنيه صوتاً معيناً

قال الربيع بن الفضل: أمرني أمير المؤمنين المهديّ بالتقدّم إلى خليفة العامل على الباب أن يكتب إلى صاحبه كتاباً عن نفسه في إشخاص أبي سعيد مولى فائد، فلم يك شيء حتّى وافى أبو سعيد فأدخله خليفة العامل عليّ. فتوهّمت عند نظري إليه أنّه قاضي الحرمين، فدخلت من ساعتى إلى أمير المؤمنين وأعلمته، فأمرني بصرف الناس وإدخاله. قال: فقرب أمير المؤمنين مجلسه وأحفى سؤاله ثم قال له: غنني أبا سعيد:

لقد طفت سبعاً قلت لما قضيتها ... ألا ليت سعيي لا عليّ ولا ليا

وإنّ الذي يبغي رضاي بذكرها ... لأكرم من أهلي عليّ وماليا

فقال: وأغنيك أحسن منه يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك. قال: أنت وذاك، فغناه:

قدم الطويل فأشرققت واستبشرت ... أرض الحجاز وبان في الأسفار

غيث الحيا وضياء كلّ ملّة ... سهل القياد ومألف الزّوار

397 (المعافى بن زكريا ، الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص 447-447

398 (المعافى بن زكريا ، الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص 451

قال القاضي: فأجاده وأحسنه، غير أن المهدي قال: هذا حسن ولكن غني " لقد طفت سبعا " قال له: وأحسن منه، جعلني الله فداك. قال له: أنت وذاك، فغناه:

إن هذا الطويل من آل حفص ... نشر الجود بعدما كان ماتا
وبنى المجد مشبهاً لأبيه ... مثل ما يشبه النبات النباتا
قال القاضي: هكذا رواه، وأنشر أفصح. فأحسنه وأجاده، فقال المهدي: ويحك
يا أبا سعيد، ما تركت في إحسانٍ مزيداً ولكن غني: " لقد طفت سبعا " فغناه:

إنَّ الطويل من آل حفص فاعملوا ... ساد الحضور وساد في الأسفار
قال، فقال له المهدي: أنت تحسن يا أبا سعيد، ولكن ليس تغيني الذي
أشتهي. فقال له الفضل منتهراً، غنَّ أمير المؤمنين ما يأمر بك به. فقال أبو
سعيد: يا أمير المؤمنين لا والذي أكرمك بخلافته ما لي إلى ذلك سبيل. قال:
وكيف؟ قال: لأنني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، وكان في
يده شيء، فأهوى إليّ ليضربني به وهو يقول: لقد طفت سبعا، ماذا صنعت
يا بني؟ فقلت: اعف عني، فوباعتك بالحق لا غنيت هذا الصوت أبداً. قال:
فرده عني وقال: عفا الله عنك. فرأيت المهدي يبكي وتغلبه دموعه وهو
يكفها، ثم وصله وصرفه. (399)

أحسن!

وقال عبد الله بن مالك الخراعي: دخلت على أمير المؤمنين المهدي وعنده
ابن دأب وهو ينشد قول الشماخ:
وأشعث قد قد السفار قميصه ... يجر شواء بالعصا غير منضج
دعوت إلى ما نابني فأجابني ... كريم من الفتیان غير مزلج
فتي يملأ الشيزي ويروي سنانة ... ويضرب في رأس الكمي المدجج
فتي ليس بالراضي بأدنى معيشة ... ولا في بيوت الحي بالمتولج
فرفع رأس إلي المهدي وقال: هذه صفتك أبا العباس فقلت: بك نلتها يا أمير
المؤمنين. فضحك إلي وقال: هل تتشد من الشعر شيئاً؟ قلت: نعم يا أمير
المؤمنين. قال: فأنشدني. فأنشدته قول السموأل:
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها ... فليس إلى حسن الثناء سبيل
إذا المرء أعيته المروءة يافعاً ... فمطلبها كهلاً عليه ثقل
تعرنا أنا قليل عدينا ... فقلت لها إن الكرام قليل

وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل
ونحن أناس لا نرى القتل سبة ... إذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا ظل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد السيوف نفوسنا ... وليست على غير السيوف تسيل
وننكر إن شئنا على الناس قولهم ... ولا ينكرون القول حين نقول
فنحن كماء المزن ما في نصابنا ... كهام ولا فينا يعد بخيل
وأسيافنا في كل شرق ومغرب ... بها من قراع الدارعين فلول
فقال: أحسنت! اجلس، بهذا بلغت، سل حاجتك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين،
تكتب لي في العطاء ثلاثين رجلاً من أهلي؟ قال: نعم، فرض علي إذا وعدت.
فقلت يا أمير المؤمنين، إنك متمكن من القدرة وليس دونك حاجز عن الفعل،
فما معنى العدة؟ فنظر إلى بن دأب كأنه يريد منه كلاماً في فضل الموعد. فقال
ابن دأب:

حلاوة الفعل بوعد ينجز ... لا خير في العرف كنهب ينهز
فضحك المهدي وقال:

الفعل أحسن ما يكو ... ن إذا تقدمه ضمان. (400)

تملاً هذه يا أمير المؤمنين

إبراهيم الشيباني قال: ولدت لأبي دلامة ابنة ليلاً، فأوقد السراج وجعل يخط
خريطة من شقق. فلما أصبح طواها بين أصابعه وغدا بها إلى المهدي
فاستأذن عليه، وكان لا يحجب عنه. فأنشده:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم لقليل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا من شعاع الشمس في درج ... إلى السماء فأنتم أكرم الناس
قال له المهدي: أحسنت والله أبا دلامة! فما الذي غدا بك إلينا؟ قال: ولدت لي
جارية يا أمير المؤمنين. قال: فهل قلت فها شعراً؟ قال: نعم، قلت:

فما ولدتك مريم أم عيسى ... ولم يكفلك لقمان الحكيم

ولكن قد تضمك أم سوء ... إلى لباتها وأب لئيم

قال: فضحك المهدي. وقال: فما تريد أن أعينك به في تربيتها أبا دلامة؟ قال:
تملاً هذه يا أمير المؤمنين، وأشار إليه بالخريطة بين إصبعيه. فقال المهدي:

وما عسى أن تحمل هذه؟ قال: من لم يقتع بالقليل لم يقتع بالكثير. فأمر أن تملأ مالا. فلما نشرت أخذت عليهم صحن الدار، فدخل فيها أربعة آلاف درهم.

من أدخلني مع الدجاج؟

وكان المهدي قد كسا أبا دلالة ساجاً. فأخذ به وهو سكران، فأتى به إلى المهدي. فأمر بتمزيق الساج عليه، وأن يحبس في بيت الدجاج، فلما كان في بعض الليل وصحا أبو دلالة من سكره ورأى نفسه بين الدجاج، صاح: يا صاحب البيت.

فاستجاب له السجان؛ فقال: مالك يا عدو الله؟ قال له: ويلك! من أدخلني مع الدجاج؟ قال: أعمالك الخبيثة، أتى بك أمير المؤمنين وأنت سكران فأمر بتمزيق ساجك وحبسك مع الدجاج. قال له: ويلك! أو تقدر على أن توقد سراجاً، وتجيني بدواة وورق ولك سلبي هذا. فأتاه بدواة وورق: فكتب أبو دلالة إلى المهدي:

أمن صهباء صافية المزاج ... كأن شعاعها لهب السراج
تهش لها النفوس وتشتهيها ... إذا برزت تفرق في الزجاج
وقد طبخت بنار الله حتى ... لقد صارت من النطف النضاج
أمير المؤمنين فدتك نفسي ... علام حبستني وخرقت ساجي
أقاد إلى السجون بغير ذنب ... كأي بعض عمال الخراج
ولو معهم حبست لهان وجدي ... ولكني حبست مع الدجاج
دجاجات يطيف بهن ديك ... يناجي بالصياح إذا يناجي
وقد كانت تخبرني ذنوبي ... بأنني من عذابك غير ناجي
على أنني وإن لاقيت شراً ... لخيرك بعد ذاك الشر راجي
ثم قال: أوصلها إلى أمير المؤمنين. فأوصلها إليه السجان. فلما قرأها، أمر بإطلاقه وأدخله عليه، فقال: أين بت الليلة أبا دلالة؟ قال: مع الدجاج يا أمير المؤمنين. قال: فما كنت تصنع؟ قال: كنت أفاقي معهن حتى أصبحت. فضحك المهدي وأمر بصلة جزيلة، وخلع عليه كسوة شريفة.

الاستعطاف والاعتراف

لما سخط المهدي على يعقوب بن داود، قال له: يا يعقوب؛ قال: لبيك يا أمير المؤمنين، تلبية مكروب لموجدتك؛ قال: ألم أرفع من قدرك إذ كنت وضيعاً، وأبعد من ذكرك إذا كنت خاملاً، وألبسك من نعمتي ما لم أجد بها يدين من الشكر، فكيف رأيت الله أظهر عليك، ورد إليك مني؟ قال: إن كان ذلك بعلمك يا أمير المؤمنين فتصديق معترف منيب، وإن كان مما استخرجته دفائن الباغين

فعائذ بفضلك؛ فقال: والله لولا الحنث في دمك بما تقدم لك، لألبستك منه قميصاً لا تشد عليه زراً، ثم أمر به إلى الحبس. فتولى وهو يقول: الوفاء يا أمير المؤمنين كرم، والمودة رحم، وأنت بها جدير. أخذت الشعراء معنى قول المهدي: لألبستك منه قميصاً لا تشد عليه زراً، فقال معلي الطائي:

طوقته بالحسام طوق ردى ... ما يستطيع عليه شد أزرار
وقال حبيب:

طوقته بالحسام طوق داهية ... أغناه عن مس طوقه بيده (401)

خير لك من أن تطيعك طاعة خوف

دخل ابن خريم على المهدي، وقد عتب على بعض أهل الشام، وأراد أن يغزيهم جيشاً، فقال: يا أمير المؤمنين، عليك بالعفو عن الذنب، والتجاوز عن المسيء، فلأن تطيعك العرب طاعة محبة، خير لك من أن تطيعك طاعة خوف.

لا يجب عليه ضرب العنق

أمر المهدي بضرب عنق رجل، فقام إليه ابن السماك، فقال: إن هذا الرجل لا يجب عليه ضرب العنق؛ قال: فما يجب عليه؟ قال: تعفو عنه، فإن كان من أجر كان لك دوني، وإن كان وزر كان علي دونك. فخلى سبيله (402).

قوم معوزون

خرج المهدي يطوف بعد هدأة من الليل، فسمع أعرابية من جانب المسجد، وهي تقول: قوم معوزون، نبت عنهم العيون، وفدحتهم الديون، وعضتتهم السنون، باد رجالهم، وذهبت أموالهم، أبناء سبيل، وأنضاء طريق، وصية الله ووصية رسوله، فهل من أمر بخير، كلاه الله في سفره، وخلفه في أهله. فأمر نصيراً الخادم فدفع إليها خمسمائة درهم (403).

وأنت خير من الذي حملني عليك

كان شريك القاضي يشاحن الربيع صاحب شرطة المهدي، فحمل الربيع المهدي عليه، فدخل شريك يوماً على المهدي، فقال له المهدي: بلغني أنك ولدت في قوصرة؛ فقال: ولدت يا أمير المؤمنين بخراسان والقواصر هناك عزيزة؛ قال: إني لأراك فاطمياً خبيثاً؛ قال: والله إني لأحب فاطمة وأبا فاطمة

صلى الله عليه وسلم، قال: وأنا والله أحبهما، ولكني رأيتك في منامي مصروفا وجهك عني، وما ذاك إلا لبغضك لنا، وما أراني إلا قاتلك لأنك زنديق؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن الدماء لا تسفك بالأحلام، ليس رؤياك رؤيا يوسف النبي صلى الله عليه وسلم، وأما قولك بأني زنديق، فإن للزنادقة علامة وليس رؤياك رؤيا يوسف النبي صلى الله عليه وسلم وأما قولك بأني زنديق، فإن للزنادقة علامة يعرفون بها؟ قال: وما هي؟ قال: بشرب الخمر والضرب بالطنبور؛ قال: صدقت أبا عبد الله، وأنت خير من الذي حملني عليك (404).

تفاحة من عند تفاحة

أهدت جارية من جواري المهدي تفاحة إلى المهدي وطيبتها. وكتبت فيها: هدية مني إلى المهدي ... تفاحة تقطف من خدي حمرة مصفرة طيبت ... كأنها من جنة الخلد فأجاب المهدي:

تفاحة من عند تفاحة ... جاءت فماذا صنعت بالفؤاد
والله ما أدري أبصرتها ... يقظان أم أبصرتها في الرقاد (405)

كل امرئ يأكل زاده

خرج أبو دلامة مع المهدي في مصاد لهم، فعن لهم ظبي فرماه المهدي فأصابه، ورمى علي بن سليمان فأخطأ وأصاب الكلب، فضحك المهدي وقال لأبي دلامة: قل. فقال:

قد رمى المهدي ظبياً ... شك بالسهم فؤاده
وعلي بن سليما ... ن رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما ك ... ل امرئ يأكل زاده

هجاء نفسه أقل ضرراً عليه

ودخل أبو دلامة على المهدي، وعنده محمد بن الجهم وزيره، وكان المهدي يستثقله فقال له: أبا دلامة، والله لا تبرح مكانك حتى تهجو أحد الثلاثة. فهم أبو دلامة بهجاء ابن الجهم، خاف شره، فرأى أن هجاء نفسه أقل ضرراً عليه، فقال:

ألا أبلغ لديك أبا دلامة ... فليس من الكرام ولا كرامه
إذا لبس العمامة كان قرداً ... وخنزيراً إذا وضع العمامة

وإن لزم العمامة كان فيها ... كقرء ما تفارقه الدمامه (406)

أليس قد جلس هذا المجلس أبوك وعمك قبلك ؟

ودخل صالح بن بشر على المهدي ، فقال له : عطني فقال : أليس قد جلس هذا المجلس أبوك وعمك قبلك ؟ قال نعم ، قال : فكانت لهم أعمال ترجو لهم النجاة بها ، قال نعم قال : فكانت لهم أعمال تخاف عليهم الهلكة منها قال : نعم قال : فانظر ما رجوت لهم فيه فآته وما خفت عليهم فيه فاجتنبه . (407)

كم سنك يا فتى ؟

حكى المسعودي في شرح المقامات : أن المهدي لما دخل البصرة رأى أياس بن معاوية وهو صبي وخلفه أربعمأة من العلماء وأصحاب الطيالة وأياس يقدمهم ، فقال المهدي لعامله : أما كان فيهم شيخ يتقدمهم غير هذا الحدث ؟ ثم إن المهدي التفت إليه وقال : كم سنك يا فتى ؟ فقال : سني أطال الله بقاء الأمير ، سن أسامة بن زيد بن حارثة لما ولاه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جيشاً فيهم أبو بكر وعمر ، فقال له : تقدم بارك الله فيك (408).

أتهزأ بخالي ؟

دخل بشار على المهدي وعنده خاله يزيد بن منصور الحميري : فأنشده قصيدة يمدحه بها فلما أتمها قال له يزيد : ما صناعتك أيها الشيخ فقال : أثقب اللؤلؤ ، فقال له المهدي : أتهزأ بخالي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ما يكون جوابي له وهو يراني شيخاً أعمى ينشد شعراً فضحك المهدي وأجازه (409).

كذاب أمير المؤمنين

وكان المهدي قد غضب على رجل من القواد ، واستصفى ماله ، وكان يختلف إلى علي بن يقطين ، رجاء أن يكلم له المهدي ، وكان يرى قرب المدني ، ومكانه من علي ، فأتى المدني عشيّاً فقال : ما البشري ؟ قال : لك البشري وحكمك ، قال : أرسلني علي بن يقطين إليك وهو يقرئك السلام ويقول : قد كلمت أمير المؤمنين في أمرك ، ورضي عنك ، وأمر برد مالك وضياعك ويأمر بك بالغدو إليه لتغدو معه إلى أمير المؤمنين متشكراً . فدعا له الرجل بألف دينار وكسوة وحملان ، وغدا على علي مع جماعة من وجوه العسكر

406 (العقد الفرعي ، 54/3)

407 (الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي ، الكشكول ، تحقيق محمد عبد الكريم النمري ، دار

الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1418 هـ - 1998م ، 194/1

408 (الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي ، الكشكول ، 292/1

409 (الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي ، الكشكول ، 61/2

متشكراً ، فقال له علي : وما ذاك ؟ قال : أخبرني أبو فلان - وهو إلى جنبه - كلامك أمير المؤمنين في أمري ورضاه عني ، فالتفت إلى المديني وقال : ما هذا ؟ فقال : أصلحك الله ، هذا بعض ذلك المتاع نشرناه ، فضحك علي وقال : علي بدابتي ، وركب إلى المهدي ، وحدثه الحديث ، فضحك المهدي وقال : إنا قد رضىنا عن الرجل ورددنا عليه ماله ، وأجرى على المديني رزقاً واسعاً ، واستوصى به خيراً ، ثم وصله ، وكان يعرف بكذاب أمير المؤمنين (410).

قد بات في جبة ملاح

قال أبو العتاهية: خرجت مع المهدي إلى الصيد فتفرق أصحابه وبقيت معه وقد أقبل علينا المطر، فأنتهينا إلى ملاح معه زورق فقال لنا: ادخلا من هذا المطر. فدخلنا ووقعت الرعدة على المهدي من شدة البرد فقال له الملاح: هل لك أن ألقى عليك جبتي؟ فقال: نعم. فألقاها عليه. فما زال يتقرقف حتى نام، ثم أقبل الخدم والغلمان وألقوا عليه الخز والوشي، فلما انتبه أمر بدفع ذلك إلى الملاح وقال: يا أبا العتاهية ألا هجوتني! فقلت: يا أمير المؤمنين وكيف تطيب نفسي بهجائك؟ قال: فإني أسألك بالله، فقلت:

يا لابس الوشي على شبيهه ... ما أقبح الأشيبي في الداح
فنقر نقرة ثم قال: زدني، فقلت:

لو شئت أيضاً جُلت في خامةٍ ... وفي وشاحين وأوضاع
فقال: ويلك زدني، فقلت:

كم من عظيم الشأن في نفسه ... قد بات في جبة ملاح(411)

فمن أنت؟

وقال الحسن بن الفضل بن الربيع: خرج علينا المهديّ متتكرراً ومعه الربيع والمسيّب بن زهير يطوف في الأسواق إذ نظر إلى أعرابي ينشد فقال الربيع: أخبرني عن أرق بيت قالته العرب، قال: بيت امريء القيس بن حجر: وما ذرفت عيناك إلا لتضربي ... بسهميك في أعشار قلبٍ مقتل
فقال المهدي: بيت قد داسته العامة وفيه غلط. ثم قال للمسيّب: هات ما عندك. فقال:

ومما شجاني أنها يوم أعرضت ... تولت وماء العين في الجفن حائر
فلما أعادت من بعيد بنظرةٍ ... إليّ التفاتاً أسلمتها المحاجر

410 (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري ، المحاسن والأضداد ، مكتبة الخانجي -

القاهرة / مصر - 1415هـ - 1994م ، ص31

411 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص124

وسلمتها أيضاً. فقال: وإن هذا قريب من ذاك. وخلفهم شاب من أهل المدينة له أدب وظرف وقدم متظلماً فطال مقامه على باب المهدي، فلما سمع ذلك منهم حملهم ظرف الأدب على أن أدخل نفسه بينهم واتصل بهم وقال: أتأذنون أن أخوض معكم فيما أنتم فيه؟ قالوا: ماذا؟ قال قال الأحوص:

إذا قلت إني مشتف بلقائها ... فحم التلاقي بيننا زادني وجدا
فقال المهدي: أحسنت يا فتى، فمن أنت؟ قال: أنا رجل من أهل المدينة. قال: وما أقدمك العراق؟ قال: مظلمة لي أنا مقيم عليها بباب الخليفة منذ كذا وكذا وقد أضرب بي ذلك. فقال للربيع: عليك بالرجل. فأخذه معه وسامره أياماً ثم أمر برد مظلمته وقضى حوائجه وأمر له بصلة عشرة آلاف درهم (412).

لم يرض لك إلا بأرفعها وأشرفها

ودخل شبيب بن شيبه على المهدي فقال: يا أمير المؤمنين إن الله جل وعز حيث قسم الدنيا لم يرض لك إلا بأرفعها وأشرفها فلا ترض لنفسك من الآخرة إلا بمثل ما رضي لك من الدنيا، وأوصيك يا أمير المؤمنين بتقوى الله فإنها عليكم نزلت ومنكم قبلت وإليكم ترد (413).

إن الكريم إذا خادعته انخدع

وخط المهدي على بعض القحاطبة فقال: لا أراه إلا والسيف مسلول والنطع منشور. فأتي به وقد سل السيف ونشر النطع فبكى فقال: ألك مثل حركتك وتبكي؟ فقال: ما بكيت جزعاً من الموت ولكن بكيت أن ألقى الله وأنت ساخط عليّ. فقال المهدي: يا غلام ادرج النطع واغمد السيف: إن الكريم إذا خادعته انخدع

قيل: وعاتب المهدي شبيب بن شيبه في شيء بلغه عنه. فاعتذر إليه وقال: والله لو كان لي ذنب لأقررت ولكن عفو أمير المؤمنين أسرع إلي من براءتي (414)..
خلّوا سبيله

قال: ولما خرج جعفر الأحمر من الحبس وأدخل على المهدي في الحديد قال له: يا فاسق أزلّك الشيطان وأغواك، وفي غمرة الجهل أرداك، وعن الهدى بعد البصيرة أعماك، حتى تركت الطريقة ودخلت فيما لا أصل له ولا حقيقة، كيف رأيت الله كشف أمرك وأعلن فسقك وأظهر ما كنت تخفي من سقم

412 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص179

413 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص188

414 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص216

سريرتك وخبث نيتك فأوردك حوض منيتك وذلك بما قدمت يداك وما الله
بظلام للعبيد! قال جعفر: لا والذي لم يزل بعباده خبيراً، وبعث محمداً، عليه
وعلى آله السلام، بالحق بشيراً، طهر أهله من دنس الريب تطهيراً، ووقفني
بيد يديك أسيراً، وجعلك علينا سلطاناً أميراً، ما خنت الإسلام نقيراً، ولا
أضلت الهدى منذ كنت بصيراً، فلا تقدم عليّ بالشبهة تقديراً، بسعي ساعٍ
سوف يجزي بسعيه سعيراً.

فقال المهدي: ما يغني عنك وسواسك، فما تهذي من أم رأسك، قد تناهت إليّ
أخبارك، وأداها من كان يقفو آثارك، ويعرف أسرارك، ومن بايعك من أعوانك
الذين وازروك على ضلالك، فأقلل، لا أم لك، تشجعك، فقد حلّ قضاؤك، وحن
حصادك.

فقال جعفر: إن تقتلني تقتل مني علماً فلا تجعل لي على ظهرك وزراً فأصير
لك يوم القيامة خصماً، وأنت تعلم أنك لا تجيء بقتلي عدلاً ولا تنال به فضلاً،
فاتق الذي خلقك وأمر عباده ملكك وبالعدل فيهم أمرك، ولا تحكم عليّ بحكم
عن الهدى مائل، فإنك للدنيا مفارق وعنّها راحل، وكلّ ما أنت فيه فمضمحل
زائل.

قال له المهدي: تطالبني وأنت المطلوب، وبباطلك تغلب حقي وأنت المغلوب،
الآن ظهر فسادك، وبلغ غرسك، ودبت عقاربك، اللهم إلا أن تقرّ بذنبك
وتعترف بجرمك وتتوب إلى ربك وتحقن بالإنابة دمك، فإن فعلت ذلك أمهلنا
أمرك وأطلنا حبسك وإلا فاحتسب نفسك ولا تلم إلا جهلك.
قال جعفر: ما لي ذنب فأستغفر ولا جرم فأعترف ولا لي بك قوة فأنتصر،
وأنت على ظلمي مقتدر، فإن كنت تعلم أن ما بعد الموت مصدر ولا للعباد بعد
البلى محشر ولا للظالم موعد يخاف منه ويحذر فاعمل من هذا ما شئت
واستكثر.

قال المهدي: لا والذي بمكة بيته الحرام، وحوله الشعث العاكفون قيام، ما
أخشى في إقامة الأحكام عليك وعلى أشباهك إثماً ولا زوراً، فاستسلم للقتل
ودع الكلام، فإنه إذا عقر الأساس تداعى النظام، وإذا انكسرت القوس تعطلت
السهم، وأنت فطال ما أعنت على إطفاء النور بريح الظلام.
قال جعفر: اعف فإنك كريم جواد سامح، ولا تقبل فيّ قول العدو الكاشح، فإني
من الإسلام على الطريق الواضح، رفيق على أهله ولهم ناصح، أبرّ العالمين
بفهم راجح، فلا تقدم عليّ بقول كلب نابح، فقتلك إياي عمل غير صالح.

قال المهدي: مذهبك واعتقادك تزعم أن الآخرة بعد فراق الساهرة، وأن الناس كانوا أعلاماً زاهرة، وأشجاراً ناضرة، وزروعاً غاضرة، تلبث يسيراً ثم تعود هشيماً، وإن من مات لا يعود كما أن ضوء المصباح إذا طفيء لا يرجع.

قال جعفر: لا والذي يخلق ويبيد، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، ما قلت ذلك وهو له شهيد، وإني أخلص له التوحيد والتفريد والمشية والتحديد، وأشهد أنه الغفور الودود، يعلم منقلب العبيد.

قال المهدي: إن كنت تحب خلاص نفسك ورقبتك فأحضرني كتاب زندقته الذي بالجهل ألفته وبالباطل زينته وبالضلال زخرفته، سميته أس الحكمة وبستان الفلسفة، زعمته مستخرجاً من ديوان الإلهام منظماً بحسن الكلام، عنت فيه الإسلام وأضلت فيه الأنام.

فقال جعفر: لا والذي خلق الظلمات والنور، ودبر الأمور وهو قادر على أن يبعث من في القبور، ما هذا إلا إفك مجترح وزور، وإن ديني لظاهر منير تقديمي ذرية من هو مع الله جل وعز في كل فرض لازم أمام النبيين في البيت المعمور، فاتق الذي خلقك وأمر عبادك قلدك يعلم خفيات الأمور.

قال المهدي: وأصفح لك عن هذا فما حجتك في كتابك الذي أضل أهل الشقاق والنفاق ومن منهم في الأندية والأسواق يقرأونه ويتدارسونه في الآفاق، أما بعد أعلمكم أن الله جل وعز عدل لا يوالي الظالمين ولا يرضى فعال الجاهلين، وأنه ليس لله بولي من رضي بأحكام الجائرين، فسيحوا في الأرض حيث لا تنالكم أيدي المعتدين، فإن بني العباس طغاة كفر، أولياؤهم فسقة وأعوانهم ظلمة، دولتهم شرّ الدول، عجل الله بوارهم وهدم منارهم والعاقبة للمتقين.

قال جعفر: هذا والله بهتان عظيم جداً قذفني به قاذف عمداً وأنت تعلم أنني ما خالفت لكم أمراً ولا غبت منكم أحداً، فاقبل المعذرة وأقل العثرة وتغمد الهفوة واغفر الزلة فإنك راع مسؤول.

قال المهدي: أولم أبلغ أنك في الغوغاء تحثهم على شق العصا ومخالفة الأمر وتحيدهم عن طاعة الخلفاء، فأني داهية أدهى منك؟ قال جعفر: ما بلغت حقاً ولقد طوى النصيحة من أودع قلبك بهتاناً وإفكاً فلا تقبل في قول من ظلم واعتدى وبفسادي إليك سعي، فإن الله جل وعز سائله يوم يودّ الظالم يا ليتته لم يكن أميراً، ولا كان المضلّ له وزيراً.

قال المهدي: إنك لجاهل أن تقيم اعوجاجك بكثرة احتجاجك، هيهات لا يكدر صفوتي مزاجك، وقد قيل: من ظفر بحية لا يأمن لسعها ثم لم يشدخ رأسها

كانت سبب حتفه، ولعمري إن من يكون له عدو مثلك يرقب غرته وينتظر فورته ولا يطلق يده بقتله لعاجز.

قال جعفر: وما بلغ الله بقدر النملة ونكاية النحلة وإنما يكتفي مثلي من مثلك بلحظة، فالكرماء رحماء بررة، والقسوة في اللئام الشررة. قال المهدي: من تنته أيامه لاحت في الظلام أعلامه وأسرع به أن يذوق حمامه، يا غلام سيفاً قاطعاً وضارباً حاذقاً! قال جعفر: إن كنت تؤمن بالمعاد وتتقي من الحشر يوم التناد، يوم يجمع الله فيه العباد، تعلم أن طالب تأري لك بالمرصاد، ومن لم يكن له في الموت خير فلا خير له في الحياة، إن قدّمتني أمامك فأنا قاعد لك على الجادة التي ليس عنها مرحل الحاكم يومئذ غيرك.

قال: فسكت المهدي طويلاً ثم التفت إلى أصحابه فقال: كيف أقدم على قتل رجل لا يخاف مكيدتي ولا يرعبه سلطاني ولا يتقي سطوتي وأعواني، يناصبني كلامي ويفسخ احتجاجي، كيف ولو كنا بين يدي من لا يخاف جوره ولا يتقى ميله وحيفه كان لسانه أمضى وقلبه أجرى وخصمه أذلّ! خلّوا سبيله. فمضى (415).

مزاح الشعراء

قيل: دخل أبو دلّامة على المهدي فسلم ثم قعد وأرخى عينيه بالبكاء. فقال له: ما لك؟ قال: ماتت أم دلّامة. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ودخلت له رقّة لما رأى من جزعه، فقال له: أعظم الله أجرك يا أبا دلّامة! وأمر أن يعطى ألف درهم وقال له: استعن بها في مصيبتك. فأخذها ودعا له وانصرف. فلما دخل إلى منزله قال لأُم دلّامة: اذهبي فاستأذني على الخيزران فإذا دخلت عليها فتباكي وقولي مات أبو دلّامة. فمضت واستأذنت على الخيزران، فأذنت لها، فلما اطمأنت أرسلت عينها بالبكاء، فقالت لها: ما لك؟ فقالت: مات أبو دلّامة. فقالت: إنا لله عظم الله أجرك! وتوجّعت لها ثم أمرت لها بألفي درهم، فدعت لها وانصرفت. فلم يلبث المهدي أن دخل على الخيزران، فقالت: يا سيدي أما علمت أن أبا دلّامة مات؟ قال: لا يا حبيبتي إنما هي امرأته أم دلّامة. قالت: لا والله إلا أبو دلّامة. فقال: خرج من عندي الساعة آنفاً. فقالت: خرجت من عندي الساعة. وأخبرته بخبرها وبكائها. فضحك وتعجّب من حيلهما (416).

ما أسرعك للأولى وأبطأك عن الثانية؟!

ولما وفد المهدي من الري إلى العراق امتدحه الشعراء فقال أبو دلّامة

415 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص222-224

416 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص254

إني نذرت لئن رأيتك قادما ... أرض العراق وأنت ذو وقر
لتصلين على النبي محمد ... ولتملأن دراهما حجري
فقال المهدي صلى الله على محمد ، فقال أبو دلالة ما أسرعك للأولى وأبطأك
عن الثانية؟! فضحك وأمر ببذرة فصبت في حجره (417)

أتاني آت في منامي

ودخل على المهدي اعرابي فقال له فيم جئت ؟ قال أتيتك برسالة قال هاتها
قال أتاني آت في منامي فقال انت أمير المؤمنين فأبلغه هذه الأبيات
لكم ارث الخلافة من قریش ... تزف إليكمو أبدا عروسا
إلى هرون تهدي بعد موسى ... تميم وما لها أن لا تميمسا
فقال المهدي يا غلام علي بالجواهر فحشا فاه حتى كاد ينشق ثم قال اكتبوا
هذه الأبيات واجعلوها في بخانق صبيانا (418)

ليس إلا بكم يتم السرور

كتب المهدي إلى الخيزران وهو بمكة :
نحن في أفضل السرور ولكن ... ليس إلا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودي ... أنكم غبتم ونحن حضور
فأجدوا المسير ، بل إن قدرتم ... أن تطيروا مع الرياح فطيروا
فأجابته :

قد أتانا الذي وصفت من الشو ... ق فكدنا وما فعلنا نظير
ليت أن الرياح كن يؤدي ... ن إليكم ما قد يجنّ الضمير
لم أزل صبة فإن كنت بعدى ... في سرور فدام ذاك السرور (419)

يا هذا هل أسأت إليك قط؟

وسمع المهدي إنسانا يدعو عليه فقال: يا هذا هل أسأت إليك قط؟ قال: لا
ولكنني مللتك! فقال: أو لم أتول منذ شهرين؟ فقال: أو لم يكن في ذلك ما
يمل؟ إني لأمل كنييتي فأغيرها في الشهر مرتين. (420).

خذ درهماً ومر في حفظ الله!

خرج المهدي إلى الصيد فتفرد مع غلام فرأى أعرابياً فقال: إني أريد أن
أضحك من هذا الأعرابي. فأتاه الغلام فقال: أجب أمير المؤمنين. فقال: ما لي

417 (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبيشي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق
دمفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الثانية ، 1986 ، 10/2

418 (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبيشي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، 166/2

419 (ابن عبد البر ، بهجة المجالس وأنس المجالس ، ص 173

420 (الراغب الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ، 79/1

ولأمير المؤمنين؟ فزنه وشتمه. فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين هذا شتمني فقال المهدي: يا غلام أعطه دانقاً. فقال الأعرابي: أدية فريتكم دانق يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: فأنت زان وابن زانية وابن زان، خذ درهماً ومر في حفظ الله! (421).

الغلام وجارية المهدي

قال جحظة: حدثني ابن أخت الحاركي: أن خادماً ممن خدم أباه جاءه يخبره أن عند جارية في بعض قصوره رجلاً، فلبس حلةً وسار إلى القصر، فألفى عندها غلاماً شاباً، له ذؤابتان، كأنه قضيب فضة، فسأله عن دخوله وكيف كان، وما شأنه. فقال: إن هذه الجارية كانت لوالدتي، وكان بيني وبينها ألفة، فلما بيعت لأمير المؤمنين، صرت إلى الباب متعرضاً لها، فأذنت في الدخول، فدخلت على أحد أمرين: إما أن أظفر بما أريد أو أقتل فأستريح. فأمر المهدي بإحضار سياط، ونصبه بينها، ثم ضربه عشرين سوطاً، ورفع عنه الضرب وقال: ما أصنع بتعذيبك، ولست بتاركك حياً، ولا تاركها، يا غلام، سيف ونطع! فلما أتى بذلك، وأجلس الغلام في النطع قال: يا أمير المؤمنين! قبل أن ينزل بي القتل، وهو دون حقي، اسمع مني ما أقول! قال: هات، فأنشأ يقول:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالسَّيَاطُ تَتَوَشَّنِي ... عِنْدَ الْإِمَامِ وَسَاعِدِي مَغْلُولُ.
وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالَّذِي أَنَا عَبْدُهُ ... وَالسَّيْفُ بَيْنَ ذُؤَابَتِي مَسْلُولُ.

فأطرق المهدي وتغرغرت عيناه بالدموع. ثم قال: يا غلام، انتني بإزار! فأتي به، فقال: الفقهما به جميعاً، بعد أن تنزع ثيابهما، وأخرجهما عن قصري، ففعل ذلك. (422)

نومة عبود

قال عبد الله بن محمد أبو جمعة الوراق: أخبرت أن المهدي دخل الكوفة فقال لأبي الأحوص محمد بن حيان الكوفي: حدثنا حديثاً من طرائف الأخبار بما حضرك، قال: كان في الزمان الأول رجل يقال له عبود وكان عاشقاً لابنة عم له فحضرتها الوفاة، فأزعجه ذلك، وأقلقه، فلما توفيت صار إلى المسيح، فسأله أن يحييها قال: لن يتهياً ذلك أو تهب لها من عمرك شيئاً. قال: قد وهبت لها نصف عمري، فصار المسيح إلى تربتها، فوقف عليها، وسأل ربه

421 (الراغب الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ، 1/186)

422 (السراج القارئ ، مصارع العشاق ، ص 33-34)

أن يحييها فأحيائها، فأخذ بيدها عبود، ومضى يريد بها أله، فأدركه الفتور في بعض الطريف، فحط رحله، ووضع رأسه في حجرها، واستقل نوماً. فاجتاز بها ملك الناحية فرأى وجهاً جميلاً وخلقاً حسناً، فعرض عليها صحبتها، فأجابته، فأمرها، فوضعت رأسه من حجرها، وحملها في قبة كانت معه، فلما انتبه عبود بقي متلداً، فبينما هو كذلك إذ تلقاه نفر يتواصفون الجارية وبراعة خلقها، فسألهم عن الخبر، فأعلموه أنهم رأوا مع الملك امرأة لحقها فجعل يذكرها العهد، وهي ساكتة، ويسألها النزوع عما هي عليه، وهي مزورة عنه، إلى أن قال: ويحك قد كنت توفيت، فصرت في جملة الموتى، فسألت المسيح، فأحياك لي على أني أعطيتك من عمري نصفه، فإن كنت لا تساعدني ولا تصيرين معي إلى أهلي وأهلك، فردي علي ما وهبت لك من عمري.

قالت: فإني قد رددته عليك، ولا حاجة لي فيه، فما أتمت هذه الكلمة حتى وقعت ميتة، وانصرف عبود إلى أهله مغتبطاً، فضربت العرب بنومة عبود مثلاً (423).

أعيزك بالله أن تكون النحس

قال أبو سمير عبد الله بن أبي أيوب: لما خرج المهدي، فصار بعقبة حلوان، استطاب الموضع، فتغذى ودعا بحسنة، فقال لها: أما ترين طيب هذا الموضع، فغنيني، فأخذت محكة كانت في يده وأوقعت بها على مخدة، وغنته: أيا نَخْلَتِي وَادي بُوَانَةَ! حَبِّذا، ... إذا نَامَ حُرَّاسُ النَّخِيلِ، جَنَّاكُمَا فقال: أحسنت! لقد هممت بقطع هاتين النخلتين، يعني نخلتي حلوان. فقالت: أعيزك بالله أن تكون النحس. قال: وما ذاك؟ قالت: قول الشاعر فيهما: أَسْعِدَانِي يَا نَخْلَتِي حُلُوانِ، ... وَابْكِيَا لِي مِنْ رَيْبِ هَذَا الزَّمَانِ وَاعْلَمَا، إِنَّ بَقِيَّتِمَا، أَنْ نَحْساً ... سَوْفَ يَأْتِيكُمَا، فَتَفْتَرِقَانِ فقال: لا أقطعهما أبداً، وוכל بهما من يحفظهما (424).

المهدي وأنسب بيت

قال عبد الأعلى بن عبد الله بن صفوان الجمحي: حملت ديناً بعسكر المهدي، فركب المهدي يوماً بين أبي عبيد الله وعمر بن بزيع، وأنا وراءه، في موكبته على برذون قطوف، فقال: ما أنسب بيت قالته العرب؟ قال أبو عبيد الله: قول امرئ القيس:

⁴²³ (السراج القارئ ، مصارع العشاق ، ص 87 - 88)

⁴²⁴ (السراج القارئ ، مصارع العشاق ، ص 164)

وَمَا ذَرَفْتُ عَيْنَاكَ إِلَّا لِتَضْرِبَنِي ... بِسَهْمَيْكَ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُّقْتَلٍ
 قَالَ: هَذَا أَعْرَابِي قَح. فَقَالَ عَمْرُ بْنُ بَزِيعٍ: قَوْلُ كَثِيرٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ:
 أَرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا، فَكَأَنَّمَا ... تَمَثَّلُ لِي بِلَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلٍ
 فَقَالَ: مَا هَذَا بِشَيْءٍ، وَمَا لَهُ يَرِيدُ أَنْ يَنْسَى ذِكْرَهَا، حَتَّى تَمَثَّلَ لَهُ؟ فَقُلْتُ:
 عِنْدِي حَاجَتُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! قَالَ: الْحَقُّ بِي. قُلْتُ: لَا لِحَاقَ لِي، لَيْسَ ذَلِكَ
 فِي دَابَّتِي، قَالَ: احْمَلُوهُ عَلَى دَابَّةٍ. قُلْتُ: هَذَا أَوَّلُ الْفَتْحِ، فَحَمَلْتُ عَلَى دَابَّةٍ،
 فَلَحَقْتَهُ، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ؟ قُلْتُ: قَوْلُ الْأَحْوَصِ:
 إِذَا قُلْتُ إِنِّي مُشْتَفٍ بِلِقَائِهَا، ... فَحَمَّ التَّلَاقِي بَيْنَنَا زَادَنِي سُقْمًا
 فَقَالَ: أَحْسَنْتَ! حَاجَتُكَ؟ قُلْتُ: عَلِيٌّ دِينَ. فَقَالَ: اقْضُوا دَيْنَهُ، فَقَضَى دَيْنَهُ.
 (425)

القباح غوال وإن رخصن

قَالَ الْحَسَنُ الْوَصِيفُ حَاجِبُ الْمَهْدِيِّ: كُنَّا بِزِيَالَةٍ، وَإِذَا أَعْرَابِي يَقُولُ: يَا أَمِيرَ
 الْمُؤْمِنِينَ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ! إِنِّي عَاشِقٌ. قَالَ: وَكَانَ يُحِبُّ ذِكْرَ الْعِشَاقِ
 وَالْعِشْقِ، فَدَعَا الْأَعْرَابِيَّ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، يَا أَمِيرَ
 الْمُؤْمِنِينَ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، ثُمَّ قَعَدَ. فَقَالَ لَهُ: مَا اسْمُكَ؟ فَقَالَ: أَبُو مِيَّاسٍ.
 قَالَ: يَا أَبَا مِيَّاسٍ! مَنْ عَشِيقَتُكَ؟ قَالَ: ابْنَةُ عَمِّي، وَقَدْ أَبَى أَبُوهَا أَنْ يَزَوِّجَنِيهَا.
 قَالَ: لَعَلَّهُ أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا؟ قَالَ: لَا! قَالَ: فَمَا الْقِصَّةُ؟ قَالَ: أَذِنَ مِنِّي رَأْسُكَ؟ قَالَ:
 فَجَعَلَ الْمَهْدِيُّ يَضْحَكُ وَأَصْغَى إِلَيْهِ رَأْسَهُ، فَقَالَ: إِنِّي هَجِينٌ، قَالَ: لَيْسَ يَضُرُّكَ
 ذَلِكَ، إِخْوَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلَدُهُ أَكْثَرُهُمْ هَجْنٌ. يَا غَلَامُ عَلَيَّ بِعَمِّهِ.
 قَالَ: فَأَتَيْتُ بِهِ، فَإِذَا أَشْبَهَ خَلْقَ اللَّهِ بِأَبِي مِيَّاسٍ كَأَنَّهُمَا بِأَقْلَافَةٍ فَلَقْتُ. فَقَالَ
 الْمَهْدِيُّ: مَا لَكَ لَا تَزُوجُ أَبَا مِيَّاسٍ وَلَهُ هَذَا اللِّسَانُ وَالْأَدَبُ وَقَرَابَتُهُ مِنْكَ؟ قَالَ:
 إِنَّهُ هَجِينٌ. قَالَ: فَإِخْوَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلَدُهُ أَكْثَرُهُمْ هَجْنٌ، فَلَيْسَ هَذَا مِمَّا
 يَنْقُصُهُ، زَوْجُهَا مِنْهُ، فَقَدْ أَصْدَقْتُهَا عَنْهُ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ.
 فَأَمَرَ لَهُ بِعِشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَخَرَجَ أَبُو مِيَّاسٍ، وَهُوَ يَقُولُ:
 ابْتَعْتُ أَسْوَاقَ الْقِبَاحِ لِأَهْلِهَا؛ ... إِنَّ الْقِبَاحَ وَإِنْ رَخُصْنَ غَوَالٍ (426)

425 (السراج القارئ ، مصارع العشاق ، ص 178/177

426 (السراج القارئ ، مصارع العشاق ، ص 189

العمل للكفاءة

قدم مرزبان من مرازمة فارس (427) باب السلطان في أيام المهدي يشكو عاملهم ، فقال لأبي عبيد الله الوزير : أصلحك الله . إنك وليت علينا رجلاً ، إن كنت وليته وأنت تعرفه ، فما خلق الله رعية أهون عليك منا ، وإن كنت لم تعرفه ، فما هذا جزاء الملك الذي ولاك أمره ، وأقامك مقامه . فدخل أبو عبيد الله على المهدي وأخبره ، وخرج فقال : إن هذا رجل كان له علينا حق فكافأناه . فقال له : أصلحك الله ، إنه كان على باب كسرى ساجة منقوشة بالذهب مكتوب عليها : العمل للكفاءة ، وقضاء الحقوق على بيوت الأموال ، فأمر المهدي بعزل العامل (428).

أنت نبي ؟

ادّعى رجل في زمن المهدي النبوة ، فأدخل إليه ، فقال له المهدي : أنت نبي ؟ قال : نعم . قال : فإلى من بعثت ؟ قال : وتركتموني أذهب إلى من بعثت ؟ بعثت بالغداة وحبستموني بالعشي ، فضحك المهدي حتى فحص برجله ، وأمر له بجائزة وخلي سبيله (429).

فما تقول لجبريل ؟

وتنبأ آخر في زمن المهدي ، فقال له : إلى من بعثت ؟ فقال : وتركتموني أذهب إلى من بعثت إليه ؟ بعثت بالغداة ووضعتموني في السجن بالعشي ، فضحك المهدي حتى ضرب برجله . وقال : صدقت يا هذا . عاجلناك ، فإن نحن خلدناك تذهب إليهم ؟ قال : لا والله ، قد بدا لي ، أخاف أن يصنعوا بي كما صنعتم . قال : فما تقول لجبريل ؟ قال : أقول له : ابعثوا من شئت فإني أحتاج أن أقتل الحبال . فضحك المهدي ، واستتابه وخلاه .

أكافر أنا عندك أم مؤمن ؟

وتنبأ آخر في زمن المهدي فأمر بإحضاره ، فلما مثل بين يديه قال له : أنت نبي ؟ قال : نعم . قال : ومتى بعثت ؟ قال : وما تصنع بالتاريخ ؟ قال : ففي أي موضع جاءتك النبوة ؟ قال : وقعنا . والله ليس هذا من مناظرات الأنبياء ، إن كان عزمك أن تصدقني فكل ما قلت لك اعمل به ، وإن عزمت أن تكذبني فدعني رأساً برأس . قال المهدي : هذا لا يجوز فإن فيه فساد الدين . فغضب

427 (المرزبان أحد كبار رجال الدين المجوسي

428 (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نثر الدر ، تحقيق : خالد عبد الغني محفوظ ، دار

الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1424 هـ - 2004 م ، 126-125/2

429 (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نثر الدر ، 155/2

وقال : واعجابه تغضب أنت لفساد دينك ولا أغضب أنا لفساد ديني ؟ فوالله ما قويت إلا بمعن بن زائدة والحسن بن قحطبة ومن أشبههما ، فضحك المهدي وقال لشريك القاضي : ما تقول فيه ؟ قال المتنبي : تشاور ذاك في أمري ولا تشاورني ؟ قال : هات ما عندك . قال : أكافر أنا عندك أم مؤمن ؟ : قال : كافر . قال : فإن الله يقول : ' ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله ' (430).

والله ما ذاك شأني

قال الربيع : لما حبس المهدي موسى بن جعفر - رضي الله عنه - رأى في النوم علياً - رضي الله عنه - وهو يقول له : يا محمد ، ' فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ' قال الربيع : فأرسل إلي ليلاً فراعني ذلك ، وإذا هو يقرأ هذه الآية - وكان أحسن الناس صوتاً - فعرفني خبر الرؤيا . وقال : علي بموسى بن جعفر . فجئته به ، فعانقه وأجلسه إلى جانبه ، وقال : يا أبا الحسن ، إني رأيت أمير المؤمنين - رضي الله عنه - فقرأ علي كذا . أفتؤمنني أن تخرج علي ، أو علي أحد من ولدي ؟ فقال : والله ما ذاك شأني . فقال : صدقت يا ربيع ، أعطه ثلاثة آلاف دينار ، وردّه إلى أهله بالمدينة . قال الربيع : فأحكمت أثره ليلاً فلما أصبح كان على الطريق خوف العوائق .

وأمر بالحمّام فذبحت

وكان المهدي يحب الحمّام ، فأدخل عليه غياث بن إبراهيم ، فقيل له : حدث أمير المؤمنين وكان قد بلغه استهتار المهدي بالحمّام ، فقال : حدثني فلان عن فلان عن أبي هريرة - رفعه - أنه قال : ' لا سبق إلا في حافر أو نصل أو جناح ' فأمر له بعشرة آلاف درهم فلما قام . قال المهدي ، وهو ينظر في قفا غياث : أشهد أن قفاك كذاب على رسول الله - (ﷺ) - وإنما استجلبت ذلك أنا ، وأمر بالحمّام فذبحت . (431)

دخل الأوزاعي على المهدي فقال له : إن الله قد أتاك فضيلة الدنيا ، وكفاك طلبها ؛ فاطلب فضيلة الآخرة فقد فرغك لها (432) .

430 (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نثر الدر ، 158/2)

431 (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نثر الدر ، 64/3)

432 (أبو سعد منصور بن الحسين الآبي ، نثر الدر ، 56/7)

أخصب من صبيحة ليلة الظلمة

هبت ببغداد ريح عاصف، جاءت بما لم تأت به ريح قط فألفي المهدي ساجدا يقول: اللهم احفظ فينا نبيك، ولا تشمت بنا أعداءنا من الأمم، وأن كنت يا رب أخذت العامة بذنبي، فهذه ناصيتي بيدك، يا أرحم الراحمين. فلما أصبح تصدق بألف ألف درهم، وأعتق مائة رقبة، وأحج مائة رجل. وفعلت الخيزران وجلة خاصته وفواده مثل ما فعل. فكان الناس بعد ذلك إذا ذكروا الخصب قالوا: أخصب من صبيحة ليلة الظلمة. (433)

إدن مني أقبل عينيك اللتين رأيت بهما رسول الله

مر المهدي في طريق بين المقدس بديراني قيل له رأى النبي صلى الله عليه وسلم، فعدل إليه فقال: رأينه بعينك؟ قال: نعم، قال: إدن مني أقبل عينيك اللتين رأيت بهما رسول الله، فدنا منه فقبل عينيه (434).

فعجب الناس من سماحة خلقه

قدم المهدي البصرة وأراد أن يصلي بالناس في جامعها، فقال أعرابي: يا أمير المؤمنين لست على طهر، وقد رغبت إلى الله تعالى في الصلاة خلفك. فقال: انتظروه رحمكم الله، ودخل المحراب ووقف، إلى أن قبل له: قد جاء الرجل فكبر، فعجب الناس من سماحة خلقه (435).

ثم خرجت من عنده بغير شيء

قال الخليل: بعث إليَّ المهدي، فأتيته وهو جالس في الماء على سرير له إلى صدره، فسلمت عليه. فقال لي: إني اشتفيت الحديث الساعة، فحدثني! ثم قال: حدثني عن القمر! فلم أدر عن أيه أحدثه، ثم عرض لي أن قلت: قيل للقمر: كم أنت ابن ليله؟ قال: رضاع سخي له. قيل: لليلتين؟ قال: حديث أمتين بكذب ومين. قيل: ابن ثلاث؟ حديث فتيات مختلفات. قيل: ابن أربع؟ قال: عتمة أم الربع. قيل: ابن خمس؟ قال: سر وأمس. قيل: ابن ست؟ قال: سر وبت. قيل: ابن سبع؟ قال: عشية جمع. قيل: لثمان؟ قال: قمر إضحيان. قيل: لتسع؟ قال: مثقب الجزع. قيل: لعشر؟ قال: أبادر الفجر. ثم قلت: يا أمير المؤمنين، قيل: لا يحفظ هذا الحديث إلا عاقل. قال: فخذ علي! فأعاده كما حدثته. ثم دعا بثيابه فخرج، وأتينا بمائدة عليها خمسة قوالب كأنها الثلج، فأكل وقال: كل! فأكلت، فلم أر شيئاً قط أطيب منه. فقال لي: هذا المخ

433 (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 22/1

434 (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 152/1

435 (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 66/1

بالطبرزد، وأتي بشراب شديد الحمرة حسن اللون، فشرب ثم قال: اشرب! فظننت أنه الخمر فقلت: لأشرب من هذا. قال: اشرب، لا ام لك! فشربت شيئاً لم أشرب مثله قط فوجدت برده في عيني. فقال: هذا عصارة الرمان، وتفتح لبنان، وعسل إصبهان، وماء المسرقان، وثلج ماسبذان، بزعفران. ثم خرجت من عنده بغير شيء. (436)

إذا كنت ترجو في العقاب تشقياً

وذكر محمد بن عبدوس الجهشياري، في كتابه الوزراء: أن موسى الهادي سخط على بعض كتابه، ولم يسمه، فجعل يقرعه، ويؤنبه، ويتهدده، ويتوعدده.

فقال له الكاتب: يا أمير المؤمنين، إن اعتذاري إليك فيما تقررني به رد عليك، وإقرارني بما بلغك عني، يوجب ذنباً لم أجنه، ولكني أقول كما قال الشاعر:

إذا كنت ترجو في العقاب تشقياً... فلا تزهدن عند التجاوز في الأجر فصيح عنه، وأمر بترك التعرض له، وأحسن إليه، وصرفه مكرماً⁽⁴³⁷⁾.

القائد هرثمة بن أعين يتحدث عما أمره به الهادي في ليلة موته

عن محمد بن الفضل: أن هرثمة بن أعين، قال: كنت اختصت بموسى الهادي، وكنت - مع ذلك - شديد الحذر منه، لإقدامه على سفك الدماء. فاستدعاني نصف نهار، في يوم شديد الحر، قبل أكلي، فتدخلني منه رعب، وبادرت فدخلت عليه، وهو في حجرة من دور حرمة، فصرف جميع من كان بحضرته، وقال لي: اخرج وأغلق الباب، وعد إلي، فازداد جزعي، ففعلت، وعدت إليه.

فقال لي: قد تأذيت بهذا الكلب الملحد، يحيى بن خالد، ليس له فكر غير تضريب الجيش، واجتذابهم إلى صاحبه هارون، يريد أن يقتلني، ويسوق إليه الخلافة، وأريد أن تمضي الليلة إلى هارون، وتقبض عليه، وتذبحه، وتجيني برأسه، إما في داره، وإما أن تخرجه برسالتني تستدعيه إلى حضرتي، ثم تعدل به إلى دارك، فتقتله، وتجيني برأسه.

فورد علي أعظم وارد، فقلت: تأذن يا أمير المؤمنين في الكلام؟ فقال: قل. فقلت: أخوك، وابن أبيك، وله بعدك العهد، فكيف تكون صورتنا، أولاً عند الله، ثم عند الجيش؟ فقال: إنك إن فعلت هذا، وإلا ضربت عنقك الساعة.

⁴³⁶ (المرزباني، نور القبس، 24/1)

⁴³⁷ (القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، 54/1)

فقلت: السمع والطاعة.

فقال: وأريد إذا فرغت منه هذه الليلة، أن تخرج من في الحبس من الطالبين، فتضرب رقاب أكثرهم، وتغرق الباقيين.

فقلت: السمع والطاعة.

قال: ثم ترحل إلى الكوفة، فتجمع من تقدر عليه من الجيش، فتخرج من بها من العباسيين، وشيعتهم، وعمالنا، والمتصرفين، ثم تضرمها بالنار، حتى لا يبقى فيها جدار.

فقلت: يا أمير المؤمنين، هذا أمر عظيم.

فقال: هؤلاء أعداؤنا، وشيعة آل أبي طالب، وكل آفة ترد علينا، فهي من جهتهم، ولا بد من هذا.

فقلت: السمع والطاعة.

فقال: لا تبرح من مكانك إلى نصف الليل، لتمضي إلى هارون.

فقلت: السمع والطاعة.

ونهض عن موضعه، ودخل إلى دور النساء، وجلست مكاني، لا أشك أنه قد قبض علي ليقتلني، ويدبر هذه الأمور على يد غيري، لما أظهرت له من الجزع عند كل باب منها، والتخطفة لرأيه، والامتناع عليه، ثم الإجابة، وقد علم الله تعالى، أنني ما أجبته إلا على أن أخرج من حضرته، فأركب فرسي من بابه، وألحق بطرف من الأرض، وأفارق جميع نعمتي، فأكون بحيث لا يصل إلي، حتى أموت، أو يموت.

فلما اعتقلني، ودخل دار الحرم، لم أشك في أنه قد فطن لغرضي، وأنه سيقتلني، لئلا يفشو السر، فوردت علي شدة شديدة، وغلبت علي، فطرحت نفسي في الحر مغموماً، جائعاً، على عتبة المجلس، ونمت. فما انتبهت إلا بخادم قد أيقظني، وقال: أجب أمير المؤمنين، فنظرت الوقت، فإذا هو نصف الليل.

فقلت: إنا لله، عزم والله على قتلي، فمشيت معه، وأنا أتشاهد، إلى ممرات سمعت منها كلام النساء.

فقلت: عزم على قتلي بحجة، يقول: من أذن لك في الدخول إلى حرمي، ويعتل علي بذلك، فوقفت.

فقال لي الخادم: ادخل.

فقلت: لا أدخل.

فقال لي: ادخل، ويحك.

فقلت: هوذا أسمع صوت الحرم، ولا يجوز لي أن أدخل.
فجذبني، فصحت: والله، لا دخلت، ولو ضربت عنقي، أو أسمع كلام أمير المؤمنين، بالإذن لي.

وإذا امرأة تصيح: ويلك يا هرثمة، أنا الخيزران، وقد حدث أمر عظيم، استدعيتك له، فادخل.

فتحيرت، ودخلت، وإذا ستارة ممدودة، فقبل لي من ورائها: إن موسى قد مات، وأراحك الله منه، وجميع المسلمين، فانظر إليه، فأتيته، فإذا هو مسجى على فراشه، فمسست قلبه، ومجسه، ومناخره، فإذا هو ميت بلا شك.

فقلت: ما كان خبره؟ فقالت لي الخيزران: كنت بحيث أسمع خطابه لك في أمر ابني هارون، وأمر الطالبين، وأهل الكوفة، فلما دخل علي، استعطفته، وسألته أن لا يفعل شيئاً من ذلك، فصاح علي، فلم أزل أرفق به، إلى أن بكيت، وتمرغت بين يديه، وناشدته الله أن لا يفعل، فانتهرني، وقال: والله، لئن لم تمسكي، لأضربني عنقك الساعة، فخفته، وقمت، فصففت قدمي في المحراب، أصلي، وأبكي، وأدعو عليه.

فلما كان منذ ساعة، طرح نفسه على فرشه لينام، فشرق، فتداركناه بكوز ماء، فازداد شرقه، إلى أن تلف، فامض إلى يحيى بن خالد، وعرفه ما جرى، وامضيا إلى هارون، وجيئاً به قبل انتشار الخبر، وجددا له البيعة على الناس. فخرجت وجئت بالرشيد، فما أصبحنا إلا وقد فرغنا من بيعته، واستقام أمره، وتوطأت الخلافة له، وكفاني الله تعالى، والناس، ما كان أظننا من مكروه موسى، وكان ذلك سبب اختصاصي العظيم بالرشيد، وتضاعف نعمتي ومحلي عنده. (438)

فمات من وقته

ذكر محمد بن عبدوس في كتاب الوزراء: أن إبراهيم بن ذكوان الحراني الأعور الكاتب، صاحب طاق الحراني ببغداد، كان خاصاً بالمهدي.

قال: وان المهدي أنفذ موسى ابنه إلى جرجان، وأنفذ معه إبراهيم الحراني، فخص إبراهيم بموسى ولطف موضعه منه.

فاتصل بالمهدي عنه أشياء تزيد فيها عليه أعداؤه وكثروا، فكتب المهدي إلى موسى في حمله إليه، فضن به، ودافع عنه.

فكتب إليه المهدي: إن لم تحمله، خلعتك من العهد، وأسقطت منزلتك.

فلم يجد موسى من حملة بدأ، وحملة مع بعض خدمه، مرفهاً، مكرماً، وقال للخادم: إذا دنوت من محل المهدي، فقيد إبراهيم، واحمله في محمل، بغير وطاء ولا غطاء، وألبسه جبة صوف، وأدخله إليه بهذه الصورة، فامتثل الخادم ما أمر به في ذلك.

واتفق أنه ورد إلى العسكر، والمهدي يريد الركوب إلى الصيد، وهو - إذ ذاك - بالروذبار، فبصر بالموكب، فسأل عنه فقيل خادم لموسى ومعه إبراهيم الحراني.

فقال: وما حاجتي إلى الصيد، وهل صيد أطيب من صيد إبراهيم الحراني؟ قال: فأدنيته منه، وهو علي ظهر فرسه.

فقال: إبراهيم؟ قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

فقال: لا لبيك، والله لأقتلنك، ثم والله لأقتلنك، ثم والله لأقتلنك، إمض يا خادم به إلى المضرب.

فحملت، وقد يئست من الفرج، ومن نفسي، ففزعت إلى الله تعالى بالدعاء والإبتهال.

وانصرف المهدي، فأكل اللوزينج المسموم المشهور خبره، فمات من وقته، وتخلصت.

وذكر محمد بن عبدوس - بعد هذا - أن الهادي لما بلغه موت المهدي، نجا من جرجان إلى بغداد، على دواب البريد، وما سمع بخليفة ركب دواب البريد غيره، فدخل بغداد والربيع مولى المنصور على الوزارة، كما كان يتقلدها للمهدي، فصرفه وقلد إبراهيم بن ذكوان الحراني. (439)

أو قد مات موسى؟

وحكي: أن موسى الهادي كان قد طالب أخاه هارون أن يخلع نفسه من العهد، ليصيره لابنه من بعده، ويخرج هارون من الأمر، فلم يجب إلى ذلك.

وأحضر يحيى بن خالد البرمكي، ولطف به، وداراه، ووعدده ومناه، وسأله أن يشير على هارون بالخلع، فلم يجب يحيى إلى ذلك، ودافعه مدة.

فتهدده وتوعده، وجرت بينهما في ذلك خطوب طويلة، وأشفى يحيى معه على الهلاك، وهو مقيم على مدافعته عن صاحبه.

إلى أن اعتل الهادي، علته التي مات منها، واشتدت به، فدعا يحيى، وقال له: ليس ينفعني معك شيء، وقد أفسدت أخي علي، وقويت نفسه، حتى امتنع

مما أريده، ووالله لأقتلنك، ثم دعا بالسيف والنطع، وأبرك يحيى، ليضرب عنقه.

فقال إبراهيم بن ذكوان الحراني يا أمير المؤمنين: إن ليحيى عندي يداً، أريد أن أكافئه عليها، فأحب أن تهبه لي الليلة، وأنت في غد تفعل به ما تحب. فقال له: ما فائدة ليلة ؟ فقال: إما أن يقود صاحبه إلى إرادتك يا أمير المؤمنين، أو يعهد في أمر نفسه وولده، فأجابه.

قال يحيى: فأقمت من النطع، وقد أيقنت بالموت، وأيقنت أنه لم يبق من أجلي إلا بقية الليلة، فما اكتحلت عيناى بغمض إلى السحر. ثم سمعت صوت القفل يفتح علي، فلم أشك أن الهادي قد استدعاني للقتل، لما انصرف كاتبه.

وانقضت الليلة، وإذا بخادم قد دخل إلي، وقال: أجب السيدة.

فقلت: مالي والسيدة ؟ فقال: قم، فقمت، وجئت إلى الخيزران.

فقالت: إن موسى قد مات، ونحن نساء، فادخل، فأصلح شأنه، وأنفذ إلى هارون، فجئ به.

فأدخلت، فإذا به ميتاً، فحمدت الله تعالى على لطيف صنعه، وتفريج ما كنت فيه، وبادرت إلى هارون، فوجدته نائماً، فأيقظته.

فلما رأيته، عجب، وقال: ويحك ما الخبر ؟ قلت: قم يا أمير المؤمنين إلى دار الخلافة.

فقال: أو قد مات موسى ؟ قلت: نعم.

فقال: الحمد لله، هاتوا ثيابي، فإلى أن لبسها، جاءني من عرفني أنه ولد له ولد من مراجل، ولم يكن عرف الخبر، فسماه عبد الله، وهو المأمون وركب، وأنا معه، إلى دار الخلافة.

ومن العجب أن تلك الليلة، مات فيها خليفة، وجلس خليفة، وولد خليفة. (440)

يا غلام اضرب عنقه

ذكر صاحب الكردان: أن الهادي كان يوماً في بستان يتنزّه على حمار، ولا سلاح معه وبحضرته جماعة، من خواصه وأهل بيته، فدخل عليه حاجبه وأخبره أن بالباب بعض الخوارج له بأس ومكايد، وقد ظفر به بعض القواد فأمر الهادي بإدخاله فدخل عليه بين رجلين قد قبضا على يديه. فلما أبصر الخارجي الهادي جذب يديه من الرجلين واختطف سيف أحدهما وقصد

الهادي ففر كل من كان حوله وبقي وحده، وهو ثابت على حماره، حتى إذا دنا منه الخارجي وهم أن يعطوه بالسيف أوماً إلى وراء الخارجي وأوهمه أن غلاماً وراءه وقال: يا غلام اضرب عنقه، فظن الخارجي أن غلاماً وراءه والتفت الخارجي، فنزل الهادي مسرعاً عن حماره فقبض على عنق الخارجي وذبحه بالسيف الذي كان معه، ثم عاد إلى ظهر حماره من فوره، وأتباع الهادي ينظرون إليه ويتسللون عليه وقد ملئوا منه حياءً ورعباً، فما عاتبهم ولا خاطبهم في ذلك بكلمة، ولم يفارق السلاح بعد ذلك اليوم، ولم يركب إلا جواداً من الخيل. فانظر إلى هذا المقدار في ثبات جأش الملوك، فإنه قل من يفعل ذلك، وهذه مرتبة لم يصل إليها أحد إلا نادراً.

صدق الذي سماك غادر

حكى عبد الحق أنه قال مما ابتلي به الهادي من المحبة أنه كان مغرمًا بجارية تسمى غادراً، وكانت من أحسن النساء وجهاً وأطيبهم غناءً، اشتراها بعشرة آلاف دينار، فبينما هو يشرب مع ندمائه إذ فكر ساعة وتغير لونه وقطع الشراب، فقليل له: ما بال أمير المؤمنين؟ قال: وقع في قلبي أني أموت وأن أخي هارون بلي الخلافة ويتزوج غادراً فامضوا وأتوني برأسه. ثم رجع عن ذلك وأمر بإحضاره، وحكى له ما خطر بباله فجعل هارون يترفق به، فقال: لا أرضى حتى تحلف علي بكل ما أحلفك به أني إذا مت لا تتزوج بها. فرضي بذلك وحلف إيماناً عظيماً، ودخل إلى الجارية وحلفها أيضاً على مثل ذلك، فلم يلبث بعد ذلك سوى شهر ومات وولي الخلافة هارون الرشيد فطلب الجارية فقالت: يا أمير المؤمنين كيف تصنع بالإيمان؟ فقال: قد كفرت عنك وعني.

ثم تزوج بها ووقعت في قلبه موقعاً عظيماً وافتتن به أعظم من أخيه الهادي حتى كانت تسكر وتنام في حجره فلا يتحرك ولا ينقلب. فبينما هو في بعض الليالي وهي في حجره نائمة إذا بها انتبهت فزعة مرعوبة. فقال لها: ما بالك فديتك؟ قالت: رأيت أخاك الهادي الساعة في النوم فأنشدني هذه الأبيات:

أخلفت عهدي بعدما ... جاوزت سكان المقابر

ونسيتني، وحنثت في ... إيمانك الزور الفواجر

ونكحت غادرة أخي ... صدق الذي سماك غادر

لا يهنك الإلف الجدي ... د ولا تدر عنك الدوائر

ولحقتني قبل الصبا - ح وصرت حيث غدوت صائر

قالت: ثم ولى عني وكأن الأبيات مكتوبة في قلبي ما نسيت منها كلمة.

فقال لها: هذه أحلام الشيطان.

فقالت: كلا، والله يا أمير المؤمنين. ثم اضطربت بين يديه وماتت في تلك الساعة، ولا تسأل عن هارون الرشيد وما لقي بعدها. (441)

إما أن تحملني وإما أن أحملك

قال محمد بن يزيد بن عمر بن عبد العزيز: خرجت مع موسى الهادي أمير المؤمنين من جرجان، فقال لي: إما أن تحملني وإما أن أحملك. ففهمت ما أراد، فأنشدته أبيات ابن صرمة الأنصاري:

فأوصيكم بالله أول وهلة ... وأحسابكم، والبر بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدوهم ... وإن كنتم أهل السيادة فاعدلوا
وإن أنتم أعوزتم فتعففوا ... وإن كان فضل المال فيكم فأفضلوا
فأمر لي بعشرين ألفاً. (442)

ما قصر في الاجتهاد، ولكن حرم التوفيق

وقيل: إن سعيد بن سلم ركب موسى الهادي، والحربة بيد عبد الله بن مالك، وكانت الريح تسفي التراب، وعبد الله يلحظ موضع مسير موسى، فيتكلف أن يسير على محاذاته، وإذا حاذاه ناله ذلك التراب، فلما طال ذلك عليه أقبل على سعيد بن سلم، فقال: أما ترى ما نلقى من هذا الخائن؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما قصر في الاجتهاد، ولكن حرم التوفيق. (443)

أتدرون ما شأنهما ؟

وعن علي بن يقطين ، قال : كنت عند موسى الهادي ، ذات ليلة ، مع جماعة من أصحابه ، إذ أتاه خادم فساره بشيء ، فنهض سريعاً فقال : لا تبرحوا ؛ فمضى فأبطأ ، ثم جاء وهو يتنفس ساعة ، حتى استراح ومعه خادم يحمل طبقاً مغطى بمنديل ، فقام بين يده ، فأقبل يرعد ، وعجبنا من ذلك ، ثم جلس ، وقال للخادم : ضع ما معك فوضع الطبق ، وقال : ارفع المنديل فرفعه فإذا على الطبق رأسا جارين لم أر ، والله ، أحسن من وجهيهما قط ، ولا من شعورهما ، فإذا على رأسيهما الجوهر منظوم على الشعر ، وإذا رائحة طيبة تفوح فأعظمنا ذلك ، فقال : أتدرون ما شأنهما ؟ قلنا : لا ، قال : بلغني إنهما تحابا ، فوكلت هذا الخادم بهما لينهي إلي أخبارهما ، فجاءني وأخبرني إنهما

441 (الإتيدي ، إعلام الناس بما وقع للبرامكة ، 40-41

442 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 64/1

443 (ابن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ، 233/1

قد اجتمعا ، فجئت فوجدتهما كذلك في لحاف ، فقتلتهما ، ثم قال : يا غلام ارفع ، ورجع في حديثه ، كأنه لم يصنع شيئاً . (444)

كان والله ما ظننت!

عن عبد الله بن مالك قال: كنت أتولى الشرطة للمهدي وكان يبعث إليّ في ندماء الهادي ومغنييه أني أضربهم وأحبسهم صيانة له عنهم، فبعث الهادي يسألني الرفق بهم والترفيه عنهم، فلا ألتفت إلى ذلك وأمضي إلى ما يأمر به المهدي، فلما ولي الهادي الخلافة أيقنت بالتلف فبعث إليّ يوماً فدخلت عليه متكفناً متحنطاً، فإذا هو على كرسي والنطع والسيف بين يديه، فسلمت فقال: لا سلم الله عليك! تذكر يوم بعثت إليك في أمر الحراني لما أمر أمير المؤمنين، رضي الله عنه، بضربه فلم تجبني في فلان وفي فلان، وجعل يعدّ ندماءه، ولم يلتفت إلى قلبي؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أفتأذن لي في استيفاء الحجة؟ قال: نعم، قلت: نشدتك الله يا أمير المؤمنين أيسرك أن وليتني ما ولاني أبوك وأمرتني بأمر فبعث إليّ بعض بنيك بأمر يخالف أمرك فاتبعت أمره وعصيت أمرك؟ قال: لا، قلت: فذلك أنا لك وكذا لأبيك وأخيك. فاستدنانني فقبلت يده وأمر بخلع فصبت عليّ وقال: قد وليتك ما كنت تتولاه فامض راشداً. فخرجت من عنده وصرت إلى منزلي مفكراً في أمره وأمري وقلت حدث والقوم الذين عصيته في أمرهم ندماءه ووزراؤه وكتابه فكأنني بهم حين يغلب عليه الشراب وقد أزالوه عن رأيه في وحملوه في أمري ما كنت أتخوفه، قال: فإني لجالس وبين يديّ بنية لي والكانون بين يدي وراق أشطره بكامخ وأسخنه وأطعمه الصبية حتى توهّمت أن الدنيا قد اقتلعت بي وزلزلت لوقع حوافر الدواب وكثرة الضوضاء فقلت: هاه كان والله ما ظننت! فإذا الباب قد فتح وإذا الخدم قد دخلوا وإذا أمير المؤمنين الهادي على حمار في وسطهم، فلما رأيتهم وثبت عن مجلسي مبادراً وقبلت يده ورجله وحافر حماره، فقال: يا أبا عبد الله إني فكرت في أمرك فقلت يسبق إلى قلبك أني إذا شربت وجاءني أعداؤك أزالوا ما حسن من رأيي فيك فأقلقك وأوحشك فصرت إلى منزلك لأؤنسك وأعلمك أن السخيمة قد زالت عن قلبي فهات اطعمني ما كنت تأكل وافعل فيه ما كنت تفعل لتعلم أني قد تحرمت بطعامك وأنست بمنزلك فيزول خوفك ووحشتك. فأدريت إليه ذلك الرقاق والسكّرجة التي فيها الكامخ فأكل منها ثم قال: هاتوا الزلة التي زللتها لأبي عبد الله من مجلسي، فأدخل إليّ أربعمائة بغل موقرة دراهم، فقال: هذه زلتك فاستعن بها

على أمرك واحفظ هذه البغال عندك فلعلني أحتاج إليها لبعض أسفاري،
وانصرف راجعاً. فأخبرني موسى بن عبد الله أن أباه أعطاه بستانه الذي كان
وسط داره فبنى حوله معالف لتلك البغال وكان هو يتولى القيام عليها مدة
حياة الهادي (445).

عليّ بالجفلى لا بالنقرى

قال علي بن صالح : كنت يوماً على رأس الهادي وأنا غلام وقد جفا المظالم
ثلاثة أيام عاقر العقار فيها، فدخل عليه الحراني فقال: يا أمير المؤمنين إن
العامة لا تقاد، أو قال: لا تنقاد لما أنت عليه، لم تنظر في المظالم منذ ثلاثة
أيام، فالتفت إليّ فقال: يا علي ائذن للناس عليّ بالجفلى لا بالنقرى، فخرجت
من عنده وأنا أطير على وجهي لا أدري ما قال لي، فقلت: أرجع فأسأله عما
قال فيقول تحجبني ولا تعلم كلامي؟ ثم أدركني ذهني فبعثت إلى أعرابي كان
وفد علينا فسألته عن الجفلى والنقرى، فقال: الجفلى جفالة الرجال والنقرى
ترتيبهم، فأمرت بالستور فرفعت وبالأبواب ففتحت فدخل الناس على بكرة
أبيهم فلم يزل ينظر في المظالم إلى الليل، فلما تقوض المجلس قلت: يا أمير
المؤمنين كلمتني بكلام لم أعرفه فبعثت إلى أعرابي كان عندي ففسره لي
وفهمني فكافه عني يا أمير المؤمنين، فقال: نعم مائة ألف درهم تحمل إليه،
فقلت: يا أمير المؤمنين أعرابي جلف وفي عشرة آلاف درهم ما أغناه! فقال:
ويحك أجود وتبخل؟ (446)

وقد بررناه بالأمس لنرى أثر ذلك عليه؟

عن ابن دأب أنه كان يأكل مع الهادي ويناديه وكان يدعو له بتكاء وما كان
يفعل ذلك في مجلسه بغيره، وكان لذيذ المفاكهة طيب المسامرة كثير النادرة
جيد الشعر حسن الانتزاع، قال: فأمر له ذات ليلة بثلاثين ألف دينار، فلما
أصبح وجّه قهرمانه إلى باب موسى وقال له: الق الحاجب فقل له يوجه إلينا
بهذا المال، فلقي الحاجب فأتاه برسالته فتبسم وقال: هذا ليس إليّ، فانطلق
إلى صاحب التوقيع ليخرج إليك كتاباً إلى الديوان فتدبره ثم تفعل فيه كذا
وكذا، فرجع إلى ابن دأب فأخبره، فقال: دعها ولا تعرض لها، قال: فبينما
موسى في مستشرف له إذ نظر إلى ابن دأب قد أقبل وليس معه إلا غلام
واحد، فقال لإبراهيم الحراني: أما ترى ابن دأب ما غير من حاله شيئاً وقد
بررناه بالأمس لنرى أثر ذلك عليه؟ فقال إبراهيم: إن أمرني أمير المؤمنين

445 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 85/1

446 (إبراهيم البيهقي ، المحاسن والمساوي ، 92/1

تعرضت له بشيء من أمره، قال: لا، هو أعلم بأمره، ودخل ابن دأب وأخذنا في حديثه إلى أن عرض له موسى بذكر ذلك فقال: أرى ثوبك غسلاً وهذا شتاء يحتاج فيه إلى الثوب الجديد اللين، فقال: يا أمير المؤمنين باعي قصير عما أحتاج إليه، قال: وكيف وقد صرفنا إليك من برنا ما ظننا أن فيه صلاح شأنك؟ قال: ما وصل إلي ولا قبضته، فدعا صاحب بيت مال الخاصة وقال: عجل له الساعة ثلاثين ألف دينار، فأحضرت وجلعت بين يديه.

تؤمل الخلافة!

قال محمد بن عمرو الرومي: حدثني أبي قال: جلس الهادي مجلساً خاصاً فدعا بإبراهيم بن جعفر بن أبي جعفر وإبراهيم بن سلم بن قتيبة بن مسلم والحراني فجلسوا عن يساره ومعهم خادم للهادي أسود يقال له أسلم، إذ دخل صالح صاحب المصلى فقال هارون بن المهدي: ائذن له، فدخل وسلم عليه وقبل يده وجلس عن يمينه بعيداً، فأطرق موسى ثم التفت إليه وقال: يا هارون كأتي بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا وتؤمل ما أنت منه بعيد ودون ذلك خراط القتاد، تؤمل الخلافة! قال: فبرك هارون على ركبتيه وقال: يا موسى إنك إن تجبرت وُضعت، وإن تواضعت رفعت، وإن ظلمت خُلت، وإنني أرجو أن يفضي إلي الأمر فأُنصف من ظلمت وأصل من قطعت وأصير أولادك أعلى من أولادي وأزوجهم بناتي وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدي، فقال له موسى: ذلك الظن بك يا أبا جعفر، ادن مني، فدنا وقبل يده ثم ذهب يعود إلى مجلسه، فقال: لا والشيخ الجليل والملك النبيل أعني أباك المنصور لا جلست إلا معي، فأجلسه في صدر المجلس معه ثم قال: يا حراني احمل إلى أخي ألف ألف دينار وإذا افتتح الخراج فاحمل إليه النصف واعرض عليه ما في الخزانة الخاصة وسائر الخزائن من مالنا وما أخذ من أهل بيت اللعنة فيأخذ منه ما أراد، قال: ففعل ذلك، فلما قام قال لصالح: أدن دابته إلى البساط، قال عمرو الرومي: وكان هارون يأنس به، قلت: يا سيدي ما الرؤيا التي قال لك؟ قال المهدي: رأيت في منامي كأتي دفعت إلى موسى قضيباً وإلى هارون قضيباً أورق من قضيب موسى وأعلى منه، فأما قضيب هارون فأورق من أوله إلى آخره وكان قضيب موسى دون قضيب ذلك، فدعا المهدي الحكم بن موسى العنزي وهو الذي بنى أبوه واسطاً للحجاج فقال له: عبّر هذه الرؤيا، قال: يملكان جميعاً فأما موسى فتقل أيامه وأما هارون فيبلغ مدى آخر ما عاش خليفة وتكون أيامه أحسن أيام وأنضرها ودهره أحسن دهر، قال: فلم يلبث إلا أياماً يسيرة حتى مات موسى وتولى الأمر هارون فزوج حمدونة من

جعفر بن موسى وفاطمة من إسماعيل ووفى بكل ما قال، فكان دهره أحسن الدهور⁽⁴⁴⁷⁾.

والله ما لقيت منك ما يدعو إلى إتيانك!

وحدثنا يعقوب بن إسحاق قال: رأى رجل من الموالي ليحيى البرمكي رؤيا، وكان يحيى على حال الخوف والوجل من الهادي، فقص الرؤيا على أبيه، فقال: يا بني هذه والله رؤيا عجيبة وأخلق به لأن الرشيد في حجره وولاية العهد له، قال: يا أبت أفترى أن أخبره بها؟ قال: يا بني لا تفعل فإن السلطان غليظ عليه وهو يرميه بالزندقة وأنا أشفق عليه من إتيانه لأنه لا يقبل مثل هذا في هذا الوقت، فعصى الرجل أباه وأتاه، قال الرجل: فلما دخلت عليه رأيت المصحف بين يديه يقرأ فيه فعجبت مما قيل فيه، فلما خف من عنده دنوت منه فقصصت عليه الرؤيا، فقال: يا ابن أخي ما أحسن بالرجل أن يلتمس الرزق بالأحسن الأجمل وأقبح به أن يلتمسه على هذا وربما تذكره مما يشبهه! فخرجت من عنده وقد سقط وجهي، فأتيت أبي فأعلمته، فقال: بُعداً لك وسحقاً! قد نصحت لك فلم تقبل، ثم أقبل يشتمه وتشتمه أمه وأهله ويقولون: نشهد عليك أنك من الزنادقة المعطلين! قال: ثم لم يلبث أن توفي الهادي وأفضى الأمر إلى الرشيد وصار يحيى إلى ما صار إليه، فبينما هو في موكبهِ يوماً إذ بصر بي فوجه إليّ ودعاني، فدخلت عليه وهو على كرسي قد طرح ثوبه وجعل يمسح وجهه، فلما دنوت منه قال: أين كنت عنا؟ قلت: أعزك الله، والله ما لقيت منك ما يدعو إلى إتيانك! قال: ويحك إنك أتيتنا ونحن في حال كنا نتخوف الجدر أن يكون فيها من يسعى بنا والإخوان أن يسعوا بنا ويحتالوا علينا، ولم يكن الرأي أن أجيبك إلا بما أجبتك، والله ما فارقتني الفكر في العناية بك والإيجاب لك والمعرفة بحقك منذ وقعت عليك عيني. ثم أمر سلاماً بإحضار عشرة آلاف درهم فأحضرت، وأمر بالكتاب إلى سليمان بن راشد بأرمينية فدفع المال إليّ وحملني وخلع عليّ وقال: اذهب فاصلح شأنك وتعال فتسلم كتبك، وأمر لي بعشر من دواب البريد، فانصرفت إلى منزلي وتحتي دابة وعلي خلعة ومعى عشرة آلاف درهم، فقال أبي: ما هذا يا بني؟ فأعلمته الخبر، فما زلت وأهلي وأبي ندعو له ونشهد أنه من الصديقين والشهداء والصالحين، فقلت لبعض جيراننا: ما أصنع بعشر دواب البريد؟ فقال: أكرها فإنك تصيب في السكك من تقصر به دابته عن حاجته فيكثري منك، قال: فلما كان من الغد عدت إليه فأخذت كتبتي وجوازي، فلما صرت إلى

السكة وجدت رجلاً كبيراً قد وجّه إلى تلك الناحية ولم يكتف بما حمل عليه من الدواب، فأكرت منه ثمانى دواب وخرجت على دابتين، أنا على دابة وغلّامي على أخرى، ولم أزل في حشم المكثري حتى صرنا إلى أول العمل فإذا يحيى قد سبقني بالكتاب إلى سليمان أن رجلاً من حاله كيت وكيت وله عندي أيادٍ فاخترتك له فكن عند ظني بك في أمره وافعل به وافعل، قال: فوجه سليمان قائداً في جند عظيم لاستقبالي حتى إذا اتصل به دنوّي استقبلني في وجوه أهل البلد، فلما دنا منا بادر إلى الرجل المكثري مني ولم يشكّ أنني هو وسأله، فأعلمه المكثري أنه فلان بن فلان، فقال سليمان: توهمتكم فلاناً! قال: لست هو لكنه ذاك، وأشار إليّ، فأقبل سليمان ركضاً إليّ وتضاءلت منه حياء لراثثة حالي، فسألني وأعلمني أنه وجه إليّ وكيّله وحمل معه هدايا، فقلت: ما وصل ذلك إليّ، فلما نزلنا وحططنا في بعض تلك المنازل إذا وكيّله قد وافى بهداياه وإذا دواب وبغال موقرة وتخوت وثياب، فدخلت البلد وقد حسنت حالي ووكد عليّ في كتابه وليس عندي إلا إطلاق العمل لك، وهاهنا نشوى الكبرى ونشوى الصغرى وهما من أجل الأعمال بأرمينية ونواحيها وإن شئت أن تخرج إليها فاخرج وإن شئت فهاهنا من يبذل عنهما خمس مائة ألف درهم، قلت: لا والله أبقاك الله إلا الخمس المائة الألف عجلها لي فأنصرف إلى أب شيخ كبير وعيال قد خلفتهم ورأيي، قال سليمان: ذاك إليك، فلما خرج سليمان سألت عن نشوى ونشوى قال فليل مقاطعتهما خمس مائة ألف درهم ويصير إلى المقاطع مثلها، ثم لم ألبث من الغد أن أتى رسوله بالمال فخرجت وأهديت إلى يحيى هدايا كثيرة وأطافاً جليلاً مما كان برّني به سليمان، فلما دخلت إليه تبسم لي وقال: إنا لم نوجهك لننتفع بك وإنما وجهناك لتنتفع بنا وسيتصل معروفاً إليك فالزمنا، فكسبت تجاهه مع ما وصل إليّ منه ولم يزل يصلني به عشرين ألف ألف درهم. (448).

أعيك النساء إلا امرأة أمير المؤمنين!

قال عمر بن شبة النميري أبو زيد: كان علي بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضوان الله عليهم أجمعين، من آل الأبطس وكان يلقب بالجزري، فتزوج رقية بنت عمرو العثمانية وكانت تحت المهدي، فبلغ ذلك الهادي فأرسل إليه فحمله وقال: أعيك النساء إلا امرأة أمير المؤمنين! فقال: ما حرم الله عز وجل على خلق إلا نساء جدي، صلى الله عليه وسلم، فأما غيرهن فلا ولا كرامة. فشجه بمخصرة كانت في يده وأمر بضربه خمس

مائة سوط وأراد على أن يطلقها فلم يفعل، فحمل من بين يديه في نطع فألقي ناحية، وكان في يده خاتم سريّ فرآه بعض الخدم وقد غشي عليه فأهوى إلى الخاتم، فقبض على يد الخادم فدقّها، فصاح: الموت دقّ يدي! فسمعه الهادي فدعاه فرأى ما به فاستشاط فقال: تفعل هذا بخادمي مع استخفافك بي وقولك لي؟ قال: قل له وسله ومره أن يضع يده مرة على رأسك ليصدقنّ. ففعل ذلك موسى فصدقه الخادم. فقال: أحسن والله! أنا أشهد أنه ابن عمي، لو لم يفعل ذلك لانتفيت منه. وأمر بإطلاقه ووصله بمائة ألف درهم⁽⁴⁴⁹⁾.

أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟

قيل: وكانت لخيزران في خلافة موسى الهادي كثيراً ما تكلمه في الحوائج فكان يجيبها إلى كل ما تسأل، حتى مضت لذلك أربعة أشهر من خلافته فاجتمع الناس إليها وطمعوا فيما قبلها فكانت المواكب تغدو إلى بابها وتروح، قال: فكلّمته يوماً في أمر فاعتل بعلّة، فقالت: لا بد من إجابتي. قال: لا أفعل. قالت: فإني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك. قال: فغضب وقال: ويلى عليه ابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها والله لا قضيتها له! قالت: إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً. فقال: إذاً والله لا أبالي. وحمي وغضب ثم قال: مكانك حتى تستوعبي كلامي والله وإلا فأنا نفّي من قرابتي من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي وخاصتي وخدمي لأضربن عنقه ولأقبضنّ ماله فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ إياك ثم إياك أن تفتحي بابك لمليّ ولا ذميّ! فانصرفت ما تعقل ما تطأ فلم تنطق عنده بخلوة ولا بمرّة بعد ذلك. (450)

كيف رأيت الأرزّة؟

قال يحيى بن الحسن: وحدثني أبي قال: سمعت خالصة تقول للعباس ابن الفضل بن الربيع: بعث موسى الهادي إلى أمه الخيزران بأرزّة فقال: اشتيتها فأكلتها فكلي منها. قالت خالصة: فقلت: امسكي حتى ننظر فإني أخاف أن يكون فيها شيء. فأرسل إليها بعد ذلك: كيف رأيت الأرزّة؟ قالت: وجدتّها طيبة. فقال: لم لم تأكلي منها؟ والله لو أكلت لقد كنت استرحت منك، فما أفلح خليفة له أم! قيل: وضرب إبراهيم بن بهنك العكي ابنه فذهب الابن فوشى بأبيه إلى الرشيد وذكر أنه يريد اغتياله، فدفعه الرشيد إلى ابنه، فقيده

449 (المحاسن والمساوئ ، ص 96

450 (المحاسن والمساوئ ، ص 235

وحبسه في بيت ودعا بأمهات أولاده فجعل يشرب معهن ليغيظ أباه، فاستبطا الرشيد فدعا به وقال له: إن كذبت على أبيك استرضيناه لك وإن كنت صدقت فلست أرى أفعالك تشاكل أفعال الصادقين. فلما انصرف من عنده دخل على أبيه بالسيف فضربه حتى قتله. ولذلك قيل: شرّ المرزئة سوؤ الخلف⁽⁴⁵¹⁾.

وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقيل كان عمرو الأعجمي يلي حكم السند فكتب إلى موسى الهادي إن رجلا من أشراف أهل الهند من آل المهلب ابن أبي صفرة اشترى غلاما أسود فرباه وتبناه فلما كبر وشب أشد به هوى مولاته فراودها عن نفسها فأجابته فدخل مولاه يوما على غفلة منه من حيث لا يعلم فإذا هو على صدر مولاته فعمد إليه فجب ذكره وتركه يتشطح في دمه ثم أدركته عليه رقة وندم على ذلك فعالجه إلى أن برئ من علته فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثاره من مولاه ويدبر عليه أمرا يكون فيه شفاء غليله وكان لمولاه إبنان أحدهما طفل والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر فغاب الرجل يوما عن منزله لبعض الأمور فأخذ الأسود الصبيين فصعد بهما على ذروة سطح عال فنصبهما هناك وجعل يعللهما بالمطعم مرة وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه فرفع رأسه فرأى في شاهق مع الغلام فقال ويلك عرضت ابني للموت قال أجل والله الذي لا يحلف العبد بأعظم منه لئن لم تجب ذكرك مثل ما جببتي لأرمين بهما فقال الله الله يا ولدي في تربيتي لك قال دع هذا عنك فوالله ما هي إلا نفسي وإني لأسمح بها في شربة ماء فجعل يكرر عليه ويتضرع له وهو لا يقبل ذلك ويذهب الوالد يريد الصعود إليه فيدليهما من ذلك الشاهق فقال أبوهما ويلك فاصبر حتى أخرج مدية وأفعل ما أمرت ثم أسرع وأخذ مدية فجب نفسه وهو يراه فلما رأى الأسود ذلك رمى الصبيين من ذلك الشاهق فتقطعا وقال إن جبك لنفسك تأري وقتل أولادك زيادة فيه فأخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادي فكتب موسى لصاحب السند عمرو الأعجمي بقتل الغلام وقال ما سمعت بمثل هذا قط وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود فما ترى أردأ من العبيد ولا أقل خيرا منهم وأكثرهم رداءة المولدون لو أحسنت إلى أحدهم الدهر كله بكل ما تصل يدك إليه أنكره كأن لم ير منك شيئا وكلما أحسنت إليه تمرد وإن أسأت إليه خضع وذل وقد جربت أنا ذلك كثيرا وما أحسن ما قيل

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا (452)
أربع كلمات فيهن صلاح الملك

خرج الزهري يوماً من عند هشام بن عبد الملك فقال : ما رأيت كاليوم ، ولا سمعت كأربع كلمات تكلم بهن رجلٌ عند هشام ؛ دخل عليه فقال : يا أمير المؤمنين ، احفظ عني أربع كلمات ، فيهن صلاحُ مُلكك ، واستقامة رعيّتك . قال : هاتهن ؟ قال : لا تعدن عِدَةً لا تثقُ من نفسك بإنجازها ، ولا يغرنك المرتقى وإن كان سهلاً إذا كان المنحدرُ وعرّاً ، واعلم أن للأعمال جزاءً فاتقِ العواقبَ ، وأنّ للأمور بَغَتَاتٍ فكنّ على حذر .

قال عيس بن دأب : فحدثت بهذا الحديث الهادي وفي يده لُقمة قد رفعها إلى فيه فأمسكها ، وقال : ويحك أعدْ عليّ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أسغ لقمَتك ، فقال : حديثك أحب إليّ . (453)

أنا لا أتغدى في مكان لا أغسل يدي فيه

كان ابن دأب أحفظ الناس للأنساب والأخبار وكان تياهاً فكان ينادم الهادي ولا يتغدى معه ولا بين يديه ف قيل له في ذلك، فقال: أنا لا أتغدى في مكان لا أغسل يدي فيه، فقال له الهادي: فتغدى، فكان الناس إذا تغدوا تنحوا لغسل أيديهم، وابن دأب يغسل يده بحضرة الهادي. (454)

كل عود ذي فنون منكسر

وحدث بإسناد رفعه إلى أبي زهير قال: كان ابن دأب أحظى الناس عند الهادي، فخرج الفضل بن الربيع يوماً فقال: إن أمير المؤمنين يأمر من ببابه بالانصراف، فأما أنت يا ابن دأب فادخل، قال ابن دأب: فدخلت وهو منبطح على فراشه، وإن عينيه لحمران من السهر وشرب الليل. فقال لي: حدثني بحديث من حديث الشراب، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، خرج نفر من كنانة إلى الشام يجلبون الخمر فمات أحدهم فجلسوا على قبره يشربون، فقال أحدهم:

لا تصرد هامة من شربها ... إسقه الخمر وإن كان قبر
إسق أوصالاً وهاماً وصدى ... ناشعاً ينشع نشع المنبهر

452 (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبيشي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق د. مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الثانية ، 1986 ، 171/2

453 (أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني ، زهر الأداب وثمر الألباب ، تحقيق : أ. د يوسف على طویل ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1417 هـ - 1997م ، 244/2

454 (تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله التقي الحموي المعروف بابن حجة ، طيب المذاق من ثمرات الأوراق ، ص 357

كان حراً فهو فيمن هو ... كل عود ذي فنون منكسر
قال: فدعا بداوة فكتبها، ثم كتب إلى الخوان بأربعين ألف درهم وقال: عشرة
آلاف لك، وثلاثون ألفاً للثلاثة الأبيات. قال: فأتيت الخزان فقالوا: صالحنا
على عشرة آلاف أنك تحلف لنا ألا تذكرها لأمير المؤمنين، فحلفت ألا أذكرها
حتى يبدأني فمات ولم يذكرها.

لا يسأل الرجل فيم يضرب امرأته؟

وحدث المرزباني فيما رفعه إلى مصعب الزبيري عن أبيه قال: كنا جماعة
تجالس الهادي أنا وسعيد بن سلم الناهلي وابن دأب وعبد الله بن مسلم
العزيزي وكان أجراًنا عليه، فخرج علينا مغيطاً متغيراً فسأله العريزي عن
خبره فقال: لم أر كصاحب الدنيا أكثر آفات ولا أدوم هموماً، قد عرفت موضع
لبانة بنت جعفر بن أبي جعفر مني، وأثرتها عندي، وأنها أغلظت لي بإدلالها
في شيء فلم أجد صبراً فنلتها بيدي فندمت عليه. فسكتنا خوفاً من تعنيفه أو
تصويب رأيه فيبلغها ذلك. فقال ابن دأب: وما في ذلك يا أمير المؤمنين؟ هذا
الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته، ضرب
امرأته أسماء بنت أبي بكر الصديق وهي من أفضل نساء زمانها حتى كسر
يدها وكان ذلك سبب مفارقتها إياها لأنه قال: أنت طالق إن حال عبد الله بيني
وبينك يعني ابنه عبد الله بن الزبير، فلم يخله وخلصها، وهذا عمر رضي الله
عنه يقول: لا يسأل الرجل فيم يضرب امرأته؟ وهذا كعب بن مالك الأنصاري
وهو أخو الزبير - أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما - عتب على
امرأته وهي من المهاجرات في شيء ضربها حتى حال بنوها بينهما فقال:

لولا بنوها حولها لخطبتها ... إلى أن تداني الموت غير مذم

ولكنهم حالوا بمنعي دونها ... فلا تعدميهم بين ناه ومقسم

فمالت وفيها حائش من عبيطها ... كحاشية البرد اليماني المسهم

قال: فضحك الهادي وسري عنه وأمر بالطعام، وأمر لابن دأب بخمسين ألف
درهم وخمسين ثوباً. قال عبد الله بن مصعب: فتأسفت كيف سبقني إلى شيء
أحفظه مثل حفظه. (455)

وأنا أجيبك في غدٍ إن شاء الله

اعتلت الخيزران أم الخليفة الهادي، فأراد الركوب إليها، فقال عمر بن بزيع
ألا أدلك على ما هو انفع من عيادتها، وأجلب لعافيتها؟ قال: بلى. قال:
تجلس للمظالم، فقد احتاج الناس إلى ذلك، فرجع وجلس ووجه إليها: إني

أردتك اليوم ، فعرض من حق الله ما هو أوجب ، فملت إليه ، وأنا أجيئك في غدٍ إن شاء الله .

أليس منكم رجل رشيد

قال سعيد بن سلم الباهلي صلى بنا الهادي صلاة الغداة فقراً : ' عم يتساءلون ' فلما بلغ قوله تعالى : ' ألم نجعل الأرض مهاداً ' أرتج عليه ، فرددها ولم يجسر أحدٌ أن يفتح عليه لهيبته ، وكان أهيب الناس ، فعلم ذلك فقراً : ' أليس منكم رجل رشيد ' ففتحنا عليه ، وكنا نعد من محاسنه . (456)

كان المجنون واحداً ، صرنا اثنين

ركب الهادي يوماً ، فنظر إلى مجنون يلعب بكسرة ؛ ويرمى من يقول هذا اللقب ، ويعمل العجائب ؛ فأمر بحمله إلى الدار ، فقال له : لم تشتم الناس إذا قالوا لك : كسرة ؟ . قال : ولم تضرب الأعناق إذا قيل لك : موسى اطبق ؟ . قال : أنا لا أغضب من هذا . قال : فصح أنت بي ثلاث مرات ، وأصيح مرتين فننظر من يحرر . قال : قد رضيت . فقال الهادي : يا كسرة ؛ يا كسرة . ثلاث مرات ، وطولها ، فلم يلتفت المجنون ، ولم يتحرك ولم يحرر ، ثم صاح : يا موسى اطبق . فلم يتحرك الهادي ، فقال المجنون : ما يتغافل إلا من أمه قحبة . فحرر الهادي ، ودعا بالنطع والسيف ، فقال المجنون : كيف رأيت ؟ كان المجنون واحداً ، صرنا اثنين . وأنا أيضاً هكذا ؛ لو قالوا : يا كسرة ؛ يا رغيف . ألف سنة ما باليت ، ولكن كذا يقولون لي إذا تغافلت . فضحك الهادي وأمر له بجائزة (457).

فلمن هو؟

قال عبد الله بن محمد البواب: سألت الخيزران موسى الهادي أن يولي خاله الغطريف اليمن، فوعدها بذلك ودافعها، ثم كتبت إليه يوماً رقعة تتاجزه فيها أمره، فوجه إليها برسولها يقول لها: خيريه بين اليمن وطلاق ابنته، أو مقامي عليها ولا أوليه اليمن، فأيهما اختار فعلته. فدخل الرسول إليها، ولم يكن فهم عنه ما قال له فأخبرها بغيره، ثم خرج إليه فقال: تقول لك ولاية اليمن، فغضب وطلق ابنته وولاه اليمن. ودخل الرسول فأعلمه بذلك فارتفع الصراخ من داره فقال: ما هذا؟ فقالوا: من دار بنت خالك، قال: أو لم يختر ذلك؟ قالوا: لا ولكن الرسول لم يفهم ما قلت أدى غيره، وعجلت بذلك. فندم ودعاً صالحاً صاحب المصلى وقال له: أقم على رأس كل رجل يحضرني من

456 (نشر الدر ، 3 / 65-66

457 (نشر الدر ، 3 / 182

الندماء رجلاً بسيف، فمن لم يطلق امرأته فليضرب عنقه، ففعل ذلك، ولم يبرح من حضرته أحد منهم حتى طلق امرأته. قال ابن البواب: فخرج الخدم إلي فأخبروني بذلك، وعلى الباب رجل واقف متلفع بطيلسانه يرواح بين رجله فخطر ببالي: من الطويل

خليلي من سعد ألما فسلما ... على مريم لا يبعد الله مريما وقولا لها هذا الفراق عزمته ... فهل من نوال قبل ذاك فيعلما فأنشدته بالياء، فقال لي: فنعلما بالنون، فقلت له: وما الفرق بينهما؟ فقال: إن المعاني تحسن الشعر وتفسدهن وإنما قال فنعلم ليعلم هو القصة، وليست به حاجة إلى أن يعلم الناس سره. فقلت له: أنا أعلم بالشعر منك، قال: فلمن هو؟ قلت: للأسود بن عمارة النوفلي قال: أو تعرفه؟ قلت: لا، قال: فأنا هو. فاعتذرت إليه من رماجعتي إياه ثم عرفته خبر الخليفة فيما فعله، فقال: أحسن الله جزاءك، وانصرف، وقال: هذا أحق منزل بترك. (458)

يا جاهل!

وحكى إسحاق الموصلي عن أبيه إبراهيم أنه غنى الهادي صوتاً أطربه فقال: سل ما شئت، فقال: تقطعني عين مروان بالمدينة، فقال: يا غلام جأ عنقه، يا جاهل! أردت ويلك أن تضع في الناس أنك غنيتني فأقطعك على الغنائم! ثم قال لوزير: أدخل هذا الجاهل الخزانة فأعطه ما شاء (459).

هارون الرشيد يأمر بقتل فتى علوي فينجيه الله تعالى

أخبرني محمد بن الحسن بن المظفر، قال: أخبرني عيسى بن عبد العزيز الظاهري، قال: أخبرني أبو عبد الله قال:

أمر الرشيد بعض خدمه، فقال: إذا كان الليلة، فصر إلى الحجرة الفلانية، فافتحها، وخذ من رأيت فيها، فأنت به موضع كذا وكذا، من الصحراء الفلانية، فإن ثم قلباً محفوراً، فارم به، وطمه بالتراب، وليكن معك فلان الحاجب. قال: فجاء الغلام إلى باب الحجرة، ففتحها، فإذا فيها غلام كالشمس الطالعة، فجذبناه جذباً عنيفاً.

فقال له: اتق الله، فإني ابن رسول الله، فالله، الله، أن تلقى الله بدمي، فلم يلتفت إلى قوله، وأخرجه إلى الموضع.

458 (ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية ، 360/1

459 (الزمخشري ، ربيع الأبرار ، 235/1

فلما أشرف الفتى على التلف، وشاهد القلب، قال له: يا هذا، إنك على رد ما لم تفعل، أقدر منك على رد ما فعلت، فدعني أصلي ركعتين، وامض لما أمرت به.

فقال له: شأنك وما تريد.

فقام الفتى، صلى ركعتين، قال فيهما: يا خفي اللطف، أغثني في وقتي هذا، والطف بي بلطفك الخفي.

فلا والله ما استتم دعاءه، حتى هبت ريح وغبرة، حتى لم ير بعضهم بعضاً، فوقعوا لوجوههم، واشتغلوا بأنفسهم عن الفتى، ثم سكنت الريح والغبرة، وطلبنا الفتى، فلم يوجد، وقيوده مرمية.

فقال الحاجب لمن معه: هل كنا والله، سيقع لأمير المؤمنين أنا أطلقناه، فماذا نقول له؟ إن كذبناه لم نأمن أن يبلغه خبر الفتى فيقتلنا، ولئن صدقناه، ليعجلن لنا المكروه.

فقال له الآخر: يقول الحكيم: إن كان الكذب ينجي، فالصدق أرجى وأنجى. فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما فعلتم فيما تقدمت به إليكم؟ فقال له الحاجب: يا أمير المؤمنين، الصدق أولى ما اتبع في جميع الأمور، ومثلي لا يجترىء أن يكذب بحضرتك، وإنه كان من الخبر كيت وكيت. فقال الرشيد: لقد تداركه اللطف الخفي، والله، لأجعلنها في مقدمات دعائي، امض لشأنك، واكتم ما جرى. (460)

الرشيد يمضي ما تعهد به وزيره جعفر البرمكي في مجلس أنس

عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي، قال: لم أر قط مثل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، كانت له فتوة، وظرف، وأدب، وحسن غناء، وضرب بالطبل، وكان يأخذ بأجزل حظ، من كل فن.

إنه نائم، فرجع، وقال: سر بنا إلى المنزل، حتى نخلو جميعاً بقية يومنا، فأغنيك، وتغنيني، ونأخذ في شأننا، من وقتنا هذا. فقلت: نعم.

فسرنا إلى مجلسه، فطرحنا ثيابنا، ودعا بالطعام، فأكلنا، وأمر بإخراج الجواري، وقال: ليبرزن، فليس عندنا من نحتشمه.

فلما رفع الطعام، وجيء بالشراب، دعا بقميص حرير فلبسه، ودعا لي بمثله، ودعا بخلوق، فتخلق، وخلفني، وجعل يغنيني، وأغنيه.

وكان قد دعا بالحاجب، فتقدم إليه أن لا يأذن لأحد من الناس كلهم، وإن جاء رسول أمير المؤمنين، فأعلمه أنني مشغول، واحتاط في ذلك، وتقدم فيه إلى جميع الحاجب والخدم.

ثم قال: إن جاء عبد الملك، فأذنوا له، يعني رجلاً كان يأنس به، ويمارحه، ويحضره خلواته، ثم أخذنا في شأننا.

فبينما نحن على حالة سارة، إذ رفع الستر، فإذا عبد الملك بن صالح الهاشمي قد أقبل، وغلط الحاجب، فلم يفرق بينه وبين عبد الملك الذي يأنس به جعفر.

وكان عبد الملك هذا من جلالة القدر والتكشف، على حالة معروفة، حتى إنه كان يمتنع من منادمة الخليفة، على اجتهد من الخليفة أن يشرف معه قدحاً واحداً، فلم يفعل، ترفعاً.

فلما رأيناه مقبلاً، أقبل كل واحد منا ينظر إلى صاحبه، وكاد جعفر أن تنشق مرارته غيظاً.

وفهم الرجل حالنا، فأقبل نحونا، حتى صار إلى الرواق الذي نحن فيه، فنزع قلنسوته، فرمى بها مع طيلسانه جانباً، ثم قال: أطعمونا شيئاً.

فدعا له جعفر بطعام، وهو منتفخ غيظاً وغضباً، فأكل، ثم دعا برطل فشربه. ثم أقبل إلى المجلس الذي كنا فيه، فأخذ بعضادتي الباب، ثم قال: أشركونا فيما أنتم فيه.

فقال له جعفر: ادخل، فدخل فدعا له بقميص حرير وخلوق، فلبس، وتخلق، ثم دعا برطل، ورطل حتى شرب ثلاثة أرطال، ثم اندفع يغنيا، فكان - والله - أحسننا غناءً.

فلما طابت نفس جعفر، وسري عنه ما كان به، التفت إليه، وقال: ارفع حوائجك.

فقال: ليس هذا موضع حوائج.

فقال: أقسم عليك، لتفعلن.

ولم يزل يلح عليه حتى قال له: أمير المؤمنين واجد علي كما قد علمت، فأحب أن تترضاه.

قال: فإن أمير المؤمنين قد رضي عنك، فهات حوائجك، كما أقول لك.

قال: علي دين فادح.

قال: كم مبلغه؟ قال: أربعة آلاف ألف درهم.

قال: هذه أربعة آلاف ألف درهم، فإن أحببت قبضها، قبضتها الساعة، فإنه لا يمنعني من أعطائك إياها، إلا أن قدرك يجلب عندي أن يصلك مثلي، ولكني ضامن لها، حتى تحمل لك في غد، من مال أمير المؤمنين، فسل أيضاً.
قال: تكلم أمير المؤمنين حتى ينوه باسم ابني.
قال: ولاء أمير المؤمنين مصر، وزجه ابنته الغالية، ومهرها عنه ألفي ألف درهم.

قال إسحاق: فقلت في نفسي، قد سكر الرجل - يعني جعفر - .
فلما أصبحنا، حضرت دار الرشيد، فإذا بجعفر بين يديه، ووجدت في الدار جلبة، فإذا بأبي يوسف القاضي ونظرائه، وقد دعي بهم، ثم دعي بعبد الملك وابنه، فدخلوا على الرشيد.
فقال الرشيد لعبد الملك: إن أمير المؤمنين كان واجداً عليك، وقد رضي عنك، وأمر لك بأربعة آلاف ألف درهم، فخذها من جعفر الساعة.
ثم دعا بابنه، وقال: اشهدوا علي أنني قد زوجته ابنتي الغالية، ومهرتها عنه ألفي ألف درهم، ووليته مصر.
فلما خرج جعفر سألته عن الخبر، فقال: بكرت إلى دار الرشيد، فحكيت له جميع ما جرى حرفاً حرفاً، ووصفت له دخول عبد الملك وما صنع، فعجب منه، وسر به.
فقلت له: وقد ضمنت له عن أمير المؤمنين ضماناً.
فقال: ما هو؟ فأعلمته.

فقال: نفي له بضمانك، وأمر بإحضاره، فكان ما رأيت؟ (461).

الرشيد يرضى عن فرج الرخجي ويعيده إلى عمالة الأهواز

ذكر ابن عبدوس في كتابه الوزراء، قال: كان الرشيد قد قلد فرجاً الرخجي الأهواز، فاتصلت السعيات به عنده، وكثرت الشكايات منه، وتظلم الرعية، وادعي عليه أنه اقتطع مالاً عظيماً، فصرفه بمحمد بن أبان الأنباري وقبض عليه.

وحدث للرشيد سفر، فأشخصه معه، فلما كان في بعض الطريق دعا به، فقال مطر بن سعيد، كاتب فرج: فلما أمر بإحضاره، حضر وأنا معه، ولست أشك في الإيقاع به، وإزالة نعمته، فوقفت بباب مضرب الرشيد، ودخل فرج، ونحن نتوقعه أن يخرج منكوباً، إذ خرج وعليه الخلع، فتضاعفت النعمة عندي، وسرت معه إلى منزله.

فلما خلا سألته عن خبره، فقال: دخلت عليه ووجهه إلى الحائط، وظهره إلي، فلما أحس بي، شتمني أقبح شتم، وتوعدني أشد توعد. ثم قال: يا ابن الفاعلة، رفعتك فوق قدرك، وائتمنتك، فخننتي، وسرقت مالي، وفعلت، وصنعت، والله، لأفعلن بك، ولأصنعن. فلما سكت، قلت: القول ما قاله أمير المؤمنين في إنعامه، وأكثر منه، وحلفت له بأيمان البيعة وغيرها، أني ناصحت وما سرقت، ووفرت وما خنت، واستقصيت حقوقه من غير ظلم، ولكني كنت إذا حضر وقت الغلات، جمعت التجار وناديت عليها، فإذا تقررت العطايا أنفذت البيع، وجعلت لي مع التجار حصة، فربما ربحت، وربما وضعت، إلى أن اجتمع لي من ذلك وغيره، في عدة سنين، عشرون ألف ألف درهم، فاتخذت أزجاً كبيراً، وأودعته المال، وسددته عليه فخذها، وحول وجهك إلى عبدك، وكررت عليه الأيمان، بأيمان البيعة على صدقي. فقال لي: بارك الله لك في مالك، ارجع إلى عملك (462).

الرشيد يرضى عن العتابي الشاعر

قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد : غضب الرشيد على العتابي، وحجبه، فدخل سراً مع المتظلمين، بغير إذن، فمثل بين يدي الرشيد، فقال له: يا أمير المؤمنين، قد أدبني الناس لك، ولنفسي فيك، وردني ابتلاؤهم إلى شكرك، وما مع ذكرك قناعة بأحد غيرك، ولعمري لنعم الصائن كنت لنفسي، لو أعانني الصبر عليك، ولذلك أقول:

أخضني المقام الغمر إن كان غرني ... سنا خلّب أو زلّت القدمان
أتركني جذب المعيشة مقترراً ... وكفّك من ماء الندى يكفان
وتجعلني سهم المطامع بعدما ... بللت يميني بالندى ولساني
قال: فرضي عنه، وخلع عليه، وأمر له بجائزة سنّية، فما رأيت العتابي أنشط منه في ذلك اليوم، ولا أفرح، ولا أبسط لساناً منه يومئذ.
قال أبو الفرج الأصبهاني: في البيتين الأولين غناء لمخارق، ثاني ثقيل بالوسطى، وقيل إن فيه للوائح ثاني ثقيل آخر (463).

462 (القاضي التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ص 65

463 (القاضي التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ص 67

جعفر بن محمد بن الأشعث يهدئ من غضب الرشيد

غضب الرشيد على جعفر بن محمد بن الأشعث، غضباً شديداً، من كلام جرى بينهما، فخاف جعفر أن يستفزّه الغضب، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما تغضب لله عز وجل، فلا تغضب له بما لا يغضب به لنفسه، فانعطف له الرشيد (464).

الرشيد يرضى عن نصر بن مالك

لما عزل الرشيد نصر بن مالك، بسعي البرامكة، أمره أن يلزم بيته، ولا يخرج منه، فكتب إلى الرشيد: قد قبضني سوء رأي أمير المؤمنين في، عن الاعتذار بحجة، أو نشر دلالة تنبئ بخلاف ما قرفت به عنده، فما أهتدي إلى وجه طلب الاعتذار، وما يجرأني على الإبانة عما لا أعلمه إلا حسن رأيه أعزه الله، وإطلاعه على قلقي بضميره، فإني عبد نعمته، وغذي إحسانه، إن أسبغا علي، وفي شكري لهما، وإن أزيلا عني، اعتضت منهما الرجوع إلى الحرمة، ولزوم فائدة يتطول بها علي، من تطول على أمير المؤمنين برد ميراثه من الخلافة عليه.

فوقع الرشيد على ظهر رقعته: نصر بن مالك، أولى من ردت عليه النعمة، إذ كان معترفاً بسمتها، وبالغاً بالشكر حق قيمتها، فما شكرني أحد من أوليائي كشكره، فليهنه ما أوليناه من رأينا، ومنحناه من برنا. وأظهر الرضا عنه، وولاه ولاية أخرجه إليها (465).

حبسه المهدي وأطلقه الرشيد

قال بشر بن موسى الأسدي: حبس المهدي يعقوب بن داود وزيره، فطال حبسه، فرأى في منامه، كأن قائلاً يقول له: قل: يا رفيق، يا شفيق، أنت ربي الحقيق، ادفع عني الضيق، إنك على كل شيء قدير. قال: فقلتها، فما شعرت إلا بالأبواب تفتح، ثم أدخلت على الرشيد، فقال: أتاني الذي أتاك، فاحمد الله عز وجل. وخلي سبيلي.

وقد روي هذا الخبر بطريقة أخرى عن عبد الله بن يعقوب بن داود، قال: قال لي أبي: حبسني المهدي في بئر بنيت عليها قبة، فكنت فيها خمس عشرة سنة، حتى مضى صدر من خلافة الرشيد، وكان يدلّي لي في كل يوم رغيف

464 (القاضي التنوخي ، الفرّج بعد الشدة ، ص 69

465 (القاضي التنوخي ، الفرّج بعد الشدة ، ص 70

وكوز ماء، وأوذن بأوقات الصلاة، فلما كان رأس ثلاث عشرة سنة، أتاني آت في منامي، فقال:

حنا على يوسف رب فأخرجه ... من قعر جب وبئر حولها غمم
فحمدت الله تعالى، وقلت: أتاني الفرج، ثم مكثت حولاً لا أرى شيئاً، فلما كان رأس الحول، أتاني ذلك الآتي، فقال:

عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر
ثم أقمت حولاً لا أرى شيئاً، ثم أتاني ذلك الآتي، بعد الحول، فقال:
عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف ويفك عان ... ويأتي أهله النائي الغريب
فلما أصبحت، نوديت، فظننت أني أوذن بالصلاة، فدلي إلي حبل وقيل لي: شد به وسطك، ففعلت، فأخرجوني، فلما تأملت الضوء، غشي بصري، فأخذ من شعري، وألبست ثياباً، وأدخلت إلى مجلس، فقيل لي: سلم على أمير المؤمنين.

فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين المهدي، ورحمة الله وبركاته.
فقال: لست به.

فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين الهادي، ورحمة الله وبركاته.
فقال: لست به.

فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين الرشيد، ورحمة الله وبركاته.
فقال: وعليك السلام، يا يعقوب بن داود، والله ما شفع أحد فيك إلي، غير أني حملت الليلة صبية لي على عنقي، فذكرت حملك إياي على عنقك، فرثيت لك من المحل الذي كنت فيه، فأخرجتك، ثم أكرمني، وقرب مجلسي.
ثم إن يحيى بن خالد تنكر لي، كأنه خاف أن أغلب على الرشيد دونه، فخفته، فاستأذنت في الحج، فأذن لي.

فلم يزل مقيماً بمكة، حتى مات بها.

حدثني أبي في المذاكرة بإسناد له، وكان في الخبر: أن المهدي حبسه في بئر، ووكل أمره إلى خادم له، واستحلفه أن لا يخبر بخبره أحداً من الخلق كلهم، فكان الخادم الموكل به، يزل إليه في كل يوم رغيفين، ودورق ماء، منه شربه وظهوره، وفي البئر موضع يتطهر فيه، فكان كذلك خمس عشرة سنة.
فلما كان بعد خمس عشرة سنة سأل عنه الرشيد فقيل له: سلم إلى فلان الخادم، وذكر أنه مات.

فأحضر الخادم، وسأله عنه، فقال: إنه مات.

فاستثبته، فرأى كلاماً مختلفاً، فجد به، فقال: لا أعرف غير موته، فهدده، فأقام على الإنكار، إلى أن استحضر الرشيد المقارع. فقال: أنا أصدق، استحلقتني أمير المؤمنين المهدي، ألا أخبر بخبره أحداً من الخلق أبداً.

فأكرهه الرشيد، فدل على البئر التي هو فيها، ثم تتفق الروايات. قال: فلما وقف بين يدي الرشيد، وسلم، قال له الرشيد - مخفياً كلامه - من أمير المؤمنين؟ فقال: المهدي.

قال: قد مضى لحال سبيله، فسلم على أمير المؤمنين، فسلم.

فقال: قولوا له من أمير المؤمنين؟ قال: الهادي

قال: قد مضى لحال سبيله، فسلم على أمير المؤمنين، فسلم.

فقال: قولوا له، من أمير المؤمنين؟ فقال: هارون، ثم تتفق الروايتان.

وروي لي هذا الخبر على وجه آخر، وهو أضعف عندي، غير أنني أجيء به كما بلغني، فحدثت بروايات مختلفة، قالوا حدث عبد الله بن أيوب، قال: رأيت يعقوب بن داود في الطواف، فقلت له: كيف كان سبب خروجك؟ قال: كنت في المطبق حتى خفت على بصري، فأتاني آت في منامي، فقال لي: يا يعقوب كيف ترى مكانك؟ فقلت: وما سؤالك؟ أما ترى ما أنا فيه، أليس يكفيك هذا؟ فقال: أسبغ الوضوء، وصل أربع ركعات، وقل: يا حسن، يا مجمل، يا منعم، يا مفضل، يا ذا الفضل والنعم، يا عظيم، يا ذا العرش العظيم، اجعل لي مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً.

فانتبهت، وقلت في نفسي: هذا في النوم، ورجعت إلى نفسي، فحفظت الدعاء، وقمت، فتوضأت، وصليت، ودعوت به، فلما أسفر الصبح، جاؤوني، فأخرجوني.

فقلت: ما دعاني إلا ليقتلني.

فلما رأيته، أوماً إليهم، اذهبوا به إلى الحمام، فنظفوه، وأتوني به، فطابت نفسي، وسجدت شكراً لله تعالى، فأطلت السجود. فقالوا لي: قم.

فقال لهم الرشيد: دعوه ما دام ساجداً، ثم رفعت رأسي، ثم مضى بي إلى الحمام.

فلما خرجت خلع علي، ثم ضرب بيده على ظهري، وقال لي: يا يعقوب، لا يمنن عليك أحد بمنة، فما زلت منذ الليلة قلقاً بأمرك (466)..

الرشيد يولي أخاه إبراهيم بن المهدي دمشق

بلغني عن إبراهيم بن المهدي، قال: كنت في جفوة شديدة من أخي الرشيد، أثرت في جاهي، ونقصت حالي، وأفضيت معها إلى الإضافة بتأخير أرزاقِي، وظهور اطراحه إياي، فاختلت لذلك أحوالي، وركبني دين فادح، فبلغ بي القلق والفكر فيه ليلة من الليالي، مبلغاً شديداً، ونمت فرأيت في النوم كأني واقف بين يدي أبي المهدي، وهو يسألني عن حالي، وأنا أشكو إليه ما نكبني به الرشيد، وأنهيت إليه حالي، وأنا أقول: ادع الله عليه يا أمير المؤمنين. فكأنه يقول: اللهم أصلح ابني هارون، يكررها ثلاثاً. فكأنني أقول: يا أمير المؤمنين أشكو إليك ظلم هارون لي، وأسألك أن تدعو عليه، فتدعو له.

فقال: وما عليك، إن أصلحه الله لك ولكافة، أن يبقى على حاله، هوذا أمضي إليه الساعة، وأمره أن يرجع لك، ويقضي دينك، ويوليكَ جند دمشق. فكأنني أومي إليه بسبابتي، وأقول له: دمشق، دمشق، استقللاً لها. فيقول لي: حركت مسبحتك استقللاً لدمشق، فكلما خف منها حظك، كان في العاقبة أجود لك.

فانتبهت، وأحضرت رجلاً كان مؤدبي في أيام المهدي، فسألته عن المسبحة، فقال: كان عبد الله بن العباس، يسمي السبابة: المسبحة، فما سؤال الأمير لي عنها؟ فقصصت عليه الرؤيا، وامتنع النوم عني، فأخذ يحدثني وأنا جالس في فراشي، إذ جاءني رسول الرشيد، فارتعت له ارتياحاً شديداً، ولم أعبأ بالمنام، وخفت أن يريدني لسوء يوقعه بي.

فقلت: أدافعه إلى أن تطلع الشمس، ثم يكون دخولي الدار نهراً، فإن كان أرادني لغيلة لم تتم.

فتقاطرت رسله حتى أعجلوني عن الرأي، واضطروني إلى الركوب في الحال، فدخلت إليه وأنا شديد الجزع، وهو جالس في فراشه ينتحب. فلما رأيته، قال: سألتك بالله يا أخي هل رأيت الليلة في منامك شيئاً؟ فقلت: نعم، الساعة رأيت أمير المؤمنين المهدي.

فلما قلت له ذلك ازداد بكاءه، ثم قال لي: ويحك، بالله، شكوتني إليه وسألته أن يدعو علي؟ فقلت: قد كان ذلك، ولكنه قال كذا وكذا، وشرحت له ما قال. فقال: الساعة والله، جاءني في منامي، فقصص علي جميع ما ذكرت، وقد وفى بوعد، والله لأمتثلن أمره، ولأصلن رحمك، كم دينك؟ قلت: كذا وكذا، فأمر بقضائه.

وقال: لا تبرح، حتى أصلي وأخرج، فأعقد لك على دمشق، فانتظرت حتى وجبت الصلاة، فصلى، وجاء وقت جلوسه، فجلس، واستدعاني فأظهر تكرمته، وعقد لي لواء على دمشق، وأمر الناس، فساروا معي إلى منزلي، فعاد جاهي، وصلحت حالي.

مجلس غناء بمحضر الرشيد

وروى حماد، عن أبي صدقة، وكان يحضر مجلس الرشيد مع المغنين، فربما غنى، وربما لم يغن، قال: فدعانا الرشيد يوماً، فدخلنا، والستارة دونه، وهو من خلفها جالس، فقال خادم من خلفها: غن يا ابن جامع، فاندفع يغني بهذا الصوت:

قف بالمنازل ساعة فتأمل ... هل بالديار لزائر من منزل
أولا ففيم توقفي وتلّدي ... وسط الديار كأنني لم أعقل
ما بالديار من البلى ولقد أرى ... أن سوف يحملني الهوى في محمل
وأحقّ بمن يبكي بكلّ محلّة ... عرضت له في منزل للمعول
عان بكلّ حمامة سجعت له ... وغمامة برقت بنوء الأعزل
يبكي فتفضحه الدموع فعينه ... ما عاش مخضلة كفيض الجدول
فقال الخادم: ليغن هذا الصوت منكم من كان يحسنه، فغنى كل من أحسنه منهم، فكأنه لم يطرب له.

فأقبل الخادم علي، فقال: إن كنت تحسن أن تغنيه، فغنه.
فقلت: نعم، فعجبوا من إقدامي على صوت لم يستطع من جماعتهم، فغنيته.
فقال الخادم: أحسنت، والله، فأعده، فأعدته، وأعاد الاستحسان، والأمر بإعادته على ذلك سبع مرات.
ثم قال لي الخادم: قم يا أبا صدقة، فادخل، حتى تغني أمير المؤمنين بحيث يراك، فدخلت، والمغنون كلهم محجوبون، فغنيته إياه، ثلاث مرات، فطرب في جميعهن.

وقال: أحسنت يا أبا صدقة.

فلما سمعت ما خصني به من استحسانه، قلت: يا أمير المؤمنين، إن لهذا الصوت حديثاً عجيباً، أفلا أحدثك به يا أمير المؤمنين، لعله يزداد حسناً.
فقال: بلى، هات.

فقلت: كنت يا سيدي، عبداً لبعض آل الزبير، وكنت خياطاً مجيداً، أخط القميص بدرهمين، والسراويل بدرهم، وأؤدي ضريبتني إلى سيدي في كل يوم درهمين، وأخذ ما فضل عن ذلك، فبينما أنا ذات يوم منصرفاً، وقد خطت

قميصاً لبعض الطالبين، وقد أخذت منه درهمين، وانصرفت إلى موضع يجتمع فيه المغنون، كنت أقصده إذا فرغت من شغلي، لشغفي بالغناء، فلما صرت بحذاء بركة المهدي، إذا أنا بسوداء على رقبتها جرة، تريد أن تملأها من ماء العقيق، وهي تغني بهذا الصوت، أحسن غناء يكون، فأصابني من الطرب بغنائها ما أذهلني عن كل شيء.

فقلت لها: فداك أبي وأمين ألقى علي هذا الصوت.

ف قالت: استحسنته؟ فقلت: إي والله.

ف قالت: وحق القبر ومن فيه، لا أعدته إلا بدرهمين.

فدفعت الدرهمين إليها، فأحدرت جرتها عن رقبتها فارغة، فوضعتها على الأرض، وجلست عليها، وكأني أنظر إلى فقحتها وقد برزت عن الجرة نحو ذراع، وأقبلت تلقيه علي، وتوقع على الجرة، حتى أخذته، ثم أخذت الجرة على رقبتها، وانصرفت.

فحين انصرفت، أنسيت الصوت ولحنه، حتى كأني لم أسمعه قط، فبقيت متحيراً لا أدري ما أصنع، وانصرفت إلى سيدي بأسوء حال، وأكسف بال. فلما رأيته، قال: هات ضريبتك.

فلجلجت في كلامي، وقلت: يا سيدي، اسمع حديثي.

فقال: يا ابن اللخناء، أبي تتعرض؟ فبطحني، وضربني مائة مقرة، وحلق رأسي ولحيّتي، ومنعني قوتي، وكان أربعة أرغفة، فلم يكن شيء من ذلك، أشد علي، من ذهاب الصوت مني، وبت ليلتي أسوء خلق الله حالاً، وأنا لا أعرف الجارية، ولا موضعها، ولا لمن هي.

فلما أصبحنا، خرجت ولها أطلبها في الموضع الذي لقيتها فيه، وأسأل الله أن يحوج أهلها إلى الماء، حتى تخرج لتأتيهم به، فأراها، فلم أزل أطلبها، لا أعمل شيئاً إلى العصر.

فبينما أنا كذلك، وإذا بها قد أقبلت، فلما رأيته، وما بي من الوله، قالت لي: مالك، أنسيت الصوت؟ فقلت: إي والله، وضربت مائة مقرة، ومنعت قوتي ليلتي، وحلقت رأسي ولحيّتي.

فقلت: دع هذا عن، فورب الكعبة، لاسمعه مني، فضلاً عن أخذه، إلا بدرهمين.

فقلت: الله، الله، في، فيمرن علي الليلة مثل ما مر علي البارحة، فارحميني. ف قالت: قد سمعت اليمين، وذهبت لتمضي.

فقلت: اصبري، وجئت إلى بقال كان يعاملني، فرهنت عنده الجلمين، على درهمين، وجئت بهما إليها، فأخذتهما، وجعلتهما في فيها.
فلما بدأت بالصوت، ذكرته، فقلت: الله، الله، ردي علي الدرهمين، فلا حاجة بي إلى غنائك.
فقالت: أنت أحمق، ولست تعرف هذا الأمر، لئن لم أردفه عليك مائة مرة ما حصل لك منه شيء، وجلست على الجرة، فغنته مائة مرة، أعداها عليها حتى فهمته، وصرت به أمهر منها، وانصرفت.
فساعة فارقتها، لحقتني الندامة، وقلت: سيلحقتني الليلة أكثر مما لحقتني البارحة، لفقد الجلمين.
فرجعت إلى مولاي، فجين رأني، قال: هات ضريبتك.
فقلت له: اسمع مني.
قال: أي شيء أسمع، يا ابن الفاجرة، أما كفاك ما مر بك أمس، ووثب إلى السوط.
فقلت له: اسمع، واصنع ما شئت.
فقال: هات، فغنيت الصوت.
فقال: أحسنت، والله، يعز علي ما أصابك، أما الضرب فقد مضى، ولا حيلة فيه، وأما قوتك فمردود، وأما ضريبتك، فساقطة عنك ما عشنا ولو مت أنا وعيالي جوعاً، فأنت اليوم واحداً منا أبداً ما بقينا، فهذا خبر الصوت.
وكان المغنون الذين حضروا، إبراهيم الموصلي، وابنه إسحاق، وابن جامع، ومسلم بن سلام.
فأمر لكل واحد منهم بألف دينار، وأمر لي بعشرة آلاف دينار، مثل ما أمر لجماعتهم، ثم استدعى ألف دينار، فقال: خذ هذه بدل المائة مقررعة التي ضربت.
فانصرفت، والمغنون يتعجبون مما جرى (467)..

عبد الله بن مالك الخزاعي يتسلم كتاباً من الرشيد يخبره بمقتل جعفر البرمكي
وجد في بعض الكتب: أن البرامكة، قصدت عبد الله بن مالك الخزاعي،
بالعداوة، وكان الرشيد حسن الرأي فيه، فكانوا يغرونه به، حتى قالوا له: لا
بد من نكبتة.

فقال: ما كنت لأفعل هذا، ولكن أبعده عنكم.
فقالوا: ينفي.

فقال: لا، ولكن أوليه ولاية دون قدره، وأخرجه إليها.
فرضوا بذلك، فكتبوا له على حران والرها فقط، وأمره بالخروج، عن
الخليفة.

قال عبد الله: فودعتهم واحداً، واحداً، حتى صرت إلى جعفر لأودعه.
فقال لي: ما على الأرض عربي أنبل منك يا أبا العباس، يغضب عليك الخليفة،
فيوليك حران والرها؟

فقلت: فما ذنبي حتى غضب علي، وأي شيء جرى مني حتى أوجب الذي أن
يفعل بي هذا؟

قال جزأوك أن: يضرب وسطك، وتصلب نصفاً في جانب، ونصفاً في جانب.
فقلت: العجب مني حيث صرت إليك، ونهضت، وخرجت.
وقطعت طريقي بالهم، والغم، مما دفعت إليه، وأني لا آمنهم، مع غيبتني، على
السعاية علي.

فبينما أنا في عشية يوم، على باب الدار التي نزلتها، جالساً على كرسي، إذ
أقبل إلي مولى لي، فقال لي سراً: قد قتل جعفر بن يحيى البرمكي.
فتوهمت أنه هو أمره بذلك ليجد علي حجة ينكبني بها، فبطحته، وضربته
ثلثمائة مقرة، وحبسته، وبث بليلة طويلة على السطح في داري.
فلما كان في السحر، إذا صوت حلق البريد، فارتعت، ونزلت عن السطح.
وقلت في نفسي: إن هجم علي صاحب البريد فهي بلية، وإن ترجل لي ففرج.
فلما بصر بي صاحب البريد ترجل لي، فطابت نفسي، ودفعت إلي كتاباً من
الرشيد، يخبرني فيه بقتله جعفر، وقبضه على البرامكة، ويأمرني بالشخص
إلى حضرته.

فشخصت، فلما وصلت إليه، عاملني من الإكرام والإنعام بما زاد على أمنيته.
وخرجت، فأتيت الجسر، فوجدت جعفرأ، قد ضرب وسطه، وصلب نصفه في
جانب، ونصفه في الجانب الآخر (468).

غضب الرشيد على مروان بن أبي حفصة لمدحه معن بن زائدة وضربه مائة سوط

قال عبد الرحمن بن أخي الأصمعي، عن عمه، قال: بعث إلي الرشيد في وقت لم تكن عادته أن يستدعيني في مثله، وجاءني الرسول بوجه منكر، فأحضرني إحضاراً عنيفاً منكراً مستعجلاً، فوجلّت وجللاً شديداً، وخفت، وجزعت.

فدخلت، فإذا الرشيد على بساط عظيم، وإلى جانبه كرسي خيزران، عليه جويرية خماسية، فسلمت، فلم يرد علي، ولا رفع رأسه إلي، وجعل ينكت الأرض بإصبعه.

فقلت: سعي بي عنده بباطل، يهلكني قبل كشفه، وأيست من الحياة. فرفع رأسه، وقال: يا أصمعي، ألا ترى الدعي بن الدعي، اليهودي، عبد بني حنيفة، مروان بن أبي حفصة، يقول لمعن بن زائدة، وإنما هو عبد من عبيدنا:

أقمنا باليمامة بعد معن ... مقاماً لا نريد به زيالا
وقلنا أين نذهب بعد معن ... وقد ذهب النوال فلا نوالا
وكان الناس كلهم لمعن ... إلى أن زار حفرتة عيالا
فقال: إن النوال قد ذهب، مع بقائنا، فما يصنع بنا إذن؟، ولم يرض حتى جعلني وخاصتي، عيالا لمعن، والله، لأفعلن به ولأصنعن.
فقلت: يا أمير المؤمنين، عبد من عبيدك، أنت أولى بأدبه، أو العفو عنه.
فقال: علي بمروان، فدخل عليه.

فقال: السياط، فأخذ الخدم يضربونه بها، وهو يصيح: يا أمير المؤمنين، ما ذنبي؟ يا أمير المؤمنين، استبقتني، إلى أن ضرب أكثر من مائة سوط.
فقال: يا أمير المؤمنين، اعف عني، واذكر قولِي فيك، وفي آبائك.
فقال: يا غلام، كف عنه، ثم قال: ما قلت، يا كلب؟
فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأقكم أم تسترون هلالها
أم تدفعون مقالة عن ربّه ... جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية ... بترائهم فأردتم إبطالها
فدعوا الأسود خوادراً في غيلها ... لا تولغن دماءكم أشبالها
قال: فأمر بإطلاقه، وأن يدفع إليه ثلاثون ألف درهم.
فلما خرج، قال: يا أصمعي تدري من هذه الصبية؟.

قلت: لا أدري.

قال: هذه مؤنسة بنت أمير المؤمنين، فدعوت له ولها، وتأملته، فإذا هو شارب ثمل.

قال: قم فقبل رأسها.

فقلت: أفلت من واحدة، ودفعت إلى أخرى أشد منها، إن أطعته أدركته الغيرة فقتلني، وإن عصيته قتلني بمعصيتي له، فلما أحب الله عز وجل من تأخير أجلي، ألهمني أن وضعت كمي على رأسها، وقبلت كمي. فقال: والله يا أصمعي، لو أخطأتها لقتلتك، أعطوه عشرة آلاف درهم، والحق بدارك.

فخرجت وأنا ما أصدق بالسلامة، فكيف بالحباء والكرامة (469).

أول دخول الأصمعي إلى الرشيد

وذكر أبو الحسين أن الأصمعي قال: لزمته باب الرشيد، فكنت أقيم عليه طول نهاري، وأبيت بالليل مع الحراس أسامرهم، وأتوقع طالع سعد، حتى كدت أموت ضراً وهزالاً، وأن أصير إلى ملالة، ثم أتذكر ما في عاقبة الصبر من الفرج، فأؤمل صلاح حالي باتفاق محمود، فأصبر. فبينما أنا ذات ليلة، وقد قاسيت فيها السهاد والأرق، إذ خرج بعض الحجاب، فقال: هل بالباب أحد يحسن الشعر؟ فقلت: الله أكبر، رب مضيق فكه التيسير، أنا ذلك الرجل.

فأخذ بيدي، وقال: ادخل، فإن ختم لك بالسعادة، فلعلها أن تكون ليلة تفر عينك فيها بالغنى.

فقلت: بشرك الله بخير، ودخلت، فواجهت الرشيد في البهو جالساً، والخدم قيام على رأسه، وجعفر بن يحيى البرمكي، جالس إلى جنبه. فوقف بي الحاجب حيث يسمع تسليمي، فسلمت، ثم قال: تنح قليلاً حتى تسكن، إن كنت وجدت روعة.

فقلت في نفسي: فرصة تفوتني آخر الدهر، إن شغلت بعارض، فلا أعتاض منها إلا كمداً، حتى يصفق علي الضريح، فقلت: إضاءة كرم أمير المؤمنين، وبهاء جده، يجردان من نظر إليه من أذية النفس، يسألني - أيده الله - فأجيب، أو أبتدئ فأصيب؟ فتبسم إلي جعفر، وقال: ما أحسن ما استدعى الإحسان، وحري به أن يكون محسناً.

ثم قال لي: أشاعر أنت، أم راوية للشعر؟ قلت: راوية.

قال: لمن ؟ قلت: لكل ذي جد وهزل، بعد أن يكون محسناً.
فقال: أنصف القارة من راماهما.

ثم قال: ما معنى هذه الكلمة ؟ قلت: لها وجهان، زعمت التبابعة، أنه كان لها رماة لا تقع سهامها في غير الحدق، فكانت تكون في الموكب الذي يكون فيه الملك، فخرج فارس معلم بعذبات سمور في قلنسوته، فنادى: أين رماة الحدق ؟ فقالت العرب: أنصف القارة من راماهما.

والوجه الآخر: الموضع المرتفع من الأرض، والجبل الشاهق، فمن ضاهاه بفعاله فقد راماه، وما أحسب هذا هو المعنى، لأن المراماة، كالمعاطاة، وكما أن المعاطاة للنديم، هي أن يأخذ كأساً، ويعطي كأساً، كذلك المراماة، أن يرميها وترميه.

فقال: أصبت، فهل رويت للعجاج بن ربيعة شيئاً ؟ قلت: الأكثر.
قال: أنشدني قوله:

أرّقني طارق همّ طرّقا

فمضيت فيها مضي الجواد، تهدر أشداقي، فلما بلغت مدحه لبني أمية، تثيت عنان اللسان، لامتداحه المنصور.

فقال: أعن عمد، أو غير عمد ؟ فقلت: عن عمد، تركت كذبه إلى صدقه، بما وصف فيه المنصور من مجده.

فقال جعفر: بارك الله عليك، مثلك يؤهل لمثل هذا الموقف.

ثم التفت إلي الرشيد، فقال: أرويت لعدي بن الرقاع، شيئاً ؟ قلت: الأكثر، قال: أنشدني قوله:

بانّت سعاد وأخلفت ميعادها

فابتدأت تهدر أشداقي، فقال جعفر: يا هذا أنشد على مهل، فلن تنصرف إلا غانماً.

فقال الرشيد: أما إذ قطعت علي، فأقسم، لتشركني في الجائزة.

قال: فطابت نفسي، فقلت: أفلا ألبس أردية التيه على العرب، وأنا أرى الخليفة والوزير يتشاطران لي المواهب، فتبسم، ومضيت فيها.

ثم قال: أرويت لذي الرمة شيئاً ؟ قلت: الأكثر، قال أنشدني قوله:

أمن حذر الهجران قلبك يطمح

فقلت: عروس شعره.

قال: فأيه الختن ؟ قلت: قوله، يا أمير المؤمنين:

ما بال عينيك منها الماء ينسكب

فقال: امض فيها، فمضيت فيها، حتى انتهيت إلى وصفه جملة.
فقال جعفر: ضيق علينا ما اتسع من مسامرة السهر، بجمل أجرب.
فقال الرشيد: أسكت، فهي التي سلبتك تاج ملكك، وأزعجتك عن قرارك، ثم جعلت جلودها سياطاً، تضرب بها أنت وقومك عند الغضب.
فقال جعفر: الحمد لله، عوقبت من غير ذنب.
فقال الرشيد: أخطأت في كلامك، لو قلت: أستعين بالله، قلت صواباً، إنما يحمد الله تعالى على النعم، ويستعان على الشدائد.
ثم قال لي: إني لأجد ملأاً، وهذا جعفر، ضيف عندنا، فسامره باقي ليلتك، فإذا أصبحت، فإن وضاء الخادم، يلقيك بثلاثين ألف درهم.
قال: ثم قربت إليه النعل، فجعل الخادم يصلح عقب النعل في رجله، فقال: ارفق ويحك، أحسبك قد عقرتني.
فقال جعفر: قاتل الله العجم، لو كانت سندية، ما احتاج أمير المؤمنين إلى هذه الكلفة.

فقال: هذه نعلي ونعل آبائي، ما تدع نفسك والتعرض لما تكره.
ثم قال لي جعفر: لولا أن المجلس مجلس أمير المؤمنين، ولا يجوز لي فيه أن أمر بمثل ما أمر به، لأمرت لك بثلاثين ألف درهم، ولكني أمر لك بتسعة وعشرين ألف درهم، فإذا أصبحت فاقبضها والزم الباب.
قال: فما صليت من غد الصبح، إلا وفي منزلي ما أمر لي به، فأيسرت ولزمتهما، وزال ما كنت فيه من الضر، وأتى الإقبال، والنعمة والسلامة، وأفلحت، والله الحمد (470).

يحيى البرمكي يغري الرشيد بجعفر بن الأشعث

قال علي بن محمد بن سليمان بن عبد الملك بن الحارث بن نوفل: حدثني أبي، أن بدء سعي يحيى بن خالد البرمكي، على موسى بن جعفر، كان سببه وضع الرشيد ابنه محمداً في حجر جعفر بن محمد بن الأشعث، فساء ذلك يحيى، وقال: إذا مات الرشيد، وأفضى الأمر إلى ولده محمد انقضت دولتي، ودولة ولدي، وتحول الأمر إلى جعفر وولده، وقد كان عرف مذهب جعفر في التشيع، فأظهر له أنه على مذهبه، فلما أنس به جعفر، أفضى إليه بجميع أمره، وذكر له ما هو عليه في موسى بن جعفر.

وكان الرشيد يرعى له موضعه، وموضع أبيه من الخلفاء، فكان يقدم في أمره ويؤخر، ويحيى لا يألو أن يحطب عليه، إلى أن دخل يوماً على الرشيد،

وجرى بينهما حديث، فمت جعفر بخدمته وخدمة أبيه، فأمر له بعشرين ألف دينار، فأمسك يحيى أياماً، ثم قال للرشيده: قد كنت أخبرك عن جعفر ومذهبه، فأكذب عنه، وها هنا أمر فيه الفصل، إنه لا يصير إليه مال إلا أخرج خمسة فوجه به إلى موسى بن جعفر، ولست أشك أنه فعل ذلك في العشرين ألف دينار التي أمرت له بها.

فأرسل الرشيد إلى جعفر ليلاً يستدعيه، وقد كان جعفر عرف سعاية يحيى عليه، مساساً للعداوة، فلما طرق جعفر رسول الرشيد لم يشك أنه سمع من يحيى فيه، فأفاض عليه ماءً، ودعا بمسك وكافور، وتحنط بهما، ولبس بردة، وأقبل إلى الرشيد، فلما دنا منه ليخاطبه، شم منه رائحة الكافور، ورأى البردة، فقال: ما هذا يا جعفر؟ قال: يا أمير المؤمنين، قد علمت أنه يسعى علي عندك، فلما جاءني رسولك في هذه الساعة، علمت أنك أرسلت إلي لتقتلني.

قال: كلا، ولكن أخبرتك أنك تبعث إلى موسى بن جعفر من كل ما يصير إليك بخمسه، وأنت قد فعلت ذلك في العشرين ألف دينار، وأحببت أن أعلم ذلك. فقال جعفر: الله أكبر، يا أمير المؤمنين، مر بعض خدمك يذهب فيأتيك بها بخاتمها.

فقال الرشيد لبعض الخدم: خذ خاتم جعفر وانطلق حتى تأتي بهذا المال، وأسمى له جاريته التي ماله عندها، فدفعت إليه البدر بخواتمها، فأتى بها إلى الرشيد.

فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، هذا أول ما تعرف به كذب من سعى بي إليك.

فقال: صدقت، انصرف آمناً، فإني لا أقبل فيك، بعد هذا قول أحد (471).

اشترى الرشيد لطيبه ضياعاً غلتها ألف ألف درهم

وحدث جبريل بن بختيشوع، قال: كنت مع الرشيد، بالرقعة، ومعه المأمون ومحمد، وكان الرشيد رجلاً كثيراً الأكل والشرب، فأكل في بعض الأيام أشياء خلط فيها، ودخل المستراح، فغشي عليه فيه. فأخرج وقد قوي عليه الغشي، حتى لم يشك غلمانه في موته، وحضر ابنه، وشاع عند الخاصة والعامة خبره. وأرسل إلي، فجئت، فجسست عرقه، فوجدت نبضاً خفيفاً، وأخذت عرقاً في رجليه فكان كذلك، وقد كان قبل ذلك بأيام يشكو امتلاءً وحركة الدم.

فقلت لهم: إنه لم يمت، والصواب أن يحجم الساعة.
 فقال كوثر الخادم، لما يعرف من أمر الخلافة وإفضائها إلى صاحبه محمد: يا
 ابن الفاعلة، تقول أحجموا رجلاً ميتاً؟ لا يقبل قولك ولا كرامة.
 فقال المأمون: الأمر قد وقع، وليس يضر أن نحجمه.
 وأحضر الحجام، فتقدمت، وقلت له: ضع محاجمك، ففعل، فلما مصها رأيت
 الموضع قد احمر، فطابت نفسي بذلك، وعلمت أنه حي.
 فقلت للحجام: أشرط، فشرط، فخرج الدم، فسجدت شكراً لله تعالى، وجعل كلما
 خرج الدم، تحرك رأسه، وأسفر لونه، إلى أن تكلم.
 فقال: أين أنا؟ فطيبت نفسه، وغدناه بصدر دراج، وسقيناها نبيذاً، وما زلت
 أسعطه بالطيب في أنفه، حتى تراجعت إليه قوته، وأدخل الخاصة والقواد
 إليه، فسلموا عليه من بعد، لما كان قد شاع من خبره، ثم تكاملت قوته،
 ووهب الله له العافية.

فلما برأ من غلته، دعا صاحب حرسه، وحاجبه، وصاحب شرطته، فسأل
 صاحب الحرس عن غلته في كل سنة، فعرفه أنها ألف ألف درهم، وسأل
 صاحب شرطته عن غلته، فعرفه أنها خمسمائة ألف درهم.
 ثم قال: يا جبريل: كم غلتك؟ فقلت: خمسون ألف درهم.
 فقال: ما أنصفناك، حيث غلات هؤلاء وهم يحرسوني، ويحجبوني عن
 الناس، على ما هي عليه، وتكون غلتك ما ذكرت، وأمر بإقطاعي ما قيمته
 ألف ألف درهم.
 فقلت: يا سيدي مالي حاجة إلى الإقطاع، ولكن تهب لي ما أشتري به ضياعاً
 غلتها ألف ألف درهم، ففعل، وتقدم بمعاونتي على أبتياعها.
 فابتعت بهباته، وجعالاته، ضياعاً غلتها ألف ألف درهم، فجميع ما أمتلكه
 ضياع لا إقطاع فيها (472).

بين الرشيد ورجل أراد توليته القضاء

أحضر الرشيد رجلاً ليوليه القضاء فقال له: إني لا أحسن القضاء ولا أنا
 فقيه. قال الرشيد: فيك ثلاث خلال: لك شرف والشرف يمنع صاحبه من
 الدناءة. ولك حلم يمنعك من العجلة، ومن لم يعجل قلّ خطؤه. وأنت رجل
 تشاور في أمرك ومن شاور كثر صوابه، وأما الفقه فسينضم إليك من تتفقه
 به. فولي ما وجدوا فيه مطعناً. (473)

472 (القاضي التنوخي ، الفرغ بعد الشدة ، ص 312

473 (ابن قتيبة الدينوري ، عيون الأخبار ، 7/1

بين الرشيد والعماني الراجز

دخل العماني الراجز على الرشيد لينشده وعليه قلنسوة طويلة وخفّ ساذج، فقال له الرشيد: يا عماني، إياك أن تتشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفّان دلّقان فبكر إليه من الغد وقد تزياً بزيّ الأعراب ثم أنشده وقبّل يده وقال: يا أمير المؤمنين قد والله أنشدت مروان ورأيت وجهه وقبّلت يده وأخذت جائزته ثم يزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ثم السّفاح ثم المنصور ثم المهدي. كلّ هؤلاء رأيت وجوههم وقبّلت أيديهم وأخذت جوائزهم، إلى كثير من أشباه الخلفاء وكبار الأمراء والسادة والرؤساء، والله مارأيت فيهم أبهى منظراً ولا أحسن وجههم ولا أنعم كفاً وأندى راحةً منك يا أمير المؤمنين. فأعظم له الجائزة على شعره وأضعف له على كلامه وأقبل عليه فبسطه حتى تمنى جميع من حضر أنه قام ذلك المقام.

المديح فيك دون قدرك والشعر فيك فوق قدري

قال الرشيد يوماً لبعض الشعراء: هل أحدثت فينا شيئاً؟ فقال: يا أمير المؤمنين المديح فيك دون قدرك والشعر فيك فوق قدري، ولكنّي أستحسن قول العتّابي:

ماذا يرى قائلٌ يثني عليك وقد ... ناداك في الوحي تقديسٌ وتطهير
فتّ المدائح إلا أن ألسنا ... مستنطقات بما تخفي الضمائر
" في عترة لم تقم إلا بطاعتهم ... من الكتاب ولك تقض المشاعير
هذي يمينك في قرباك صائلة ... وصارمٌ من سيوف الهند مأثور " (474)

الرشيد والمستقية

ويحكى أن هارون الرشيد مر في بعض الأيام وبصحبته جعفر البرمكي وإذا هو بعدة بنات يستقون الماء فخرج عليهن يريد الشرب وإذا إحداهن تقول: قولني لطيفك ينثني ... عن مضجعي وقت المنام
كي أستريح وتنطفي ... نار تأجج في العظام
دنّفْ تقلبه الأكف ... على بساط من سقام
فأعجب أمير المؤمنين ملاحظتها وفصاحتها. فقال لها: يا بنت الكرام هذا من قولك أم من منقولك؟ قالت: من قولي.
قال: إن كان كلامك صحيحاً فأمسكي المعنى وغيري القافية فأنشدت تقول:
قولني لطيفك ينثني ... عن مضجعي وقت الوسن
كي أستريح وتنطفي ... نارٌ تأجج في البدن

دنف تقلبه الأكف ... على بساط من شجن
أما أنا فكما علم ... ت فهل لوصلك من ثمن؟
فقال لها: والآخر مسروق.

قالت: بل كلامي.

فقال: إن كان كلامك أيضاً فأمسكي المعنى وغيري القافية. فقالت:
قولي لطيفك ينثني ... عن مضجعي وقت الرقاد
كي أستريح وتنطفي ... نار تأجج في الفؤاد
دنف تقلبه الأكف ... على بساط من حداد
أما أنا فكما علم؟ ... ت فهل لوصلك من سداد؟
فقال لها: والآخر مسروق.

فقالت: بل كلامي.

فقال لها: إن كان كلامك فأمسكي المعنى وغيري القافية. فقالت:
قولي لطيفك ينثني ... عن مضجعي وقت الهجوع
كي أستريح وتنطفي ... نار تأجج في الضلوع
دنف تقلبه الأكف ... على بساط من دموع
أما أنا فكما علم ... ت فهل لوصلك من رجوع؟
فقال لها أمير المؤمنين: أنت من أي هذا الحي؟ قالت: من أوسطه بيتاً،
وأعلاه عموداً.

فعلم أمير المؤمنين أنها بنت كبير الحي. ثم قالت: وأنت من أي راعي الخيل؟
فقال: من أعلاها شجرة وأينعها ثمرة.

فقبلت الأرض وقالت: أيد الله أمير المؤمنين ودعت له ثم انصرفت مع بنات
العرب.

فقال الخليفة لجعفر: لا بد من أخذها فتوجه جعفر إلى أبيها، وقال له: أمير
المؤمنين يريد بنتك.

فقال: حباً وكرامة، تهدي جارية إلى أمير المؤمنين مولانا.

ثم جهزها وحملها إليه فتزوجها ودخل بها فكانت عنده من أعز نسائه
وأعطى والدها ما يستره بين العرب من الأنعام. ثم بعد مدة انتقل والدها
بالوفاة إلى رحمة الله تعالى، فورد على الخليفة خبر وفاته فدخل عليها وهو
كئيب، فلما شاهده وعلية الكآبة، نهضت ودخلت إلى حجرتها وقلعت ما
عليها من الثياب الفاخرة ولبست ثياب الحزن وقامت النعي له.

ف قيل لها: ما سبب هذا؟ فقالت: مات والدي، فمضوا إلى الخليفة فأخبروه فقام وأتى إليها وسألها من أعلمها بهذا الخبر؟ قالت: وجهك يا أمير المؤمنين. قال: كيف ذلك؟ قالت: منذ أنا عندك ما رأيته هكذا ولم يكن لي من أخاف عليه إلا والدي لكبره، ويعيش رأسك أنت يا أمير المؤمنين. فترغرغت عيناه بالدموع وعزاها فيه، وقامت مدة، وهي حزينة على والدها ثم لحقت به رحمة الله عليهم أجمعين.

الضيف الطارق

ويحكى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق ذات ليلة فقام يتمشى في قصره بين المقاصير، فرأى جارية من جواريه نائمة فأعجبته، فداس على رجلها فانتبهت فرأت أمير المؤمنين، فاستحيت منه وقالت: يا أمين الله ما هذا الخبر.

فأجابها بقوله:

قلت: ضيف طارق في أرضكم ... هل تضيفوه إلى وقت السحر فأجابته تقول:

بسرور وهناء سيدي ... أخدم الضيف بسمعي والبصر فبات عندها إلى الصباح، فسأل أمير المؤمنين من بالباب من الشعراء؟ قيل له: أبو نواس. فمر به فدخل عليه. فقال: هات علي يا أمين الله ما هذا الخبر، فأنشأ يقول:

طال ليلى حين وافاني السهر ... فتفكرت فأحسننت الفكر
قمت أمشي في المجالي ساعة ... ثم أجري في مقاصير الحجر
فإذا وجه جميل مشرق ... زانه الرحمن من بين البشر
فلمست الرجل منها موطناً ... فدنت مني ومدت للبصر
وأشارت لي بقول مفصح ... يا أمين الله ما هذا الخبر؟
قلت: ضيف طارق في أرضكم ... هل تضيفوه إلى وقت السحر
فأجابت بسرور سيدي ... أخدم الضيف بسمعي والبصر
قال: فتعجب أمير المؤمنين من ذلك وأمر له بصلة. (475)

كلام الليل يمحوه النهار

يحكى أن هارون الرشيد هجر جارية له ثم لقيها في بعض الليالي في القصر سكرى تدور في جوانب القصر وعليها مطرف خز، وهي تسحب أذيالها من التيه والعجب، وسقط رداؤها عن منكبيها، والريح أبان نهديها كأنهما

رمانتان، ولها ردفان ثقيلان، فراودها عن نفسها، فقالت: يا أمير المؤمنين! هجرتني هذه المدة وليس لي علم بملاقاتك فأظنني إلى غد حتى أتهياً وأتيك. فلما أصبح قال للحاجب: لا تدع أحداً يدخل علي إلا فلانة، وانتظرها فلم تجئ فقام ودخل عليها وسألها إنجاز الموعد فقالت: يا أمير المؤمنين، كلام الليل يمحوه النهار. فقام واستدعى من بالباب من الشعراء فدخل عليه أبو نواس والرقاشي وأبو مصعب فقال لهم: هاتوا علي، كلام الليل يمحوه النهار. فقال الرقاشي: أنا قائل في ذلك ثلاثة أبيات، وأنشأ يقول:

أتسلوها، وقلبك مستطار ... وقد منع القرار فلا قرار

وقد تركتك صباً مستهماً ... فتاة لا تزور ولا تزار

فولت وانثنت تيهاً، وقالت: ... كلام الليل يمحوه النهار

وقال أبو مصعب: وأنا قائل في ذلك ثلاثة أبيات، وأنشأ يقول:

أما والله لو تجددين وجدي ... لما وسعتك في بغداد دار

أما يكفيك أن العين عبرى ... ومن ذكراك في الأحشاء نار

تبسمت الفتاة بغير ضحك ... كلام الليل يمحوه النهار

وقال أبو نواس: أنا قائل في ذلك أربعة أبيات، وأنشأ يقول:

وخود أقبلت في القصر سكرى ... ولكن زين السكر الوقار

وهز الريح أردافاً ثقالاً ... وغصناً فيه رمان صغار

وقد سقط الردا عن منكبيها ... من التخميش وانحل الإزار

فقلت: الوعد سيدتي، فقالت: كلام الليل يمحوه النهار

فقال الرشيد: قاتلك الله كأنك كنت معنا أو مطلعاً علينا.

وأمر لكل بخلعة سنوية وخمسة آلاف درهم، ولأبي نواس بعشرة آلاف درهم، .

أمعنا كنت؟

وذكر الخطيب في بعض مصنفاته أن الرشيد دخل يوماً قبل وقت الظهر، في

مقصورة جارية تسمى الخيزران على غفلة منها، فوجدها تغتسل، فلما رآته

تجللت بشعرها حتى لم ير من جسدها شيئاً، فأعجبه ذلك الفعل واستحسنه،

ثم عاد إلى مجلسه وقال: من بالباب من الشعراء؟ قالوا له: أبو نواس

وبشار.

فقال: ليحضرا جميعاً.

فأحضرا، فقال الرشيد ليقبل كل منكما أبياتاً توافق ما في نفسي، فأنشأ بشار

يقول:

تحببتكم والقلب صار إليكمو ... بنفسي ذاك المنزل المتحبيب

إذا ذكروا الهجران لا عن ملالة... وذكراهم، ينمي إلي محبب
وقالوا تجنبنا، ولا قرب بيننا... فكيف وأنتم حاجتي تتجنبوا
على أنهم أحلى من الشهد عندنا... وأعذب من ماء الحياة وأطيب
فقال: أحسنت، ولكن ما أصبت ما في نفسي، فقل أنت يا أبا نواس، فجعل
يقول:

نضت عنها القميص لصب ماء... فورد خدها فرط الحياء
وقابلت الهواء، وقد تعرت... بمعتدل أرق من الهواء
ومدت راحة، كالماء منها... إلى ماء معد في إناء
فلما أن قضت وطراً وهمت... على عجل إلى أخذ الرداء
رأت شخص الرقيب على التداني... فأسبلت الظلام على الضياء
فغاب الصبح منها تحت ليل... وظل الماء يقطر فوق ماء
فسبحان الإله وقد براها... كأحسن ما يكون من النساء
فقال الرشيد: سيفاً ونطعاً.

فقال له: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: أمعنا كنت؟ قال: لا والله ولكن شيء
خطر ببالي.

فأمر له بأربعة آلاف درهم وصرفه⁽⁴⁷⁶⁾.

أجود أخبار النساء

ويحكى أن أمير المؤمنين الرشيد أرق ذات ليلة أرقاً شديداً، فقام من فراشه
وتمشى من مقصورة إلى مقصورة، وقلقه زائد ونفسه محصورة، فلما أصبح
قال: علي بالأصمعي، فخرج الطواشي إلى البوابين، فقال لهم: يقول لكم أمير
المؤمنين أرسلوا أحداً خلف الأصمعي. فلما حضر أعلم الخليفة فأجلسه
ورحب به وقال: يا أصمعي أريد منك أن تحدثني بأجود ما سمعت من أخبار
النساء وأشعارهن؟ فقال: سمعاً وطاعة: لقد سمعت كثيراً ولم يعجبني سوى
ثلاثة أبيات أنشدن ثلاث بنات.
فقال له: حدثني حديثهن.

فقال: اعلم إذا أمير المؤمنين، أني توجهت سنة إلى البصرة فاشتد علي الحر
فطلبت مقيلاً أقيلاً فيه فلم أجد، فبينما أنا أتلفت يميناً وشمالاً، إذا أنا بساباط
مكنوس مرشوش، وفيه دكة من خشب، وعليها شباك مفتوح تفوح منه
رائحة المسك، فدخلت الساباط وجلست على الدكة وأردت الاضطجاع،
فسمعت كلاماً عذبا من فم جارية حسناء، وهي تقول: يا أختي! إنا جلسنا

يومنا هذا على وجه الصبوح، تعالين نطرح ثلاثمائة دينار وكل منا تقول بيتاً من الشعر، فكل من قالت البيت الأعذب الأملح كانت الثلاثمائة دينار لها، فقلن: حباً وكرامة، فقالت الكبرى:

عجبت له أن زار في النوم مضجعي ... ولو زارني مستيقظاً كان أعجبا
فقالت الوسطى:

وما زارني في النوم إلا خياله ... فقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحباً
فقالت الصغرى:

بنفسي وأهلي من أرى كل ليلة ... ضجيعي ورياه من المسك أطيبا
فقلت: إن كان لهذا المقال جمالاً، فقد تم الأمر على كل حال. فنزلت عن الدكة وأردت الانصراف، وإذا بالباب قد فتح وخرجت منه جارية، وهي تقول:
اجلس يا شيخ، فطلعت على الدكة ثانياً وجلست، فدفعت إلي ورقة فنظرت خطأ في نهاية الحسن مستقيم الألفات مجوف ألهاآت مدور الواوات مضمونه: نعلم الشيخ، أطال الله بقاءه، أننا ثلاث بنات أخوات جلسنا على وجه الصبوح وطرحنا ثلاثمائة دينار، وشرطنا أن كل من قالت البيت الأعذب الأملح كان لها الثلاثمائة دينار، وقد جعلناك الحكم في ذلك، فاحكم بما تراه والسلام.

فقلت للجارية: علي بدواة وقرطاس.

فغابت قليلاً وخرجت إلي بدواة مفضضة وأقلام مذهبة، فأنشأ أقول:
أحدث عن خود تحدثن مرة ... حديث امرئ ساس الأمور وجربا
ثلاث كبكرات الصحاري جحافل ... حللن بقلب للمشوق معذبا
خلون وقد نامت عيون كثيرة ... من الراقدين المشتتهين التغيبا
فبحن بما يخفين من داخل الحشا ... نعم، واتخذن الشعر لهواً وملعبا
فقالت عروب ذات عز غريرة ... وتبسم عن عذب المقالة أنسبا
عجبت له أن زار في النوم مضجعي ... ولو زارني مستيقظاً كان أعجبا
فلما انقضى ما زخرفت وتضاحكت ... تنفست الوسطى، وقالت تطربا
وما زارني في النوم إلا خياله ... فقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحباً
وأحسننت الصغرى، وقالت مجيبة ... بلفظ لها قد كان أشهى وأعذبا
بنفسي وأهلي من رأى كل ليلة ... ضجيعي، ورياه من المسك أطيبا
فلما تدبرت الذي قلن وانبرى ... لي الحكم لم أترك لذي اللب معتبا
حكمت لصغراهن في الشعر أنني ... رأيت الذي قالت جميلاً وأصوباً

قال الأصمعي: ثم دفعت الرقعة إلى الجارية، فلما صعدت إلى القصر، فإذا برقص وتصفيق ودنيا دانية وقيامه قائمة، فقلت: ما بقي لي إقامة، فنزلت عن الدكة وأردت الانصراف، وإذا بالجارية تنادي وتقول: اجلس يا أصمعي. فقلت: ومن أعلمك أنني الأصمعي؟ فقالت: يا شيخ إن خفي علينا اسمك فما خفي علينا نظمك.

فجلست، وإذا بالبواب قد فتح وخرجت منه الجارية الأولى وعلى يدها طبق من فاكهة وطبق من حلوى، فتفكهت وتحليت وشكرت صنعها، وأردت الانصراف، وإذا بالجارية تنادي وتقول: اجلس يا أصمعي، فرفعت بصري إليها فنظرت كفاً أحمر في كم أصفر فخلته البدر يشرف من تحت الغمام، ورمت لي صرة فيها ثلاثمائة دينار، وقالت: هذا صار لي وهو مني لك هبة في نظير حكومتك.

فقال لي أمير المؤمنين: لأي شيء حكمت للصغرى ولم تحكم للكبرى ولا للوسطى؟

فقلت: يا أمير المؤمنين إن بيت الكبرى قالت:

عجبت له أن زار في النوم مضجعي

وهو محمول معلق على شرط قد يقع ولا يقع، وأما الوسطى، فمر بها طيف خيال في النوم فسلمت عليه، وبيت الصغرى ذكرت أنها ضاجعته مضاجعة حقيقية وشمّت منه أنفاساً أطيب من المسك وفدته بنفسها وأهلها ولا يفدى بالنفس إلا من هو أعز من النفس.

فقال الخليفة: أحسنت يا أصمعي.

ثم دفع إلي ثلاثمائة دينار فأخذتها وانصرفت فكنيت أقول لله درك من شعر أخذت في حكومتي منه ثلاثمائة دينار، وفي حكايته مثلها، والله أعلم. (477)

إبراهيم الموصلي وإبليس

وعن أبي إسماعيل إبراهيم الموصلي قال: استأذنت الرشيد أن يهب لي يوماً من الأيام للانفراد بجواري وإخواني، فأذن لي في يوم السبت، فأتيت منزلي وأخذت في إصلاح طعامي وشرابي وما احتجت إليه وأمرت البوابين بإغلاق الأبواب وأن لا يأذنوا لأحد بالدخول علي.

فبينما أنا في مجلسي والحريم قد حففن بي، وإذا بشيخ ذي هيبة وجمال وعليه جبتان قصيرتان وقميص ناعم وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة بفضة وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار والرواق، فداخني

غيظ عظيم لدخوله علي وهممت بطرد البوابين فسلم علي أحسن سلام،
فرددت عليه وأمرته بالجلوس، فجلس وأخذ يحدثني بأحاديث العرب
وأشعارها حتى ذهب ما بي من الغضب وظننت أن غلماني تحروا مسرتي
لإدخال مثله علي لأدبه وظرفه، فقلت: هل لك في الطعام؟ قال: لا حاجة لي
فيه.

قلت: فالشراب؟ قال: ذلك إليك.

فشربت رطلاً وسقيته مثله، ثم قال: يا أبا إسحاق، هل لك أن تغنينا شيئاً
فنسمع من صنعتك ما قد فقت به العام والخاص.

فغاطني قوله، ثم سهلت الأمر علي نفسي، فأخذت العود وضربت وغنيت،
فقال: أحسنت يا إبراهيم، فازددت غيظاً فقلت: ما رضي بما فعله في دخوله
بغير إذني واقتراحه علي حتى سماني باسمي ولم يجمل مخاطبتي.

ثم قال: هل تزيد نكافئك؟ فترنمت وأخذت العود وغنيت وتحفظت فيما غنيته،
قمت به قياماً تاماً لقوله: ونكافئك. فطرب وقال: أحسنت يا سيدي، ثم قال لي:
أتأذن لي في الغناء؟ فقلت: شأنك، واستضعفت عقله في أن يغني بحضرتي
بعد الذي سمعه مني. فأخذ العود وجسه فوالله خلت أن العود ينطق بلسان
عربي واندفع يغني هذه الأبيات:

ولي كبدٌ مقروحةٌ من يبيغني ... بها كبداً ليست بذات قروح
أباها على الناس لا يشترونها ... ومن يشتري ذا علة بصحيح
أئن من الشوق الذي في جوانحي ... أنين غصيص بالشراب طريح
قال إبراهيم: فوالله لقد ظننت أن الأبواب والحيطان وكل ما في البيت تجيبه
وتغني معه، وبقيت مبهوراً لا أستطيع الكلام والحركة لما خالط قلبي، ثم اندفع
يغني، فقال:

ألا يا حمامات اللوى عدن عودةً ... فإني إلى أصواتكن حزين
فعدن ولما عدن كدن يمتنني ... وكدت بأسراري لهن أبين
دعون بترداد الهدير كأنما ... شربن الحميا أو بهن جنون
فلم تر عيني مثلهن حمائماً ... بكين ولم تدمع لهن عيون
قال: ثم سكت قليلاً وغنى هذه الأبيات:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... فقد زادني مسراك وجداً على وجدي
إن هتفت ورقاء في رونق الضحى ... على فنن من غصن بان ومن رند
بكيك كما يبكي الوليد صبايةً ... وأبديت من شكواي ما لم تكن تبدي
وقد زعموا أن المحب إذا دنا ... تمل وأن البعد يشفي من الوجد

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع ... إذا كان من تهواه ليس بذي ود
ثم قال: يا إبراهيم هذا الغناء الماخوري خذه وانح نحوه في غنائك وعلمه
جواريك.

فقلت: أعده علي؟ فقال: لست تحتاج إلى إعادة فقد أخذته وفرغت منه.
ثم غاب من بين يدي فارتعبت منه وقمت إلى السيف وجردته ثم غدوت نحو
أبواب الحريم فوجدتها مغلقة، فقلت للجواري: أي شيء سمعن؟ فقلن:
سمعنا غناء أطيب شيء وأحسنه.

فخرجت متحيراً إلى باب الدار فوجدته مغلقاً فسألت البوابين عن الشيخ
فقالوا: أي شيخ، فوالله ما دخل إليك اليوم أحد.
فرجعت أتأمل أمره، فإذا هو قد هتف بي من جوانب البيت، وقال: لا بأس
عليك يا أبا إسحاق، فإنما هو أبو مرة قد كنت نديمك اليوم، فلا تفزع.
فركبت إلى الرشيد فأخبرته الخبر، فقال: أعد الأصوات التي أخذتها، فأخذت
العود وضربت، فإذا هي راسخة في صدري، فطرب الرشيد عليها وجعل
يشرب، ولم يكن له همة على الشراب، وقال: كأن الشيخ علم أنك قد أخذت
الأصوات وفرغت منها فليته متعنا بنفسه يوماً واحداً كما متعك، ثم أمر لي
بصلة فأخذتها وانصرفت، انتهى. (478)

الرشيد وإسماعيل بن صالح

وقال الرشيد يوماً للفضل بن يحيى، وهو بالرقعة: قد قدم إسماعيل ابن صالح
بن علي، وهو صديقك، وأريد أن أراه؟ فقال: إن أخاه عبد الملك في حبسك
وقد نهاه أن يجيئك.

قال الرشيد: فإني أتعلل حتى يجيئني عائداً؟ فتعلل، فقال الفضل لإسماعيل: ألا
تعود أمير المؤمنين؟ قال: بلى.

فجاءه عائداً فأجلسه، ثم دعا بالغداء، فأكل وأكل إسماعيل بين يديه، فقال له
الرشيد: كأي قد نشطت برويتك إلى شرب قدح، فشرب وسقاه، ثم أمر
فأخرج جوار يغنين وضربت ستارة وأمر بسقيه، فلما شرب أخذ الرشيد العود
من يد جارية ووضعه في حجر إسماعيل وجعل في عنقه سبحة، وفيها عشرة
حبات من در شراؤها بثلاثين ألف دينار، وقال: عن يا إسماعيل، وكفر عن
يمينك بثمان هذه السبحة، فاندفع يغني شعر الوليد بن يزيد في غالية أخت
عمر بن عبد العزيز، وكانت تحته، وهي التي ينسب إليها سوق الغالية، فقال:

فأقسم ما أدنيت كفي لريبة ... ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي
وأعلم أنني لم تصبني مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى مثلي
فسمع الرشيد أحسن غناء من أحسن صوت. فقال: الرمح يا غلام.
فجيء بالرمح، فعقد له لواء على إمارة مصر.
قال إسماعيل: فوليتها سنتين فأوسعتها عدلاً. وانصرفت بخمسائة ألف
دينار، وبلغ أخاه عبد الملك ولايته، فقال: غني والله الخبيث لهم، ليس هو
بصالح، (479).

أعرابي يزاحم الرشيد

يروى أنه لما دخل هارون الرشيد إلى مكة، شرفها الله تعالى، وابتدأ بالطواف
ومنع الخاص والعام من ذلك لينفرد بالطواف. فسبقه أعرابي، فشق ذلك على
الرشيد فالتفت إلى حاجبه منكرأ عليه، فقال الحاجب للأعرابي: تخل عن
الطواف حتى يطوف أمير المؤمنين.

فقال الأعرابي: إن الله قد ساوى بين الإمام والرعية في هذا المقام، فقال عز
وجل: " سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم ندقه من عذاب
اليم " .

فلما سمع الرشيد من الأعرابي ذلك راعه أمره فأمر حاجبه بالكف عنه، ثم
جاء الرشيد إلى الحجر الأسود ليستلمه فسبقه الأعرابي فاستلمه، ثم أتى
الرشيد إلى المقام للمصلي فسبقه الأعرابي فصلى فيه، فلما فرغ الرشيد من
صلاته قال: لحاجبه: انتني بهذا الأعرابي، فأتاه الحاجب فقال: أجب أمير
المؤمنين.

فقال: ما لي إليه من حاجة إن كان له حاجة فهو أحق بالقيام إلي والسعي.
فقام الرشيد حتى وقف بإزاء الأعرابي وسلم عليه، فرد عليه السلام، فقال له
الرشيد: يا أبا العرب اجلس هنا بأمرك.

فقال الأعرابي: ليس البيت بيتي ولا الحرم حرمي وكلنا فيه سواء.
فإن شئت تجلس، وإن شئت تنصرف.

قال الراوي: فعظم ذلك على الرشيد وسمع ما لم يكن في ذهنه، وما ظن أنه
يواجهه أحد بمثل هذا الكلام. فجلس الرشيد وقال: يا أعرابي، أريد أن أسألك
عن فرضك، فإن أنت قمت به فأنت بغيره أقوم، وإن أنت عجزت عنه فأنت
عن غيره أعجز.

فقال الأعرابي: سؤالك هذا سؤال تعلم أم سؤال تعنت؟ فتعجب الرشيد من سرعة جوابه وقال: بل سؤال تعلم.

فقال له الأعرابي: قم فاجلس مقام السائل من المسؤول.
قال: فقام الرشيد وجثا على ركبتيه بين يدي الأعرابي، فقال: قد جلست فاسأل عما بدا لك.

فقال له: أخبرني عما افترض الله عليك؟ فقال له: تسألني عن أي فرض عن فرض واحد، أم عن خمسة، أن عن سبعة عشر، أم عن أربعة وثلاثين، أم عن خمسة وثمانين، أم عن واحدة في طول العمر، أم عن واحدة في أربعين، أم عن خمسة من مائتين.

قال: فضحك الرشيد حتى استلقى على قفاه استهزاء به، ثم قال: له: سألتك عن فرضك فأتيتني بحساب الدهر؟ قال: يا هارون لولا أن الدين بالحساب لما أخذ الله الخلائق بالحساب يوم القيامة، فقال تعالى: " ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين " .

قال: فظهر الغضب في وجه الرشيد واحمرت عيناه حين قال: يا هارون، ولم يقل له: يا أمير المؤمنين، وبلغ مبلغاً شديداً غير أن الله تعالى عصمه منه وحال بينه وبينه لما علم أنه هو الذي أنطق الأعرابي بذلك، فقال له الرشيد: يا أعرابي، إن فسرت ما قلت نجوت وإلا أمرت بضرب عنقك بين الصفا والمروة.

فقال له الحاجب: يا أمير المؤمنين اعف عنه وهبه لله تعالى ولهذا المقام الشريف؟ قال: فضحك الأعرابي من قولهما حتى استلقى على قفاه، فقال: مم تضحك؟ قال: عجباً منكما إذ لا أدري أيكما أجهل الذي يستوهب أجلاً قد حضر أم من يستعجل أجلاً لم يحضر؟

قال: هال الرشيد ما سمعه منه وهانت نفسه عليه، ثم قال: الأعرابي: أما سؤالك عما افترض الله علي، فقد افترض علي فرائض كثيرة، فقول لي لك عن فرض واحد: فهو دين الإسلام، وأما قول لي لك عن خمسة: فهي الصلوات؛ وأما قول لي لك عن سبعة عشرة: فهي سبعة عشرة ركعة؛ وأما قول لي لك عن أربعة وثلاثين: فهي السجادات؛ وما قول لي لك عن خمسة وثمانين: فهي التكبيرات؛ وأما قول لي لك عن واحدة في طول العمر: فهي حجة الإسلام واحدة في طول العمر كله، وأما قول لي لك واحدة في أربعين: فهي زكاة الشياه، شاة من أربعين، وأما قول لي لك خمس من مائتين: فهي زكاة الورق.

قال: فامتلاً الرشيد فرحاً وسروراً من تفسير هذه المسائل، ومن حسن كلام الأعرابي وعظم الأعرابي في عينه وتبدل بغضه محبة، ثم قال: الأعرابي: سألتني فأجبتك وأنا أريد أن أسألك فأجبنى.
قال: قل.

فقال الأعرابي: ما تقول في رجل نظر إلى امرأة في وقت صلاة الفجر فكانت عليه محرمة، فلما كان وقت الظهر حلت له، فلما كان في وقت العصر حرمت عليه، فلما كان وقت المغرب حلت له، فلما كان وقت العشاء حرمت عليه، فلما كان وقت الصبح حلت له، فلما كان وقت الظهر حرمت عليه، فلا كان وقت العصر حلت له، فلما كان وقت المغرب حرمت عليه، فلما كان وقت العشاء حلت له.

فقال: والله يا أبا العرب لقد أوقعنتي في بحر لا يخلصني منه غيرك.
فقال له: أنت خليفة ليس فوقك شيء ولا ينبغي أن تعجز عن مسألة فكيف عجزت عن مسألتني وأنا رجل بدوي لا قدرة لي؟ فقال الرشيد: قد عظم قدرك العلم ورفع ذكرك فأشتهي إكراماً لي، ولهذا المقام تفسير ذلك.
فقال: حباً وكرامة ولكن على شرط أن تجبر الكسير وترحم الفقير ولا تزدرى الحقير.

فقال: حباً وكرامة، ثم قال: إن قولي لك عن رجل نظر إلى امرأة في وقت صلاة الفجر فكانت عليه حراماً فهو رجل نظر إلى أمة غيره وقت الفجر فهي حرام عليه، فلما كان وقت الظهر اشتراها فحلت له، فلما كان وقت العصر أعتقها، فحرمت عليه، فلما كان وقت المغرب تزوجها فحلت له، فلما كان وقت العشاء طلقها فحرمت عليه، فلما كان وقت الفجر رجعها فحلت له، فلما كان وقت الظهر ظاهر منها فحرمت عليه، فلما كان وقت العصر أعتق عنها، فحلت له، فلما كان وقت المغرب ارتد عن الإسلام فحرمت عليه. فلما كان وقت العشاء تاب ورجع إلى الإسلام فحلت له.

قال: فاغتبط الرشيد وفرح به واشتد إعجابه، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم، فلما حضرت قال: لا حاجة لي بها ردها إلى أصحابها.

فقال له: أريد أن أجري لك جارية تكفيك مدة حياتك؟ قال: الذي أجرى عليك يجري علي.

قال: فإن كان عليك دين قضيناه عنك؟ قال: لا، ولم يقبل منه شيئاً، ثم أنشد يقول:

هب الدنيا توافينا سنينا ... فتكدر ساعة وتلد حيناً

فما أبغي لشيء ليس يبقى ... وأتركه غداً للوارثينا
 كأني بالتراب علي يحثي ... وبالإخوان حولي ناديينا
 ويوم تفر النيران فيه ... وتقسم جهرةً للسامعينا
 وعزة خالقي وجلال ربي ... لأنتقم منهم أجمعينا
 وقد شاب الصغير بغير ذنب ... فكيف يكون حال المجرمين
 فلما فرغ من إنشاده تأوه الرشيد وسأله عن أهله وبلاده، فأخبره أنه موسى
 الرضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين بن علي بن أبي طالب
 رضي الله عنهم أجمعين، وكان يتزيا بزي أعرابي زهداً في الدنيا وتباعداً
 عنها، فقام إليه الرشيد وقبل ما بين عينيه، ثم قرأ " الله أعلم حيث يجعل
 رسالته " ، وانصرف رحمة الله عليهم أجمعين⁽⁴⁸⁰⁾.

شاهك فما معنا في البيت أحد

عن صالح بن حسان قال: كان عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن
 أبي طالب صديقاً للوليد يأتيه ويؤانسه، فجلسا يوماً يلعبان بالشطرنج إذ أتى
 الأذن فقال: أصلح الله الأمير، رجلٌ من أخوالك من أشراف ثقيف قدم غازياً
 وأحب السلام عليك، فقال: دعه، فقال عبد الله: وما عليك إذن له، فقال: نحن
 على لعبتنا وقد أجمعت عليك. قال: فادع بمنديل فضع عليها ويسلم الرجل
 ونعود، ففعل، ثم قال: إذن له، فدخل مشمراً له هيبة، بين عينيه أثر السجود،
 وهو معتم قد رجّل لحيته، فسلم ثم قال: أصلح الله الأمير قدمت غازياً وكرهت
 أن أجوزك حتى أقضي حقك، قال: حيّاك الله وبارك عليك، ثم سكت عنه. فلما
 أنس أقبل عليه الوليد فقال: يا خال هل جمعت القرآن؟ قال: لا كانت تشغلنا
 عنه شواغل. قال: حفظت من سنة رسول الله ﷺ ومغازيه وأشعارها؟ قال: لا.
 قال: فأحاديث أهل الحجاز ومضاحكها؟ قال: لا. قال: فأحاديث العجم وآدابها؟
 قال: إن ذلك شيءٌ ما كنت أطلبه. فرفع الوليد المنديل وقال: شاهك. قال عبد
 الله بن معاوية: سبحان الله، قال: لا والله ما معنا في البيت أحد. فلما رأى ذلك
 الرجل خرج فأقبلوا على لعبهم.

الحسب بلا أدب

قال القاضي: ما أعجب كلام الوليد هذا والطفه وأحسنه وأظرفه. وشبيه هذا
 ما روي أن رجلاً خاطب معاوية فأكثر اللغو في كلامه فضجر معاوية
 وأعرض عنه، فقال: أأسكت يا أمير المؤمنين؟ فقال: وهل تكلمت؟ ولعمري
 إن ذا الجهل والغباوة إلى منزلة من النقص وسقوط القدر وبمعزل من الطبقة

التي تستحقّ التهيب والأعظام والتبجيل والأكرام، وإن اتفق لهم بالجد وطائر السعد أعظام كثير من الناس لهم واغترار طائفة من الأغنياء بهم. وقد ذكر أن بزرجمهر سئل: ما نعمة لا يحسد صاحبها عليها؟ قال: التواضع، قيل: فما بلية لا يرحم صاحبها؟ قال: الكبر، قيل: فما الذي إذا انفرد لم يساو شيئاً؟ قال: الحسب بلا أدب. وفي استقصاء القول في هذا الباب طول لا يحتمله هذا الموضع.

حلم سلمى بن نوفل

كان سلمى بن نوفل الديلي سيداً في كنانة، فوثب رجل من أهله على ابنه فجاء به إليه، فقال له: ما أمّنك مني وأجراك عليّ؟ أما خشيت عقابي؟ قال: لا، قال: ولم؟ قال: لأنّا سوّدناك لكظم الغيظ والحلم عن الجاهل، فخلّى سبيله.

ولّ البكاء أهله - مصرع أبناء الحارث الباهلي

كان الحارث بن حبيب الباهلي كثير البنين فنحى بنيه عن قومه يخشى معرتهم عليهم، فغاب الحارث بن حبيب وشوى بنوه شاة لهم فأخرجت وغطوها فأكلوا منها فماتوا وهم ثمانية، فجاء فرأهم موتى حول الشاة، فأكل منها وأكثر ليموت فلم يمت، فركب ناقّة له يريد قومه ليعينوه على دفنهم، فمرّ وهو راكب برجل جالس يبكي، وهو رجل من بني قشير، فقال: ما لك؟ قال: كانت لي شاة فأكلها الذئب فنزل عن راحلته فقال: هذه لك بدل شاتك وولّ البكاء أهله، ثم قال:

يا أيّها الباكي على شاته ... يبكي جهاراً غير إسرار
إنّ الرزيّات وأشباهاها ... ما غادر الحارث في الدار
والحارث الذي يقول:

المرء يأمل أن يعيش وطول عيشٍ قد يضرّه
تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مرّه
وتسوّه الأيام حتى لا يرى شيئاً يسرّه
كم شامتٍ لي إن هلكت وقائلٍ لله درّه (481)

الحطيئة يعجب بابن عباس

عن محمد بن حفص قال، وحدثنا محمد بن زكريا قال وحدثنا ابن عائشة عن أبيه قال: نظر الحطيئة إلى ابن عباس في مجلس عمر وقد فرغ من كلامه، فقال: من الذي قد نزل عن القوم في سنّه وعلاهم في قوله؟ قالوا: هذا ابن عباس، هذا ابن عمّ رسول الله ﷺ، فأنشأ يقول:

إنّي وجدت بيان المرء نافلةً ... تهدي له ووجدت العي كالصمم
المرء يبلى ويبقى الكلم سائره ... وقد يلام الفتى يوماً ولم يلم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله ، غير مَكْفِيٍّ ولا مكفور ولا مودَّع ولا مستغني عنه ربُّنا، ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته ، وأن يوفِّقنا لأداء حَقِّه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله ، وأن يجعل ما قصدنا له في هذا الكتاب وفي جميع أقوالنا وأفعالنا خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده . فيا أيها القاريءُ له ، لك غُنْمُه وعلى مؤلفه غُرْمُه ، لك ثمرته وعليه تبعته ، فما وجدت فيه من صوابٍ وحقٍ فاقبله ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال وقد ذمَّ الله تعالى من يردَّ الحقَّ إذا جاء به من يبغضه، ويقبله إذا قاله من يحبه فهذا خُلُقُ الأمة الغضبية أي: اليهود. فقد قال ابن القيم رحمه الله: " : اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً ، وردَّ الباطل على من قاله وإن كان حبيباً .

وقرر أنه لا يردُّ كل قول من أخطأ جملة، بل لا بد من تمييز الحق من الباطل، فقال: "فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات".

وقال أيضاً: " .. فإن كل طائفة معها حق وباطل، فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق، ورد ما قالوه من الباطل، ومن فتح الله له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب، ويسر عليه من الأسباب" (482).

فإذا مر بك -يا أخي- ما لا يعجبك فلا تصعِّر خدك، ولا تعرض بوجهك، ولا تسئل لسانك، ولا تجلب بخيلك ورَجْلَكَ، وخذ من الكتاب ما يعجبك واتهم الفهم.

فَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

ولا يصدنك عن الحكمة قائلها؛ فقد يقول الحكمة غير الحكيم، وتكون الرمية من غير الرامي، وربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه.

اعْمَلْ بِعِلْمِي وَغُضِّ الطَّرْفَ عَنْ زَلَّيْ يَنْفَعَكَ قَوْلِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي

وما وجد القارئ فيه من خطأ فإن قائله لم يأل جهد الإصابة ، ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال ، كما قيل :

وَالنَّقْصُ فِي أَصْلِ الطَّبِيعَةِ كَامِنٌ ... فَبَنُوا الطَّبِيعَةَ نَقْصُهُمْ لَا يُجَحِّدُ

وكيف يُعَصِّمُ من الخطأ من خُلِقَ ظلوماً جهولاً ، ولكن من عُدَّتْ غلطاته أقرب إلى الصوابِ ممن عُدَّتْ إصاباته ، وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق ، وغايته النصيحة لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولإخوانه المسلمين ، وإن جعلَ الحقَّ تبعاً للهوى : فَسَدَ القلبُ والعملُ والحالُ والطريقُ ... والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمدٍ وعلى آله أجمعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت